الألف كتاب (الثانى) ٦٦

سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى

تأليف : جوزيف داهموس
ترجمة : د. محمد فتحى الشاعر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

سبعة مؤرخين
في العصور الوسطى

الألف كتاب الثانى

سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

تأليف

جوزيف داهموس

ترجمة

د. محمد فتحي الشاعر

كلية الآداب ـ جامعة المنوفية

مقدمة

جرت العادة على تحديد العصور الوسطى من تدهور روما حتى سنة ١٥٠٠ م ، وتشمل حضارات أوربا الغربية ، والاسلام ، والامبراطورية البيزنطية • ان مؤلفات العلماء السبعة الذين تقدم دراسة عنهم فى هذا الكتاب تمثل نموذجا لأفضل الكتابة التاريخية التى صدرت في تلك المجالات • وتساعد كتاباتهم على حفظ ذكرى الحوادث التاريخية التي تمت ، والشعوب التى عاشت ، ابان حوالى ألف سنة منذ القرن السادس الى القرن الخامس عشر الميلادى •

ويتصدر بروكوبيوس Procopius ، المؤرخ الأول للامبراطورية البيزنطية ، القائمة بالنسبة الى عصره وأسهم الاسلام بمؤرخين عن هذه الدراسة : الطبرى ، وهو أول المؤرخين للتاريخ الاسلامي فى الأهمية وأكثرهم تمثيلا له ، وكذلك ابن خلدون أشهر المؤرخين فى التاريخ الاسلامى بكل الحسابات • ثم يأتى دور المؤرخين الأربعة لأوربا الغربية ، بيده المبجل Venerable Bede •• ، وأوتو الفريزنجى Otto of Freising ومتى باريس Matthew Paris ، وفرواسار Froissart الذين عاشوا فى قلب العصور الوسطى بدءا من بيده فى القرن الثامن الى فرواسار فى القرن الخامس عشر •

وتتضمن هذه الدراسة كتابات هؤلاء المؤرخين السبعة ، ووصفا موجزا عن سيرة كل عالم منهم ، وبحثا مفصلا عن مكانته فى عالم العصور الوسطى على عهده • ثم يلى ذلك تحليل لمؤهلات كل كاتب باعتباره مؤرخا • وورد ذكر مقتطفات كثيرة من أعمال كل كاتب لالقاء الضوء على

اسلوبه في الكتابة ، ولاضافة الصفة الغالبة على شخصيته ، وهو ما يتضح بشكل أفضل فى الوثائق التاريخية ٠

ونظرا لأن توالى القرون والأزمنة دفع المؤرخين الى الاهتمام بها ، فان الحاجة حتمت التركيز على الانجاز الثقافى لكل عصر فى شكل أو قالب واحد حتى يسهل ادراكه ٠ ولم تكن هناك فرصة سوى للنزعات ، وللتقييم العام اذا ما كان عصر قائم بذاته قد ساهم فى الفن ، والفكر والعلوم ، وتطور نمو أنماط السلوك الاجتماعى ولم تخصص فترة محددة للفرد ، أو لحدث تاريخى له خصائص نادرة يمكن أن تكون قد غيرت مجرى التاريخ ، أو عن أى مفكر فاق عصره ٠ وهذا أمر يؤسف له ٠ ان التاريخ يبحث فى الرجال والنساء الذين فكروا ، وتصرفوا كأفراد ، والذين أفرزت أفكارهم وأعمالهم ثقافة العصر الذى عاشوه ، باثراء وتنوع للحد الذى تخفق معه محاولات عرضها بطريقة مبسطة ٠

وهذا صحيح أيضا بالنسبة للمؤرخين فى العصور الوسطى ٠ فعلى الرغم من أنهم عاشوا فى نفس الفترة وتعرضوا للتهديد ، ووفقا لذلك ــ لخطر الوقوع فى التماثل المتكرر ــ فانهم لم يكونوا كتابا للتاريخ يصعب تحديد هويتهم ٠ وظلوا شخصيات قائمة بذاتها ، اذ عبرت كتاباتهم عن شخصيات مختلفة ، وعن فلسفات للحياة الى حد ما ٠ لقد كان بروكوبيوس مؤرخا من نوع يختلف عن بيده ، ويبدو من أول وهلة أن متى باريس ، وفرواسار عاش كل منهما حياة مختلفة عن الآخر اختلافا بعيدا ، وربما مثل الخلاف فى الحياة الذى باعد بين الطبرى وأوتو الفريزنجى ٠ ومن ناحيه أخرى كان كل من بروكوبيوس الذى عاش فى القرن السادس الميلادى ، وابن خلدون الذى مات فى القرن الخامس الميلادى هما اللذان انتهجا الطريقة الحديثة وغير الدينية عند تدوينهما وتحليلهما للحوادث التاريخية ، ولم يكن هناك فاصل زمنى يقارب الألف عام فحسب ، وانما بيئتاهما الثقافية لم يوجد بهما ما هو متشابه الا القليل أيضا ٠

ومع ذلك ، فمازال كل من بروكوبيوس وابن خلدون لانظير لهما ٠ فالكثير من كتاباتهما تقريبا ليست متعلقة بالقرون الوسطى بشكل دقيق ٠ ولا يمكن أن يقال نفس الكلام عن المؤرخين الخمسة على وجة السرعة ٠ اذ انتهى حديث فرواسار عن الفروسية الى حد كبير بنهاية العصور الوسطى ، بالرغم من أن السير ولتر سكوت Sir Walter Scott وجد جمهورا من القراء المتلهفين على قراءة القصص الخيالية الرومانسية التى كتبها عن عصر الفروسية ، وكان هناك من يؤمنون بفلسفة فريزنج عن الحياة المتعلقة بعالم غير العالم الواقعى ، عاشوا بعد انتهاء العصور الوسطى بوقت طويل ، بيد أنهم ظلوا فى أديرتهم أو كتبوا

لجماعة قليلة التزمت بطريقة العصور الوسطى عند كتابة التاريخ . أما عن الطريقة الحولية التى سار عليها الطبرى ، فانها لم تعد شائعة قبل نهاية العصور الوسطى بزمن طويل ، ويمكن أن يقال نفس الشيء بالنسبة للتفسير الدينى للحوادث التاريخية الذى سار عليه المؤرخ بيده بتحمس شديد . على أن الشيء الذى يربط متى باريس بالعصور الوسطى هو حرصه على الحفاظ على استقلال الكنيسة الانجليزية ، والطبقة الأرستقراطية ضد تدخلات البابوية والتاج ، وهو صراع ينتمى الى العصور الوسطى بكل وضوح على مثال الأنماط الاجتماعية مثل المواطن من سكان المدينة والقن .

وعلى الرغم من أن شخصيات هؤلاء الكتاب كانت متميزة ، فانهم كانوا يحملون جميعا طابع العصور الوسطى . وكان ايمانهم بالعناية الالهية ، من بين الخصائص التى ميزتهم كعلماء متخصصين فى تاريخ العصور الوسطى وحضارتها . ويؤمن العلماء السبعة بأن الله الواحد الأحد فوق كل البشر ، وكل القوى ولا تخفى عليه خافية . وكان هناك آناس فى العصور القديمة ، بل حتى مؤرخين فى القرون الحديثة سلموا بتدخل القوى الخارقة للطبيعة فى شئون البشر ، بيد أنهم لم يكونوا على الاطلاق على النمط اليقينى والشامل كما فعل انسان العصور الوسطى . لقد آمن المؤرخون السبعة باله واحد وعبدوه . وعلى الأرجح فانهم سمحوا للايمان أن يؤثر فى سلوكهم ، ويصبغ تفكيرهم بالصبغة الدينية ، وأن يوجههم فى تحليلهم للحوادث التاريخية .

ان تأثير هذا الايمان بالله العلى القدير والعالم بكل شيء ، ظهر بوضوح أكثر عند المؤرخ بيده البندكتى (*) .

وعند أوتو الفريزنجى السيسترشينى Cistercian (**) . بل ان بروكوبيوس أقر بقدرة العناية الالهية ، وكذلك فعل ابن خلدون ، ان الله هو الذى جنب هونوريوس Honorius غير المقتدر ، المعاناة من العواقب الوخيمة لسياسته الرعناء ، ووفقا لما ذكره بروكوبيوس : « ان الله يدافع عن الضعفاء ، ويأخذ بأيديهم ، اذا ما كانوا غير أشرار » (١) .

وعلق ابن خلدون على القرار المصرى الذى نفذه السلطان أبو سعيد ، والسلطان أبو ثابت Abu Tsabit لمهاجمة ملك المغرب قائلا : « اذا كانت

(*) البندكتى نسبة الى القديس بندكت (٤٨٠ – ٥٥٢م) ونظامه الديرى – المترجم .

(**) السيسترشينى نسبة الى العضوية فى نظام الرهبان الذى ظهر فى غابة (Citeaux Cieterelum) فرنسا سنة ١٠٩٨م – المترجم .

هذه هي ارادة الله ، ما كان في استطاعتهما رد القضاء ، وان الأيام تكشف بوضوح كل شيء قدره الله لعباده » (٢) ٠

ان فرواسار ، الذي سنحت له الفرصة لفترة قصيرة فحسب ليلحظ أعمال القتال والشجاعة ، أدرك في مناسبات عديدة تدخل العناية الالهية في شئون البشر بكل وضوح ٠ فهناك مثل واضح للعقاب العاجل والرادع الذي أنزله الله بأحد الاقطاعيين الانجليز ، الذي اعتدى بالضرب على قسيس في مذبح الكنيسة ، ثم ولى هاربا على صهوة جواده بعد أن أخذ معه الأواني المقدسة ٠ ولم يكد يصل هذا الاقطاعي الى تل قريب من الكنيسة حتى بدأ فرسه يثب بطريقة غامضة جدا ، مما ترتب عليه سقوط هذا الرجل وجواده أرضا ، ودق عنق كل منهما ، وبعد ذلك « تحول كل منهما على الفور الى جمرات من النار والرماد » (*) (٣) ٠ ويبدو في مقدمة الطبري لتاريخه العالمي تشابه للتعليق المفسر لسفر التكوين ، في حين ان سمة الحزن التي وردت ، الى حد ما ، في العديد من كتابات متى باريس تظهر ايمان هذا المؤرخ للحوليات ـ بأن العصر السادس على وشك الانتهاء ، ويشير الى اقتراب الساعة ٠

ان الله والدين لهما الأهمية الأولى عند هؤلاء المؤرخين ٠ فمن بين المؤرخين السبعة ، أربعة من القساوسة أو الرهبان ـ بيده ، وأوتو الفريزنجي ، ومتى الباريسي وفرواسار ـ وكان الطبري عالما من علماء الدين له مكانة عالية ٠ وأما عن المؤرخين الآخرين فقد وعد بروكوبيوس باصدار كتاب عن الدين ، وهو الذي لم تتح له الفرصة لكتابته ، أما ابن خلدون فقد أصر على أن الدين ، ولا شيء غيره هو القادر على التصدي لقوى الانحلال المتأصلة في أي أمة ٠ ولقد سلم كل هؤلاء المؤرخين السبعة بوجود المعجزات باعتبارها الرمز المحسوس لقدرة العناية الالهية ٠

ان ايمان هؤلاء الكتاب السبعة بالله والعناية الالهية يفسر تأييدهم للفكرة التاريخية التي تؤمن بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به غاية معينة ٠ على أن المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس كان أقلهم صراحة في الأخذ بتلك الفكرة ، اذ أخذ على عاتقه محاكاة طريقة ثيوكيديد Thucydides الدنيوية ، وهو الوحيد الذي نال الاعجاب الأكبر لبروكوبيوس من بين المؤرخين القدامى ٠ ولولا وجود الاشارات المتكررة عن الله والشيطان في كتابه « التاريخ السري » ، وكتابه الآخر « المنشآت المعمارية الضخمة » ،

(*) لا يخفى على القارىء الكريم أن هذه الرواية لا يمكن أن يقبلها العقل أو المنطق ومن المهم القول ان المصادر التاريخية الأوربية في العصور الوسطى تزخر بالخرافات والخزعبلات والأساطير الكثيرة ـ المترجم ٠

لمال المرء الى اعتبار بروكوبيوس حالة شاذة بين كتاب العصور الوسطى ، ولقال أنه كان متشبثا بالدوران في فلك أسلافه الوثنيين وكمسيحى صادق الايمان ، لم يكن لدى بروكوبيوس من الخيار الا الاعتقاد بأن الله مدبر الأمر في السموات والأرض ٠

وينطبق نفس القول على فرواسار ، الذى ورد فى كتاباته القليل الذى يكشف على نحو لا يعتريه الشك ، عن أسلوبه المعبر عن الايمان بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة ٠ أما عن الكتاب الغربيين الثلاثة ، بيده وأوتو الفريزنجى ، ومتى الباريسى ، فلا شك في ايمانهم بأن الحوادث التاريخية تسير وفقا لارادة الله ٠ وكذلك كان حال الطبرى ، الذى وضح موقفه فى الجملة الأولى من تاريخه العالمى حيث أشار بوضوح الى أن الله خلق المخلوقات ، وهو الغنى عنهم جميعا ، وانما ليبلونهم أيهم أحسن عملا (٤) ٠

ان هؤلاء المؤرخين السبعة الذين آمنوا بعدالة الله ومحبته الأبوية ، اعتبروا أنه ليس أمرا مثيرا للدهشة أن يستخلصوا الدروس الأخلاقية ٠ وذهب متى الباريسى أبعد من أوتو ، وبيده ، فى رغبته فى الحكم على دوافع المسئولين عما قد حدث ٠ أما الطبرى فلم يكن لديه فرصة لاستخلاص الدروس الأخلاقية لأنه حصر عمله فى تدوين ما كتبه الآخرون ٠

وأما عن ابن خلدون فمن النادر أن مارس دور القاضى ، على الرغم من أن انتحار عدو السلطان أبو ثابت ، الذى خانه ، وألقى القبض عليه ، ثم ذبح نفسه بالسجن ، استرعى منه هذه الملاحظة ، « ان الشيطان هو الذى حرك يده » (٥) ٠ أما بروكوبيوس فقد ورد فى كتبه عن الحروب استخلاصا للدروس الأخلاقية أكثر مما أبداه المؤرخ الموضوعى ثيوكيديد Thucydides ٠ ومن النادر أن أعلن بروكوبيوس موافقته بكل قوة على أمر ما ، مثال ذلك المبرر الذى قدمه توتيلا Totila الى قواته عندما استفسروا عن الطريقة الوحشية التى عاقب بها أحد حرسه الخاص لاغتصابه فتاة رومانية ٠ وحذرهم توتيلا أن الله مع المحاربين الأطهار (٦) ٠ أما فرواسار ، فبصرف النظر عن ميله نحو تسليط الأضواء على النقائص ، ومواطن الضعف عند الاسكتلنديين والانجليز ، فانه امتنع عن استخلاص الدروس الأخلاقية ٠ اذ كتب فرواسار بهدف تسلية قرائه ، لا لكى يقدم الموعظة ، برغم أن ما قام به حنا لامب John Lambe من عمل مشين عندما طعن ايفان Evan البطل الويلزى Welsh فى ظهره ، كان عملا شجبه الجميع ٠

ان ميل المؤرخين فى العصور الوسطى تجاه استخلاص الدروس الأخلاقية أثار مشكلة الموضوعية ٠ فالى أى مدى استطاع المؤرخ الذى

التزم باستخلاص الدروس الأخلاقية كان صادقا ، وموضوعيا ، وغير متميز من الناحية العملية ؟ ان هؤلاء المؤرخين السبعة لم يسلموا بوجود أى مشكلة . اذ كانوا يعتقدون أن المسئولية الوحيدة الملقاة على عاتق المؤرخ هى العمل على ذكر الحقيقة ، وفيما يلى ما يؤكد هذه الآراء . اذ يذكر بروكوبيوس أن « الحقيقة دون غيرها مناسبة للتاريخ » . ثم أعلن بيده تأييده لهذا القول .

وفى خطاب أوتو الفريزنجى الى رينولد Rainold ، مستشار فريدريك الأول برباروسا ، اعترف بأن مزاولة المؤرخين للكتابة التى تسر رجال السلطة أمر له اغراء كبير ، بيد أنه صرح قائلا : « انه لمن الأفضل أن يحرم المؤرخ من حريته الشخصية عن أن يتخلى عن مهمة المؤرخ باخفائه المشاهد التاريخية الكريهة بتقديم الذرائع التى تخفى الحقيقة » . أما فرواسار فقد انفجر غضبا ، عندما اقترح عليه أحد الأفراد أن يحرف فى كتابة حولياته ارضاء لاحدى الشخصيات المهمة . أما الطبرى فلم ير فى مسئوليته سوى أن ينقل بكل أمانة وحرص ما كتبه من سبقوه. وعلى الرغم من مقدرة ابن خلدون على أن يكون مع الجانب الفائز ، فى كثير من المتغيرات السياسية التى واجهته ، فانه يستوقف القارىء كمؤرخ أمين ومدقق ، فى معالجته للماضى . أما عن أكثر المؤرخين ميلا الى استخلاص الدروس الأخلاقية .. فهو متى الباريسى ، فلدينا نصيحته الى الكتاب بضرورة الالتزام بالصدق ، حتى لو أغضب ذلك الآخرين ، « واذا ما دونوا مادة تاريخية غير صحيحة ، فلن ينعموا برضى الله عليهم » .

وبصفة عامة أصر المؤرخون السبعة على ابلاغ القارىء عن مصادرهم التى استقوا منها مادتهم التاريخية ، كأنهم يقدمون الدليل على ايمانهم بتصريحاتهم عن أنهم يكتبون بكل صدق . وكان بيده أكثرهم تفصيلا فى هذا المجال . ويقرر بروكوبيوس فى مقدمته ما كتبه « عن الحروب » أنه كان شاهد عيان لما كتبه ، وهو ما يعتبره دليلا كافيا على صحة ما كتب . أما الطبرى فقد اعتاد الاستشهاد بمصادره . وقام أوتو الفريزنجى بوضع قائمة لأعلام المؤرخين القدامى ، وللمؤرخين المعاصرين له ، الذين تبادل الرأى معهم . واعتاد متى الباريسى على الاشارة الى المصادر التى أمدته بالمعلومة التى تحت يديه وعلى سبيل المثال . خطاب من فريدريك الثانى Frederick II الى هنرى الثالث Henry III ، أو زائر قادم من سوريا ويتم كتابه « كتاب الاضافات Liber Additamentorum عن ادراكه العميق لقيمة الوثائق . ويبدو فى مناسبات عديدة أنه يرغب فى أن يبدد الشكوك عند القارىء بالتأكيد له ، انه استقى معلوماته عن أى حادثة معينة من كلا الجانبين ، وعلاوة

على ذلك وجوده فى انجلترا لمدة خمس سنوات بالاضافة الى معرفته الشخصية لملوك فرنسا ، كل ذلك مكنه من أن يكتب دراسة صادقة عن الحروب ، التى نشبت بين ملوك البلدين - على أن ابن خلدون هو الوحيد ، الذى أبدى اهتماما قليلا بذكر المصادر ، وهو الشيء الواضح بجلاء ، فى مقدمته ، لأنها قائمة على التحليل للشخصيات الى حد كبير . وفى تاريخه العالمى ، فان تناوله للتاريخ الغربى باستثناء أسبانيا ، يوحى اما بأنه لم تتوفر لديه من المصادر سوى القليل ، أو أنه لم يبذل جهودا كبيرة بغية الحصول على مصادر أفضل .

كان متى الباريسى أكثر من عبر عن اهتمام العصور الوسطى الفريد بالظواهر الطبيعية . وشاركه كتاب العصور الوسطى فى هذا المجال ، عندما كانوا يعزون أشد تلك الظواهر الطبيعية اثارة للرعب ، والذعر ، والخراب ، والدمار ، الى غضب الله . وعندما كانت الحيوانات الغريبة هى موضوع الظاهرة الطبيعية ، وكان من النادر مشاهدتها ، فلقد أثار اهتمام انسان العصور الوسطى ، عدم توافر معلومات عنها . على أن ظهور تلك الحيوانات الغريبة يمكن أن يكون نذير شر أيضا ، وببساطة تكون موضع اهتمام ، وعلى مثال ذلك الفيل الذى قال عنه متى الباريسى ، أن لويس التاسع أهداه الى هنرى الثالث . وشعر كل من شاهده من الانجليز بدهشة لضخامة حجم ذلك الفيل (٧) . بيد أن ذلك كان هو كل ما حدث . ومع ذلك فان أى شيء غير عادى على نحو مزعج كان كافيا لدفع البشر على التفكير ، بل أن بروكوبيوس المؤرخ الغير اكليريكى من بين المؤرخين المسيحيين ربط بين دلالة التنبؤ بالمستقبل ، وبين مولد طفل له رأسين فى مدينة الرها Edessa عند ذلك أعلن بروكوبيوس مؤكدا أن هذا الحدث ينبىء بحدوث قتال بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية على أراضى الرها ، وفى « الجزء الأكبر من شمال حدود الامبراطورية الرومانية » .

على أن ما يجده القارىء فى العصر الحديث أكثر اثارة لعنصر التشويق فى حوليات العصور الوسطى عن ملاحظة الظواهر الطبيعية ، هو رغبة كتاب تلك الحوليات ، فى ذكر القصص الخيالية ، والنوادر المسلية . انها عادة مارسها الكتاب القدامى . وكذلك سار بروكوبيوس على نهج هيرودوت ، عندما سرد قصة الطفل الذى حملته عنزة على ظهرها ، كحديث عرضى لا علاقة له بالموضوع الأصلى عندما يصف الحرب فى ايطاليا بين الرومان والقوط . واعتاد بيده على نسج قصص من بنات أفكاره ، فى كتاباته التاريخية ، كما ظهر عند اعتناق نورثومبريا Northumbria للمسيحية ، عندما ذكر أنه أجبر كويفى Coifi ، ومستشارى الملك ادوين Edwin على تحديد مواقفهم .

وعلى الرغم من أن الطبرى يكتب فى اطار المصادر التى ذكرها ، فانه لابد أن يكون سعيدا ، لأنه أورد ذكر الحادثة العرضية المتعلقة بالعباسة وجعفر ٠ وكان لدى أوتو الفريزنجى ، أمل فى أن يجند قراؤه المتعة ، والعظة الأخلاقية فى قصة بريلوس Perillus والثور النحاسى ٠ أما متى الباريسى فقد تحدث عن مقتل بن نيو وليولين Llewelyn ، الذى سقط من برج ، وقال أن الفتى صنع حبلا من مفارش السرير ، ومائدة للطعام ، والستائر التى وجدها فى مسكنه ، ثم سقط رأسا على عقب عندما تقطع الحبل ــ وكان رجلا بدينا ــ مرتطما بالأرض بعنف شديد لدرجة أن رأسه وعنقه ، « غاصتا فى صدره بين كفيه » (٨) ٠ أما فرواسار فقد ذكر نوادر لا حصر لها ، ومن بينها الطريقة البارعة التى سلكها بيرترانت دو جيوسكلين Bertrand du Guesclin للحصول على حريته : ويروى عن الأمير الأسود أن الناس رددوا أنه كان خائفا من شخص أسره ولذلك لم يسمح له بدفع الفدية ٠ بل أن العلامة ابن خلدون ، الذى لم يكن يهتم بذكر النوادر والحكايات الا قليلا ، أورد بعضها فى مقدمته ، عندما أراد أن يوضح احدى النقاط٠فيحكى ابن خلدون أن أحد أبناء الوزراء عاش منذ الصغر فى سجن ، ولذلك فانه لم يكن يتصور أن يختلف الكبش عن الفئران ، التى كانت تعيش معه فى زنزانته ، اذ كانت الحيوانات الوحيدة ، من ذوات الأربع المعروفة له ٠

واعتاد المؤرخون فى العصور الوسطى على جعل الشخصيات البارزة تلقى الخطب ، أو تجرى المحادثات مع من حولهم وذلك استمرارا لعادة الكتاب القدامى هذا من ناحية ، وعلى أمل جذب انتباه قرائهم من ناحية ثانية ٠ ولجأ كل من بروكوبيوس مؤرخ القرن السادس ، وفرواسار مؤرخ العصور الوسطى المتأخرة الى ممارسة تلك العادة المتبعة كثيرا ٠ ونظرا لأن الطبرى قام بدور المسجل للوثائق فى المقام الأول ، لذلك لا نجد سوى القليل من الخطب فى أعماله ، على الرغم من أنه جعل شخصياته تسرد الروايات بضمير الفاعل ، فى عدة حالات ٠ وهناك مثال على ذلك فى حالة كاتب كسرى الذى تجاوز حده عندما لفت انتباه ملكه الى أهمية احترام سلطته الرسمية ٠

واذا ما اندهش القارىء الحديث لوجود خطب ، ومحادثات ، ونوادر مسلية ، ودروس أخلاقية ، ومعجزات فى كتابات المؤرخين فى العصور الوسطى فسيندهش لعدم وجود شىء له طبيعة اقتصادية أو اجتماعية ٠ فاعتبر المؤرخون فى العصور الوسطى أن مهماتهم انتهت بتدوين المعلومات السياسية أو الدينية المهمة ، باستثناء ابن خلدون العالم الفذ بل ويمكن ارجاع وصف الظواهر الطبيعية الى أنها تحمل بعض الأهمية التنبؤية

ولم يجد المؤرخون الاجتماعيون والاقتصاديون سوى شذرات من المعلومات في صفحات حوليات العصور الوسطى ، مثل البنائين الذين دعاهم بيده الى الحضور فى دير وير ماوث Wearmouth ، من بلاد الغال ، أو ثمن الخبز فى انجلترا فى عهد متى الباريسى ، أو عن الأسلحة التي استخدمها المحاربون على عهد فرواسار • وكان المؤرخون في العصور الوسطى أقل تمشيا مع متطلبات العصر فى هذه الناحية • ومع ذلك فقد ظل قراؤهم يتوقعون منهم تقديم معلومات عن الحروب ، وعن الشعوب القريبة خلف الحدود التى صارت مصدر تهديد ، أكثر من الأنباء عن الشخصيات السياسية والكنسية • وكان من الأفضل أن يفعم كتاب الحوليات فى العصور الوسطى كتاباتهم بالحياة والحيوية والبهجة ، وذلك بذكر القصص المسلية • على أية حال فان نوعية المعلومات التى بنى المؤرخون الاجتماعيون والاقتصاديون ، فى العصر الحديث دراساتهم عليها ، لم تظهر الا فى عصر متأخر •

ـ ١ ـ

بروكوبيوس

« كان هذا الرجل شريرا ويمكن تحريضه لفعل الشر بسهولة ... فهو من النوع الذى يطلق عليه مارق من الفضيلة ... ويبدو أن الله نزع كل النقائص من سائر الجنس البشرى وجمعها فى نفس هذا الرجل » (١) .

هكذا كتب بروكوبيوس عن جوستنيان الشهير ، الذى حكم الامبراطورية البيزنطية (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) . ويظهر تحامل بروكوبيوس الشديد فى أسلوبه ، بكل وضوح ، للقراء الذين لم يسمعوا عن جوستنيان ولماذا ؟ حينئذ ، يعتبر بروكوبيوس المؤرخ الأول للامبراطورية البيزنطية وأقدر مؤرخ يونانى بعد بوليبيوس Polybius (ت حوالى ١١٨ ق . م) .

إن الإجابة عن هذا السؤال فى عصرنا الحالى أكثر صعوبة من الإجابة منذ جيل مضى فمنذ سنوات قلائل مال الباحثون الى عدم الاعتراف بأن بروكوبيوس هو مؤلف كتاب التاريخ السرى ، الذى ورد فيه النص الأول فى الفقرة السابقة بسبب تطرفه الشديد فى الأسلوب . وكانوا قد تذرعوا بأنه لا يمكن أن يكون الرجل الذى كتب هذا الكتاب الزاخر بالقذف والافتراء هو نفس الرجل الذى كتب المجلدات الشامخة عن الحروب . غير أن الباحثين على أيامنا والقوا على أن بروكوبيوس هو كاتب ومؤلف الحروب وكذلك التاريخ السرى . ويحتل بروكوبيوس مكانة سامية نظرا لروعة مجلداته عن الحروب وهى التى حققت له سمعة عالية ، برغم السمة المريبة التى اكتنفت بها كتابه عن التاريخ السرى .

ولد بروكوبيوس حوالى سنة ٥٠٠ م فى قيصرية عاصمة فلسطين . وأما عن المكان الذى تلقى فيه تعليمه فهى مسألة تتوقف على التخمين ،

برغم أن جزءا من تعليمه ، من المحتمل أنه تلقاه فى القسطنطينية • ويبدو أكيدا أنه أعد نفسه لكى يكون رجل قانون أو ليشغل احدى الوظائف الادارية • وتكشف كتاباته عن المام كبير بالأدب الاغريقى القديم • وتعلم اللغة اللاتينية أيضا لأن رجل القانون لا يمكنه الاستغناء عن هذه اللغة فى أى مكان بالامبراطورية • ويستطيع المرء أن يستخلص من آرائه التى افصح عنها فى كتاباته بين الفينة والفينة أنه ينتمى الى الطبقة الأرستقراطية السناتورية المحلية التى كانت أكثر العناصر محافظة على القديم ومقاومة للتغيير فى المجتمع البيزنطى •

ولابد أن بروكوبيوس كان محاميا ناشئا فى أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات عندما لفت انتباه البلاط الامبراطورى اليه • لأنه فى تلك الفترة تم تعيينه سكرتيرا ومستشارا قانونيا لبليزاريوس القائد الشاب المقتدر ، الذى عهد عليه جوستنيان بقيادة الجيش البيزنطى فى الشرق فى مواجهة الفرس الساسانيين • اذ كان سكان غرب آسيا يتحدثون اللغة الآرامية بجانب اللغة اليونانية • ولابد أن تمكنه من عدة لغات كان مظهرا جديرا بالتقدير اذ أثنى عليه الباحثون لمعرفته الشىء اليسير من الآرامية ، والعبرية ، والقوطية ، والسلافية ، والفارسية •

وفى سنة ٥٢٧ م ، وهى السنة التى تم فيها تعيينه سكرتيرا لبليزاريوس ، ذهب بروكوبيوس فى صحبة القائد فى حملاته فى سوريا وبلاد ما بين النهرين • وبعد ذلك بست سنوات ذهب بروكوبيوس مع بليزاريوس الى أفريقيا فى حملة ناجحة وقصيرة ضد الوندال • وفى سنة ٥٣٦ م عبر بروكوبيوس البحر الى ايطاليا حيث انضم الى بليزاريوس لقضاء سنوات من أطول وأقسى سنين الحرب فى شبه الجزيرة الايطالية • ولم يقتصر دور بروكوبيوس على ملازمة القائد وانما تولى مهاما أسندها بليزاريوس اليه ويؤكد بروكوبيوس للقارىء أنه أنجزها كلها بكل نجاح ، وفى احدى المناسبات اقترح على بليزاريوس اجراء مناورة حربية قام القائد بتنفيذها (٢) •

وعاد بروكوبيوس الى القسطنطينية بعد الاستيلاء على روما سنة ٥٤٠ م ، ويبدو أنه كان شاهد عيان للوباء الرهيب الذى داهم المدينة سنة ٥٤٢ م • وبعد تلك المرحلة اكتنف الغموض تحركاته • ويمكن للمرء أن يفترض أن القرار الامبراطورى المتعلق بعزل بليزاريوس عن أصدقائه سنة ٥٤٢ م ، شمل بروكوبيوس أيضا • وربما قطع بروكوبيوس علاقاته مع بليزاريوس بمحض اختياره لأن مطالعة التأريخ السرى تترك الانطباع بتعرض رأيه فى القائد الى تغير جوهرى فى ذلك الحين •

على أن الأمر الذى لا ريب فيه هو اتخاذ بروكوبيوس القسطنطينية مقرا دائما له بقية حياته · ومن المرجح أن بروكوبيوس ظل ينعم بعطف جوستنيان برغم تعرض الأخير للتشهير اللاذع على يد الأول فى كتاب التاريخ السرى · وفى مقدمة كتاب بروكوبيوس الذى كان عن الانشاءات المعمارية الضخمة كتب يقول : « ان الشعوب التى أظلتها رعاية الامبراطور قد عبروا عن عرفانهم بالجميل تجاه ولى نعمتهم » (٣) ، وهى فقرة تم تفسيرها على أساس أنها تشير الى الكاتب نفسه · واذا كان الأمر كذلك ، فان هذا التفسير يؤكده قيام جوستنيان بمنح بروكوبيوس لقب اللامع أو الشهير أو النبيل illustris سنة ٥٦٠ م ، وقد مكن هذا اللقب بروكوبيوس من الانضمام الى الطبقة الأرستقراطية ، وأتاح له فرصة الحصول على منصب ادارى مرموق · ويعتقد بعض الكتاب أن بروكوبيوس هو الذى ورد ذكره كوال للقسطنطينية سنة ٥٦٢ م برغم أن هذا قد يكون مجرد تخمين · اننا لا نعرف شيئا عن سنواته الأخيرة · وربما مات بعد سنة ٥٦٠ م بوقت قصير ، أو سنة ٥٦٥ م ·

وتتكون مؤلفات بروكوبيوس من كتب عن الحروب ، والتاريخ السرى والانجازات المعمارية الضخمة وهى مجموعة فى سبعة مجلدات فى طبعة Loeb Classical Library · وأثيرت خلافات كثيرة حول تحديد تواريخ كتابة أعمال هذا المؤرخ · وكان كتاب التاريخ السرى هو المتسبب فى حدوث هذه المشكلة بأكملها الى حد كبير · ولولا ظهور كتاب التاريخ السرى المتسم بالافتراء والتشهير لكانت مسألة تحديد مواعيد ظهور أعمال بروكوبيوس عن الحروب وعن الانجازات المعمارية الضخمة ، مسألة لا تشكل أدنى مشكلة أو أهمية · ونظرا لأن بروكوبيوس هو مؤلف كتاب التاريخ السرى ، فان بعض الباحثين مالوا الى اظهار النقد المقنع ، الموجه للامبراطور جوستنيان ، من بين سطور مجلدات بروكوبيوس عن الحروب، مفترضين أن هذا المؤرخ كان منهمكا فى تأليف كتبه عن الحروب وكذلك التاريخ السرى فى الوقت نفسه (٤) ·

ظهرت الكتب السبعة الأولى عن الحروب حوالى سنة ٥٥٠ م ، أما الكتاب الثامن فقد ظهر بعد سنة ٥٥٤ م بقليل · أما الكتاب الخاص بالانجازات المعمارية الضخمة فقد أصبح تحديد سنة ٥٦٠ م كتاريخ لصدوره باعتباره أمرا فى حكم المتفق عليه · ونظرا لأن العالم لم يكن على معرفة بوجود كتاب التاريخ السرى قبل تدوينه ضمن دائرة المعارف البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى ، والمعروفة باسم سيوداس Suidas ، فلم يكن لدى الباحثين مشكلة نشر تعرضهم للمضايقة · بيد أن هؤلاء الباحثين اختلفوا حول تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب ·

وأحد الأدلة المشيرة لذلك هو الجملة التى أشار فيها بروكوبيوس الى أن جوستنيان ظل يدير دفة الأمور بالامبراطورية لمدة اثنتين وثلاثين عاما • ونظرا لأن الامبراطور بدأ حكم الامبراطورية بصفة رسمية سنة ٥٢٧ م ، فان فترة اثنتين وثلاثين عاما تشير الى أن فترة اعداد كتاب التاريخ السرى كانت ما بين ٥٥٨ ــ ٥٥٩ م • ويميل الباحثون بصفة عامة الى تحديد سنة ٥٥٠ م على اعتبار أن بروكوبيوس أسقط جوستين ، خال جوستنيان من حساباته ، والذى كان قد حكم (٥١٨ ــ ٥٢٧ م) ، باعتبار أنه كان مجرد امبراطور صورى ، فى الوقت الذى كن فيه جوستنيان يحكم الامبراطورية من الناحية العملية •

واحتوت كتب بروكوبيوس عن الحروب ، على كل الصراعات الحربية ضد الفرس الساسانيين وضد الوندال فى ليبيا ، وضد القوط الغربيين فى أيطاليا • وحاول بروكوبيوس تقديم التدليل على أنه كان شاهد عيان للأحداث ، وأنه كانأمينا فى سردها ، ودقيقا فى وصفه للحملات والمعارك الحربية ومن ناحية أخرى ، فانه اتخذ موقفامختلفا فى كتبه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، وعن التاريخ السرى • ففى كتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة كان بروكوبيوس مفرطا فى الثناء والمدح للامبراطور جوستنيان ، أما فى كتابه عن التاريخ السرى ، فانه كان أشد الناس عداوة له وحقدا ، بما كتبه من قدح وهجاء لم يسبق له مثيل •

ويجد القارىء فى الوقت الحاضر ، والذى يضيق ذرعا بالدعاية ، حتى لو كانت فى أبسط صورها ، أن كتاب بروكوبيوس الخاص بالانجازات المعمارية الضخمة ، لا يستحق الاهتمام ، وأن هذا اللون من الدعاية غير مقبول • بيد أنه اذا كان بروكوبيوس ومعاصروه قد قبلوا ما احتواه هذا الكتاب من اطراء على مستوى الانتاج الأدبى الرفيع ، فانه احتوى على معلومات قيمة فى الوقت نفسه أيضا • فعلى سبيل المثال ، يوجد فى ذلك الكتاب معلومات يقينية ولا ريب فيها عن الانشاءات المعمارية التى تمت فى عصر جوستنيان تفوق المعلومات عن أى عهد قبل القرن الثانى عشر• ويمدنا الكتاب بقدر هائل من المعرفة عن الكنائس ، والتحصينات ، وخزانات المياه ، وينابيع المياه المعدنية ، وصوامع الغلال التى أقامها جوستنيان أو أمر باصلاحها وترميمها • وفيما يلى الوصف الشاعرى لكنيسة أيا صوفيا **Higia Sophia** من الداخل ، وهى الكنيسة الضخمة بقبتها الرائعة التى ما زالت أعلى المبانى فى مدينة استانبول •• « يعطى الذهب الخالص كل سقف القبة ، مضيفا روعة لجمالها ، ويعمل الضوء المنعكس على الأحجار على زيادة لمعان الذهب • وبداخل الكنيسة عمودان من الأعمدة المقنطرة ملتصقان ببنيان الكنيسة ، ويوحيان للرائى بزيادة

عرض وطول وارتفاع الكنيسة • ولهذه الأعمدة سقوف معقودة ومزينة بالذهب • وبالكنيسة مكان مخصص للرجال لتأدية الصلوات ، وآخر للنساء للغرض نفسه • وان كان لا يوجد هناك ما يميز أحدهما عن الآخر ، كما لا يوجد خلاف بين المكانين • وانما عملا على روعة الكنيسة وبهجتها • ولكن من ذا الذى فى استطاعته وصف القاعات التى بالجانب المخصص للنساء على نحو دقيق ، أو أن يحصر عدد الأعمدة الكثيرة والطرقات المزدانة بالأعمدة والتى تحيط بالكنيسة ؟ أو من ذا الذى يستطيع أن يتحدث عن جمال الأعمدة والأحجار التى تزين الكنيسة ؟ وللمرء أن يتصور أنه قد شاهد روضة بها أزهار متفتحة • وبكل تأكيد سيصاب المرء بالدهشة عند مشاهدته الألوان الأرجوانية ، والخضراء ، والقرمزية التى تتألق ، والبيضاء الناصعة البياض ، وسيختلط عليه الأمر من شدة تباين الألوان ، وكلما دخل أى فرد تلك الكنيسة للصلاة أدرك على الفور أن ما شاهده ليس من صنع بشر ، وانما من صنع الله ، وأن هذا العمل قد أحسن صنعا • وعندما يتجه المرء بقلبه الى الله ، ويتعبد ، يشعر بوجود الله الذى رضى عن هذا المكان ، واختاره لعبادته • على أن هذا الشعور يتكرر فى كل مرة لمن قدر له أن يزور تلك الكنيسة عدة مرات ، وكأنه يزورها للمرة الأولى • والواقع أن المناظر التى بتلك الكنيسة تجعل المرء يشعر بأنه قد شاهد مالا عين رأت ولا أذن سمعت من قبل ، ولذلك يشعر الناس بالبهجة الجارفة ، وهم فى داخلها ، وعندما يغادروها يتحدثون عنها بكل الغبطة والحبور • وبالاضافة الى ذلك ففيما يتعلق بكنوز هذه الكنيسة ــ الأوانى المصنوعة من الذهب والفضة وكل الأشياء المطعمة بالأحجار الكريمة والتى أهداها الامبراطور جوستنيان للكنيسة ــ فانه من المستحيل تقديم وصف دقيق لها جميعا • بيد أنى سأتيح للقراء تكوين رأى من خلال مثال واحد فحسب • وهو أن المحراب الداخلى ، الذى لا يدخله سوى القساوسة ، قد احتوى على زخارف من الفضة بلغ وزنها أربعة آلاف رطل » • (٥)

واذا كان بروكوبيوس قد استهدف من كتاب التاريخ السرى محاولة تصحيح ما ورد فى كتبه عن الحروب من معلومات تاريخية ، على حد قوله ، الا أنه من النادر أن التزم بذلك الهدف : فالكتاب لا يحتوى على شىء أكثر من محاولة متعمدة للاساءة الى سمعة جوستنيان وزوجته ثيودورا ، وبليزاريوس وزوجته أنطونينا **Antonina** وخلع بروكوبيوس على كل من جوستنيان وثيودورا ، وأنطونينا قدرات شيطانية ، اذا لم يكن قد ادعى أنهم كانوا حقيقة شياطين •

أما بالنسبة الى بليزاريوس فقد نعته بروكوبيوس بممارسة دور ديوث حقير • ونظرا للبون الشاسع بين الصور التى رسمها بروكوبيوس

عن تلك الشخصيات الأربع فى كتبه عن الحروب ، والصور التى قدمها عنهم فى كتاب التاريخ السرى ، فقد مال الكثير من الباحثين الى الشك فى اعتبار بروكوبيوس مؤلفا لكتاب التاريخ السرى ٠

وفيما يتعلق بمصادر معلومات بروكوبيوس التى أوردها فى كتبه عن الحروب ، وعن الانجازات المعمارية الضخمة ، وعن التاريخ السرى ، كان هذا المؤرخ ملتزما بكتابة كل ما هو معروف مثلما فعل أسلافه القدامى الذين سار على هداهم فى فن الكتابة التاريخية ٠ على ان البيان الوحيد والصريح الذى تركه لنا بروكوبيوس بخصوص ذلك هو مقدمته فى كتبه عن الحروب ٠ فبعد أن كتب كلمة عن هدفه من تاليف ذلك الكتاب صرح قائلا : « وبالاضافة الى ذلك فانه كانت لديه القناعة بالمقدرة ، أكثر من غيره ، على الكتابة فى تلك الأحداث لأن قدره شاء له أن يعين مستشارا للقائد بليزاريوس ، فكان بذلك شاهد عيان لكل الأحداث من الناحية الواقعية مما مكنه من الكتابة عنها » ٠ (٦)

ومن المؤكد تقريبا أن بروكوبيوس حصل على حق الاطلاع على السجلات التاريخية الخاصة بالامبراطورية عند اعداده كتابه الذى تحدث فيه عن الانجازات المعمارية الضخمة ٠ فالوصف الذى قدمه بروكوبيوس للانشاءات العديدة ، والمتنوعة والتى ليس من اليسير حصرها بسهولة يجعل هذا الاستنتاج أمرا لابد من التسليم به ٠ واذا كان جوستنيان قد عهد بالفعل الى بروكوبيوس باعداد هذا الكتاب ، كما يعتقد بعض الباحثين ، فلا شك أنه استطاع الاعتماد على الحكومة فى تزويده بهذه المعلومات ٠ أما فيما يتعلق بالمصادر الخاصة بالنوادر المشينة والتفاصيل التى تثير التقزز والتى تمس ثيودورا ، زوجة جوستنيان ، وانطونينا زوجة بليزاريوس ، والتى أثار بها بروكوبيوس كل قارىء لكتاب التاريخ السرى ، فيستطيع المرء الافتراض بأن مصدرها هو مروجى الشائعات الذين كانوا على استعداد لعرض سلعتهم لكل من يرغب فى الحصول عليها ٠ نظرا لقربهم دائما من بلاط القصر وبالاضافة الى ذلك فقد أدى خيال بروكوبيوس السوداوى الى الصاق أفظع الأسباب والدوافع الممكنة الى الشخصيات التى عمل بكل جهده على القضاء عليها ٠ ويظهر أقوى دليل على أنه درس قواعد علم البلاغة فى التكرار الذى قدمه على لسان شخصياته فى الخطب وفى الجمل السديدة ٠ وهناك دليل آخر على استخدامه الأساليب البلاغية فى ذلك الوقت وهو اقتباسه لأساليب البيان والمجاز التى ذكرها أبناء بلده فى العصور القديمة ، من أمثال هيرودوت Herodotus وثيوكيديد Thucydides وبعض تلك الأساليب كان مناسبا لعصر بروكوبيوس ، أما البعض الآخر فكان من الأفضل تركه لعصوره القديمة ٠ فقد يستمتع المرء بالقول المأثور الذى قاله هوميروس

Homer وهو : « ان كـل شيء قدرته الآلهـة بقدر » • وعنـدمـا كتب بروكوبيوس أن حنا القبدوقى اللئيم والوغد قال : « ان الله شـاء لهذه الأمور أن تحدث » (٧) هنا ربما يشعر القارىء بشيء من عدم الارتياح •

وسـيجد الباحث الحـريص على معرفة الـدوافع التى حـدت ببروكوبيوس الى كتابه عن الحروب ، وعن الانجازات المعمارية الضخمة ، وعن التاريخ السرى ، أنه كانت لديه شخصية قادرة على التكيف وفقا للمواقف • ففى بداية كل كتاب أفصح بروكوبيوس عن حافزه للكتابة • ففيما يتعلق بكتابه عن الحروب كتب يقول : « لكى لا يدفع مرور الوقت الأعمال التى لها أهمية الى أن تصير أعمالا مغمورة نظرا لعدم وجود سجل رسمى يتضمن ذكرها ، وبذلك يعرضها الى النسيان وعدم الذكر كلية » لذلك اعتقد بروكوبيوس أن العمل على احياء ذكرى تلك الأحداث عمل عظيم ، ومفيد للغاية لأهل عصره ، وللأجيال القادمة أيضا ، اذا ما أجبرتهم الأيام على التعرض لموقف صعب مشابه » •

ووضـح بروكوبيوس فى اعتبـاره الظروف التى دفعت الناس الى شن الحروب ، ولذلك ذكر الكثير منها فى كتبه عن الحروب ، بعد أن وجد الناس أن الحرب تحقق مصالحهم • « فقد يستطيع الناس الذين يعقدون العزم على بدء حرب أو الاستعداد لأى نوع من الصراع أن يجنوا بعض الفائدة من قصة موقف مشابه فى التاريخ ، بقدر ماتكشفه هذه القصة على ضوء ما أجرزه من سبقوهم من نتائج نهائية ، كما أنها تشير الى مدى ما يمكن أن تتمخض عنه الأحداث بالنسبة لأولئك الذين يتمتعون ببعد النظر » • (٨)

ولم يفصح بروكوبيوس بوضوح عن الدرس الجدير بالذكر الذى استخلصه الناس الذين عقدوا العزم على الدخول فى الحرب ، من التاريخ ، برغم أن هذا صار واضحا فى النهاية • اذ لا شك أنه ترك انطباعا فى فكر القارىء أن الحرب شر • وبالاضـافة الى تعلم هذا الدرس فيحقق التاريخ أهدافا أخرى • وأدرك بروكوبيوس ادراكا كاملا أهمية عنصر التشويق الذى يمكن أن تحققه دراسة الحروب • ولهذا السـبب يعلن بروكوبيوس بكل اصرار أن الحروب السابقة : « لم تشهد أعمالا أكثر أهمية أو أكثر شراسة عبر التاريخ مثلما حدث فى الحـروب التى جـرت فى عهدنا ••• ذلك لكثرة ما بها من أعمال بطولية فذة ، جديرة بالاشادة بها على نحو يفوق ما حدث فى أى حرب من الحروب السابقة التى علمنـا بتفاصيلها » (٩) •

ويقدم بروكوبيوس الدليل القوى ، فى مقدمة كتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، على أهمية كتابة التاريخ لما يحفظه من عبرة تتعلق

بالفضيلة والرذيلة . وقال أنه من الواجب على الأجيال القادمة أن تقتدى بالأعمال الفاضلة ، وتتجنب الأعمال الشريرة ، ثم قال متعجبا : « ما أكثر الفوائد التى من الممكن أن تحققها الدول من دراسة التاريخ ! وما أعظمها ! ان التاريخ ينقل الى الأجيال التالية ذكرى الذين رحلوا ، ويقف بثبات ضد عوامل النسيان . ويحض الذين يطلعون عليه من حين الى آخر ، على الفضيلة ، بفضل الثناء الذى يطرحه عليها ويهاجم التاريخ الرذيلة باستمرار بالعمل على تجنب الوقوع تحت سيطرتها . وهكذا يجب أن يكون ذلك هو اهتمامنا الكلى ـ فكل أعمال الماضى ستوضح بجلاء ، مع ذكر فاعلها ، أيا كانت شخصيته » (١٠) .

وكان هدف بروكوبيوس من كتابة التاريخ السرى أن يقدم سجلا مفصلا يتضمن معلومات مؤذية تتعلق برجال ونساء فى مواقع السلطة ، لأنه لم تكن لديه الجرأة على ذكر تلك المعلومات فى كتبه عن الحروب . ويفسر بروكوبيوس عدم تمكنه من ذكرها فى كتبه عن الحروب قائلا : « طالما ظل الفاعلون على قيد الحياة .... لأنه لم يكن من الممكن مراوغة يقظة حشد الجواسيس الضخم ، أو النجاة من موت فى أبشع الصور فى حالة الضبط ـ فى حالة تلبس ... لذلك من المحتم أن أكشف الستار عن الأفعال التى ظلت حتى اليوم فى طى الكتمان ، بل وأن أذكر أسباب تلك الأحداث التى وصفتها من قبل » (١١) .

ويعترف بروكوبيوس بأن مايكتبه فى كتاب التاريخ السرى « سيبدو للانسان فى جيل لاحق أنه أنباء لا يمكن تصديقها أو ممكن حدوثها » . وكان بروكوبيوس قد تردد فى اماطة اللثام عن الأعمال الاجرامية التى اقترفها الحكام فى عهده خشية أن يقلدهم أصحاب الأفكار والنوايا الشريرة . وأخيرا قرر بروكوبيوس ما يخالف ذلك ، « بدافع الاقتناع بأن تلك الأعمال الاجرامية ستكون واضحة تماما لكل من يتولى السلطة الملكية فيما بعد ، وأن العقاب سيحل بهم بكل الاحتمالات أيضا ، بنفس القدر الذى فعلوه مع هؤلاء الناس ، وان أفعالهم وشخصياتهم ستدون فى سجل التاريخ للأجيال القادمة ونتيجة ذلك أنهم ربما سيكونون أكثر حذرا اذا ما حاولوا الميل الى الطغيان » (١٢) .

ان سمة التباين فى كتابات بروكوبيوس تجعل من المحتم علينا أن ندرس كل كتاب من كتبه على حدة اذا ما أردنا تقييم مصداقية هذا المؤرخ . فعلى سبيل المثال ، يستطيع المرء القول بأن كثيرا من مخالفات قواعد الصدق تتضح فى كتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، لأن هذا الكتاب كتبه بروكوبيوس بقصد الثناء على جوستنيان . وتظهر صورة واضحة لابتعاد بروكوبيوس عن الحقيقة عند وصفه لبناء كنيسة أيا صوفيا

Hagia Sophia اذ كتب أنه قبل أن توضع ركيزة أحد عقود البناء الكبرى فى موضعها ، بدأت الدعامات التى ترتكز عليها فى أن تحدث بها شروخا ، « لعدم قدرتها على حمل الكتلة التى ترتكز عليها ... عند ذلك أصاب الفزع كلا من أنثيميوس Anthemius وأيزيدوروس Isidorus (١٣) ، نتيجة لما قد حدث ، وأبلغوا الامبراطور بالموقف بعد أن خذلتهم مهارتهم الفنية . وعلى ما أعتقد فبالهام من الله (لأن الامبراطور لم تكن لديه معرفة بعمليات البناء) أمر جوستنيان المهندسين باكمال بناء العقد الى أن يصل الى نهايته . اذ قال لهم « عندما يستقر العقد فى موضعه فلن يحتاج الى الدعامات التى من تحته » .... وعلى ذلك نفذ البناءون تعليمات الامبراطور ، وظل العقد كله قائما فى أمان ، مؤكدا بالتجربة على صدق هذه الفكرة » (١٤) .

وفيما عدا تلك التصريحات التى حملت سمة المديح والاطراء فى كتاب الانجازات المعمارية الضخمة والتى قبلها معاصروه دون اعتراض ، فليس هناك داع للشك فى مدى دقة المعلومات التى أوردها بروكوبيوس المتعلقة بالكنائس والتحصينات التى أمر الامبراطور جوستنيان باقامتها أو بترميمها . ونظرا لأن بروكوبيوس قضى بعض الوقت فى كثير من الأماكن التى ذكرها فى كتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، فللقارىء أن يقبل بشىء من الثقة الأوصاف التى ذكرها ، والمتعلقة بالطبوغرافيا والمناخ أيضا .

وللقارىء أن يقبل نفس الوضع فيما يتعلق بمصداقية كتب بروكوبيوس عن الحروب الى حد كبير . وحرص بروكوبيوس على أن يؤكد للقارىء فى المقدمة أنه : « كان قادرا على كتابة تلك الأحداث التاريخية باعتباره كان شاهد عيان لكل أحداثها من الناحية الواقعية » . وفى الجملة التالية تقريبا حدد بروكوبيوس المبدأ الأول عند المؤرخ ، ونعنى بذلك : « أن الحقيقة دون غيرها هى الأمر الذى لابد أن يؤخذ به عند كتابة التاريخ » . وعلى الرغم من اصرار بعض الباحثين على وجود انتقادات غير مباشرة ضد الامبراطور جوستنيان فى كتب بروكوبيوس عن الحروب ، فان تلك المجلدات لها تأثير شديد على القارىء العادى باعتبارها من تأليف كاتب كان شاهد عيان ، كل همه تقديم رواية صادقة لكل ما حدث . ومع ذلك توجد بعض الأخطاء فى المجلدات الخاصة بالحروب ، وقليل منها لا يمكن أن يتوقع المرء حدوثها من كاتب على قدر عال من الثقافة مثل بروكوبيوس . فعلى سبيل المثال كتب أن أتيلا Attila مات بعد أتيوس Aetius (١٥) ، وذكر أن استيلاء توتيلا Totila على الأعلام الرومانية : « كان حدثا لم يشهده الرومان من قبل » (١٦) .

وعلى ما يتوقع المرء من مؤرخ قديم ، فقد وقع بروكوبيوس فى أخطاء جغرافية • اذ قال : « ان الأرض يحيطها محيط مستدير » • وكتب يقول : « يمتد المحيط حول الأرض اما كلية أو فى معظم أجزائها (لأن معلوماتنا ليست واضحة تماما عن هذا الموضوع) ، وتنقسم الأرض الى قارتين بواسطة جريان مياه المحيط ، وتدخل مياه هذا المحيط الجزء الغربى وتكون هذا البحر الذى نعرفه ، والذى يبدأ من جاديرا Gadira (قادش Cadiz) ، ويمتد حتى بحيرة مايوتيك Maeotic Lake (بحر آزوف Sea of Azov) • ويطلق على القارة الأولى آسيا وتقع على يمين المرء الذى يبحر حتى بحر آزوف ، بعد أن يبدأ الابحار من مضيق جبل طارق The two Pillars of Heracles أما القارة المواجهة للأولى فيطلق عليها أوروبا » (١٧) •

ان مسألة مصداقية ما ورد فى التاريخ السرى موضوع قائم بذاته والوحيد الذى حظى باهتمام شديد عند تقييم بروكوبيوس كمؤرخ • وان كان بروكوبيوس قد توقع أن يترك هذا الكتاب فى عقول قرائه شكوكا تتعلق بمدى صحة ما تضمنه من معلومات • اذ كتب محذرا : « ان ما أكتبه لن يصدقه جيل فى المستقبل ، بل ولن يقبل أن من الممكن حدوثه » (١٨)• ولما كان هناك اعتقادا بأن هذا الأسلوب المتطرف لا يمكن أن يصدر عن كاتب مسئول ، لذلك تردد الباحثون طويلا أمام الاعتراف به كأحد أعمال بروكوبيوس • واذا كان هناك قدر من الصحة فيما كتبه بروكوبيوس ، فان التحريف الذى لا يقبله عقل ، والذى وقع فيه ، يجعل من الصعب التعرف على الشخصيات • فكما قال أحد الباحثين : « ان الصورة غير المهذبة (عن ثيودورا) لم تترك شيئا عن الفساد الذى يمكن أن تنحدر اليه أشد النساء فجورا ، ولقد نجح المؤلف فى الحط من قدر أدلته وبراهينه ، والتى اعتقد أنه قدمها بكل ثقة ، بيد أنها ظهرت كأدلة واهية نتيجة لشدة المبالغة فيها » (١٩) •

ونجد أن بروكوبيوس هو المصدر الوحيد الذى يمكن للمرء الرجوع اليه لاستقاء المعلومات عن ثيودورا فى فترة صباها ، وأنه تحدث عنها باعتبارها نشأت وترعرعت فى محيط ميدان سباق الخيل المملوء بالمساوىء • وكان ذلك بعد موت والدها الذى عمل حارسا للحيوانات فى السيرك • ولما كانت والدتها تعانى من ظروف مالية صعبة لذلك اضطرت الى ارسالها ومعها أختاها للعمل على خشبة المسرح بمجرد سماح أعمارهن بذلك • « فأما عن كوميتو Comito ، الابنة الكبرى ، فكانت قد حققت نجاحا باهرا بين بنات الهوى ، أما ثيودورا الابنة الوسطى ، فكانت ترتدى جلبابا له أكمام قصيرة يناسب احدى الجوارى ، وكانت تسير خلف أختها

الكبرى ، وتؤدى خدمات عديدة ، وبصفة خاصة كانت تحمل مقعدا صغيرا على كتفيها لتجلس عليه أختها الكبرى فى الحفلات ٠ ولما كانت ثيودورا لم تبلغ سن النضج بعد ، فانها كانت غير قادرة تماما على النوم مع رجل أو ممارسة ماتفعله امرأة مع رجل ، ومع ذلك مارســت تلك العمليــة الجنسية كما يفعل الذكور من السفلة ، والعبيد الذين يتبعون سادتهم الى المسرح ، حيث تتاح لهم الفرصة ، على نحو عرضى ، لممارســـة هذه العملية الشاذة ، وكانت تقضى وقتا طويلا فى مكان الدعارة تبيع جسدها على هذا النحو الشاذ ٠ بيد أنها ما أن وصلت الى سن النضج ، وصارت فى كامل أنوثتها حتى انضمت الى نســـاء المسرح وأصبحت احـــدى المنحرفات » (٢٠) ٠

وكتب بروكوبيوس أنه بقدر ما ازدادت ثيودورا نضجا وخبرة ، بقدر ما ازدادت فسقا وانغماسا فى الشهوات ومع ذلك فقد صارت أدلة وبراهين بروكوبيوس غـير منطقية لدرجة أنهـا انهارت من شـدة كونها مثيرة للسخرية وعلاوة على ذلك فان ما قلل من قدر مصداقية بروكوبيوس فى كتابه التاريخ السرى هى جهوده فى تصوير أنطونينا Antonina ، زوجة بليزاريوس باعتبارها من نفس نوع النساء الفاسقات ٠ ويبدو أن بروكوبيوس اعتقد أن لا شىء أكثر شناعة يمكن أن يقال عن امرأة من اثبات أنها مصابة بالشبق ، على الرغم من أنه فى حالتى ثيودورا وأنطونينا قد حاول اثبات أن حدة الرغبة الجنسية عندهما كانت أمرا متأصلا لديهما ٠

وعمل بروكوبيوس على تشويه سمعة جوستنيان تشويها كاملا فى كتابه التاريخ السرى ، ووصفه بأنه ابنـا للشيطان ولتقـديم المزيد من امكانية ذلك ، فقد ذكر بروكوبيوس أن والدة جوستنيان شـــهدت ضد ابنها ٠ اذ كتب بروكوبيوس يقول : « ويقال ان والدة جوستنيان صرحت للمقربات اليها أنه ليس ابنا لزوجها ساباتيوس Sabbatius أو لأى رجل آخر ٠ لأنها عندما كانت على وشك أن تحبل به زارها عفريت غير منظور ، غير أنه حرك مشاعرها على نحو ما يفعل الرجل مع المرأة ابان ممارسة العملية الجنسية ثم اختفى كما لو كان الأمر حلما » (٢١) ٠

واذا ماكان القارىء لديه الاستعداد على الاعتقاد بأن جوستنيان كان ابنا لشيطان ، فانه سيكون مستعدا لقبول ما استمر بروكوبيوس يقوله عن الامبراطور ٠

« كان هذا الرجل شريرا ويمكن تحريضه لفعل الشر بسهولة ، فهو من النوع الذى يطلق عليه مارق عن الفضيلة ، ولم يحدث على الاطلاق

أن تكلم بصدق ، وعن طواعية مع من يتحدث اليهم ، وانما كانت لديه نوايا مضللة وماكرة خلف كل كلمة وعمـــل ٠٠ وكان جوستنيان غير مخلص ، ومتظاهرا كذبا بالفضيلة والدين ومخفيا غضبه بقصد الخداع ، ومنافقا ، وذكيا ، ومخادعا بكل معنى الكلمـة ، فى التعبير عن أى رأى تظاهر بالاعتقاد به ، بل وكان قادرا على زرف الدموع ، ليس من قبيل التعبير عن الفرح الشديد أو الحزن ، وانما تسيل تلك الدموع على الفور وفقا للموقف ، وكان يتصرف دائما على نحو ينم على الغدر والخداع ، ومع ذلك كان يضـيف توقيعه وأغلظ القسـم للتأكيد على موافقتـه على اتفاقاته ، وكان كذلك فى تعامله مع رعاياه ٠ بيد أنه كان ينكث بعهوده واتفاقاته وقسمه على الفور كما يفعل أحقر العبيد ٠٠ وكان جوستنيان صديقا متقلبا ، وعدوا غير مهادن ، وكان فى غاية التعطش للاغتيـــال والسلب والنهب ، ومولعا بالنزاع والخصام ، ومبتكرا مبتدعا ، ومن السهل قيادته ليحيد عن الصراط المستقيم ، بيد أنه لم يكن يتأثر بنصيحة تجعله يفعل الخير ٠٠ وكيف يستطيع أى انســـان أن يكون قادرا على وصف شخصية جوستنيان على نحو كاف ؟ تلك النقائص وأكثر منها اتصف بها جوستنيان بوضوح الى حد جعلها لاتتفق مع الطبيعة البشرية ٠ ويبدو أن الله قد نزع كل النقائص من سائر الجنس البشرى وجمعها فى نفس هذا الرجل » (٢٢) ٠

وعلى الرغم من الاعتراف بالمبالغة الشديدة فى أسلوب كتاب التاريخ السرى ، فان بعض الباحثين يحاولون الدفاع عن معظم هذا الكتـــاب باعتباره جدير بالثقة على أساس عدم ظهور تناقص مباشر مع ما كتبـه بروكوبيوس فى كتبه عن الحروب (٢٣) ٠ ولاريب أن فى ذلك مبالغة فى الرأى ٠

فعلى سبيل المثال نسب بروكوبيوس فى كتبه عن الحروب مقتل أمالاسونثا Amalasuntha ، ملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا الى بعض القوط من أقاربها ، الذين كانت قد أمرت باغتيالهم (٢٤) ٠ أما فى كتابه عن التاريخ السرى فقد أشار بكل وضوح الى ثيودورا باعتبـارها المجرم الحقيقى ، وأنها تآمرت على اغتيال أمالاسونثا خشية أن يفتتن بها زوجها جوستنيان السريع التأثر ، لشدة جمالها وجاذبية قوامها ! (٢٥) ٠ ويظهر جوستنيان محبا للسلام من حـين الى آخــر فى كتب بروكوبيوس عن الحروب (٢٦) ٠ أما فى كتاب التاريخ السرى اتخذ جوسـتنيان موقف مثير الحرب العنيـد الذى لن يتوقف الا بعد أن يقضى على كل الجنس البشرى قضاء تاما (٢٧) ٠ ويتحدث بروكوبيوس فى كتابه عن الحروب

عن سجية ثيودورا العطوفة والتى « كانت تدفعهـا دائمـا الى مساعدة النسوة المنبوذات (المنحرفات) (٢٨) • وعندما تحدث فى كتاب التاريخ السرى كيف قامت ثيودورا بجمع تلك النسوة من شوارع القسطنطينية • وأسكنتهن فى بيت التوبة الذى شيدته لهن على الشاطىء الآخـــر من البسفور ، نجد أن بروكوبيوس يترك انطباعا عند القارىء بأنها لم تفعل ذلك الا بدافع الحقد • (٢٩) وبالاضافة الى المظاهر الواضحة لعدم الترابط بين كتبه عن الحروب وكتاب التاريخ السرى فان التناقض الصارخ يكمن فى وصف بروكوبيوس لجوستنيان وبليزاريوس وثيودورا ، وأنطونينـا فى كتبه عن الحروب كشخصيات سوية تماما • أما فى كتاب التاريخ السرى فقد وصفهم بروكوبيوس بأنهم شياطين أو منبوذون خلقيا وأنهم يتصرفون وفقا لذلك •

لقد ترك المؤرخون الاغريق القدامى من أمثال هيرودوت وثوكيديد Thucydides أثرا واضحا عند بروكوبيوس • ويستطيع المرء ، بكل تأكيد ، أن يستشف اتباع بروكوبيوس لطريقـة هيرودوت فى صياغة القصص القصيرة الشيقة أو المسلية عن الشخصيات أو الأحداث ، وكذلك الحوادث العارضة العنيفة ، فى سرده التاريخى ، بالاضافة الى الأمور غير المهمة ، عن العرف وعادات الجماعات ، وعن الجغرافيا ، وعن الأساطير ، وكلها مرتبطة بموضوع الكتابة التى قدمها بروكوبيوس ، وهو أسلوب لا يمكن للمؤرخ فى عصرنا اللجـوء اليه • ولم ينس « أبو التـاريخ » أو بروكوبيوس أن القارىء يريد أن يشعر بالمتعة والتسلية بقدر رغبته فى أن يعلم ويتعلم • وعلى ذلك فعنـد وصف بروكوبيوس لتحـركات الجيش البيزنطى فى المناطق المجاورة لمدينة بيسينوم Picenum ، كتب كثيرا عن حادثة جانبية تتعلق بطفل تخلت عنه أمه بصفة نهائية • « وفى هذا الوقت حدث أن أنجبت احدى سيدات هذه المدينـــة طفلا ، وتركت الرضيع فى قماطه على الأرض ، وسواء اضطرت الى أن تنشـد السلامة فى الهرب ، أو أسرها أحد الأشخاص فانها لم تتمكن من الرجوع الى المكان الذى تركت به الطفل ، لأنها اختفت من الدنيا أو على الأقل من ايطاليا • وبدأ الرضيع فى البكاء بعد أن تركته أمه على هذا النحو • بيد أن عنزة وحيدة شاهدت الرضيع ، وأشفقت عليه ، وأرضعته من ضرعها وتولت رعايته بكل حرص ، خشـية أن يصيبه كلب أو حيوان مفترس بأى أذى • ونظرا لأن حالة الاضطراب والفوضى طالت مدتها فقد حدث أن استمرأ الطفل لبن العنزة وعاش عليه ولما علم سكان مدينـــة بيسينوم ، فيما بعد ، أن الجيش الامبراطورى قد جاء للقضاء على القوط ، وأنه لن يصيب الرومان من الأهالى بأى أذى ، ســـارع هؤلاء السكان

بالعودة الى ديارهم • وعندما عادت النسوة الرومانيات الى اقليم يورفيزاليا Urvisalia مع أزواجهن ، وشاهدن الطفل الرضيع ما يزال على قيد الحياة ، وفى قماطه ، لم يستطعن فهم ما حدث على الاطلاق ، واعتبرن بقاء الطفل على هذا النحو أمرا عجيبا جدا ومثيرا للدهشة • وعرضت كل منهن ثدييها على الطفل • بيد أن الطفل لم يكن راغبا فى لبن الرضاعة ، كما كانت العنزة غير راضية على الاطلاق عن حدوث ذلك ، وانما ظلت تثغو حول الطفل دون توقف ، حتى بدا الأمر للنسوة اللاتى تجمعن حوله وكأنهن شعرن بالاحباط وأنهن قد أزعجن الطفل ، وخلاصة القول ، أصرت العنزة على التعبير عن أن الطفل الرضيع يخصها وحدها ودون غيرها • ونتيجة لذلك توقفت النسوة عن ازعاج الطفل ، واستمرت العنزة فى ارضاعه دون خوف ، وترعاه بكل عناية • ثم أطلق سكان المنطقة على الطفل اسم ايجيبسثوس Aegisthus (٣٠) ولما ذهبت الى ذلك المكان لأقيم به بصفة مؤقته ، بقصد القاء نظرة على هذا المشهد المدهش ، تعمدت أن أحدث ألما جسديا بالطفل كى يبكى وبدأ الطفل فى البكاء ، وعندئذ جرت العنزة صوب الطفل بمجرد سماعها بكاءه ، واستمرت فى الثغاء بصوت عال بجواره ، ووقفت فوقه حتى لايتمكن أى فرد من الخلق أى أذى به • تلك كانت قصة الطفل ايجيبسثوس » (٣١) •

واستطاع بروكوبيوس أن يؤكد على صدق هذه القصة المهمة ــ اذ يقول أنه شاهد الطفل الرضيع بنفسه • ولم تحمل كل القصص القصيرة الشيقة أو المسلية التى أورد ذكرها مثل هذا التأكيد • وكما فعل هيرودوت ترك بروكوبيوس مسألة الحكم على مدى مصداقية أى قصة الى القارىء نفسه (٣٢) •

على أن الطريقة الموضوعية التى انتهجها بروكوبيوس فى كتبه عن الحروب ربما كانت احدى الأساليب التى أخذها عن ثوكيديد فى الكتابة • فيذكر أن ثوكيديد لم يشر الى نفسه سوى مرة واحدة فى الحرب البلوبونيزية مستخدما ضمير الغائب المفرد ، ومن قبيل الصدفة ، حتى أن القارىء قد لا يدرك فى العادة ، أنه يتحدث عن نفسه • ولم يكن بروكوبيوس موضوعيا غاية الموضوعية ، على الرغم من أنه من النادر أن استخدم ضمير الفاعل ويمثل وصفه للمهمة التى كلفه بها بليزاريوس عندما حاصر القوط روما ، السمة الموضوعية التقليدية عنده ، عندما فضل الا يفصح عن شخصيته • وكان بليزاريوس قد وجه خطابا الى الرومان الذين كانوا يتضورون جوعا ، والذين طالبوه باتخاذ موقف ، بشأن وضع حد للمصير السيىء الذى يتعرضون له ، وذلك بشن معركة واحدة ضد العدو •

« وبتلك الكلمات شجع بليزاريوس جماهير الشعب الرومانى ثم سمح لهم بالانصراف • وأمر بروكوبيوس ، كاتب هذا التاريخ ، بالذهاب الى نابلى فورا •• وكلفه بأن يشحن أكبر عدد ممكن من السفن بالحبوب ، وأن يحشد كل الجنود الذين وصلوا من مدينة بيزنطة فى تلك الفترة ، وكذلك كل الجنود الذين تولوا رعاية الخيول بالقرب من نابلى أو الذين كانوا يؤدون مهاما أخرى •• ورافق بروكوبيوس مونديلاس Mundilas وهو أحد الحراس ، هذا بالاضافة الى عدد قليل من الفرسان • ثم رحلوا جميعا ليلا عبر بوابة بولس الرسول ، مارين خلسة بالعدو دون أن يراهم ، والذى أقام معسكره على مشارف طريق أبيان Appian Way لحراسته » (٣٣) •

كانت الكتابة بموضوعية الطابع العام للمؤرخين العلمانيين فى الماضى • وتجنبوا أيضا الاشارات الى القوى الخارقة للطبيعة ، وأعنى بذلك ، الآلهة باعتبارها قوى حركت مجرى الأحداث • ونظرا لأن بروكوبيوس كان مسيحيا فانه كان من المستحيل عليه أن يجارى أسلافه المؤرخين فى تجاهل قدرة الله العلى القدير • ومع ذلك فاذا كان بروكوبيوس راغبا فى أن يظل متمتعا بسمعة حسنة بين جمهور الطبقة المثقفة فى القسطنطينية الذين كان يكتب اليهم ، فقد كان عليه أن يحاول ذلك • وعلى الرغم من أنه تحدث عن الله وعن العناية الالهية ، فانه فضل أن يخفى ارادة السماء تحت عباءة القضاء والقدر والحظ والصدفة • وكان بروكوبيوس حريصا على أن يظل بعيدا عن المنازعات اللاهوتية التى سادت عصره ، وهو ، بالطبع ، الاجراء الصحيح الوحيد ، الذى كان يتحتم على المؤرخ العلمانى اتخاذه •

وعلى الرغم من أن لقب « أبو التاريخ » ينسب فى العادة الى هيرودوت فحسب ، فان ثوكيديد يطلق عليه من باب التشريف لقب أبى التاريخ « العلمى » ولا ريب أن ثوكيديد هو أول من قدم بحثا مستفيضا عن الحرب • فقد حاول عند كتابته عن الحرب البيلوبونيزية أن يثبت أن الحرب عديمة الجدوى ومحفوفة بالمخاطر ومدمرة للقيم والامكانات المادية والمعنوية • ولاشك أن بروكوبيوس الذى شارك الرأى أولئك الذين عارضوا الحرب ، عندما أوشك على الانتهاء من كتابة عن الحروب ، وبذلك يكون قد شارك ذلك المؤرخ القديم فى شجب الحرب منذ بداية كتابته • ففى الفقرات الأولى من كتبه عن الحروب ، عبر بروكوبيوس عن رأيه ، بالمعنى الضمنى على الأقل ، عن الأدلة والبراهين التى تعارض قيام الحرب، والتى كان ثوكيديد قد عرضها منذ القرن الخامس الميلادى : ففى كثير

من الأحوال يعجز الذين يشعلون نيران الحرب عن احراز النصر بعد أن أقحموا أنفسهم فيها عن جهالة (٣٤) ·

ومن بين العادات التى أخذها بروكوبيوس على المؤرخين الأول ، وبصفة أساسية عن ثيوكيديد ، كانت احتواء كتاباته على خطب من بنات أفكاره ، أقحمها ، وقطع بها تسلسل عرضه للأحداث التاريخية · وبالمقارنة فان قليلا من تلك الخطب ظهرت فى كتبه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، وفى كتابه عن التاريخ السرى ، فى الوقت الذى احتوت فيه كتبه عن الحروب على الكثير منها · وتخدم تلك الخطب أهدافا متعددة · فربما قصد بروكوبيوس من تقديم تلك الخطب محاولة التخفيف من حدة الرتابة المجردة الناجمة عن سرده للأحداث التاريخية · وعندما يجعل بروكوبيوس الشخص الذى يلقى الخطبة يعبر عن أفكار لها طبيعة فلسفية ، فللقارىء الحق فى الميل الى الاعتقاد بأن بروكوبيوس كان يعبر عن وجهات نظره الشخصية · واذا ما أثار متحدثه الذى يلقى الخطبة قضايا يمكن أن تكون تهجما على الامبراطور ، فللمرء أن يفترض أن بروكوبيوس وظف الخطبة للتعبير عن نقده لبعض السياسات والتصرفات الامبراطورية دون عقاب ·

ان أفضل تعليل للعدد الكبير من الخطب هو أن هذا النمط من الكتابة كان على الأرجح مألوفا فى تلك الأزمنة · والواقع أن هذا النمط من الكتابة كان موجودا لعدة قرون ، واستمر كلون من الأدب الشعبى حتى العصور الحديثة · وقد يرفض القارىء فى عصرنا تلك الخطب لاعتبارات عديدة · اذ غالبا ما تعترض تلك الخطب تسلسل سرد الأحداث التاريخية من الناحيتين الأدبية والمنطقية · بيد أن المعاصرين لبروكوبيوس قبلوا تلك الخطب كقبولهم للمديح والاطراء ، بكل ارتياح واطمئنان · ومنذ عصر بروكوبيوس أصبح التاريخ علما ، فى مختلف الأحوال والظروف · ولم يعد من الممكن السماح بوجود مثل تلك « الانحرافات » الأدبية ·

ويمكن توضيح احدى الخطب التى أوردها بروكوبيوس والتى ربما تكون قد استوقفت القارىء الحديث ، بالمثال التالى · وهذه الخطبة القاها بليزاريوس على مسمع من ربيبه عندما نما الى علمه خيانة زوجته أنطونينا للحياة الزوجية · اذ لم تكتف هذه السيدة بعرض مفاتنها على الآخرين ، وانما قامت بتبديد ثروة زوجها ومن ثم ناشد القائد ربيبه ، فوتيوس Photius التصدى لهذه الحالة : « أيها الابن العزيز ، ليست لديك معرفة عن أحوال والدك ، اذ أنه قد فارق الحياة وأنت فى سن الرضاعة ولم يترك لك شيئا لترثه عنه ، لأنه لم يكن محفوظا فيما يتعلق

باقتناء الممتلكات . بيد أنك نشأت وترعرعت فى كنفى ، باعتبارى زوجة لوالدتك منذ طفولتك ، والآن وقد أصبحت فى عنفوان شبابك فان الواجب يحتم عليك أن تدافع عنى بكل جهدك ، اذا ماتعرضت لأى ظلم ، ولاسيما أنك تملك ثروة ضخمة ، يا ولدى الشهم ، الواقع أننى أستطيع القول ، بكل حق وصدق أننى والد لك ، ولوالدتك ، ولكل عشيرتك . ذلك لأن الرباط الذى يربطنا جميعا ليس مجرد رباط الدم ، وانما رباط الأفعال بكل الحقيقة المطلقة ، والتى يعبر عنها الناس بحبهم لبعضهم البعض . ولقد حان الوقت الذى لايصح فيه أن تتخذ موقف المتفرج ، وتتركنى وحدى فى اللحظة التى يتعرض فيها بيتى للخراب ، بالاضافة الى حرمانى من ثروتى الضخمة ، بالاضافة الى أن والدتك جلبت على نفسها العار والشنار فى أعين كل الناس وضع فى اعتبارك أن خطايا النساء لاتسىء الى أزواجهن فحسب ، وانما تلحق الأذى الأشد بذريتهن ، لأنه سيكون قدرهم حمل وزر أمهاتهن فى السمعة السيئة التى تلتصق بهم أينما ذهبوا وكأنهم يشابهون أمهاتهم . ومن ثم أرانى أطلب منك الاستشارة فى أمر يخصنى ، وهو أنى أحب زوجتى حبا جما ، واذا ما سمح لى أن أثأر للفساد الذى دب فى بيتى ، فانى لن أصيبها بأذى ، بيد أنه فى وجود ثيودوسيوس Theodosius فانى لن أستطيع أن أعفيها من الاتهامات الموجهة ضدها » (٣٥) .

ويبدو أن بروكوبيوس لجأ الى ذكر الخطب ، من حين الى آخر ، كوسيلة للتعبير عن وجهة نظره فى مسألة معينة . ومن الراجح أن تكون الخطبة التى ألقاها حنا القبدوقى John the Cappadocian مثلا موضحا لهذا النوع من الخطب عندما أراد أن يثنيه عن القيام بحملة عسكرية ، استهدفت اخضاع مملكة الوندال فى شمال أفريقيا وحذره من نتيجة مثل تلك الحملة الطموحة والمشكوك فى نجاحها ، وتساءل قائلا : « ولنأخذ عبرة مما حدث فى الماضى ، أو ليس من الأفضل أن نحب الهدوء عن مخاطر الحرب الضروس » (٣٦) .

ولا يخامر قارىء الخطبة التى ألقاها بليزاريوس على مسمع ستيفانوس Stephanus - المبعوث المفوض من قبل أهالى مدينة نابلى ، فى أن بروكوبيوس كان يعبر عن وجهة نظر القائد نفسه وكان بليزاريوس قد أحكم الحصار حول مدينة نابلى لفترة من الوقت وقد أدى فشل بليزاريوس فى الاستيلاء على المدينة الى شد أزر المدافعين عنها والاعتقاد بأن مدينتهم ليس من السهل سقوطها ، ثم تم اكتشاف قناة للمياه بمحض الصدفة ، وأمكن زحزحة أحد الأحجار الضخمة ، واستطاعت

فرقة من الجنود الانطلاق الى داخل المدينة وأصبح فى الامكان فتح أبواب المدينة بسهولة ، وأخذ المدافعين على حين غرة . وما أن دخلت قوات بليزاريوس على هذا النحو حتى تعرض كل سكان المدينة لأهوال « عمليات السلب والنهب » ومن أجل نجنب حدوث مثل تلك الكارثة فقد تحدث بليزاريوس الى ستيفانوس عن العواقب الوخيمة التى يمكن أن تنجم ، وكان بليزاريوس يأمل فى أن يكون ستيفانوس قادرا على اقناع المدينة بالاستسلام .

« لقد شاهدت سقوط العديد من المدن ، وانى لعلى بينة بما حدث فى مثل تلك الظروف . اذ يقوم جنودى بذبح الذكور من كل الأعمار ، وأما عن النساء ، فبرغم أنهن يتمنون الموت ، فانهن لاينعمن بنعمة الموت ، وانما ينقلن عنوة لاغتصابهن ، ويتعرضن لمعاملة لا انسانيـة ومثيرة للرثاء . وأما عن الأطفال الذين قد حرموا من التربية والاعالة المناسبة فيتحولون الى رقيق رغم أنوفهم ، أما الرجال فتتلطخ أيديهم بدماء آبائهم ويا عزيزى ستيفانوس ، ليس هذا هو كل شئ ، اذ أننى لم أذكر لك شيئا عن الحريق الضخم الذى يلتهم كل الممتلكات ، ويقضى على جمال المدينة قضاء مبرما . وانى لأشفق عليك وعلى مواطنى نابلى ، عندما يجول بخاطرى صورة المدن التى استوليت عليها فيما مضى ، وأتصور المصير الذى ستتعرض له نابلى ، عندما نفتحها عنوة . ان مثل تلك الأساليب تلقى استحسانى ضد أى مدينة نجد صعوبة فى الاستيلاء عليها . بيد أنى أتمنى لهذه المدينة القديمة ، والتى يسكنها المسيحيون والرومان منذ عصور طويلة ألا تتعرض لمثل هذا المصير ، وبخاصة على يدى باعتبارى قائدا للقوات الرومانية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان بجيشى أعدادا كبيرة من البرابرة ، الذين فقدوا اخوتهم وأقاربهم أمام سور هذه المدينة ، وليس فى استطاعتى كبح غضبهم الشديد ، اذا ما استولوا على المدينة بقوة السلاح . وعلى ذلك فما زال الأمر بين يديك لتختار وتدلى بدلوك بما يعود عليك بالخير ، وأن تسلك طريق النجاة وتتجنب الضياع ، لأنه اذا ما دارت عليك الدائرة ، فلا تلومن الا نفسك » (٣٧) .

ان كتب بروكوبيوس عن الحروب هى أروع أعماله بلا جدال . ومن بين الخصائص التى ساهمت فى علو مكانة كتبه عن الحروب ، كانت الطريقة الموضوعية التى عرض بها المؤرخ مادته التاريخية . وربما عمل على زيادة روعة كتبه عن الحروب الافتقار الشديد للاستقلال بالرأى فى كتابه عن التاريخ السرى ، وكتابه عن الانجازات المعمارية الضخمة ، والذى ظهر بكل وضوح فيهما . وعلى سبيل المثال ، لايستطيع الانسان أن يستشعر

قسوة قلم بروكوبيوس اللاذع سوى مرة واحدة في كتبه عن الحروب ــ عندما تحدث عن حنـــا القبدوقى ، أمين خزانة الامبراطور جوستنيان ، اذ كان حنـــا هذا متحجر القلب ، « وأنذل مخلوقات الله » (٣٨) وأظهر بروكوبيوس أيضا ، في كتبه عن الحروب ، قدراته على الملاحظة ، ومعرفته لأنواع الأسلحة ، والنظم والترتيبات الحربية ، ومهارته في وصف مظاهر الطوبوغرافيا ، والأحوال المشابهة التى مكنت القارىء من متـابعة قراءة سرده للأحداث التاريخيـــة بذهن متقد وكان بروكوبيوس يكتب بادراك حسى كبير عن النظم والترتيبات الحربية يجعل القارى يفترض أن المؤرخ كان يحظى بثقة بليزاريوس عندما كان يضع الخطط الحربية .

ونظرا لأن بليزاريوس وجد أن الجيوش القوطية تفوقه عددا ابان حروبه في ايطاليا ، فانه كان مستعدا على الدوام أن يخلص نفسه من أى موقف خطير ، أو أن ينتهز أى فرصـــة طيبة ممكن استغلالها . والحادثة التى عرضها بروكوبيوس هنا حدثت عندما كانت مدينة روما فى أيدى القوط ، وكان جيش بليزاريوس واقعا تحت الحصار ، بيد أن وصول ستمائة وألف من الفرسان « الرومان » مكن القائد من أن يتخذ موقفا هجوميا . على أن طبيعة وصف بروكوبيوس توحى بشدة أنه كان على بينة تامة بخطط بليزاريوس ، أو على الأقل على علم بها .

« وكان بليزاريوس فى غاية السرور لقدوم الفرسان وفكر بمجرد وصولهم فى قيام جيشه بشن هجوم على العـــدو . وبنـــاء على ذلك ، ففى اليـــوم التالى لقدوم النجـــدة ، أمـــر بليزاريوس تراجان Trajan أحد رجال حرسه الشخصى ، والذى كان محاربا مقداما ومفعما بالنشاط ، أن يصطحب معه مائتين من الفرسان من الحرس ، وأن ينطلقوا جميعا على الفور صوب العدو وعليهم وبمجرد وصولهم الى مقـــربة من معسكرات العدو ، احتلال تل عال (أشار بليزاريوس اليه) ، وأن يظلوا هناك دون أدنى حركة واذا ما حاول العدو مهاجمتهم ، فلا يسمح بتحول المعركة الى حد التلاحم مع العدو ، وليس عليه استخدام السيف أو الحربة بأى حال من الأحوال ، وانما عليه أن يستخدم الأقواس فحسب ، وعنـــدما يشعر بأن كنانته لم يعد بها سهام ، فان عليه أن يلوذ بالفـــرار بأقصى ما يمكن دون التفكير فى الخزى أو العار ، وأن يعود ثانية الى الاستحكامات بكل قوة ونشاط . ووضع تراجان كل المعدات اللازمة لاطلاق الســـهام والرجال المهرة فى استخدامها فى حالة استعداد . ثم خرج تراجان ومعه مائتان من الفرسان من بوابة سالاريان Salarian Gate صوب معسكر العدو . ولكن العدو أخذت منه الدهشة كل مأخذ بسبب سرعة حدوث

الموقف المفاجىء ، وانطلقوا من معسكرهم على وجه السرعة ، بعد أن حمل كل منهم ما استطاع حمله من سلاح ، بيد أن الرجال التابعين لتراجان انطلقوا بسرعة صوب قمة التل وبدأوا يمطرون العدو بالقذائف ، ونظرا لتفوق سهامهم بين حشد كثيف من العدو ، فانها كانت موفقة فى أغلب الأحوال ، فى اصابة أحد رجال العدو أو أحد خيوله ، بيد أنه عندما نفدت سهامهم ، ولوا الأدبار الى الخلف بأقصى سرعة ممكنة ، فى الوقت الذى ظل فيه القوط يهاجمونهم ويطاردونهم ، وعندما اقترب القوط من الاستحكامات ، أمطرهم الرماحون بوابل من السهام فشعر البرابرة بالخوف وتوقفوا عن المطاردة ، ويقال انه ما لا يقل عن ألف من القوط لقوا حتفهم فى هذه العملية ، وبعد ذلك بعدة أيام أرسل بليزاريوس كلا من مونديلاس Mundilas ، وديوجينيز Diogenes ، وهما من المحاربين الذين تميزوا بالشجاعة الفائقة ، وهما من بين حرسه الشخصى ، ومعهما ثلاثمائة من الحرس الشخصى أيضا ، وأمرهم جميعا بالقيام بمهمة مماثلة للمهمة السابقة ، وتصرفوا وفقا للتعليمات التى صدرت اليهم ، وعندما التقى العدو بهم كانت نتيجة هذا اللقاء لا تقل عن اللقاء السابق ، بل ربما كانت خسائر العدو تفوق خسائره فى المرة الأولى بكثير ، وللمرة الثالثة أرسل بليزاريوس أحد حرسه ، أويلاس Oilas ، ومعه ثلاثمائة من الفرسان ، وزوده بالتعليمات عن كيفية التعامل مع العدو ، وتمكن من احراز نفس النتيجة ، واستطاع بليزاريوس القضاء على أربعة آلاف من أعدائه ، فى تلك الهجمات الثلاث » (٣٩) .

وأينما كان بروكوبيوس فانه حرص على تقديم وصف دقيق للمراحل المتعددة التى تمر بها أى معركة ، وأبدى مقدرة أصيلة عند وصفه للأسلحة التى استخدمت فى تلك المعارك أيضا ، وفى الوصف التالى قدم بروكوبيوس للقارىء وصفا للمعدات الحربية التى تستخدم فى اقتحام الاستحكامات ، أو فى الدفاع عنها ضد المهاجمين ، ويتحدث الوصف عن الملك القوطى فيتجيز Vittigis الذى كان على وشك شن هجوم على الاستحكامات التى كانت تحمى مدينة روما .

« وشيد أبراجا خشبية فى مستوى ارتفاع سور العدو ، وعرف الحجم الحقيقى للسور من خلال حسابات عديدة مبنية على طريقة تركيب الأحجار ، وكانت تلك الأبراج الخشبية لها عجلات مثبتة تحت أرضيتها ، ليتمكن الجيش المهاجم من تحريكها الى أى منطقة وفقا لرغبتهم ، فى أى وقت ، وتجر تلك الأبراج ثيران مرتبطة ببعضها البعض ، وبعد ذلك أعد عددا كبيرا من السلالم ، التى يمكن أن تصل الى متراس سور المدينة ،

وأعد أربعا من آلات الحرب التي يطلق عليها منجنيقات . وكان المنجنيق على النحو التالي : أربع دعامات خشبية عمودية ، متساوية في الطول تقام في مواجهة بعضها البعض ، ويثبت بها ثمانية قطع من الخشب أفقية ، أربع قطع فوق ، وعدد مساو لها في القاعدة ، وبذلك يشد الخشب بعضه بعضا . وبعد أن يأخذ المنجنيق شكل المبنى الذي له أربعة جوانب ، فانهم لا يحيطونه من جوانبه بالجدران الخشبية أو الحجرية ، وانما يغطونه بالجلد ، لكي يظل المنجنيق خفيفا ولا يجد من يجره صعوبة ، كما يسهل على من يرغب الاختباء بداخله حتى لا يتعرض لأدنى خطر من جراء قذائف العدو . وفي داخل المنجنيق يعلقون دعامة خشبية كبيرة في السقف بواسطة سلاسل حيث تتحرك تلك الخشبة بسهولة ويكون موضعها في منتصف المنجنيق من الداخل . ثم يجعلون طرف هذه القطعة الخشبية مدببا ، ويغطون هذا الطرف برأس ضخم من الحديد وعلى النحو نفسه يغطون الطرف المستدير للقذائف ، وأحيانا يجعلون الرأس الحديدية على شكل مربع مثل سندان الحداد . وتحمل هذا المنجنيق أربع عجلات مثبتة كل واحدة منها في العمود الأفقي ، وتحركه مالا يقل عن خمسين رجلا وهم بداخله . وعند استخدام المنجنيق لهدم أحد الأسوار ، فانهم يقومون بسحب الدعامة الخشبية المعلقة الى الخلف بتحريكها بحركة آلية معينة ، ثم يتركون تلك الدعامة تتأرجح الى الامام بقوة شديدة تجاه العدو . وبذلك تستطيع تلك الدعامة الخشبية عن طريق الضربات المتكررة أن تحطم أي سور وتحدث به فجوة بسهولة تامة . ولهذا السبب تحمل هذه الآلة اسمها ، لأن الطرف الذي يسدد الضربات من الدعامة قادر على أن يهشم أي شيء يصطدم به ويجعله يتناثر في كل اتجاه ، تماما كما يفعل الذكور بين النعاج . تلك هي المنجنيقات التي يستخدمها المغيرون على أي سور من أسوار المدن أو القلاع . وكان عند القوط أعداد لا حصر لها من مجموعات الحزم من الأخشاب والغاب لكي يلقوا بها في أي خندق مائي يوجد حول حصن أو قلعة حتى يجعلوا هذا الخندق مساويا للأرض ، وحتى تستطيع منجنيقاتهم المرور فوق الخندق وبعد أن أعد القوط عدتهم ، كانوا متلهفين على شن هجوم على سور مدينة روما » .

وفي الوقت نفسه أعد بليزاريوس أسلحة مضادة وآلات حربية على أمل المقدرة على صد الهجوم المتوقع .

« وضع بليزاريوس آلة حرب في أبراج السور يطلق عليها « القذافة » ballistae . وكانت تلك الآلات على شكل قوس ، ومن تحتها قصبة رمح ومصنوعة من الخشب ، وهذه القصبة تسمح للقوس بالتحرك

بسهولة ، ويرتكز القوس على قاعدة حديدية مستقيمة . وعندما يرغب المحاربون فى استخدام هذه الآلة الحربية ضد العدو ، يعملون على انحناء طرفى القوس تجاه بعضها بواسطة حبل قصير مثبت بطرفى القوس ، ويضعون السهم فى قصبة الرمح المجوفة ، الذى كان طوله نصف طول القذيفة العادية ، التى يطلقونها من أى قوس ، ولكن عرضه كان يعادل أربعة أضعاف عرض القوس العادى . ومع ذلك فانهم لايضعون ريش السهام من النوع العادى الذى يثبت بها ، وانما يضعون رقائق صغيرة من الخشب بدلا من الريش ، وتعطى هذه الرقائق السهم شكله المألوف ، مع جعل المنطقة التى بها الرقائق كبيرة جدا ومتناسبة مع حجمه الضخم ويعمل الرجال الذين يقفون على جانبى تلك الآلة على اعدادها للعمل باحكام بواسطة أدوات معينة ، ثم تنطلق القصبة المجوفة الى الأمام وتقف، بيد أن القذيفة تنطلق من القصبة بشدة ، وتقطع مسافة لاتقل عن ضعف مسافة ضربتى قوسين ، وعندما تصطدم القذيفة بشجرة أو بصخرة فانها تخترق أيا منهما بسهولة . تلك هى الآلة التى تحمل الاسم السابق ذكره لأنها تنطلق بقوة شديدة جدا . ويثبتون آلات حربية أخرى على امتداد متراس السور ، معدة لالقاء الأحجار . وتشبه تلك الآلات النبال التى يستخدمها الأطفال ويطلقون عليها اسم « الحمير المتوحشة «Wild Asses» أما خارج بوابات السور ، فقد وضعوا استحكامات أطلقوا عليها اسم « ذئاب «Wolves» ، واعدوها على النحو التالى : أقاموا اثنين من قطع الخشب الكبيرة والتى امتدت من الأرض حتى فتحات السور التى تنطلق منها القذائف ، ثم ثبتوا الدعامات الخشبية ، الواحدة بالأخرى ، بعضها فى وضع عمودى والبعض الآخر فى وضع مستعرض ، حتى بدت المسافات بينها فى نقطة التقاطع وكأنها سلسلة من الثقوب . وتبرز منطقة مستدقة الطرف بين كل وصلة ، وهى تشبه شوكة سميكة الى حد كبير . ثم يربطون القطع الخشبية المتعامدة بقطع الخشب الكبيرة العمودية ، مبتدئين من أعلى حتى المنتصف ، ثم يسندون قطع الخشب الضخمة على بوابات السور . وعندما يصعد العدو بالقرب منها ، يقوم من يتولون الحماية فوق السور بالامساك بأطراف الألواح الخشبية ودفعها ، فتسقط تلك الألواح ، الضخمة ، فجأة ، على المهاجمين ، وتقضى عليهم النتوءات المدببة . تلك كانت الأعمال التى انهمك بليزاريوس فى انجازها » (٤٠) .

وبناء على ماورد بعاليه ، فان بروكوبيوس لم ينس على الاطلاق أن كاتب التاريخ يجب ألا يكون هدفه مجرد تقديم المعلومة التاريخية للقارىء فحسب ، وانما عليه أن يعمل على اشاعة المتعة والتسلية فى نفسه أيضا . ومن أجل تحقيق هذا الهدف سعى بروكوبيوس الى جعل سرده التاريخى

مفعما بالحيوية والبهجة كلما كان ذلك ممكنا ، بتقديمه القصص والأحداث العرضية المرتبطة بالأفراد ، الذين شاركوا فى الأنشطة التى يأمل فى أن تحظى باهتمام قارئه • مثل الحادثة التى تطورت الى معركة قرب دارا Daras ، احدى القلاع الحربية الكبرى فى شمال بلاد مابين النهرين • ففى ذلك المكان استطاع بليزاريوس سنة ٥٣٠ م أن يحقق لنفسه مجدا وشهرة بانتصاره على جيش فارسى يفوقه عددا • فقد استعد الجيشان للحرب ولكن لم يكن أحدهما راغبا فى أن يكون البادىء للقتال • فقام أحد المحاربين الفرس بالعمل على الخروج من هذا الطريق المسدود » اذ امتطى صهوة جواده واقترب من المعسكر الرومانى ، وبدأ فى تحدى الجميع طالبا من أى جندى القدوم لمبارزته • ولم يجرؤ أحد من الجيش الرومانى على مواجهة الخطر باستثناء شخص يدعى أندريس Andreas، أحد الحرس الشخصى للقائد بوزيس Bauzes ، ولم يكن جنديا أو لديه دراية بأساليب القتال على الاطلاق ، وانما كان يعمل مدربا للشباب على المصارعة ، فى احدى مدارس مدينة بيزنطة Byzantium ، وكانت مهمته رعاية القائد بوزيس فى الحمام وكان من مواليد مدينة بيزنطة • وكان هذا الرجل هو الوحيد الذى لديه الشجاعة فى الذهاب بمحض ارادته للقاء الشاب الفارسى فى قتال فردى ، دون ان يأمره بوزيس أو أى شخص آخر • واستطاع أندريس أن يأخذ البربرى على حين غرة ، وأن يطعنه بحربته فى صدره الأيمن ، فى اللحظة التى كان يفكر فيها هذا الفارسى فى كيفية مهاجمة أندريس • ولم يحتمل الفارسى الطعنة التى سددها أندريس صاحب القوة الفائقة اليه ، وسقط الفارسى أرضا من على جواده • ثم قام أندريس بذبح الفارسى كما يذبح حيوان الضحية بمدية صغيرة ، فى الوقت الذى كان فيه هذا الفارسى مستلقيا على الأرض ، وصدرت صيحة عالية من سور مدينة دارا ومن الجيش الرومانى • وكان الفرس قد استشاطوا غضبا لتلك النتيجة ، وأرسلوا على الفور فارسا آخر ، لنفس الغرض وكان رجلا متمتعا بكل صفات الشجاعة والقوة واللياقة البدنية ، بيد أنه لم يكن فى سن الشباب ، اذ علا الشيب رأسه • واقترب هذا الفارسى من الجيش الرومانى ، وظل يلوح بشدة بالسوط الذى يضرب به جواده ، ودعا للمبارزة أى رومانى يقبل هذا التحدى • وعندما لم يتقدم أحد لقبول هذا التحدى ، ذهب اليه أندريس للمرة الثانية ، دون أن يلحظه أحد ، وبرغم محاولة هيرموجينيز Hermogenes ثنيه عن ذلك • وانقض المتبارزان على بعضهما البعض بعنف شديد ، واستخدم كل منهم حربته ، بيد أن سلاحيهما اصطدم بدرعيهما ، فاندفع

المتبارزان بعيداً عن بعضهما البعض واصطدم رأساً جواديهما ببعضهما البعض ، وسقط الجواد على الأرض بعد أن طرحا راكبيهما من فوق ظهريهما . وسقط المتبارزان بجوار بعضهما ، وتسارعا في النهوض ، بيد أن الفارسي لم يتمكن من ذلك لأن ضخامة جسده لم تسعفه ، في الوقت الذي تفوق عليه أندريس في سرعة الحركة (لأن تدريبه في مدرسة المصارعة أعطاه تلك الميزة) . وسدد أندريس ضربة عنيفة للفارسي ، الذي حاول النهوض ، وعندما سقط الفارسي على الأرض للمرة الثانية قتله أندريس . ثم انطلقت صيحة الابتهاج عالية من السور ومن الجيش الروماني ، وكانت أكثر علوا عن ذى قبل. وقوض الفرس خيام معسكرهم، وانسحبوا الى بلدة أموديوس Ammodios ، في الوقت الذى غنى فيه الرومان أنشودة الشكر والتسبيح والنصر ، وذهبوا الى الاستحكامات ، لأن الظلام كان قد حل بالفعل وهكذا قضى الجيشان الليل » (٤١) .

وعادة مايثار جدل عند الدراسة لأى مؤرخ يتعلق بتفسيره للتاريخ. وما هي وجهات نظر الكاتب فيما يتعلق بالقوى التى تشكل الأحداث ، سواء كانت تلك القوى تخص : حاكما فردا ، أم شعبا ، أم عصرا ؟ وباختصار فما هي فلسفته عن التاريخ ، وبالنسبة لبروكوبيوس ، هل التزم بأى فلسفة معينة ؟ هل يؤمن بروكوبيوس بأن العوامل والقوى هي التى تحدد أو تؤثر في حركة التاريخ ؟ أم أنه أحجم عن التعبير عن اى أفكار تتعلق بهذا الموضوع كما فعل المؤرخون الأول ؟ هل كان التاريخ بالنسبة لبروكوبيوس مجرد تتابع للأحداث وأن من واجبه تسجيلها بأقصى ما يمكن من الدقة والموضوعية ؟ واذا كان بروكوبيوس قد ظل صامتا بشأن القوى العسكرية التى أثرت في التاريخ ، فهل في استطاعة القارىء ملاحظة وجود أى فكرة في الطريقة التى عرض بها روايته التاريخية أو سرده للأحداث ؟

ويبدو أن أسلاف بروكوبيوس ، وعلى رأسهم هيرودوت وثوكيديد قد أخذوا بفكرة التفسير العصرى للتاريخ عند معالجتهم للكتابة التاريخية . فاعتقدوا أن للدول مدى حياة مثل الشعوب . فالدول تظهر ، وتقوى ، وتتدهور ، وفي الوقت الذى تأخذ فيه تلك الدول في الضعف والاختفاء من مسرح الحياة تبدأ دول أخرى في أخذ مكانها ــ وهكذا حتى آخر الزمان . ويبدو أن كلا من بوليبيوس Polybius وليفى Livy لم يعبرا عن موافقتهما على هذا الرأى بالكامل . وانما اعتقدا أن القضاء والقدر أو الآلهة أرادا أمرا غير عادى ، وأن الامبراطورية الرومانية ربما تتعرض للمحن في المستقبل الذى لايعلمه أحد . ولم يفاخر بروكوبيوس

باعتباره مواطن فى امبراطورية رومانية هلينية. وبرغم أحوال الامبراطورية فى عصره ، عندما كان معظم القسم الغربى من المتعذر استرداده والحرب المستمرة فى ايطاليا قد حولت شبه الجزيرة الى أرض مخضبة بدماء القتلى ، فنادرا ما أخذ بوجهتى نظر بوليبيوس وليفى .

ويستطيع المرء أن يجد تطابقا شديدا بين وجهتى نظر هيرودوت وثوكيديد ووجهة نظر بروكوبيوس فيما يتعلق بالحركة التاريخية . ذلك لأن الثلاثة لم يدافعوا عن وجهات نظرهم على نحو منهجى . وكان بروكوبيوس على اتفاق مع أسلافه القدامى من المؤرخين فى الاعتقاد بأن التاريخ له استمرارية فى المستقبل كما حدث فى الماضى ، وأن الدول تقوم وتسقط وبعضها أقوى من غيرها وأكثر بقاء ، بيد أنها جميعا تتعرض لمرحلتى التدهور والزوال حتما . وكان هيرودوت مستعدا لقبول عامل غير الأفعال التى يمارسها الجنس البشرى له القدرة على التأثير على نمط الأحداث أو تغييرها . اذ كان يرى أن مشيئة الآلهة قد تتدخل . وتدخلت الآلهة فى الحرب بين الاغريق والفرس عندما منحت النصر للاغريق عقابا للأسيويين على صلفهم وكبريائهم .

تعمد ثوكيديد عدم ذكر الآلهة ، ولذلك صار المثل المحتذى عند المؤرخين العلمانيين ، بما فيهم بروكوبيوس . وكان ثوكيديد يرى أنه اذا كانت تلك الآلهة موجودة ، فانها تعيش حياتها الخاصة بعيدا عن حياة عالم البشر . ويرى ثوكيديد أن التاريخ يكشف عن تغيراته التى لا نهاية لها وفقا لما تفرضه ارادة البشر ، والمواقف مع وجود استثناء واحد — ألا وهو عامل الصدفة . والواقع أن الصدفة لها وجود ، وربما وجد دورها فى أفضل الخطط ، وكثيرا ما تلعب الصدفة دورها . ومع وجود هذين الاستثناءين ، وهما تدخل آلهة هيرودوت ، وصدفة ثوكيديد ، ستظل الحركة التاريخية مستمرة وبدون توقف .

ولما كان بروكوبيوس مسيحيا ، فلم يكن فى استطاعته قبول آلهة هيرودوت أو فرصة ثوكيديد بنفس الطريقة التى عرضها كل منهما ، على أن الشىء الذى قام به هو ضم أفكار هذين المؤرخين ووضعها فى قالب مسيحى . وكان تحويل آلهة هيرودوت الى الله الواحد الذى يعبده المسيحيون أمرا يسيرا . وماذا يستطيع أن يفعله مع صدفة ثوكيديد ؟ احتفظ بروكوبيوس بالصدفة ، ولكن لكى يعيد الطمأنينة الى قرائه المسيحيين ، وحتى لاينفر أصدقاءه العلمانيين ، رمز الى العناية الالهية باعتبارها القوة الأساسية خلف الصدفة . ونظرا لأن بروكوبيوس كان مقتنعا تماما بأن الله قادر على كل شىء ، وأنه مدبر الأمر ، فللمرء أن

يعترف بأنه لم يرفض عامل الفرصة عند ثوكيديد لمحاولته الاحتفاظ بعطف القراء المثقفين عليه وتأييدهم له ٠ على أية حال ، فلما كان بروكوبيوس مؤرخا علمانيا ، فمن المستحيل عليه قبول وجهة النظر القائلة بأن التاريخ يسير لتحقيق غاية أو هدف ، وهى الفكرة التى أخذ بها كتاب الحوليات الغربيون فيما بعد ٠

ومن حين الى آخر كتب بروكوبيوس كمسيحى ملتزم غاية الالتزام دون الأخذ فى الاعتبار لرد فعل أصدقائه العلمانيين ، الممكن حدوثه ٠ وعلى ذلك فعند كتابته عن الامبراطور هونوزيوس Honorius الضعيف الذى وجد أن امكاناته المحدودة دون مستوى التعامل مع الارك Alaric فى جنوب ايطاليا وتحقيق السلام للأقاليم الغربية ، ذكر أن الله أنقذ الامبراطور ٠ « وفى الوقت الذى كان فيه هونوريوس ينتظر مايمكن أن تتمخض عنه تلك الأحداث من نتائج ، وهو على أحر من الجمر ، وتتقاذفه أمواج المصير المجهول ، هبطت عليه ضربات حظ رائعة بمحض الصدفة ٠ ولما كان الله فى عون العاجزين عن تدبير أمورهم والمستسلمين لقضائهم هبطت رحمة الله على هذا الامبراطور بعد أن آخذ منه القنوط كل مأخذ » (٤٢) ٠

وبعد ذلك بقليل يجد القارىء لكتب بروكوبيوس عن الحروب نفسه فى مواجهة فقرة يعالج فيها هذا المؤرخ مجرى الحوادث التاريخية على النحو الذى يفعله باحث وثنى وفى هذا المثل الشخصى يناجى بروكوبيوس نفسه بشأن احتلال نارسيس Narses لمدينة روما ٠ اذ كتب يقول : « لقد جال بخاطرى أن أعلق على الطريقة التى تسخر بها الهة الحظ Fortune من أحوال البشر ، فانها لا تزور الناس بحالة واحدة دائما ، أو تنظر اليهم بنظرة متماثلة وانما تغير طريقتها بتغير الزمن والمكان فآلهة الحظ تمارس معهم طريقة معينة ، اذ تعز من تشاء من التعساء ، وفقا لتغير الزمان ، والمكان ، أو الظروف ٠ فلقد حدث أن فقد القائد بيساس Bessas روما ، وبعد ذلك بوقت قصير استرد مدينة البتراء Petra فى اقليم لازيقا Lazica لصالح الرومان ، وعلى العكس من ذلك فان داجيثيوس (٤٣) Dagisthaeus الذى تخلى عن البتراء للأعداء ، استرد روما فى وقت قصير ٠ على أن مثل تلك الأمور تحدث منذ بدء الخليقة وستبقى طالما ظلت الهة الحظ ذاتها تتحكم فى مصائر البشر » (٤٤) ٠

وعبر بروكوبيوس عن رأيه مستخدما الطريقة العلمانية تقريبا عندما علق على موت توتيلا Totila ، ملك القوط الشجاع ٠ ففى قمة نجاح

توتيلا استطاع أن يسترد كل شبه الجزيرة الايطالية من بليزاريوس بما في ذلك مدينة روما . ثم صار في عداد الموتى واندحر جيشه . ودفنه أتباعه ورحلوا . « تلك كانت نهاية عهد وحياة توتيلا ، الذي حكم القوط لمدة احدى عشرة سنة . غير أن النهاية التي حلت به لم تكن تتناسب مع انجازاته السابقة ، لأن الأمور سارت وفقا لما اشتهى هذا الرجل ، الى أن حدثت له تلك النهاية التي لا يمكن أن تكون مكافأة له على مآثره وأعماله ، وللمرة الثانية يبدو واضحا أن الهة الحظ كانت تمرح ، وتلهو ، وتبدد جهود البشر ، وتحولها هباء منثورا بغية استعراض طبيعتها المشاكسة وارادتها التي يصعب تفسيرها ، اذ بعد أن أسبغت النعم على توتيلا بمحض ارادتها دون سبب محدد ولفترة طويلة من الوقت ، أنهت حياة الرجل نفسه ، حيث مات مذعورا وموصوما بالجبن والضياع ، دون سبب مقبول . ولكني أعتقد أن تلك الأمور لم يدركها الانسان على الاطلاق ، ولن يدركها في أي وقت في المستقبل . ومع ذلك فهناك على الدوام كثير من الأحاديث والآراء المتبادلة وفقا لميل واتجاه كل فرد عندما ينشد السلوى لعدم معرفته التفسير الذي يبدو معقولا » (٤٥) .

ويعترف بروكوبيوس أيضا بعزوفه عن تفسير سبب الوباء ، الذي اجتاح القسطنطينية « والعالم كله » سنة ٥٤٢ م ، « وحصد أرواح الناس » ، بغض النظر عن العمر ، أو الجنس ، أو الوضع الاجتماعي . بيد أنه استطاع أن يصف ما أحدثه الوباء . فكتب بروكوبيوس يقول : « والآن فلندع كل امرىء يعبر عن رأيه فيما يتعلق بهذا الأمر ، سواء كان فيلسوفا أم منجما ، أما بالنسبة الى ، فاني سأروى عن المكان الذي بدأ فيه هذا المرض وعن الطريقة التي قضى بها على الناس » (٤٦) .

وليس في استطاعة الانسان تفسير تسلسل الحوادث ، بل أنه غير قادر على ايقاف مجرى الحوادث ، اذا شاء القدر أو شاءت ارادة الله أن يستمر جريانها ويقول ان الانسان قد يصبح مشهورا رغم أنفه طالما كانت تلك هي ارادة الهة الحظ Fortune وهي الحالة التي مر بها كسرى ملك الفرس ، الذي استولى على مدينة انطاكية الكبرى ونجح في تدميرها . « فكل مرة أرادت الهة الحظ أن تجعل من انسان ما رجلا عظيما ، فانها تفعل أمورا في الوقت المناسب وفقا لتحديدها ، دون استطاعة أحد التصدي لارادتها ، ولا تنظر الى وضع هذا الانسان أو محاولاته لمنع حدوث تلك الأمور ، ولاتبالي باللعنات التي ينزلها عليها الكثيرون بسبب

تلك الأمور ، وهم يسخرون باستهزاء لما فعله لعدم استحقاق الانسان للنعم التى أسبغتها عليه ، ولاتضع في الاعتبـار أى شىء على الاطلاق ، اذا ما تحقق الأمر الذى قررت حدوثه أما فيما يتعلق بتلك الأمور فلابد أنها ارادة الله » (٤٧) ٠

ومن الواضح أن بروكوبيوس يجعل مشيئة الله فوق مشيئة الهة الحظ وفقا لما ذكره فى السطر الأخير فى الفقرة السابقة ٠ وكان هذا موقفه بلا ريب ، برغم أنه كان يروق له أن يكتب عن الصدفة على نحو يذكرنا بالمؤرخ ثوكيديد ٠ وحيث ترك ثوكيديد الصدفة والقـدر يعملان وفقـا لما يتمخض عن الظروف أو الهوى ، وضع بروكوبيوس الله فوقهم جميعا ، ووضعه فى جانب العدل أيضـا (٤٨) ٠ وجعـل بروكوبيوس قائده بليزاريوس يقول نفس الأفكار فى الحالة التى تورط فيها اثنان من جنوده اللذان كانا من أفـراد شـعب الماساجيتاى Massagetae* ـ قتلا زميلا لهما لمجرد أنه سخر منهما » فقام بليزاريوس باعدامهما على خازوق عند تل قـريب من مدينة أبيدوس Abydus** وعندما اعترض زمـلاء الجنديين اللذين أعدمهما بليزاريوس ، على القسوة الشديدة التى عاملهما بها القائد (كان الخمر قد لعب بلبيهما) ، عند ذلك استدعى بليزاريوس الجميع وتحدث اليهم عن أهمية أن يكون الله راضيا على الانسان على الدوام٠ « لو أن كلماتى القيتها على رجال يخوضون الحرب للمرة الأولى ، لاستغرق ذلك وقتا طويلا لاقناعكم بالأهمية القصوى لتحقيق العدل من أجل احراز النصر ٠ ان أولئك الذين لايدركون مايمكن أن تتمخض عنه تلك الصراعات الدموية يعتقدون أن نتيجـة الحرب تحسمها قوة السـلاح فحسب ٠ ولكنكم هزمتم مرارا عدوا لايقل عنكم فى القوة أو الشجاعة ، وأنكم غالبا ماجربتم قوتكم ضد أعدائكم ٠ وأعتقد أنه يغيب عن خاطركم أنه اذا كانت الحرب تدور بجهد الرجال فى الجيوش المتصارعة ، فان الله هو الذى يحدد مصير المعركة وفقا لمشيئته ، وهو الذى يمنح النصر فى المعركة ٠ ولما كان الأمر كذلك فمن المناسب القول بأن الليـاقة البدنية الفائقة والتدريب على السلاح وكل مستلزمات الحرب الأخرى أقل أهمية من تحقيق العدل وكل الأمور التى ترضى الله » (٤٩) ٠

وأبدى بروكوبيوس تحفظا فاق فيه غالبية معاصريه بشأن استعداده للاعتقاد فى أقوال المتنبئين ٠ فعند كتابتـه عما فسره كثير من الناس

(★) الماساجيتاى هو شعب كان يعيش فى شرق بحر قزوين فى القرن السـادس الميلادى ـ المترجم ٠

(★★) أبيدوس هى مدينة تقع فى آسيا الصغرى ـ المترجم ٠

باعتباره أقوال متنبئين أحجم عن ابداء رأيه وترك الأمر للقراء • ففى سنة ٣٤٩ م عجل ظهور المذنب بحدوث فيض وافر من النبوءات العادية ، بيد أن بروكوبيوس لم يتأثر بذلك • وكتب يقول : « وفى ذلك الحين ظهر المذنب ، وكان طوله مساو لقامة رجل فى بداية الأمر ، ثم ازداد طوله فيما بعد • وكانت نهايته تجاه الغرب وبدايته تجاه الشرق • وكان موقعـــه خلف الشمس ، اذ كانت الشمس فى بـرج الجدى Capricorn أما المذنب فكان فى برج القوس والرامى Sagittarius ويطلق عليه البعض « أبو سيف » بسبب طوله الكبير ولوجود طرفه المدبب ، ويطلق عليه البعض الآخر « النجم الملتحى » ، وتمكن الناس من مشاهدته لمدة أربعين يوما متصلة • وفى ذلك الحين اختلف المتخصصون فى علم الفلك مع بعضهم البعض كلية ، وأعلن كل منهم رأيا مخالفا لرأى الآخر بشأن ما يشير اليه هذا النجم • بيد أنى أكتب ماحدث ، وأترك لكل فرد مسألة تكوين رأيه وفقا لما تتمخض عنه قريحته » (٥٠) •

وفى سنة ٥٤٧ م حدثت سلسلة من الظواهر الطبيعية جعلت الناس فى حيرة من أمرهم بخصوص احتمال حدوث شىء غير عادى • وبالاضافة الى حدوث عدد من الزلازل ، فاض نهر النيل وارتفع منسوب مياهه الى مستويات لم تسجل من قبـــل • ثم ظهر حوت ضـــخم ، طوله حوالى خمســة وأربعين قدما ، ظل يحـــدث اتلافات شديدة بالسفن ، وعرقلة بالغة لحركتها فى المنطقة القريبة من القسطنطينية لمدة خمسين عاما • وأخيرا جنح هذا الحوت فى الوحل وتم قتله • وبعد أن انتهى بروكوبيوس من عرض وصف مفصل لحادثة الحوت قدم الملخص التالى : « والآن وقد شاهد البيزنطيون الزلازل وعلموا بالتفاصيل التامة عن فيضـــان نهر النيل واصطياد هذا الحوت ، بدأوا يتنبئون على الفور بأن مثل تلك الأمور يمكن أن تحدث وفقا لظروف كل منها • وعندما تأخذ تلك الحوادث من الناس كل مأخذ ، ينزعون الى اطلاق النبوءات المروعة ، وعندما يكونون فى حيرة من أمرهم بسبب الحوادث غير المتوقعة ، والتى تصيبهم بالقلق والاضطراب يطلقون العنان للتخمين بما يمكن أن يتمخض عنه المستقبل • أما بالنسبة الى ، فسأترك لغيرى ما شاء له من نبوءات وتفسيرات » (٥١) •

ويقودنا ذكر موقف بروكوبيوس بخصـــوص أقوال المتنبئين الى مسألة تتعلق بموقفه من الميثولوجيا (*) وهل سلم بروكوبيوس بالقصص الخيالية الرومانتيكية التى كتبها الشاعر الاغريقى هوميروس Homer ، أو القصص التى احتوت على حوادث واقعيـة أو خيالية للكاتب المسرحى

(*) الميثولوجيا هى مجموعة الأساطير المتصلة بالآلهة وأنصاف الآلهـــة والأبطال الخرافيين عند شعب ما ـ المترجم •

الاغريقى سوفوكليز Sophocles ، والتى استمد منها كتاب المسرح الاغريقى حبكة مسرحياتهم ؟ ان الاجابة على مثل هذا السؤال بالايجاب أو بالنفى . فالاجابة بالايجاب تعنى أنه اعتقد ، أو بدا أنه مال الى الاعتقاد ، ان هؤلاء الناس كانوا موجودين بالفعل ، أما اذا كانت الاجابة بالنفى ، وأنه لم يقبل بتلك القصص ، أو على الأقل لم يبدو أنه قد قبل القصص الخيالية المتضمنة للمخاطرات وغيرها . ويجد مثل هذا التحليل ما يؤيده فيما كتبه بروكوبيوس عن اقليم تيراكينا Terracina (٥٢) اذ تحدث عن المراعى الوافرة النماء هناك والتى جعلت من ذلك المكان معسكرا مثاليا للجيش الرومانى . ثم أشار الى جبل كيركيوم Mt. Circaum . القريب من ذلك المكان والنهر الذى يجرى هناك . ويقولون أن أوديسيوس Odyssius قابل كيركى Circe ، بالرغم من أن ذلك يبدو غير جدير بالثقة ، ذلك لان هوميروس أعلن أن محل اقامة كيركى كان فى احدى الجزر . ومع ذلك أستطيع القول أن جبل كيركيوم يمتد داخل مياه البحر ، ويشابه الجزيرة ، فالذين يبحرون بحذائه وكذلك الذين يمشون الى الشاطىء بالقرب منه يبدو اليهم كل مظهر من مظاهر الجزيرة . وعندما يصل الانسان الى ذلك الجبل يدرك أنه قد انخدع عندما اصدر رأيه السابق . وربما أطلق هوميروس على المكان اسم جزيرة لهذا السبب نفسه » (٥٣) .

لفت بروكوبيوس الانتباه الى وجود بون شاسع بين التاريخ والميثولوجيا . وفعل بروكوبيوس ذلك أثناء ذكره للسمات الجغرافية والطوبوغرافية لاقليم لازيقا Lazica ، الذى يطل على الشاطىء الشرقى للبحر الأسود . وقدم الدليل والحجة بهدف التأكيد على أن اللازيين Lazi الذين شغلوا هذا الاقليم على عصره ليسوا سوى الكولخيان Colchians القدامى ، « الذين قاموا بمجرد تغيير اسمهم فى الوقت الحاضر الى لازى ، كما تفعل أمم البشر ، وكما يحدث تماما لكثير من الأشياء » . ولهذا السبب لم تعد الروايات التاريخية المتعلقة بهذا الاقليم موضع قبول . اذ ظهرت هناك أحوال جديدة ، وانتقلت الى تلك المنطقة شعوب أخرى . وكان لابد أن تخضع كل تلك التغيرات للدراسة والبحث ، « انى لا أروى قصصا ميثولوجية عنهم أو معلومات قديمة ، أو حتى أحكى عن أى جزء فى البحر الأسود مثل قول الشعراء ان بروميثيوس Prometheus (*) كان موثوقا هناك ، لأنى أعتبر أن

(★) تحكى الميثولوجيا أن بروميثيوس هو سارق النار من السماء ومعلم البشر استعمالها ومن أجل ذلك تم ربطه فى احدى الصخور فى بلاد القوقاز الى أن التهم أحد النسور كبده — المترجم .

التاريخ يعيد كل البعد عن الميثولوجيا » · وانما أعرض بكل دقة وتنسيق أسماء تلك الأماكن والحقائق التى تتعلق بها فى الوقت الحاضر » (٥٤) ·

رفض بروكوبيوس قبول الأعمال الخارقة للعادة فى الميثولوجيا القديمة ، بيد أنه اعتقد اعتقادا جازما أن اله المسيحيين قادر على صنع المعجزات · ويصف بروكوبيوس كيف أن جوستنيان نفسه أصبح مستفيدا من المعجزة · وكان الامبراطور قد أصيب بمرض فى ركبته سبب له ألما مبرحا · ويظن بروكوبيوس أن الإمبراطور جلب هذا المرض لنفسه بسبب الطريقة الصارمة التى اتبعها ابان الصوم الكبير · اذ عاش الامبراطور دون تناول للطعام لعدة أيام ، ونادرا ما كان يذهب الى الفراش ، واذا ما أراد أن يأكل فانه « امتنع عن تناول الخبز والخمر وكل أنواع الطعام الأخرى ، واكتفى بأكل الأعشاب البرية فحسب والمنقوعة تماما فى الملح والخل » · واستمر بروكوبيوس يقول : « ولهذا السبب تمكن المرض من الامبراطور وصار خارج نطاق قدرة الأطباء ، وظل جوستنيان يعانى بشدة من تلك الآلام ، لفترة طويلة من الوقت · ولكن ابان ذلك الحين سمع جوستنيان عن رفات مقدسة تم الكشف عنها ، والتمس عندها العلاج بفضل ايمانه بها ، وبعد أن قطع الأمل فى القدرة البشرية ، وفى لحظة من الضرورة الملحة ، حقق ثمار ايمانه الصادق بها : لأنه ما أن وضع القساوسة المدخر الذى به رفات الموتى reliquary على ركبة الامبراطور حتى زال المرض المزمن ، بفعل رفات الرجال الذين كانوا قد نذروا أنفسهم لاعلاء كلمة الله » (٥٥) ·

على أن ذكر هذه المعجزة فى كتاب بروكوبيوس عن الانجازات المعمارية الضخمة ربما يجعل القارىء فى ريبة بشأن اذا ما كان بروكوبيوس مؤمنا حقا بما كتبه · بيد أنه كتب عن معجزة أخرى فى كتبه عن الحروب، وتزيل هذه المعجزة أى شك بهذا الخصوص · وتتعلق هذه المعجزة بأحد النساك السريان · كان هذا السريانى يدعى يعقوب ، الذى وطد نفسه على الالتزام الشديد بالأمور الدينية · وعاش هذا الناسك منفردا لعدة سنوات فى مكان يدعى انديلون Endielon ، على بعد مسافة يوم من مدينة آمد Amida ، حتى يتمكن من التفرغ للتأمل الروحى فى أمان · ولكى يعاونه سكان ذلك المكان على تحقيق هدفه ، قاموا باقامة سياج حوله ، ولم تكن الأوتاد متصلة ، وانما أقيمت على مسافات متباعدة حتى تسمح لمن يقترب منه من مشاهدته والتحدث اليه · وأقاموا له سقفا صغيرا فوق رأسه كاف لحمايته من الأمطار والجليد · وظل الرجل هناك قابعا لفترة طويلة من الوقت ، دون أن يستسلم لحرارة الجو أو للبرد

على الاطلاق ، وظل مقيما أوده على القليل من الحبوب النباتية التي اعتاد على تناولها على فترات متباعدة وليس كل يوم . وما أن شاهد بعض الهياطلة Ephtholitae ، الذين اجتاحوا الاقليم بالقرب من ذلك المكان ، يعقوب حتى استلوا أقواسهم بتلهف شديد لاصابته . بيد أن الشلل أصاب أيديهم جميعا وأصبحت غير قادرة على استخدام الأقواس كلية » (٥٦) .

ولابد أن هذه الفقرة قد دحضت افتراض هؤلاء الباحثين الذين حاولوا وصف بروكوبيوس بأنه كان صاحب فكر متحرر فيما يتعلق بالشئون الدينية . على أن ترك بروكوبيوس عمل القضاء والقدر والحظ لارادة الله يجب أن يدحض زعمهم بأن اشاراته عن القضاء والقدر كانت وفقا لطريقة ثوكيديد الى حد كبير . كما أن حديث بروكوبيوس عن البابا على أنه « الأسقف الأكبر فى روما » لايمكن اعتباره دليلا على دهريته agnosticism المزعومة . اذ ربما استخدم هذا التعبير لمجرد ارضاء قرائه العلمانيين . ولاشك أن تلك الاشارة المتعلقة بالبابا انما كانت لارضاء السواد الأعظم فى القسطنطينية الذين كانوا غير مؤيدين لادعاء روما بحقها فى الأولوية فى المنزلة والأهمية . ومن المحتمل أن تلك الأغلبية اشتملت على عدد من رجال الدين والعلمانيين ، ومعهم بروكوبيوس ، وكلهم جميعا لم يؤيدوا بالكامل التعاليم البطرسية (٥٧) Petrine Doctrine على النحو الذى قدمه المدافعون عن تلك التعاليم بالغرب .

عبر بروكوبيوس عن بعض الضيق بالناس الذين كثر جدلهم حول المسائل اللاهوتية الدقيقة اذ جعله الخلاف حول طبيعة المسيح ، والذى طال مداه يبدى برودا تاما فقد كتب يقول : « أما بخصوص النقاط المتنازع عليها فبرغم أنى على بينة تامة بها ، فانى لن أذكرها على الإطلاق، لأنى أعتبر الخوض فى محاولة معرفة طبيعة الله للوصول الى ماهيته ، ضربا من الحماقة الجنونية ، لأنى أعتقد أن الانسان لا يمكن أن يدرك الأمور البشرية بكل دقة ، فما بالك عن قصوره فى محاولة ادراك الأمور التى تخص طبيعة الله . ولذلك فانى سالتزم الصمت المطبق فيما يتعلق بتلك الأمور ، من منطلق دافع واحد فحسب ، وهو أن المعتقدات المبجلة والقديمة لايمكن أن تكون غير مترابطة ولايمكن لى أن أقول شيئا عن الله سوى أنه فعال للخير ووسعت رحمته كل شيء » (٥٨) .

ومن الثابت أن بروكوبيوس لم يوافق على الاجراءات الصارمة التى اتخذها جوستنيان لقمع الآراء الدينية المخالفة لمذهب الدولة ، وكذلك

فعل الكثيرون من رعايا الامبراطور ولو قدر لبروكوبيوس اصدار الكتاب الخاص بالموضوعات الدينية الذى كان قد اعتزم اعداده فى وقت ما ، لكان من المحتمل أن يجيب عن القضايا المتعلقة بوجهات نظرة الدينية ٠ وعلى الرغم من أن بروكوبيوس لم يكن دهريا أو ملحدا ، فان هناك دليلا ضعيفا فى كتاباته عن أنه كان رجلا مؤمنا ايمانا عميقا ٠ فلم يعبر عن مشاعره الدينية عندما كتب عن المسيح أو القديسين أو الكنيســـة ٠ فعندما كان يكتب عن أمر يبدو مكتنفا بالأسرار ، مثل عدم محاولة القوط التوغل داخل مدينة روما من خلال « السور المكسور Broken Wall» حيث قيل أن بطرس الرسول هو الذى دافع عن المدينة ، فان بروكوبيوس اكتفى بذكر تلك الرواية وأنه كان من بين الذين « أصابتهم الدهشة » من حدوث هذا الأمر (٥٩) ٠ وربما توقع القارىء أن يقدم بروكوبيوس شيئا من الاعتراف بالأعمال التى تمت باذن الله ، والتى فاقت طاقة البشر ٠ بيد أنه لم يذكر شيئا لأنه كان مؤرخا « علمانيا » ٠

— ٢ —

بيده المبجل

ان (بيده) هو ، « المؤرخ الأول لأوربا فى العصور الوسطى ، ومعلمها فى تعيين التواريخ الدقيقة ، للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمنى » (١) • وربما كان ميلاده سنة ٦٧٣ م بجانب الشاطىء المنعزل لشمال شرق انجلترا حيث ارتفعت الأسوار المتواضعة لدير ويرمارث Wearmouth ، على مقربة من ذلك المكان ، بعد سنة من ميلاد (بيده) • وهذا القدر الضئيل عن بيده Bede ، وما لا يزيد كثيرا عنه ، فيما يتعلق بحياته الشخصية الذى أضافه المؤرخ الى تاريخه الكنسى عن حياة الشعب الانجليزى ويحكى (بيده) ، أن أقاربه وضعوه تحت رعاية الرهبان ، وهو فى السابعة من عمره • وبعد ذلك بعامين ، أى سنة ٦٨٢ م ، أرسله بندكت بيسكوب Benidict Biscop رئيس الدير ، مع حوالى عشرين من جماعة رهبان دير ماوث الى دير جارو Jarrow على بعد عدة أميال من ديرهم الأول ، ويقع ديرهم الجديد على الضفة اليمنى لنهر تاين Tyne • وفى دير جارو قضى (بيده) طيلة حياته ، باستثناء زيارة واحدة ، الى لنديسفرين Lindisfrane ، التى تبعد مسافة خمسين ميلا الى الشمال ، وزيارة أخرى الى يورك York ، التى تقع جنوبا ، وعلى مسافة أبعد قليلا عن مسافة زيارته الأولى • ولا يمكن لأحد أن يجزم بأنه قام برحلات أخرى ، بخلاف الرحلة التى تصر الأسطورة ، على أنه قام بها الى روما •

وبالنسبة لبيده كانت الفترة ما بين سنة ٦٧٣ م وحتى وفاته سنة ٧٣٥ م فترة شغلها كطالب علم ، وراهب ، ومعلم ، وكاتب • وحصلنا على تلك المعلومة من شهادته • « ومنذ ذلك الحين فصاعدا » ، وأعنى

بذلك ، منذ الوقت الذى صار فيه عضوا فى الأخوة الديرية فى ديرى ويرماوث ،وجارو ، « فقد قضيت كل حياتى فى ذلك الدير ، وانهمكت كلية فى دراسة الكتاب المقدس ، ومراعاة النظام الديرى » (٢) ، وفى الانشاد اليومى فى الكنيسة ، « وكان من بواعث سرورى على الدوام ، أن أتعلم ، أو أعلم ، أو أكتب » (٣) • وفى التاسعة عشرة من عمره ، أى قبل أن يصل الى الخامسة والعشرين ، وهى السن القانونية تمت رسامته شماسا • وكانت رسامته فى الكهنوت ، وهو فى الثلاثين تماما • وتتلمذ على يد العالم المشهور بندكت بسكوب Benedict Biscop ، مؤسس الدير لمدة اثنى عشر عاما • وجاءت وفاة (بيده) ، بعد أن انتهى من ترجمة آخر سفر فى انجيل القديس حنا ، الى اللغة الانجليزية • ووفقا للراهب الذى لازم (بيده) فى ساعاته الأخيرة ، كانت آخر دعوات بيده ، « اللهم اقبض روحى لأنعم بالجلوس فى المكان المقدس ، الذى صليت من أجله ، لأسعد بحضرة الذات العليــة » • ثم أنشــد وهو على أرضــية صومعته قائلا : « المجد لله وللابن وللروح القدس . ثم لفظ أنفاســه الأخيرة » (٤) •

وعلى الرغم من قبول قدر مما نشر عن (بيده) فيما يتعلق بورعه ، وفقا لوصف كاتب سيرته عن الساعات الأخيرة له ، فان الطريقة التى مات بها (بيده) ، تبدو وثيقة الصلة بالتعرف على هذا العالم وفهمه • فمن كل الشواهد المتاحة يبدو أنه عاش ومات قديسا • وبقدر ما يمكن التحقق منه من خلال ما كتب (بيده) ، ومما كتبه عنه الآخرون ، يتضح أنه نذر نفسه طوال حياته لاعلاء كلمة الله • ففى الحقيقة لم يكن هناك شىء آخر يمكن أن ينجم عنه أى خرق لقسمه الرهبانى • وعلى الرغم من تعاقب القرون ، بما فيها قرننا الحالى ، فان له الفضل بالنسبة لصفحاته عن التاريخ الأخير الانجليزى الباكر ، الذى لولاه لكان غير واضح الى حد كبير ، فان اهتمامه بالتاريخ كان محدودا بالنسبة الى اهتمامه بتاريخ الكنيسة ، والمسيحية فى انجلترا ، ولا شك أنه فى محبته كان يسره تأدية خدمة للمصالح الدنيوية للأجيال التالية كلما كان ذلك ممكنا • وبالنسبة اليه ، فانه لم ينحرف عما اعتبره يدخل فى نطاق مسئولياته كراهب وعالم • وبالنسبة للكتابة التاريخية ، كان (بيده) مؤرخا كنسيا أولا ، ثم كاتبا لسير القديسين ، ولحسن حظنا ، كان صادقا فى كل من المهمتين •

وتفسر حالة (بيده) الروحية الكاملة موقفه تجاه الأدب اليونانى الرومانى • فاعتمد على الكتاب الوثنيين ، وعلى بلينى الكبير Pliny the Elder ، فى كتاباته العلمية بصفة خاصة ، وفعل ذلك دون رغبة ، وبدون التسليم بصحة ما كتبه • واستعان (بيده) بالكتاب المقدس ،

وآباء الكنيسة في الاستشهاد بالجمل المتابسة التي تعطى مزيدا من القوة والتوكيد لكتاباته، بل ان بحثه عن علم العروض يقدم لنا أمثلة توضيحية عن الشعراء المسيحيين ، ونادرا ما لجأ الى الشعراء الوثنيين . وكان فيرجيل Virgil ، هو الاستثناء الوحيد ، اذ شعر بأنه جدير بالاحترام ، باعتباره ممثلا للعصور الوسطى على نحو نمطى (٥) . ونتيجة لتركيز (بيده) الشديد على الأمور الروحية ، فان القارىء لتاريخه لن يجد معلومات لها أهمية اقتصادية أو اجتماعية ، باستثناء شذرات عارضة عندما كان بندكت بسكوب مضطرا الى جلب البنائين وصناع الزجاج من بلاد الغال ، لاقامة أديرة فى ويرماوث ، وجارو . ومع ذلك فمن المدهش أن يبدى (بيده) اهتماما قليلا بالعواصف ، وبحالات كسوف الشمس ، وخسوف القمر ، والزلازل . وعادة ما لفتت تلك الظواهر الطبيعية انتباه مؤرخى الحوليات فى العصور الوسطى ، الذين مالوا الى اعتبارها نذيرا بقدوم الكوارث ، وبخاصة نهاية العالم . ومما يثير دهشة أكثر أن (بيده) اعتقد أن العالم قد قطع شوطا من العصر السادس ، وكذلك جزءا كبيرا فى عصره الأخير . ويشير الى المذنبات ، فى احدى المناسبات فى نهاية صفحاته فى تاريخه ، باعتبارها نذيرا بكارثة للعالم أجمع .

ولم يعرف سوى أنباء قصيرة وقليلة ، عن مجرى حياة (بيده) . ففى سنة ٦٨٦ م بعد أن انتقل (بيده) الذى كان فى التاسعة من عمره ، الى دير جارو ، دهم وباء فتاك جماعة الرهبان ، ولم ينج منه سوى (بيده) وكيولفرث Ceolfirth رئيس الدير . على أية حال ، قام العلماء بترجمة كتاب تاريخ رؤساء الأديرة لمؤلف مجهول ، ووجدوا اشارة الى أن صبيا صغيرا وكيولفرث هما اللذان بقيا على قيد الحياة ، ويستطرد الكتاب فيحكى كيف أن كليهما ، حاولا فى بداية الأمر ، الاستغناء عن تلاوة الترنيمة التجاوبية ، عند انشاد الطقس الدينى المقدس ، باستثناء عند صلوات المساء والصباح ، ثم وجدا أن ذلك أمرا لا يرضى ، لذلك قررا أن يجاهدا فى اقامة كل الشعائر الدينية المقدسة بأقصى ما لديهم من جهد وطاقة ، الى أن انضم اليهما أعضاء جدد .

وهناك موضوع شخصى أخير ــ هو لقب « المبجل » الذى اشتهر به « بيده » على نحو تقليدى ، وهو لقب لا يحمل دلالة خاصة . ومن الواضح أنه لقب كان يستعمل كمرادف لكلمة « مشهور » ، أو « محترم » الى حد ما . ولو تم اعلانه قديسا بصفة رسمية فى مدى بضع سنين على وفاته ، لما عرف بهذا اللقب المألوف على الاطلاق ، ودفن (بيده) فى جارو ، بيد أنه يعتقد أن رفاته ترقد حاليا فى المصلى بكاتدرائية دورهام Durham ويقال أن أحد الرهبان نقل رفات (بيده) الى دورهام حوالى سنة ١٠٢٠م .

ونظرا لوفرة كتابات (بيده) فليس من المدهش قيام جدل طويل حول أصالة كثير من المؤلفات المنسوبة اليه • والواقع أن عددا كبيرا من الأعمال منسوبة اليه دون وجه حق • وفى رأى أحد العلماء المحدثين ، « لا يوجد كاتب نسبت اليه أعمال مختلفة غير معروفة الكاتب مثلما حدث مع (بيده) » (٦) • وكثير من تلك الأعمال كانت مؤلفات لعلماء غير معروفين ورغبوا فى اضفاء قبول شامل لأعمالهم ، ولذلك نسبوها الى (بيده » • وحدث أحيانا أن تركت بعض الأوراق فى مخطوطة مخصصة لكتابة أعمال (بيده) ، ثم كتبت على تلك الأوراق مؤلفات لكتاب غير معروفين ، وبمرور الوقت نسبت المخطوطة بكل ما حوت بداخلهـا الى (بيده) • وظهر المثير من الكتابات التى نسبت الى (بيده) بدون وجه حق ، فى أوائل القرن السادس عشر ، عندما أخرج المدافعون الكاثوليك أعمـال (بيـده) Opera Bedae ، فى حماسهم لدحض ادعـاءات أنصار حركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر ، فيما يتعلق بآراء ووجهات النظر المبكرة لرجال اللاهوت التى « لم يتترها الفساد » •

على أن الشيء الذى يساعد كثيرا على الوصول الى مجموعة دقيقة تماما لكتابات (بيده) هى القائمة التى ذيل بها المؤرخ (بيده) تاريخه ، ومع ذلك فلقد اختفى العديد من الموضوعات التى وضعها (بيده) فى القائمة ؛ فى حين أن الموضوعات الأخرى التى ألفها لم يعد لها وجود ، بما فى ذلك ترجمة انجيل القديس حنا التى ليس لها وجود على الاطلاق • ويعتبر (بيده) مؤلفاته اللاهوتية ، وعظاته الدينية ، وتفسيراته للكتاب المقدس أهم أعماله ، وهى تبدو أكثر أعماله فى العدد والحجم • ووصل كثير من عظاته الدينية الى حد تلاوتها ابان الطقوس الدينية • وكفلت له كتاباته التفسيرية مكانة كمفسر لاهوتى يلى آباء الكنيسة الأول مباشرة لمدة خمسة قرون • ونظرا لقلة ما تضـم أعمـاله اللاهوتية من تجديد وابداع ، فانها أصبحت شائعة ، ومحبوبة ، لوضوحها ، ولقوة مادتهـا العلمية ، ومعانيها الحقيقية ، ولما تضمنته من أرثوذكسية واضحة •

وتعلق العصور الوسطى أهمية كبرى على ما يطلق عليه اسم كتابات (بيده) العلمية • وفيما يتعلق بكتابات (بيده) العلمية ، فانه اعتمد على ما كتبه الآخرون الى حد كبير • وفى علوم الفلك ، والجغرافيـا ، والجيولوجيا ، ومجال العلوم بصفة عامة ، ونقل (بيده) كثيرا عن بلينى الأكبر ، وكذلك عن أيسيدور الاشبيلى Isidore of Seville •
وعلى الرغم من أن بعض العلماء قد ارتاب فى أهمية ذلك الجهد القائم على النقل عن الآخرين ، فان العصور الوسطى ، كان من الممكن أن تكون أكثر جدبا من الناحية الفكرية بدون كد واجتهاد (بيده) ، فى دراسته لتلك

الكتابات الباكرة ، واستيعابه لها . على أن أبحاث بيده المتعلقة بتعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمنى لها أهمية كبرى (١) . ووضع (بيده) نهاية لمشكلة ظلت تقض مضجع العلماء مرُبيين ، على نحو متواصل منذ بداية التاريخ المدون . فبدأ) بيده) باستخدام مولد المسيح كبداية لكتاباته . وهى طريقة بدأها الراهب دوينسيوس اكسجويس Dionysius Exigwis فى أوائل القرن السادس الميلادى . ويشكل ميلاد المسيح بداية العصر السادس للعالم بالنسبة لبيده . كان تقسيم الزمن الذى ورثه عن «مدينة الله» للقديس أوغسطين عن طريق ايسيدور الاشبيلى . وكان تحديد موعد عيد الفصح دافع (بيده) الرئيسى لدراسة تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها ، بغية حل الخلاف القائم بشأن موعد هذا العيد . وقبل أن تحسم هذه القضية لصالح النظام الرومانى لتحديد التواريخ ، استمر المسيحيون الكلتيون فى الارتياب فى سلطة البابا الرومانى .

وهناك كتابات أخرى لبيده ساعدت على توطيد شعبيته فى أوائل العصور الوسطى ، اشتملت على أبحاث فى علم الاملاء ، وعلم العروض . وعلى الرغم من أن تلك الأبحاث لم تؤيد أو تدافع عن الأصالة ، أو الفضائل التى تتعلق بذلك ، فانها أثبتت أهميتها فى مدارس عصر (بيده) ، وفى عهد الكارولنجيين الذين جاءوا من بعده . وأخذ (بيده) فى اعتباره أن معظم أعماله تعليمية فى أهدافها ، وكان هدفه تدريسها فى المدارس ورغم أن افتقار تلك الأعمال الى الأصالة عمل على تقليل قيمتها الحقيقية الى حد كبير ، فان القرن الثامن الميلادى ، وما تلا ذلك القرن بعدة قرون لم يتضمن شيئا أفضل مما قدمه (بيده) ودعمت تلك الأعمال تمكن (بيده) الكامل من موضوعات الفنون الحرة الثلاثة (النحو ، والبلاغة ، والمنطق) ، وسهولته غير العادية ، فى تقديم التفسير الواضح ، ومقدرته على أن يحكم بعين ناقدة على ما يقرأ ، وأن يستخلص النقاط الأساسية المهمة ، ومهارته فى تقديمها جميعا فى طريقة مبسطة ومنهجية . ولم يعبأ (بيده) بالأصالة . وكان (بيده) قانعا تماما بتقديم عمل متواضع ينظم مجموع المعارف الانسانية التى قام بتصنيفها علماء سبقوه من أمثال أيسيدور الاشبيلى .

ووضع (بيده) العديد من التراتيم ، ونظم القصائد ، وأهم قصائده تلك التى نظمها احياء لذكرى القديس كوثبيرت St. Cuthbert . وأهم الخطابات التى نسبت اليه ذلك الذى أرسله الى اجبرت Egbert ، أسقف يورك ، الذى كان أحد تلاميذه . وفى ذلك الخطاب نصح (بيده)

الأسقف بأن ينذر نفسه لاصلاح الكنيسة التى أعلن أنها فى حاجة ملحة للاصـــلاح ٠

ويضاف الى دور المؤرخ الذى لعبه (بيده) فى كتابة التاريــخ ، تقديم (بيده) تاريخ الشهداء الذى ساعد على شعبية هذا النــوع من الكتابة التاريخية ٠ وكما حدث فان كتابه عن تاريخ الشهداء كان تقدما كبيرا يفوق الكتاب المجهول المؤلف الذى رجع اليه (بيده) ٠ وأصدر كتابا عن حياة رؤساء ديرى (ويرماوث ــ جارو) ، وعن حيــاة العديد من القديسين أيضا ٠ وأهمها كتابه عن حياة القديس كوثبيرت ٠

وقام بكتابه حوليتين ، كانت كل منهما اضافة الى الكرونولوجيا وحظيتأطول هاتين الحوليتين ، بقدر كبير من الشعبية ، والشهرة بين كتاب حوليات العصور الوسطى ٠ وتبدأ تلك الحولية منذ بدء الخليقة ، وسارت بسرعة حتى سنة ٧٢٥ م ، على نمط كرونولوجى دقيق ٠ وتقدم هذه الحولية الدليل على اطلاع (بيده) على أعمال المؤرخين القدامى ، بما فيهم المؤرخ أيوتروبيوس Eutropius (٨) ٠ بيد أن حولية المؤرخ يوسيبيوس Eusebius « التاريخ الكنسى » ، كانت المصدر الرئيسى لحوليته ٠ وما يثير الاهتمام فى حولية (بيده) ، المعلومة الأخيرة فى تلك الحولية ، والتى تحدث فيها ، عن المسيخ الدجال ٠ وعن يوم القيامة ، والجنة والنار ٠ ويشير (بيده) فى حوليته ، أنه فى سنة ٧٢٥ م ذهب عدد كبير من الرجال والنساء الانجليز ، من النبلاء ومن عامة الشعب ، لزيارة روما ، بدافع من ورعهم وتقواهم ٠

وباستثناء سطور قليلة ، كتبت باللغة الانجليزية التى ينطق بها سكان نورثمبريا ، واللغة العامية التى استخدمهــا فى ترجمــة انجيل القديس حنا ، كانت كل كتاباته باللغة اللاتينية ٠ وكتب (بيده) ، بأسلوب واضح ، ودقيق ، وبلغة عالم ، ومعلم حريص على تثقيف قرائه ، وليس مجرد اثارة انطباع قوى فى نفوسهم ٠ ونظرا للوضوح الذى كتب به (بيده) ، وشمول أسلوبه ، وسعة الإدراك ، فانه يتصدر الجميع باعتباره أهم الذين قاموا بالمحافظة على المعرفة اليونانية واللاتينية ، وكل ما يتعلق بأباء الكنيسة وكتاباتهم ، ابان فترة يطلق عليها العصــور المظلمة ٠ ويمثل بيده أيضا أروع نتاج لامتزاج تيارين فكريين ، تدين لهما انجلترا بالفضل فى القرن الثامن ، اذ انهما كانا سببا لتفوقها فى غرب أوروبا ــ وهمــا التيـــار الكلتى الذى ترجــع أصـــوله من لندسفرين Lindisfrane، عبر أيونا Iona ، الى ايرلندا ، والتيار الفكرى الجنوبى انتقل الى كانتربرى وروما ٠ وبصراحة ، فان (بيده) مدين لبندكت بسكوب

Bendect Biscop مؤسس ديـرى ويرماوث ــ جادو ، والذى ربمـا كان أكثر المعلمين المخلصين ٠٠ ثقافة فى عصره فى انجلترا ٠

ولم يستطع بيده الحصول على مجموعة من الكتب لها أهمية كبرى فى أى مكان فى انجلترا سوى فى دير جارو ، حيث قضى فيه الجزء الأكبر من حيـاته ٠ وقدم بندكت بسكوب فائدة جليلة باحضـاره معظم تلك الكتب من روما خـلال رحلاته الخمس التى قام بها الى المدينة الخالدة Eternal city ٠ وتمت اضافة كتب أخرى ابان رئاسة كولفريث Ceolfrith ، للدير ٠ ومن المرجح أن غالبية تلك الكتب كانت له طبيعة لاهوتية ٠ واحتوت على تاريخ آباء الكنيسة الشرقية ، واستطاع (بيده) الاطلاع عليها لمعرفته باللغة اليونانية ٠ ولابد أنه ازدانت أرفف حجرة النسخ بدير جارو بعدد من الآثار الأدبية الوثنية مثل كتاب التـاريخ الطبيعى لمؤلفه بلينى Pliny ٠ ومع ذلك فان كثيرا من مئات المؤلفين اللذين استشهد (بيده) بكتاباتهم كانت معرفته لهم مجرد معرفة ثانوية فحسب ٠

ومهما كانت درجة ورع وتقوى (بيده) ، أو مآثره الفكرية ، فبدون كتابه « التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى » ، لم يكن ليقدر له أن يكون أفضل من هرابانوس موروس Harbanus Maurus ، العالم الكارولنجى ، الذى يماثله فى الانتاج العلمى والمعرفة ٠ وفيما يتعلق بهذا الكتاب الذى ألفه (بيده) ، « فلقد أصبح من التراث الأدبى للتأريخ البشرى بفضل منهجه فى الكتابة ، وأسلوبه ، وفوق ذلك ، خصائصه المميزة التى تتضح من خلال أسلوبه » (٩) ٠ وانتهى (بيده) من انجاز تاريخه سنة ٧٣١ م عندما بدأت وطأة أمراض الشيخوخة تشتد ثقلها عليه ٠ (على أن وجود اشارة الى معركة تور Tours ، التى حدثت سنة ٧٣٢ م يوحى بأنه قام باجراء مراجعات طفيفة) ٠ وكان النظام الذى سار عليه الكتاب وفقا لنظام التسلسل الزمنى ، على الرغم من ميل (بيده) للسماح لبعض الموضوعات ، بحملة بعيدا ، مثل كتابته عن سير القديسين ٠ بيد أنه عندما كان يشعر أنه قد ابتعد عن الموضوع ، فانه كان حريصا على أن يعود بالقارىء من حيث وصل ٠

ويفتتح بيده كتابه هذا بكلمة اهداء للملك كولوف من نورثمبريا ٠ وأبدى كيولولف ceolwulf اهتماما كبيرا بهذا الجهد العلمى ، بل وأجاز دراسته قبل الانتهاء من نسخ المسودة النهائيـة ٠ وكتب (بيده) ، « ان جلالتكم قد طلبتم منى أن تطلعوا على كتاب تاريخ كنيسة الأمـة الانجليزية الذى قمت بتوزيعه مؤخرا ٠ وسرنى ، يا مولاى ٠٠ أن أقدمه

الى جلالتكم لدراسته ونقده فى مرة سابقة ، والآن يسرنى أن أقدمه مرة ثانية لجلالتكم للنسخ والدراسة اذا ما سمح الموقف » (١٠) •

ثم يواصل (بيده) القول ذاكرا ما يبرر رأيه فى الكتابة التاريخية : « اذا ما حكى التاريخ عن الأخيار من الرجال ، وعن أحوالهم الطيبـة ، فسيجد القارىء ، الذى يفكر بعمق الدافع لاتخاذهم أسوة حسنة له ، واذا ما ذكر التاريخ الأهداف والغايات الشريرة للأشرار ، فان القـارىء سيعمل على تجنب كل ما هو ضار وضال ، وسيعمل بكل ما فى وسعه ، وكل ما هو خير ، وكل ما يرضى الله عنه » (١١) •

وامتدح (بيده) الملك كيولولف لمعرفته بامتلاك التاريخ لهذه المنقبة ، وأطرى الملك ، لرغبته فى نشر المعرفة عن هذا التاريخ « لارشادك وارشاد من جعلتك السلطة الالهية تحكمهم » • وكلما تصفح المرء كتاب «التاريخ» الذى ألفه (بيده) غالبا ما يجد أن المؤلف يقدم هذا التبرير الأخلاقى لكتابة وقراءة التاريخ •

وبذل (بيده) جهدا كبيرا فى محاولة اقناع الملك وقرائه الآخرين ، انه عمل كل ما فى وسعه ، « لازالة كل أسباب الشك ، فى تلك الموضوعات التى أكتبها ، سواء من فكرك أو من فكر أى شخص من الآخرين ، الذين قد يستمعون ، أو يقرؤون هـذا التاريخ » • ومنـذ الفترة التى سبقت وصول أوغسطين الى بريطانيا سنة ٥٩٧ م ، استـمد (بيده) مـادته التاريخية » ، من هنا وهناك ، وبصفة خاصة من كتابات المؤرخين الأول • « ويمكن تحديد هؤلاء فى بلينى Pliny ، وأروسيوس Orosius ، وجيلداس Gildas وكذلك حياة القديسين البن Alban ، وجيرمانوس Germanus ، أما بالنسبة للسنوات التى تلت سنة ٥٩٧ م ، فاستشهد (بيده) بما كتبه البينوس Albinus الذى كان مصدره الرئيسى ، والذى كان رئيسـا لدير القديس بطرس St. Peter ، والقديس بولس St. Paul فى كانتربرى ، والذى عرف فيما بعد بتابع القديس أوغسطين وهو صديق حميم لبيده ، والذى شجعه على كتابة التاريخ » ، وهو رجل واسع المعرفة ، تعلم على يد رئيس الأساقفة تيودور الطرسوسى، وهادريان ، طيب الذكر رئيس الدير ، وكان كل منهما مبجلا ومثقفا • « وقام البينوس باجراء بحث شامل وكامل للسجلات المكتوبة ، وتعقب كل التراث القديم ، الذى يخص كنت Kent ، والممـالك الأنجلو سكسونية الأخرى وقام بتسليم تلك المادة العلمية الى نوثيلم Nothelm ، أحد قساوسة لندن ، والذى قام بدوره باعطائها الى (بيده) • وذهب نوثيلم أيضا الى روما حيث ، « حصل على اذن من البابا جريجورى للبحث

فى سجلات المحفوظات بالكنيسة الرومانية المقدسة » عن رسائل ، ووثائق اعتقد أنه من الممكن أن يستفيد منها (بيده) وواصل (بيده) حديثه المفصل عن مصادر معلوماته • « أبدى لى دانيال ، أسقف سكسون الغربية ، الذى ما زال على قيد الحياة ، ويحظى بكل احترام وتقدير رغبته فى كتابة شيء عن تاريخ الكنيسة فى نطاق المنطقة التى يرعاها ، والمناطق المجاورة فى كل من سسكس Sussex ، وجزيرة وايت Isle of Wight وباضافة الى ذلك ، علمته من اخوان دير لاستنجهام Lastingham ، الذى شيده كيد Ced ، وشادهاو Chadhow وبفضل جهود هذين القسين من قساوسة المسيح المخلصين آمنت مملكة مرشيا Mercia بالمسيحية ، بعد ان كانت مصرة على عدم الايمان بها من قبل • وعلمت أيضا من رهبان لاستنجهام ، عن حياة وممات هذين الأبوين • بالاضافة الى ذلك ، عرفت تاريخ الكنيسة فى شرق أنجيليا East Anglia ، من خلال كتابات أو تراث السابقتين ، ومن خلال ما كتبه الأب اسى Abbot Esi المحترم ، والذى يحظى بكل تقدير • وعلمت عن انتشار المسيحية ، وتعاقب الأساقفة • اما عن طريق رسالة من كينبرت Cyneberht الأسقف الموقر ، أو مما سمعته بنفسى من الرجال من أهل الثقة : بيد أن ما حدث فى الكنيسة فى مختلف أنحاء نورثمبريا ، منذ أن اعتنقوا المسيحية هناك ، حتى الوقت الحاضر ، باستثناء الموضوعات التى عرفتها باطلاعى الشخصى ، فليس لى مصدر سوى شهادة شهود العيان المخلصين العديدين ، الذين اما علموا بالأمور أو تذكروها (١٢) •

واختتم (بيده) دراسته المفصلة عن المصادر التى رجع اليها عند اعداده لكتاب التاريخ بفقرة دلت على أنه مؤرخ حقيقى ، « وبذلك أتقدم بكل تواضع للقارىء ، وأقول اذا ما وجد أى شيء ، غير حقيقى فيما كتبته لا ينسبه الى • ذلك لأنى حاولت ببساطة أن أدون ما جمعته من الروايات الشائعة ، من أجل تثقيف الأجيال » (١٣) •

ويبدو واضحا من دراسة (بيده) للمصادر التى استقى منها معرفته أنه كان مهتما بصفة أساسية ، ان لم يكن كلية ، بالأمور التى تتعلق بالمسيحية والكنيسة • ومع ذلك فهناك مسحة من الايحاء أن (بيده) أدمج فى تاريخه معلومات عن التاريخ الدنيوى الذى قد يدخل السرور على قلوب القراء • ولذلك يقول انه « ذكر تلك الأحداث التى يعتقد أنها جديرة بالمعرفة • ومن المحتمل أن تدخل السرور على المواطنين » (١٤) •

على أن القصة المتعلقة بمصدر اهتمام البابا جريجورى الكبير ، بتحول بريطانيا الى المسيحية ، تمثل المثل الرئيسى ، الذى جعل (بيده)

مدينا للعرف والتقاليد أكثر من المصادر المكتوبة فى الحصول على معلوماته ، ويحكى (بيده) القصة • « يقال انه فى يوم من الأيام ، وبمجرد وصول بعض التجار الى روما ، كانت كمية من السلع التجارية معروضة للبيع فى السوق • وأتت حشود من الناس لتشترى • وكان جريجورى من بينهم • وشاهد جريجورى بين السلع بعض الغلمان المعروضين للبيع ، ببشرتهم الشقراء ، ووجوههم الوسيمة ، وشعورهم الجميلة • ويقال أنه سأل عن الاقليم أو البلد الذى أتوا منه بمجرد أن شاهدهم • وبلغه أنهم أتوا من جزيرة بريطانيا ، وأن كل سكانها على مثالهم فى الشكل وسأل جريجورى اذا ما كان سكان تلك الجزيرة قد آمنوا بالمسيحية أم أنهم ما زالوا متورطين فى آثام عبادة الأوثان • ثم قال بتنهيدة عميقة : واحسرتاه ! أن يسيطر الضلال على هؤلاء الناس أصحاب الوجوه الوضاءة، ويضعهم فى جعبته ، وأن يجعل قلوبهم خالية من نعمة الروح الالهية ، فى الوقت الذى ينعمون به بالخلقة الجميلة » • وسأل مرة ثانية عن جنسهم وعرف أنه يطلق عليهم الانجلز (*) • فقال « حسنا ، ان لهم وجوه الملائكة ، ويجب أن يكون هؤلاء القوم رفقاء للملائكة فى ميراث الفردوس » (١٥) •

وبعد تقديم تصدير الكتاب ، انتقل (بيده) الى الكتاب الأول من تاريخه • ويغطى هذا الكتاب الفترة ما بين غزو يوليوس قيصر الجزيرة سنة ٥٥ ق•م ، الى ذهاب أوغسطين والرهبان الذين رافقوه اليها سنة ٥٩٧ م • وهنا اعتمد (بيده) على بلينى الأكبر ، وأوروسيوس Orosius ، وجيلداس Gildas بصفة أساسية فى الحصول على مادته العلمية • ويبدأ كتابه بوصف لجغرافية كل من بريطانيا ، وايرلندا ، وكذلك ثروتيهما الطبيعية • وعلى حين أننا قد لا نسلم بأن الجغرافيا علم مساعد فى دراسة التاريخ ، فان (بيده) كان مقتنعا ، بلا أدنى شك أن المعلومة الجغرافية تعين القراء على معرفة دخول المسيحية ، ونموها فى تلك البلاد ، برغم أن تلك المعلومة الجغرافية ليس لها طبيعة روحية • « بريطانيا التى كانت فيما مضى يطلق عليها البيون Albion هى جزيرة فى المحيط وتقع الى الشمال الغربى ، وفى مواجهة ألمانيا ، وبلاد الغال ، وأسبانيا وهى تكون الجزء الأكبر من أوربا • برغم بعد المسافة بينها وبين تلك البلاد • وتمتد الجزيرة من الجنوب الى الشمال لمسافة ثمانمائة ميل ، وعرضها مائتا ألف وثمانمائة وخمسة وسبعون ميلا • والجزيرة غنية بالمحاصيل والأشجار ، وبها مراع خصبة للماشية ، ودواب الحمل • وتوجد بها أشجار الكروم فى مناطق معينة ، وبها وفرة فى الطيور البرية،

(*) Angl تشبه فى نطقها لفظة angels التى تعنى الملائكة •

والمائية . ومما يلفت النظر ما بها من أنهار تزخر بالأسماك ، وبخاصة السلمون ، وثعابين البحر وما بها من ينابيع غزيرة الانتاج . وكثيرا ما يتم صيد عجل البحر والدرفيل بل والحيتان . وبالاضافة الى ذلك توجد أنواع مختلفة من المحار ، ومن بينها يوجد بلح البحر ، الذى يوجد بداخله اللؤلؤ الممتاز من كل لون ، الأحمر ، والأرجوانى ، والبنفسجى ، والأخضر بيد أن اللون الأبيض هو الأكثر . وهناك وفرة تفوق الحد فى القواقع البحرية التى يستخرج منها صبغ قرمزى اللون ، وهو لون أحمر غاية فى الجمال ، ولا يتأثر عندما يتعرض لحرارة الشمس أو الأمطار اذ انه كلما تعرض للبرودة كلما ازداد جمالا . وفى البلاد عيون للمياه المالحة ، وأخرى للمياه الدافئة ، وتنساب منها الأنهار التى تغذى الحمامات الساخنة ، والتى تناسب كل الأعمار ، من الجنسين ، فى أماكن منفصلة ومستقلة ، وفقا لحاجة كل فرد . والبلاد غنية أيضا بعروق الفلزات ، مثل النحاس ، والحديد ، والرصاص ، والفضة ، وتنتج أيضا قدرا كبيرا من الكهرمان الأسود اللامع والمصقول ، والذى يشتعل اذا ما وضع فى النار ، وعندما يتوهج يساعد على طرد الأفاعى بعيدا ، وعندما يصبح دافئا بفعل الاحتكاك المستمر ، فانه يجذب اليه أى معدن يوضع ملاصقا له ، كما تفعل مادة الكهرمان البنى اللون والضارب الى اللون الأصفر تماما وفى وقت ما كانت البلاد مشهورة بمدنها الثمانية والعشرين ، بالاضافة الى الأماكن المحصنة الكثيرة ، التى كانت تحميها الأسوار والأبراج القوية ، والبوابات ، والأقفال(١٦) . وفى الوقت الحاضر يوجد فى بريطانيا خمس لغات ، كما يكتب القانون المقدس فى خمسة كتب ، وكلها مخصصة للبحث عن الحكمة .. والعمل على نشرها وأعنى بذلك الحقيقة فى أسمى معانيها ، والرفعة الصادقة ، واللغات الخمس : هى الانجليزية ، والبريطانية ، والايرلندية ، والبكتية ، بالاضافة الى اللغة اللاتينية . ومن خلال دراسة الكتاب المقدس ، صارت اللغة اللاتينية ، هى اللغة الشائعة بين تلك اللغات جميعها . وفى بداية الأمر كان سكان الجزيرة من البريطون Britons ومنهم عرفت الجزيرة باسمها بريطانيا ، ويقال انهم أبحروا اليها من بلاد أرموريكا Armorica (١٧) ، واختاروا لأنفسهم الجزء الجنوبى من الجزيرة » (١٨) .

واستمر (بيده) فى دراسته بوصف وصول البكتيين The Picts الى ايرلندا ، حيث رفض الايرلنديون السماح لهم بالاقامة فى ايرلندا ، تحت ذريعة أن الجزيرة كانت صغيرة للحد الذى لا يجعلها تتسع لهم جميعا . واقترح أهالى ايرلندا على البكتيين أن يذهبوا « الى جزيرة أخرى ليست بعيدة عن جزيرتهم ، وتقع فى الاتجاه الشرقى ، والتى غالبا ما يشاهدونها عن بعد فى الأيام الخالية من الضباب » . وبناء على ذلك

أبحر البكتيون الى الشرق ، واتخذوا موطنهم فى الأرض الواقعة شمال نورثمبريا Northumbria .

ويكشف وصف (بيده) لايرلندا عن الجمع بين الحقيقة والأشاعة التى لا أساس لها من الصحة ، وهو الامر الذى ميز كتابات الحوليات فى العصور الوسطى كثيرا « ان ايرلندا أكثر اتساعا من بريطانيا ، ومناخها أكثر اعتدالا ، لدرجة أنه من النادر بقاء الجليد بها أكثر من ثلاثة أيام . ولا يحصد البرسيم أبدا فى فصل الصيف بغية استخدامه فى فصل الشتاء ، كما لا توجد بها حظائر للدواب والماشية . ولا توجد زواحف فى ايرلندا ، ولا تستطيع الثعابين السامة أن تعيش هناك ، وعلى الرغم من انتقال الثعابين من بريطانيا الى ايرلندا ، فانها كانت تموت على وجه السرعة لتأثرها برائحة الهواء . وفى الحقيقة فان كل شيء تقريبا مما تنتجه أرض ايرلندا ، له تأثير شديد ضد السم . وعلى سبيل المثال فقد شاهدنا كيف أنه فى حالة اذا ما عانى أحد الأفراد من عضة ثعبان ، فان أوراق المخطوطات من ايرلندا كان يتم كشط ما عليها من آثار الكتابة ، ثم يوضع ما تم كشطه فى الماء ، ثم يشربه من تعرض لتلك العضة وعلى الفور تعمل تلك المواد المكشوطة والمذابة فى الماء ، والتى شربها المصاب ، على تسكين الورم ، وعلى منع حدة انتشار السم وتزخر ايرلندا باللبن والعسل ، ويوجد بها أشجار الكروم ، والسمك والطيور . وهى مشهورة أيضا بصيد الغزلان من الغابات » (١٩) .

ويمدنا الفصل الثانى من الكتاب الأول بنموذج رائع ، عن مقدرة (بيده) على التلخيص ومقارنة الروايات المختلفة لأحداث معينة ، كانت فى متناوله لحسن حظه . وهنا اعتمد (بيده) بصفة أساسية على أوروسيوس Orosius ، وجيلداس Gildas ، وأوتروبيوس Eutropius ، وبروسبر Prosper وماركيلينوس كومز Marcellinus Comes

« لم يسبق للرومان أن هاجموا بريطانيا اذ لم تكن معروفة لديهم حتى عهد جايوس يوليوس قيصر Gaius Julius Caesar الذى كان قنصلا مع لوكيوس بيبولوس Lucius Bibulus سنة ٦٩٣ م من تاريخ روما الموافق سنة ٦٠ ق.م (٢٠) وعندما كان قيصر يعد لشن الحرب ضد الجرمان ، والغال ، الذين كان يفصل بينهما نهر الراين وصل قيصر الى موريني Morini ، ومن تلك المنطقة توجد أقرب واقصر مسافة للوصول الى بريطانيا . وجهز حوالى ثمانين سفينة حربية معدة لنقل الجند والمعدات وكذلك قوارب كبيرة معدة لنقل الأحمال الخفيفة ، وأبحر قاصدا بريطانيا ، يبدو أنه دخل فى معركة شرسة فى بداية الأمر ، ثم أعقبتها عاصفة هوجاء ، ومن ثم فقد جزءا كبيرا من أسطوله وعددا كبيرا من

جنوده ، من بينهم كل فرسانه تقريبا • ثم عاد الى بلاد الغال وأرسل فرقه الحربية الى ثكنات شتوية ، وأعطى أوامره ببناء ستمائة سفينة من كلا الجانبين • ثم أبحر بتلك السفن الى انجلترا فى أوائل الربيع • وابان زحفه تجاه العدو تعرضت سفنه الراسية على الشاطىء البريطانى لعاصفة هوجاء ، حطمت أسطوله اما عن طريق اصطدامها ببعضها البعض ، أو بقذف الأمواج على الشاطىء • وفقد قيصر فى تلك العاصفة أربعين سفينة ، أما باقى السفن ، فقد تم اصلاحها بصعوبة بالغة •

وفى المواجهة الأولى هزم البريطون Britons فرسان قيصر ، وقتلوا التربيون لابينوس Labienus • وفى المعركة الثانية ، وبرغم تعرض رجال قيصر لأخطار جسيمة ، فانه هزم البريطون ، وأجبرهم على الفرار • ثم اتجه قيصر صوب نهر التيمز • وتجمع حشد ضخم من الأعداء على الضفة الأخرى للنهر ، تحت قيادة كاسوبيليونوس Cassobellaunus (كاسيفيليونوس Cassivellaunus) • وتم وضع ساتر للاعاقة ، من الأوتاد الحادة ، غطت ضفتى النهر تقريبا ، وكذلك المخاضة من أسفليهما • ويمكن حتى يومنا هذا مشاهدة آثار وبقايا تلك الأوتاد • وعند فحص كل منهما ، وجد أنه فى سمك فخذ رجل ، ومغطى بالرصاص ، ومثبت بطريقة تجعل من الصعب اقتلاعه من قاع النهر • وشاهد الرومان تلك الأوتاد ، وتجنبوها وكذلك فعل البرابرة اذ كانوا غير قادرين على مقاومة هجمات الفرق الرومانية واختفوا فى الغابات ، واعتادوا على الخروج منها لشن هجمات خاطفة ، وكثيرا ما ألحقوا خسائر فادحة بالرومان ، وفى ذلك الحين ، استسلمت مدينة ترينوفانت Trinovantes ومعها قائدها أندروجيوس Androgeus ، الى قيصر ، وسلمته أربعين رهينة • وتبعتها مدن عديدة وفقا لما تم ، وتوصلت تلك المدن الى تفاهم مع الرومان • وأخيرا استطاع قيصر بفضل مساعدتهم ، الاستيلاء على مدينة كاسينيليونوس ، بعد قتال مرير ، وكانت تلك المدينة تقع بين مستنقعين ، فضلا عن أنها كانت محاطة بالأراضى التى تكسوها الغابات ، وبها مستودعات ضخمة بها كل نوع • وبعد ذلك عاد قيصر من بريطانيا الى بلاد الغال (٢٢) •

واستمر (بيده) فى تقديم وصفه التاريخى لبريطانيا ، وأشار الى الغزو الذى قام كلوديوس Claudius ، بيد أنه أغفل ذكر الثورة الكبرى فى عهد الملكة بوديكا Boudicca ، ابان حكم نيرون Nero ويذكر أنه بالاضافة الى الكوارث التى لا حصر لها ، فقد نيرون كل بريطانيا تقريبا • وكرر (بيده) الخطأ الذى وقع فيه أوروسيوس Orosius عندما نسب سور هادريان Hadrian الى سبتميوس

سيفيريوس Septimius Severus ، الذى مات ســـنة ٢٦١ م ، ثم تحدث عن اضطهاد المسيحيين ، الذى عم أرجاء الإمبراطورية ، ووصل الى حالة جديدة ، شديدة العنف في عهد دقلديانوس • وفى انجلترا كان القديس البنز St. Albans ، أول الشهداء • وعن قصة وفاة القديس البنز جمع (بيده) بين التاريخ ، وسير القديسين • وهنا يكشف (بيده) عن رغبته الشديدة فى قطع التسلسل الزمنى للأحداث ، بتقديمه تفصيلات ايضاحية عن حادثة يعتقد أنها ستعمل على رفع المستوى الثقافى للقارىء • ويحكى كيف أن البنز الذى كان وثنيا ، تأثر بشدة بورع القس المسيحى الذى اختبأ فى منزله الى أن آمن البنز نفسه بالمسيحية • وعندما علم الحاكم الشرير بوجود القس ، أمر بالقاء القبض عليه ، حيث ارتدى البنز الملابس الكهنوتية الخاصة بالقس ، وقدم البنز للمحاكمة أمام القاضى • وعندما تم احضار البنز أمام •• القاضى ، كان القاضى واقفا أمام مذابح الشيطان ، ويقدم الأضاحى لهم • وما أن رأى القاضى البنز حتى بدا عليه الغضب بشكل مفاجىء لأن البنز تجاسر عن طواعية وسلم نفسه للشرطة ، دعرض نفسه لخطر جسيم لمصلحة الضيف الذى آواه فى منزله • وأمر الجنود بأن يسحبوا البنز أرضا ، أمام تماثيل الشياطين والتى كان يقف عندها القاضى ، وقال القاضى ، لقد قمت باخفاء شخص متمرد ، ومنتهك لحرمة معتقداتنا الدينية ، بدلا من تسليمه الى جنودنا ، حتى يلقى العقاب المستحق لخروجه على تعاليم ديننا ، بتسفيهه آلهتنا ، ومن ثم فانك ستلقى العقاب الذى تستحقه اذا ما حاولت أن تتخلى عن عبادتنا وعن ديننا !

« وعندما رفض البنز الاستسلام قال له القاضى » : ما هى أسرتك ؟ وما هو أصلك ونسبك ؟ فأجاب البنز ، « وماذا يعينك من معرفة أصلى ونسبى ؟ » واذا ما رغبت فى معرفة الحقيقة عن دينى ، فاعلم بأنى أؤمن بالمسيحية ، وأنى على استعداد بأن أقوم بواجبى المسيحى • وقال القاضى ، « انى مصر على معرفة اسمك ، وعليك أن تنطق على الفور » • ثم قال البنز ، « سمانى والدى البنز وسأظل مؤمنا ، وعابدا لله الحى الحق خالق كل شىء » • فرد عليه القاضى بغضب شديد ، « اذا ما رغبت فى حياة سعيدة ، ورغدة ، عليك بتقديم الأضاحى الى الآلهة القوية » • فرد عليه البنز ، « ان الأضحيات التى تقدمونها للشياطين ، لايمكن أن تعمل على مساعدة العابدين لها ، أو تحقق أمانيهم ، وتوسلاتهم ، وتضرعاتهم » • وعلى العكس من ذلك ، فان من يقدم الأضحيات الى تلك التماثيل ، يلقى العقاب الأبدى ، فى نار جهنم جزاء له • « وعندما سمع القاضى ذلك الرد ، أمر بضرب البنز ضربا مبرحا ، عله يضعف أمام العقاب • وبرغم ذلك العقاب القاسى تحمل البنز بصبر وثبات ، تمسكا بعبادة الله • ولما ادرك

القاضي أن البنز لم يتأثر بالعقاب ، ولم يتزحزح عن الايمان المسيحى ، أمر باعدام البنز شنقا » ·

« وكان المكان المعد لاعدام البنز فى موضع يحتاج الأمر فيه الى عبور نهر للوصول اليه ، غير أن الراغبين فى مشاهدة عملية الاعدام تجمهروا فوق الجسر عبر النهر ، مما جعل من المستحيل على البنز والشخص المكلف باعدامه عبور الجسر ، ومن ثم ، « اقترب القديس البنز من النهر ورفع عينيه الى السماء ، لأنه كانت لديه الرغبة الملحة ، فى أن ينال نعمة الاستشهاد · فجفت المياه على الفور فى المكان نفسه ، وشاهد البنز المياه وهى تنحسر تاركة خلفها ممرا ليسير عليه » ·

ووفقا لرواية (بيده) زينت الطبيعة مكان الاعدام على نحو حقيقى ، يتناسب مع شهيد ممجد · « ويقع هذا التل على بعد خمسمائة خطوة من المنطقة ، وكان التل مكسوا من كل جانب بالأزهار البرية ، من كل نوع ، ويمتد على نحو ممهد سطح السهل ، على نحو متآلف وجميل · وفى الواقع أن الجمال الطبيعى للتل كان مناسبا لأن تحل عليه البركة بدماء شهيد مقدس · وعندما وصل القديس البنز الى قمة التل ، سأل الله أن يعطيه ماء فتفجر ينبوع دائما على الفور ، من تحت قدميه ، حتى ان كل من شاهد ذلك أدرك أن المياه كانت رهن اشارته · وهكذا قطعت رقبة الشهيد الشجاع فى ذلك المكان · وتسلم تاج الحياة ، الذى وعد به الله كل من أحبه · بيد أن الشخص الذى أطبق يده الدنسة حول رقبة القديس لم ينعم بالحياة ، لأن رقبة القديس المبارك سقطت على الأرض ، ومعها عينى من أعدمه » (٢٢) ·

واختتم (بيده) روايته عن تلك الحادثة ، بذكر أن القاضى أمر بوقف عمليات تعذيب ، واضطهاد المسيحيين لأنه ، « كان مندهشا لهذه المعجزات الربانية التى لم يشاهد مثيلا لها » · وفيما بعد ، وعندما ساد التسامح مع المسيحيين ، « أقيمت كنيسة فخمة تتناسب مع استشهاد القديس البنز · وحتى يومنا هذا يذهب المرضى اليها للشفاء ويزيد من شهرتها ، استمرار المعجزات التى تتكرر حينا بعد حين » ·

ومع ذلك فلم تكد تتوقف عملية اضطهاد المسيحيين ، وينتصر التسامح مع المسيحيين حتى أطلت الآراء الدينية المسيحية التى تتعارض مع الايمان المسيحى المتفق عليه أى الهرطقة بوجهها القبيح · وأشار (بيده) الى « الخبل الأريوسى الذى أضل كل أنحاء العالم ، وامتد أثره السيىء الى هذه الجزيرة المنفصلة عن كل أنحاء العالم ، بكل ما احتوت تلك الآراء الهدامة على ضلال واضلال » · وكانت هناك آراء أشد خطورة على

انجلترا لانتشارها الكبير ، وهي الآراء الدينية ، « التي نشرها بيلاجيوس البريطاني Briton Pelagius ، حيث نشر آراء هدامة ، ومضللة ، في كل مكان ، وأنكر حاجتنا الى النعمة المقدسة . وتصدى القديس أوغسطين St. Augustine ، وباقي الآباء الأرثوذكس لتلك الضلالة ، بالاستشهاد بعدة آلاف من النصوص الكاثوليكية ، بيد أنهم فشلوا في تصحيح مسار هؤلاء الضالين ، والأسوأ من ذلك ، أن هذه الضلالة ، التي برأ الشعب منها بالعودة الى الحق ، ازدادت حدتها بفعل التعنيف والتناقض » (٢٣) .

وقام (بيده) بسرد التاريخ للسنوات العشر التالية على الحكم الروماني لبريطانيا . وتوالت روايته التاريخية في يسر وايجاز ، بيد أن عدم دقة وصحة ما كتبه بصفة عامة ، يكشف عن حرصه الشديد في ذكره لما ورد في المصادر التي رجع اليها ولم تكن تلك المصادر دقيقة ، وكذلك ما كتبه نقلا عنها . ومن ثم كتب (بيده) عن السور الذي بني على وجه السرعة ، في عهد أنطونيوس التقي Antonius Pius ، فيما بين سنتي ١٤٠ و ١٤٢ م ، ضد البكتيين ، والاسكتلنديين ، غير أنه نسب ذلك السور الى البريتون الذين كانوا في حالة قلق ، وشيدوه على وجه السرعة حوالي ٤١٥ م تحت ضغط فرقة رومانية ، كانت قد عجلت بالعودة ثانية الى بريطانيا ، بناء على مناشدات أهالي البلاد الأصليين . والسمة الوحيدة الجديرة بالملاحظة على تلك الفصول الأولى ، هي قسوة (بيده) عندما أثبت أن البريطون يفتقرون الى الشجاعة ، ومتانة الخلق . « بعد عودة الرومان الى بلادهم ، عرف الايرلنديون ، والبكتيون أن الرومان لن يعودوا ثانية ، لذلك استرد الايرلنديون والبكتيون أنفاسهم ، وصاروا أكثر شجاعة عن ذي قبل ، واحتلوا كل المناطق الشمالية ، والأجزاء البعيدة من الجزيرة حتى السور الذي كان يفصل ما بين سكان البلاد الأصليين . وهناك أمر البريطون قواتهم المنهارة ، بالانتشار في حالة استعداد قصوى ، للدفاع ، وظلوا يقضون الليل والنهار بقلوبهم المرتجفة والمترنحة . ومن ناحية أخرى ، لم يتوقف الأعداء المدججين بالسلاح عن قيامهم بشن هجمات محدثة الخراب والدمار واضطر المدافعون الجبناء الى الانبطاح أرضا ، والالتصاق بالأرض . وباختصار ، هجروا مدنهم وهربوا عبر السور ، وتشتت شملهم . وواصل الأعداء مطاردتهم للبريطون ، وتبع ذلك حدوث مذبحة وحشية كبرى ــ وتقطع البريطون البؤساء اربا ، على يد أعدائهم ، كما تفعل الحيوانات المتوحشة بالحملان . واضطروا الى مغادرة ديارهم ، وأراضيهم الزراعية القليلة الانتاج ، وحاولوا انقاذ أنفسهم من المجاعة عن طريق سلب ونهب بعضهم البعض . وهكذا أضافوا نزاعهم الداخلي الى كوارثهم الخارجية ، الى أن صارت كل البلاد بلا طعام وخاوية

على عروشها ، اللهم الا ما يجلبونه من صيد لسد رمقهم » (٢٤) ٠

كان البريطون الشعب الوحيد الذى تعرض لما يدنو من التحامل العنصرى من قبل (بيده) ٠ ومن المحتمل أن عدم التزامهم بالمبادىء الدينية سبب ذلك التحامل ، وليست الاختلافات الثقافية التى تولد التحيز فى العادة ٠ وهاجمهم (بيده) فيما بعد لعدم بذلهم أى جهد فى هداية الغزاة الجرمان الى المسيحية ، برغم أنهم انتصروا عليهم ، وكذلك لعدم قبولهم التقويم الرومانى وعند هذا الحد أدانهم (بيده) فى تاريخه لانحلالهم ، وكان انحرافهم سببا فى أن حلت عليهم لعنة الله وغضبه ٠

ويعتمد المؤرخون على (بيده) عند الكتابة عن تاريخ بريطانيا فى القرن التالى لتاريخه ٠ وعلى الرغم من أن بعض معلومات بيده التاريخية أخذها عن جيلداس Gildas فليس من السهل تحديد المصدر الأساسى لبعض من النتف العلمية التى أوردها مثل اسمى هينجست Hengist وهورسا Horsa رئيسى جماعة الانجلوسكسون ٠ ويعتقد أن البريطون قد طلبوا منهما أن يساعداهما ضد البيكت ، والاستلنديين ٠ وأورد (بيده) ذكر اسم فورتيجيرن Vortigern ملك البريطون ، الذى طلب مساعدة السكسون ٠ وحدد أيضا القبائل الجرمانية الرئيسية التى غزت شواطىء بريطانيا ، ابان تلك السنوات ، وهى السكسون Saxons ، والأنجلز Angles والجوت Jutes ونقل (بيده) معلوماته التاريخية عن حياة القديس جيرمانوس St. Germanus التى كتبت حوالى سنة ٤٧٥ م ، والتى لم يعد لها وجود ٠ وفى الحقيقة قام (بيده) بعمل رائع فى تاريخه عندما غطى بريطانيا ، ابان تلك القرون ، واستعان بالكتابات الأخرى الأكثر قدما ، والتى لم تعد موجودة ٠

ان أى أمر من الأمور عن المسيحية كان يجذب انتباه (بيده) ، ويجعله يبدى اهتماما به ٠ اذ أولى مسألة الهرطقة البيلاجوسية Pelagian Heresy عناية خاصة ، وكذلك تقاعس البريطون عن محاولة القضاء عليها ٠ ولهذا السبب ذهب كل من الأسقف جيرمانوس ، والأسقف لوبوس Lupus من بلاد الغال الى انجلترا ، ليحددا ما يمكن أن يفعلاه تجاه مقاومة تلك الهرطقة ٠ « ومخرت السفينة التى حملتهما عباب بحر المانش فى أمان ، بفضل الرياح المواتية ، ووصلت الى منتصف الطريق ، بين بريطانيا وبلاد الغال الى أن فاجأتهما جماعة من الشياطين الذين استبد بهم الغضب لمشاهدتهما رجلين ، من أصحاب المنزلة الرفيعة ، وقد أتيا لتحقيق الخلاص للشعب ٠ واشتدت العواطف ، وأظلمت الدنيا بالسحب ، وتحول النهار الى ليل ٠ وعجزت أشرعة السفن عن تحمل غضب الرياح ، وباءت كل جهود البحارة بالفشل الذريع ، وسارت

السفينة بفضل الصلوات ، لا بفضل بعض جهود البحارة ، وأضنى الانهاك قائد السفينة ، القديس جيرمانوس ، فغط فى سبات عميق ، ثم ازدادت حدة العاصفة ، وغمرت الأمواج السفينة ، فأوشكت على الغرق • ثم أيقظ القديس لوبوز ، ومن معه قائدهم ، وهم فى فزع شديد عله يضع حدا لغضب العوامل والقوى الجوية • واستيقظ جيرمانوس ، الذى كان أكثر ثباتا عنهم جميعا ، فى مواجهة الخطر المحدق ، ودعا المسيح باسم الثالوث الأقدس ، وأخذ بقليل من الماء ، وقذف به على الأمواج الثـــائرة والمتلاطمة ، وفى الوقت نفسه لام جيرمانوس رفاقه على استسلامهم للهلع والذعر ، وعمل على رفع روحهم المعنوية ، ثم سألوا الله السلامة فى صـــوت واحد • وتدخلت العناية الالهية ، ولاذ الأعداء بالفرار ، وحلت السكينة ، وهدأت الرياح والامواج • ثم هبت رياح مواتية ساعدت على وصـــولهم بسرعة وأمان ، الى بر السلامة فى انجلترا • وهناك احتشد جمع غفير من كل المناطق ، لاستقبال الأسقفين بعد أن شاع خبر وصولهما فى كل مكان • وأعلنت الأرواح الشريرة أن ما خشوا من وقوعه ، قد حدث بالفعل ، وعندما طردتهم أوامر الأساقفة من أجساد الذين سيطروا عليهم ، أقروا بأنهم هم الذين أحدثوا العاصفة الهوجاء ، والأخطار المحدقة ، واعترفوا بهزيمتهم أمام فضائل وسلطان أولئك الرجال » (٢٥) •

واستطاع هذان الأسقفان اللذان وصلا الى انجلترا فى تلك الظروف الميمونة أن يقضيا على هيمنه البيلاجوسيه Pelagianism على الشعب ، على وجـه السرعة وكتب (بيـده) أن أعـدادا يصعب حصرها اتجهت الى عبادة الله •

وقد يقبل القارىء ، رواية (بيده) عن وصول جيرمانوس ، ولوبوز الى انجلترا ، برغم أنه قد يعزو حدوث العاصفة الهوجاء ، وانتهائها الى أسباب ليست ضمن الأسباب التى أوردها (بيده) • ومع ذلك فقد يعطى لتفسير (بيده) أذنا صاغية ومتعاطفة اذ عاش (بيده) فى عصر أخذت فيه الظواهر الطبيعية تفسيرا خارقا للطبيعة ، عندما كان يصعب تفسير تلك الظاهرة على نحو يقبله العقل والمنطق • وتلك الحـادثة ستجعل القارىء فى عصرنا يشعر بقدر يسير من الخوف وخيبة الأمل ، اذا ما حدثت كما وصفها (بيده) •

ويبدو أن السكسون الغزاة غـيروا اتجاهات جيوشهم ، وضـموا جهودهم الى جهود البكتيين ضد البريطون • وكذلك اضطر الأخيرون الذين حكم عليهم (بيده) بأنهم شعب تنقصه الشجاعة الى أن : « كانوا مجبرين على حمل السلاح • ونظرا لخوفهم من عدم مساواتهم فى الكفاءة أمام أعدائهم ، لذلك ناشدو الأسقفين المقدسين المساعدة • وعلى الفور لبى الأسقفان مطلبهم ، وأعادا الى هذا الشعب الجبان ثقته الى الحد الذى يجعل

المرء ، يعتقد أن جيشا ضخما قد انضم لمساندتهم • والواقع أنه بفضل هذين القائدين الرسوليين ، حارب المسيح بنفسه فى جانبهم • وفى ذلك الحين حل موسم الصوم الكبير ، وزاده قدسية حضور الأسقفين ، إلى حد أن الشعب الذى استمع يوما الى العظات ، اعتنق المسيحية أفواجا وحصل على نعمة المعمودية • وتم تجنيد أعداد كبيرة من الجيش • وتم بناء كنيسة من أغصـــان الاشجار ، استعدادا لعيد الفصح ، وقد أقيمت فى ميدان القتال للجيش ، كما لو كانت قد بنيت داخل المدينة ولهذا توقع الجيش نصر الله ، بعد أن غطت مياه المعمودية أجساد جنوده ، ووصلت انبـــاء استعداداتهم الى الأعــداء ، الذين كانوا على ثقة من النصر • وبرغم أن الأعداء كانوا يهاجمون جيشا غير مسلح ، فانهم سارعوا الى الأمام بتلهف شديد ، غير أن جماعات الاستطلاع البريطانية قامت برصد تحركاتهم • هكذا انتهت احتفالات عيد الفصح المهيبة • وفى الوقت الذى كان فيه الجزء الأكبر من الجيش قد فرغ لتوه من المعمودية ، عــرض جيرمانوس أن يقود جيشهم بنفسه • ولعب جيرمانوس دورا نشطا ، وبعد أن تعرف على المنطقة المحيطة ، شاهد واديا تحيطه التلال المتوسطة الارتفاع ، ويقع فى الاتجاه الذى توقع تقدم الأعداء منه وأمر جيرمانوس جيشه غير المدرب ، بالتمركز فى ذلك المكان ، وتولى قيادته بنفسه • واقتربت قوات العدو الشرس ، وشوهد بوضوح عند اقترابه من الجيش الذى انتظر فى حالة تربص • ثم أمر جيرمانوس ، الذى حمل مسئولية العمل بنفسه جنوده بأن يصيحوا صيحة رجل واحد « سبحوا الرب » alleluia ، ثلاث مرات فى اللحظة التى اقترب فيها العدو ، الذى اعتقد بأنه قد باغت جيش جيرمانوس بهجوم مفاجىء • وما ان قالوها حتى تردد صداها بين التلال ، مما زاد من قوة الصوت • فشعر العدو بالفزع والهلع ، واعتقد وكأن كل الصخور المحيطة بهم ، وطباق السموات ، قد سقطت فوقهم فخارت قواهم من شدة الهلع حتى انهم لم يتمكنوا من الجرى بسرعة • وولوا الأدبار ، وهم على غير هدى ، بعد أن ألقوا بأسلحتهم طلبا للنجاة • واندفع الكثيرون منهم الى الخلف دون تردد وهم فى حالة من الذعر ، وغرقوا فى النهر ، الذى كانوا قد عبروه منذ وقت قصير وهكذا وجــد جيرمانوس جيشه منتصرا دون قتال • وجمع المنتصرون الغنائم التى تركها الأعداء ، وابتهج الجند الاتقياء بنصر الله • وهكذا تغلب الأسقفان على العدو دون اراقة للدماء ، وأحرزا نصرا بقوة الايمان لا بقوة السلاح » (٢٦) •

وكتب (بيده) أن البريطون شابهوا اليهود الذين أقاموا مؤقتا فى سيناء ، وهم فى طريقهم الى أرض الميعـــاد ، فى الفترة التى عاشهـــا البريطون ، بعد خروج الجيوش الرومانية من بلادهم مباشرة • فعندما

أتبع البريطون تعاليم الله ، عاشوا فى رغد من العيش وعندما ضلوا سواء السبيل أنزل الله عليهم غضبه ، عقابا لهم على سوء عملهم ، » ويضاف الى الجرائم التى اقترفها البريطون ، أمور ذكرها مؤرخهم جيلداس Gildas فى كلمات محزنة منها أنهم لم يقوموا على الاطلاق بالتبشير بالايمان ، بين السكسون والأنجلز الذين عاشوا معهم فى بريطانيا • وبرغم ذلك فان الله ، الذى وسعت رحمته كل شىء شمل برحمته شعبا يعلم عنه خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور ، وأرسل اليهم المبشرين بالحق ليدخل هذا الشعب حظيرة الايمان » (٢٧) •

ان المبشرين بالحق الذين أشار اليهم (بيده) فى ذلك الحين ، هم القديس أوغسطين St. Augustin ، وجماعة الرهبان ، الذين أرسلهم جريجورى الكبير الى بريطانيا سنة ٥٩٧ م • ومن بين التعليمات التى بلغها جريجورى الى أوغسطين ــ والتى ذكرها (بيده) ــ تحذيره من القضاء التام على كل الطقوس ، والشعائر الدينية الوثنية ، ابان جهوده لتحويلهم الى المسيحية • فلم يقم أوغسطين بتحطيم معابد الأوثان ، » وانما حطم الأوثان التى بها » وقام أوغسطين ورفاقه ، » برش الماء المقدس ، فى تلك المعابد ، وبناء المذابح ، ووضعوا بها آثار القديسين والشهداء ••• وعندما وجد أفراد هذا الشعب معابده كما هى ، بدأوا يتخلصون من عبادات الجهالة من قلوبهم ، آمنوا بعبادة الله الحق » (٢٩) •

وكان تعاون الملك اثيلبرت Ethelbert ملك كينت Kent ، التى رسا بها •• أوغسطين ، وجماعته التبشيرية ، له فعالية ، وتأثيرات ، فاقت تعليمات البابا جريجورى ، فى تنصير شعب كينت • اذ كان هذا الملك متعاطفا مع الدين الجديد ، بفضل نفوذ زوجته بيرثا Bertha ، ابنــة ملك باريس الميروفنجى ، التى كانت تؤمن بالمســيحية • ويقول (بيده) ان اثيلبرت لم يمارس ضغوطا على شعبه لقبول المعمودية ، ومع ذلك ، » فانه أبدى مودة أكثر للذين آمنوا بالمسيحية ، باعتبارهم رفاقا له فى مملكة السماء • بيد أنه تعلم من معلميه ومرشديه ، أن العمل من أجل المسيح اختيارى ويجب ألا يكون اجباريا » (٢٩) •

وبدأ (بيده) الكتاب الثانى من تاريخه بالكتابة عن البابا جريجورى الكبير ، وتبعها بمديح الرجل وتأبينه • وساعد الثناء المفرط ، الذى غمر (بيده) به جريجورى على جعله أكثر البابوات شهرة فى انجلترا فى العصــور الوسطى وربما دفع مديح (بيده) لجريجورى ألفريد الكبير Alfred the Great ، الى القيــام بترجمــة العــديد من مؤلفــات جريجورى بعد وفاة (بيده) بقرن من الزمان • وفيما يلى وصف (بيده) لكتابات جريجورى • » ولقد طلبوا منه (جريجورى) بالحاح أن يقدم

شرحا لكتاب أيوب Job ، وتفسيراته الدينية وهو الكتاب الذى اكتنفه غموض شديد • ولم يستطع جريجورى أن يرفض ما ألزمه به اخوانه المؤمنون ، ولا سيما أنه رأى احتمال أن يكون لعمله هذا فائدة كبرى للكثيرين • وهكذا قام جريجورى بعرض تفسير لكتاب أيوب فى خمسة وثلاثين كتيبا ، فى طريقة رائعة ، للمعنى الحرفى لكتاب أيوب ، وما تضمنه من اتجاهات يتحتم على كل مؤمن الالتزام بها ••• وألف جريجورى كتابا آخر مشهورا ، وهو المهمة الرعاوية Pastroral Care ، وعرض فى هذا الكتاب ، ما يجب أن يتم عند اختيار من يتولى أمر الكنيسة ، ومن كيفية معيشة هؤلاء الحكام ، وعن درجة الحصافة ، وحسن التمييز التى يجب أن يتحلوا بها ، عندما يعلمون أنواعا مختلفة من المستمعين ، ومن ضرورة العمل بكل جد واجتهاد ، لتجنب مواطن الزلل فى نفوسهم • وألف جريجورى عظة دينية عن الانجيل Homilics on the Gospel وأربعة كتب تحت عنوان محاورات Dialogues ، وفيها جمع كل الفضائل لأكثر القديسين شهرة • عرفهم أو سمع عنهم فى ايطاليا ، بناء على طلب شماسة بطرس ، باعتبارهم قدوة حسنة لكل الأجيال القادمة • وكتب جريجورى أيضا كتابا احتوى على اثنتين وعشرين موعظة عن كيفية التمتع بالنور الروحى من خلال أشد جوانب شخصية حزقيال النبى غموضا » (٣٠) •

وأبدى (بيده) اهتماما كبيرا فى الجزء الثانى من تاريخه عن اعتناق ادوين Edwin ملك نورثمبريا Northumbria للمسيحية ، وهو الاقليم الذى نشأ فيه (بيده) • وبناء على ما ذكره (بيده) ، فقد نجح ادوين فى مد سلطته ونفوذه على كل أنحاء بريطانيا ، بالاضافة الى جزيرتى انجليزى Anglesy ومان Man • ثم حكى قصة اعتناق ادوين للمسيحية • وعلى الرغم من أن ادوين كان وثنيا فى بداية الأمر ، فانه تزوج من اثيلبورج Ethilburgh ، ابنة ايثلبرت Ethelbert ، ملك كينت Kent ، ووعد بدراسة المسيحية بنفسه ، وبعدم التدخل عند ممارسة زوجته للشعائر المسيحية • وذهب الأسقف بولينوس Paulinus ، الى نورثمبريا ، مع اثيلبورج الذى كان مكلفا برعاية الملكة ووصيفاتها ، بتقديم العظات الدينية اليومية ، واقامة القداس حتى لا تتأثر الملكة ومن معها بالمعتقدات الوثنية ، عن طريق التعامل مع الوثنيين •

وحدث أن بولينوس لم يحرز سوى تقدم طفيف فى تنصير الوثنيين ، بالرغم من حماسه ولم يكن له أى حظ مع الملك نفسه ، الى أن تم اجهاض محاولة لاغتياله • ووصف (بيده) الحادثة قائلا : « وفى السنة التالية

ذهب الى نورثمبريا ، أحد القتلة ، ويدعى أوسير Eomer ، الذى أرسله كويشلم Cwichelm ملك السكسون الغربيين ، على أمل حرمان الملك من مملكته والقضاء عليه • وحمل هذا القاتل معه سيفا قصيرا له حدان • وملطخا بالسم ، ليضمن مقتل الملك بالسم فى حالة عدم مقتله بجرح عميق • وذهب القاتل الى قصر الملك الواقع قرب نهـر ديرونت Derwent ، فى يوم عيد الفصح • ودخل القاتل قصر الملك تحت ذريعة تسليمه رسالة من سيدة • وفى الوقت الذى كان يعرض فيه رسالته ••• المزعومة ، وثب فجأة ، واستل السيف من تحت عباءته ، وهجم على الملك ـ وشاهد ذلك ليلا Lilla ، أحد أتباع الملك الاقطاعيين بيد أنه لم يكن معه درع فى يديه ليحمى الملك من الموت ، لذلك ألقى بنفسه على وجه السرعة ، على الملك ، حتى يتلقى الضربة بجسده حماية للملك • فغمد العدو سلاحه بأقصى قوة أدت الى مقتل التابع الاقطاعى للملك ، وجرح الملك أيضا بعد أن اخترق السف جسد ليلا • واستلت السيوف من كل جانب ، وأشهرت على القاتل على الفور • بيد أنه كان قد تمكن من قتل أحد أتباع الملك يدعى فورتهير Forthere بسلاحه البشع » (٣١) •

وفى اليوم الذى تعرضت فيه حياة الملك للخطر ، أنجبت له زوجته ابنه • وما ان أقنع الأسقف بولينوس الملك ادوين أن زوجته أنجبت له الطفلة بسلام بفضـل دعواته حتى وعـده الملك بالتخـلى عن عبـادة الأوثان ، واعتناق المسيحية • بيد أنه انتظر حتى يأتيه نصر الله بهزيمة السكسون الغربيين ، الذين أرسلوا اليه مجرما لاغتياله • وبعد أن تحقق له النصر الذى تمناه ، ظل فى حالة تردد • فكان عليه أن يأخذ رأى كبار مستشاريه ، ومن ثم دعاهم الى الاجتماع به ، وطلب من كل منهم أن يدلى بدلوه فى رأيه عن الدين الجديد • فأجاب كويفى Coifi ، كبير الكهنة ، على الفور ، « سيدى الملك ، تدبر بعناية هذا الدين الذى يعرض علينا • ومن ناحيتى ، فانى أعترف بكل صدق وصراحة ، أن الدين الذى نؤمن به ، ونتمسك به ، عاريا تماما من أى فعالية أو فائدة • ولا يوجد أحد من رعيتك قد أخلص لعبادة آلهتنا أكثر منى ، برغم وجود الكثيرين الذين نعموا بما أغدقته عليهم ، من خبرات وتشريف أكثر منى ، بالاضافة الى ما حققوه من انجـاز لكل مصالحهم ، واذا كانت الآلهة التى تعبد لها أى سلطان ، لقدمت لى العون والمساعدة على الفور ، حيث انى تفانيت فى عبادتها على الدوام • وعلى ذلك اذا ما توصل البحث والدراسة ، الى أن هذه التعاليم الجديدة التى تعرض علينا أفضل وأكثر فعالية ، فمن الواجب الايمان بها على الفور ، ودون تأخير » (٣٢) •

وأيد المستشار الملكي الذى تحدث بعد كويفى موقفه ، وأضاف ملاحظاته القيمة : سيدى الملك ، تبدو حياة الانسان على الارض على أنها غير معروفة بالنسبة لما نحن فيه الآن • انك يا مولاى تجلس تتناول ما لذ وطاب من الطعام مع كبار حاشيتك ، وأتباعك الاقطاعيين ، فى وقت الشتاء ، والنار مشتعلة فى المدفأة ، فى وسط قصرك وكل شىء دافىء ، فى الوقت الذى تتساقط فيه أمطار عواصف الشتاء والجليد ، ثم يدخل عصفور القصر فجأة وبسرعة ، انه يدخل من باب ، ويخرج بسرعة من باب آخر • لقد بقى العصفور فى الداخل عدة لحظات ، ولم تستطع الرياح وعواصف الشتاء الهوجاء أن تنال منه شيئا • وبعد حلول لحظة الهدوء ، يختفى عن بصرك ، وينطلق ثانية بعيدا عن العواصف • وعلى هذا تبدو حياة الانسان مجرد دقائق محسوبة ؛ والواقع أننا لا نعلم عما هو آت • واذا ما قدمت الينا هذه الديانة الجديدة معلومات أكيدة ، عندئذ يبدو من الصواب الايمان بها » (٣٣) •

« ووافق العديد من المستشارين الآخرين معلنين موافقتهم مع كويفى دون خوف أو تردد ، فى الوقت الذى أخذ فيه كويفى الكلمة للمرة الثانية • وأعلن قائلا : لقد أدركت أن ديننا عديم القيمة ، لأنه كلما حاولت جاهدا البحث عن الحقيقة ، فى معتقداتنا ، كلما أزدت اقتناعا بعدم وجودها • والآن أعترف بكل صراحة أن الحقيقة تبدو واضحة للعيان ، فى هذه التعاليم التى يمكن أن تغمرنا بنعمة الحياة والخلاص ، والسعادة الأبدية • ولذلك أنصح جلالتكم باغلاق المعابد على الفور ، وباشعال النيران بها ، وبمذابحها ، التى كنا نقدسها ، دون أن نجنى أى ثمرة » (٣٤) •

ولا بد أن الكلمة الثانية التى ألقاها كويفى قد أقنعت ، لأنه أصدر قراره لصالح المسيحية على الفور • وعندما سأل الملك عن من لديه الاستعداد بالاعلان عن كفرانه بمعبد عبادة الأوثان ، تطوع كويفى وقال : « سأفعل ، اذ ان الله الحق منحنى ما لم يمنح غيرى » ما يجعل من المناسب أن أقوم بنفسى بتحطيم الأوثان ، التى عبدتها فى وقت ما دون معنى ، وأن أقوم بذلك كى أعطى المثل الصالح للجميع • وعلى الفور طرح جانبا معتقداته الضالة ، وطلب من الملك أن يمده بالأسلحة وبجواد قوى ، وركب الجواد ، وذهب لتحطيم الأوثان • وفى ذلك الحين لم يكن مسموحا لكاهن كبير عندهم أن يحمل أسلحة ، أو أن يركب سوى حمارة • وهكذا تحرك كويفى صوب مكان الأصنام ، ممتطيا صهوة جواد الملك ، ومتقلدا سيفه ، وممسكا حربة فى يده • واعتقد عامة الشعب الذين شاهدوه أنه قد أصابه مس من الجنون • غير أنه ما أن اقترب من المعبد الدينى ، حتى أبدى

احتقاره له باطلاقه الحربة صوبه دون تردد ، وهو فى غاية الابتهاج لمعرفته عبادة الله الحق ، وأمر رفاقه أن يحطموا المعبد ، وأن يشعلوا النيران فيه ، وفى كل محتوياته • وما زال المكان الذى كانت به الأوثان موجودا بالقرب من يورك ، تجاه الشرق ، بعد نهر ديرونت • ويدعى ذلك المكان اليوم باسم جودمانهام Goodmanham ، وهو المكان الذى أعلن كبير الكهنة احتقاره له ، وحطم المذابح التى أحاطها من قبل بهالة من القداسة • وكل ذلك بالهام من الله » (٣٥) •

ثم كتب (بيده) عن تعميد الملك ادوين ، وعلية قومه ، وعدد كبير من رعيته • ودفع تحمس أدوين للدين الجديد ، أن اعتنق ملك الانجلز الشرقيين وشعبه الديانة المسيحية • وبارك الله فى أدوين وملكته ، ويقول (بيده) : « وكما يقول المثل تستطيع المرأة التى تنجب طفلا ، أن تمشى فى كل أنحاء الجزيرة من البحر الى البحر دون كلل أو ملل » •

وعند خاتمة الكتاب الثانى ، أطلع (بيده) القارىء على التطورات السياسية التى حدثت خلال السنوات التى شملتها تلك الفترة • وأشار (بيده) الى أن ادوين راح ضحية ثورة اشترك فيها بيندا Penda ملك ميرسيا Mercia الوثنى سنة ٦٣٣ م بعد أن حكم سبعة عشر عاما • بيد أن (بيده) كان سعيد لتمكنه ، فى بداية كتابه الثالث من ذكر أن عودة نشاط الوثنية من جديد فى عهد بيندا ، وكيدوالا Caedwolla ، بعد مقتل الملك ادوين ، لم يقدر لها البقاء طويلا • واستطاع الملك أوسوالد Oswald ، « الذى كان قليلا فى العدد ولكن قويا بايمانه بالمسيح أن يحطم قائد البريطون البغيض ، وجيشه الضخم الذى قال عنه انه لا يقهر » (٣٦) •

ونظرا لأن الكتاب الثالث من التاريخ ورد به عجائب ومعجزات أكثر من أى مجلد آخر للمؤلف ، فمن المناسب هنا أن نعلق على هذه الميزة فى كتابة (بيده) ، وهى ميزة قد أثارت الشىء الكثير من النقد • لقد آمن (بيده) بالمعجزات ، كما فعل كل المعاصرين ، مثقفين كانوا ، أم غير ذلك • وكان الناس فى عهده ، اذا ما افتقر أمر الى تفسير طبيعى يحيلونه الى تفسير يتعلق بعالم الغيب • ويجب أن يضع قارىء كتاب التاريخ لمؤلفه (بيده) ، فى ذهنه ، أن (بيده) كان يكتب تاريخا كنسيا لا علمانيا • وشعر (بيده) بأنه ملزم الى حد ما بأن يقدم للقارىء مادة علمية اعتقادا أن ذلك القارىء سيجد بها ما يعمل على رفع مستواه الثقافى الدينى • ومع ذلك قام (بيده) بذكر المصادر التى استقى منها قصصه المتعلقة بالمعجزات ، باعتباره مؤرخا • وترك (بيده) للقارىء حق قبول أو رفض مصداقية المعجزة •

وسيجد القارئ لكتاب التاريخ لمؤلفه (بيده) أنه غالبا ما يحدث ذكر المعجزة فى المكان الذى مات به القديس أو دفن به • فالمكان الذى اغتيل به الملك أوسوالد Oswald المقدس ، يعتقد أن به قوى معجزة • « لدرجة أن اعتاد الناس على أخذ بعض من تربة المكان الذى سقط فيه على الأرض ، ووضعها فى الماء ، وباستعمال تلك المياه يتم لهم الشفاء من أسقامهم • وأصبحت تلك العادة شائعة ، وأخذت كميات كبيرة من تربة المكان على مر الأيام ، حتى تكونت هناك حفرة بلغ عمقها طول قامة • وليس من المدهش أن المرضى كان يتم شفاؤهم فى المكان الذى مات به الملك أوسوالد ، لأنه قبل موته لم يتقاعس عن رعاية المرضى الفقراء ، وتقديم الصدقات ، والمساعدات لهم • وهناك العديد من العجائب والمعجزات التى حدثت فى ذلك المكان ، أو فى المكان الذى نقلت اليه تربة ذلك المكان • »

وتعرض المعجزتان اللتان وصفهما (بيده) تفسيرا (طبيعيا » للقارئ النزاع الى الشك فى المبادئ الدينية • « ويقال ان رجلا مسافرا على جواد مر بالمكان الذى مات به الملك أوسوالد ، بعد موته بفترة قصيرة وعند ذلك المكان بدأ الجواد يشعر بالاعياء ، ثم توقف عن المسير وأحنى رأسه الى الأرض ، وخرج الزبد من فمه ، ثم سقط على الأرض ، من شدة الألم • فترجل الفارس ، وخلع حلس (قماش تحت السرج أو فوقه) الجواد ، وانتظر ليرى اذا ما كان الجواد سيتحسن صحته ، أو ليتركه الى أن يموت • وعانى الجواد من الألم لفترة طويلة ، وظل يتمرغ فى التراب من مكان الى آخر ، حتى انقلب رأسا على عقب ، وفى الوقت الذى أصبح فيه الجواد فى البقعة التى مات بها الملك ، زال الألم على الفور ، وانتهت معاناة الجواد الشديدة ، ثم بدأ يتدحرج هنا وهناك ، كما تفعل الخيول بعد أن تنال قسطا من الراحة ثم وقف الجواد ، وقد شفى تماما من علته ، وبدأ يلتهم العشب بشراهة • وعندما رأى الفارس الذكى ذلك ، أدرك أنه لا بد وأن تكون هناك علاقة مقدسة تربط ما بين المكان وشفاء الحصان ، فوضع علامة على المكان ، وامتطى صهوة جواده ، وانطلق الى الحانة التى قصدها للاقامة بها • وعند وصوله الى الحانة : وجد فتاة هناك ، وهى احدى قريبات صاحب الحانة ، وتعانى من الشلل • وعندما سمع أهل بيتها يرثون حظ الفتاة لعجزها البدنى المحزن ، أخبرهم عن المكان الذى شفى فيه جواده • ولماذا أطيل الحديث ؟ لقد أخذوها فى عربة ، الى ذلك المكان ، ووضعوها على الأرض • وفى مدى فترة قصيرة من الوقت استغرقت الفتاة فى النوم ، وعندما استيقظت ، وجدت أنها قد شفيت تماما من عجزها البدنى » (٣٨) •

وسيجد القارىء الذى يشعر بالانزعاج لكثرة عدد المعجزات التى ذكرها (بيده) أن ذلك المؤرخ كان ميالا الى ذكرها • وعلى سبيل المثال ما قصه عن أوسوين Oswine ، الذى شارك فى حكم نورثمبريا مع أوسويو Oswiu ، الذى اتصف بعدوانيته ، وتجرده من المبادىء الأخلاقية • وكان أوسوين ، « رجلا ورعا ، وحكم مملكة ديرا Deira لمدة سبع سنوات ، عاشتها فى رفاهية ، وأحبه الجميع ، وتمنى أوسيو أن يحكم نورثمبريا وعندما رفض أوسوين القتال وقام بتسريح جيشه ، أجبره أوسويو على مغادرة البلاد وتعرض للاغتيال • وتكشف القصة التالية عن مواهب (بيده) فى سرد القصص » • وكان الملك أوسوين طويلا ووسيما ، ومهذبا ، ولطيفا ، وكريما مع علية القوم ، وعامة الشعب على حد سواء ، ولذلك أحبه الجميع للوقار الملكى الذى بدا عليه ولمظهره ، وأعماله ، وسارع عليه القوم والخدام فى كل أجزاء المملكة لخدمته • ومن بين كل مناقب الطهارة ، والعفة والتواضع ، أنه كان ينعم بالسعادة الروحية ، بطريقة خاصة ، وكان التواضع عنده قدوة فريدة للدلالة عليه • وكان قد أهدى للأسقف أيدان Aidan (٣٩) جوادا قويا • وبالرغم من أن الأسقف اعتاد على السير على الأقدام ، فانه استطاع ركوب هذا الحصان عندما كان مضطرا الى أن يعبر نهرا • وبعد ذلك بوقت قصير قابل الأسقف أحد الشحاذين ، وطلب منه صدقه • فترجل من على الحصان ، على الفور ، وأعطاه للشحاذ ، بكل ما عليه ، من أغطية السرج المزركشة الملكية ، لأنه كان رجلا رحيما الى أبعد حد ، وصديقا للفقراء ، وأبا حقيقيا للبؤساء • وبلغ الملك ما فعله الأسقف ، وحدث أن قابل الملك الأسقف عندما ذهب لتناول الغذاء • فقال الملك للأسقف ، « سيدى الأسقف لماذا أعطيت الشحاذ الحصان الملكى ، الذى أعطى لك ؟ ألم يكن عندك خيول أقل قيمة ، أو أشياء أخرى يمكن أن تقدمها الى الفقير ، دون أن تسمح لشحاذ أن يحصل على حصان اخترته بنفسى لاستعمالك الشخصى ؟ فأجابه الأسقف على الفور ، « مولاى الملك ، ماذا تقول ؟ بكل تأكيد ان ابن الفرس ليس أعز عندك من ابن الله ؟ وبعد تبادل تلك الكلمات ذهبا لتناول الطعام • وجلس الأسقف فى المكان المعد له ، أما الملك الذى كان قد عاد توا من رحلة الصيد ، فجلس بالقرب من المدفأة ، ومعه أتباعه الاقطاعيون • وفجأة تذكر الملك كلمات الأسقف ، فنزع سيفه ، وأعطاه لأحد أتباعه الاقطاعيين ، واتجه بسرعة الى المكان الذى جلس به الأسقف ، وسجد عند قدميه ، وطلب منه الغفران ، ثم قال الملك للأسقف ، « لن أتكلم عن أى شىء أعطيته لك ، وتقوم بمنحه لأبناء الله من الآن فصاعدا » وبدا على الأسقف التأثر الشديد لمشاهدته ذلك ،

ونهض على الفور ، وساعده الملك على الوقوف ، معلنا أنه سيكون راضيا تماما ، اذا ما طرح الملك جانبا احساسه بالأسى ، وجلس لتناول الطعام ، واسترد الملك روحه المعنوية ، نتيجة لتوسلات ودعوات الأسقف ، بيد أن الأسقف من ناحيته بدا عليه الحزن شيئا فشيئا حتى دمعت عيناه • وفى ذلك الحين سأل أحد القساوسة الأسقف بلغة لا يعرفها الملك أو الأتباع الاقطاعيون عن سبب بكائه ، فأجاب ايدان : « انى أعلم أن الملك لن يعيش طويلا ، وانى لم أر على الاطلاق ملكا فى مثل تواضعه • ولذلك أعتقد أن الموت سيخطفه قريبا جدا ، وأن هذه الأمة ليست جديرة بحكام مثله • وبعد ذلك بوقت قصير تحققت توقعات الأسقف المؤسفة بموت الملك » (٤٠) •

ومات ايدان بعد اغتيال أوسوين باثنى عشر يوما ، وأعطت تلك الحادثة (بيده) الفرصة ليوضح ويبرز مناقب هذا الأسقف ، والمعجزات التى نسبت اليه • واختتم (بيده) مديحه للأسقف بالكلمات التالية : « لقد كتبت هذه الأمور عن شخصية وأعمال ايدان ، باعتبارى مؤرخ صادق • وقمت بوصف الأمور على نحو دقيق كما قام بها ، والأحوال التى تمخضت عن تصرفاته ، لأن صفاته جديرة بالثناء والحفظ فى ذاكرة من يقرءون لى من أجل خيرهم » (٤١) •

وتظرا لتعليق (بيده) أهمية زائدة على التمسك بالتحديد الرومانى لموعد عيد الفصح ، فانه أعطى أهمية متساوية لبعض الأبحاث تساوت مع أهمية المجمع المحلى فى وايتباى Whitby سنة ٦٦٤ م عندما حسمت مسألة تحديد موعد عيد الفصح بشكل نهائى • وترجع الخلفية التاريخية للاختلاف فى تحديد الاحتفال بعيد الفصح الذى حدده • رجال الاكليروس فى شمال انجلترا ، وبين الموعد الذى أقره رجال الاكليروس فى جنوب انجلترا ، الى عصر الغزوات الأنجلو سكسونية • وعندما عملت تلك الخلافات على تقطيع أواصر الروابط بين ايرلندا ، وباقى العالم المسيحى ، لم يتم تحديد موعد عيد الفصح على نحو عالمى • وكانت ايرلندا قد أقرت كل التقاليد التى كانت قائمة فى شرق البحر المتوسط ، لأن الحياة الديرية الايرلندية كانت قد تشكلت وفقا للمؤثرات الشرقية ، أكثر من تأثيرها بالمؤثرات الغربية • ولذلك فلمدة تزيد عن مائة وخمسين عاما ، منذ حوالى سنة ٤٠٠ م فصاعدا ، تركت الكنيسة الكلتية وشأنها ، فيما يتعلق بقبولها تحديد موعد عيد الفصح • وبالاضافة الى هذا الاختلاف فى تحديد موعد اقامة هذا الطقس الدينى ، فهناك أمور دينية جرت مجرى العرف ، مارستها الكنيسة الايرلندية ، ولم تمارسها الكنيسة اللاتينية ، مثل تناول الخبز المخمر • ولذلك كان أمرا حتميا أنه ما ان انتشرت

المسيحية شمالا من كنتربرى ، عندما أقام بها ورجال الاكليروس القادمون معه من روما حتى اصطدمت مع المسيحية التى مارس طقوسها المبشرون الكلتيون من أيونا Iona ، وليندسفرن Lindisfarne •

على أن الذى عجل بالدعوة الى عقد المجمع المحلى فى وايتباى ، لبحث مسألة عيد الفصح كان موضوعا غير خطير ، وهو حدوث عدم ارتياح فى قصر الملك أوسويو Oswiu فى نورثمبريا ، فى ربيع كل عام ، نتيجة للخلط الناجم عن الاختلاف على تحديد موعد عيد الفصح والذى حدث أن الملك أخذ بالتقويم الكلتى ، فى الوقت الذى أخذت فيه زوجته بالتقويم الرومانى ، « فكان الملك قد انتهى من الصيام ، واحتفل بأحد عيد الفصح ، فى الوقت الذى كانت فيه الملكة وشعبها فى فترة الصوم الكبير ، ويحتفلون بأحد السعف » •

وعلى ذلك عقد مجلس فى وايتباى فى ضيافة الملك • وكان كولمان Colman ، الأسقف الايرلندى ، القوى فى شخصيته وثقافته اللاهوتية ، من بين كبار رجال اللاهوت الذين حضروا ذلك المجمع ، ودافع عن التقويم الكلتى • وبناء على طلب الملك نهض كولمان ، وعرض موقفه من تلك القضية : « ان نظام الاحتفال بعيد الفصح الذى أتقيد به وفقا للمراسم المألوفة ، أخذته عن رؤسائى ، الذين أرسلونى الى هنا كأسقف ، وهو النظام الذى سار عليه آبائنا ، وهم الرجال الذين أحبهم الله • ولا يصح الآن القول بأن هذا النظام يبدو غير مقبول ، وغير جدير بالأخـذ به ، ولا سيما أن القديس حنا الانجيلى حوارى المسيح المحبوب ، قد أخذ به ، وعمل على احيائه بالاحتفال به ، وسارت عليه كل الكنائس التى أشرف عليها » (٤٢) •

وعندما جلس كولمان ، نهض القس ويلفريد Wilfrid ، ليعرض القضية لصالح التقويم الرومانى • وكان ويلفريد ناطقا بلسان الأسقف اجيلبرت Agilbert ، من غرب السكسون الذى اعتذر عن الحضور لافتقاره الى التحدث باللغة الانجليزية بطلاقة • وأكد ويلفريد على أن كل العالم ــ ايطاليا ، وافريقيا ، وآسيا ، وروما ــ « حيث عاش ، وبشر ، وتعذب ، ودفن كل من القديسين الحواريين بطرس وبولس » ، قد قبلت كل تلك الجهات التقويم الرومانى • على أن البيكتيين والبريطون كانا الشعبين الوحيدين اللذين رفضا الامتثال لذلك ، « وهما اللذان يعيشان فى الجزائر البعيدة فى المحيط ، وفى بعض المناطق حاولوا أن يتصدوا لكل العالم بحماقة » (٤٣) •

وأثار استخدام ويلفريد لكلمة « أحمق » مشاعر كولمان السريع الغضب ، الذى طلب أن يعرف على الفور كيف يتجاسر أى شخص على

أن يطلق على يوحنا الرسول لفظ أحمق فأجاب ويلفريد ان يوحنا لم يكن بالتأكيد أحمق ، وانما دفعه حرصه على تحويل اليهود الى المسيحية أن أخـذ بتقويمهم • ولنفس السبب قام بولس الرسـول بختان تيموثى Timothy ، واستمر (بيده) فى عرض المناظرة بين الرجلين ، مقدما ما يفهم أنه وصف حرفى لنصوص البراهين والحجج التى قدمها كل منهما• ووصل الخلاف الى نقطة الحسم ، عندما أشار ويلفريد مرة ثانية الى « القليل من الناس الذين عاشوا فى أحد أطراف أبعد الجزر » ويصرون على التمسك بما يتعارض مع الكنيسة العالمية ، التى عهد المسيح بها الى بطرس أسقف روما ، عندما قال : « أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح الملكوت » •

أحدثت اشارة ويلفريد الى مفاتيح الفردوس رد فعل فورى من قبل الملك أوسويو Oswiu • اذ سأل هذا الملك الأسقف كولمان اذا ما كان المسيح قد قال بالفعل تلك الكلمات لبطرس • وعندما أقر كولمان بأن ذلك ما حدث قال الملك ، « هل توافقان دون أدنى خلاف ، على أن تلك الكلمات قالها المسيح الى بطرس دون غيره ، وأن الرب أعطى مفاتيح مملكة السماء اليه ؟ » فقالا معا ، « نعم » « وبناء على ذلك اختتم الملك حديثه قائلا : « حينئذ ، أقول لكم ما دام بطرس يملك حق دخول مملكة السماء فلن أخالفه ، وانما سأطيع أوامره فى كل شىء قدر علمى وطاقتى ، والا عندما أذهب الى أبواب مملكة السماء ، فلن يفتح لى أحد لأن من أعلنتم عنه أنه يملك المفاتيح يكون قد أدار ظهره لى » • وعندما أنهى الملك حديثه عبر كل الحاضرين من مختلف الطبقات عن موافقتهم سواء من كان جالسا ، أو واقفا عن قرب ، وكفوا عن أمورهم غير الصحيحة وقبلوا ما اعتقدوا أنه صحيح عن طيب خاطر » (٤٤) •

ومع ذلك ، فوفقا لرواية (بيده) ، أصبح واضحا أن المجمع المحلى فى وايتباى Whitby لم ينته بموافقة اجماعية • وكل كولمان متصلبا فى موقفه « واصطحب معه من وافق على موقفه ، وأعنى بهم ، الذين لم يوافقوا على موعد عيد الفصح الكاثوليكى ، وعملية حلق قذال المترهب بشكل التاج، لأنه كانت هناك خلافات بشأن هذا الموضوع أيضا ، وعادوا الى ايرلندا ليتباحث مع جماعته بشأن ما يجب اتباعه فى هذا الصدد » (٤٥) •

وقبل الانتهاء من ذكر هذا الحدث العرضى يستحق (بيده) كلمة اطراء للطريقة الموضوعية التى سلكها فى روايته لما حدث فى ذلك المؤتمر • وعلى الرغم من أن تعاطفه مع الجانب الرومانى كان قويا ، فانه لايمكن اتهامه بالتعاطف مع كولمان وجماعته ابان الجدال ، أو أنه قد حاد عن

الحق قيد أنملة • ومرة ثانية هنا ، وفى أماكن فى تاريخه انتهز (بيده) الفرصة وذكر مناقب رجال الكهنوت الكلتيين ، وكذلك ورع شعبهم •

وتضمنت المادة العلمية التى ذكرها (بيده) فى كتابه الرابع من تاريخه تطورات كانت أكثر شعوب عصره على علم بهـا • وكان التعيين البابوى لثيودور الطرسوسى Theodore of Tarsus ، رئيسا لأساقفة كانتربرى ، ومعه الراهب المثقف هادريان Hadrian وعند وصولهما الى انجلترا مهدا السبيل لاعادة تنظيم الكنيسة فى انجلترا ، واقامة بناء أسقفى مبنى على التشريع الأسقفى وسلطته • وكان لقدوم هذين الرجلين أثر كبير فى احداث تيار جديد للنشاط الفكرى الذى نقله كل من أولدهيلم Aldhelm ، وبندكت بسكوب Benedict Biscop الى (بيده) • وحظى كل من ثيودور وهادريان ، على أعلى درجات المديح والاطراء من (بيده) • وكان ثيودور « من أبناء طرسوس فى قليقيه Cilicia ، وعلى دراية تامة بالأدب العلمانى والكنسى ، سواء باللغـة اليونانيـة أو اللاتينية » • أما هادريان ، « فكان من أصل أفريقى ، ومتمكنـا من الكتاب المقدس ، وعلى دراية تامة بالحياة الديرية ، والكنيسة ، ومتقنا للغتين اليونانية واللاتينية على حد سواء » وظل هادريان ملازما لثيودور ، فى كل مكان ، ويقدم له المساعدة ، عند قيام الأخير بالقاء المواعظ المتعلقة بالحيـاة المقدسة ، والتمسك بالتقاليد القـانونية المتعلقة بالاحتفال بعيد الفصح • وكان ثيودور أول رئيس للأساقفة قبلت الكنيسة الانجليزية طاعته • ونظرا لأن كليهما كانا على قدر كبير من الثقافة الأدبية الدينية والعلمانية ، لذلك فانهما جذبا اليهما مجموعة كبيرة من الدارسـين ، واستطاعا سكب اتجاهات المعرفة المفيدة فى عقولهم يوميا • وقدما الى مستمعيها المعرفة المتعلقه بالكتب المقدسة ، وبفن بحور الشعر ، وعلم الفلك ، والحساب الكنسى • والشاهد على ذلك ، وجود بعض من تلاميذهم الذين مازالوا على قيد الحيـاة ، وعلى معـرفة تامة باللغتين اللاتينيـة واليونانية كمعرفتهم للغتهم الأصلية تمـاما بتمام •• ومنذ عهدهما بدأت الموسيقى المقدسة تدرس فى كل الكنائس الانجليزية ، وهى التى لم تكن معروفة قبلهما سوى فى « كينت "Kent » (٤٦) •

ويقدم الفصل الخامس من الكتاب الرابع مثلا رائعا للطريقة التى كتب بها (بيده) تاريخ الكنيسـة • فبدأ باعلان عن موت أوسويو ، ملك نورثمبريا • وفى السنوات الأخيره من حياة هذا الملك ، زادت درجة الورع عنده ، الى الحد الذى تمنى فيه أن يموت ، « بين الأماكن المقدسة » فى روما ، بيد أن الموت حال دون ذلك ثم دعا ثيودور الأساقفة الى أول

مجمع محلي من نوعه في تاريخ الكنيسة الانجليزية ، « بالاضافة الى كثيرمنالعارفين بشئون الكنيسة الذين عرفوا وأحبوا القوانين الكنسية للآباء الأول » . وذلك ســنة ٦٧٢ م في عهد اكجريث Ecgrith بن أوسويو . وقدم (بيده) تقريرا عن أعمال المجمع المحلي وذكر نصوص الموضوعات التي تمت مناقشتها ، ووافق عليها المجتمعون . وأنهى (بيده) الفصل الخامس من هذا الكتاب الأخير بالاشارة الى وفاة ايجبيرت Egbert ملك كينت ، واعتلاء شقيقه هولثهير Holthhere للعرش .

ويستطيع قارىء تاريخ (بيده) أن يلمح الانتشار التدريجي للمعرفة في بريطانيا وان كان متواضعا ، بيد أنه كانت له فاعلية الى حد ملحوظ . وأشار (بيده) الى أن بندكت بسكوب Benedict Biscop ، مؤسس دير ويرماوث Wearmouth استطاع اقامة علاقات طيبة لمدة عام مع حنا كبير المرتلين في كنيسة القديس بطرس في روما . « لكي يستطيع تعليم رهبان الدير طريقة القاء الأناشيد والترانيم طوال العام ، على النحو المتبع في كنيسة القديس بطرس في روما . ونفذ الأب حنا تعليمات البابا (كان البابا أجاثو Agatho قد أذن لحنا بالقيام بهذه المهمة) . وعلم قادة جوقات الترتيل في الكنيسة نظام وطريقة الانشاد والقراءة بصوت مرتفع وتدوين كل الأمور الضرورية للاحتفال بأيام الأعياد على مدار السنة . وقام آخرون بنسخها في أماكن أخرى . ولم يقتصر عمل حنا على تعليم الاخوان في هذا الدير ، وانما امتد ليشمل كل من لديه القدرة على الانشاد من بين الذين توافدوا عليه من كل الأديرة الأخرى ، في أنحاء المملكة للاستماع اليه ، كما تلقى كثيرا من الدعوات للتعليم في أماكن أخرى » (٤٧) .

ويظهر في الكتاب الرابع موضوع له أهمية فريدة للدارسين للأدب الانجليزي الباكر عندما قدم (بيده) كيدمون Caedmon ، الشاعر الانجليزي الأول المشهور . وفيما يلي قصة (بيده) ، « في دير هذه الأم (الأم هيلد من وايتباى Abbess Hild of whiteby كان هناك أخ معين حباه الله بنعمة مميزة ، اذ اعتاد على تأليف الأغاني الربانية والدينية، من خلال معرفته ما تعلمه من تفسيرات الكتاب المقدس ، واستطاع بسرعة تحويل تلك التفسيرات الى قصائد شعر ، باعثة على البهجة ، ومثيرة للمشاعر بلغته الانجليزية . وبفضل أغانيه تفتحت كثير من العقول ، واحتقرت العالم المادى ، وصارت تواقة الى الحياة في نعيم الملكوت . والواقع أن مواطنين انجليز آخرون حاولوا تأليف أشعار دينية ، بيد أنهم

لم يستطيعوا الوصول الى مستواه · لأنه لم يتعلم فن الشعر من أحد ، وانما حظى بالنعمة الالهية عند قرضه الشعر · ومن ثم لم يؤلف شعرا ركيكا أو رديئا ، وانما كان شعرا اختص بتكريس الحيــاة من أجل رضى الله » (٤٨) ·

وعندما روى (بيده) قصته ، كان كيدمون قد قضى بالفعل عدة سنوات الى أن أصبح راهبا وتعلم قرض الشعر ، الى أن حدث له أمر عجيب ، فكان من عادته مغادرة غرفته فى المناسبات الاجتماعية عندما يحين الوقت لكل فرد من الرهبان أن يأخذ دوره فى الانشاد · وفى ذلك الحين كان يشعر بالخجل لعدم مقدرته على نظم الشعر · « وفى احدى المناسبات ترك كيدمون مكان الاحتفال الدينى ، وذهب الى حظيرة المواشى، حيث كان مكلفا بأمر العنــاية بها تلك الليلة · وفى الوقت المناســب استرخى على الأرض ، واستغرق فى النوم · وعلى الفور رأى فى المنام رجلا يقف بجواره ، وحياه ذلك الرجل وناداه باسمه قائلا : « يا كيدمون أنشد أى شىء » · فأجاب كيدمون ، ما أنا بمنشد ، ولقد أتيت الى هاهنا لعدم مقدرتى على الانشاد فى الاحتفال الدينى وللمرة الثانيــة قال المتحدث ، « وبرغم ذلك لابد أن تنشد لى » · فقال كيدمون ، وماذا يجب على أن أنشده · « فقال المتحدث » ، أنشد عن بداية الأشياء التى خلقها الله · « فعلى الفور بدأ كيدمون ينشد شعرا لم يسمعه من قبل فى تسبيح الله خالق كل شىء ، ويدور حول المعنى التالى ، » يجب أن نسبح الله خالق الملكوت ، ونسبح بقوة الخالق وأسراره ، وأعمال الأب الممجد ، وأنه الله الأبدى ، صانع كل المعجزات ، وخالق الملكوت ليستظل به أبناؤه ، والعلى القدير ، والحارس لكل البشر ، خالق الأرض » (٤٩) ·

وعند هذا الحد أقحم (بيده) احدى الملاحظات الباكرة التى تتعلق بصعوبة ترجمة الاسلوب المنظوم من لغة الى أخرى · فكتب يقول ، « وهذا هو المعنى وليست الكلمات نفسها التى أنشدها كيدمون فى منامه · لأنه ليس من السهل ترجمة الشعر ، ولاسيما اذا كان منظوما على نحو جيد ، من لغة الى أخرى دون أن يفقد شيئا من حلاوته وطلاوته » ·

وفى صباح هذا الحلم المدهش أبلغ كيدمون ما حدث له الى رئيسه المباشر الذى قام بدوره بابلاغ رئيسة الدير The abbess · ثم نذر كيدمون نفسه للحياة الرهبانية ، وانضم الى الجماعة الديرية فى وايتباى Whitby · وابان الحصول على معلومات عن التاريخ المقدس خــلال الشهور التالية ، « تعلم كيدمون كل ما استطاعه عن طريق الاصغاء الى الرهبان ، وحفظ ما سمعه ، ثم التفكير بتمعن فيما حفظه ، ثم حوله الى

شعر ملحن ، ويبدو أن شعره كان جميلا جدا الى الحد الذى تحول فيه مدرسوه الى مستمعين اليه • وأنشد عن خلق الكون ، وأصل الجنس البشرى والتاريخ الكامل لسفر التكوين ، ورحيل اسرائيل من مصر ، ودخوله أرض الميعاد ، وكثير من القصص الأخرى المأخوذة من الكتاب المقدس ، وعن تجسد المسيح ، وآلامه بين ليلة العشاء الأخير وموته ، وعن قيام المسيح من بين الموتى ، وعن صعوده الى السماء ، وعن حلول الروح القدس على التلاميذ وتعليمه لهم • وألف أغانى عن أهوال يوم الحساب ، وآلام جهنم التى تشيب لها الولدان ، ونعيم الملكوت • وبالاضافة الى ذلك ألف كثيرا من الأغانى عن الرحمة الالهية ، والحساب العادل ، وفى كل أغانيه حاول أن يبعد مستمعيه عن الانغماس فى الرذيلة ، وأن يحبب اليهم الايمان والعمل الطيب وممارسته » (٥٠) •

وتختلف طريقة كتابة (بيده) الى حد ما عندما انتقل الى الكتاب الخامس والأخير من تاريخه • فقد احتوى الكتاب على العدد المعتاد من المعجزات ، على الرغم من عدم وجود معارك ، ذلك لأن الفترة الزمنية التى غطاها الكتاب الخامس كانت أقصر من الكتب السابقة • ولم يرد فى هذا الكتاب سوى القليل من التعيينات الأسقفية ويظهر فى ذلك الكتاب نمط جديد من المعلومات ذكره (بيده) عن نشاط البعثات التبشيرية فى القارة الأوربية • وكان الانطباع العام يشير الى أن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة للكنيسة والمسيحية ، عندما زار كل من كيدوالا Caedwalla ، ملك غرب السكسون وخليفته أين Ine ، مدينة روما ، فى الوقت الذى لم يكتف فيه كل من كنرد Cenred ملك المرسيين The Mercians وأوفو Offo ، ملك شرق السكسون بزيارة روما فحسب وانما بقى كل منهما هناك ، وانضما الى المجتمعات الديرية •

ويشير الخطاب الذى أرسله (بيده) الى اجبرت Egbert ، رئيس الأساقفة بعد عامين من الانتهاء من كتابة كتابة « التاريخ » الى وجود ايجابية بدرجة أقل عما مضى فى الكنيسة • ففى هذا الخطاب يرثى (بيده) لحال العديد من الأساقفة ، الذين أصبحوا دون مستوى الصلاحية، ولوجود أديرة مزدحمة بالرهبان الزائفين ، الذين كان دافعهم الوحيد للانخراط فى السلك الرهبانى ، هو هروبهم من مسئوليات الحياة العامة ، وكذلك التدهور العام فى النظام من قبل رجال الدين المحترفين وغير المحترفين وهناك تفسير ممكن قبوله بشأن هذا التناقض ، وهو أن (بيده) أراد فى خطابه الى رئيس الأساقفة ، أن يتحدث بصراحة تامة ، بما يشعر به من واجب تحتم عليه الظروف أن يؤديه ومن ناحية أخرى ،

فان كثيرا من الناس سيطالعون تاريخه أو يستمعون اليه ، وعند كتابة تاريخه يتحتم عليه أن يكون حذرا • ويستطيع أن يحقق هدفه بطريقة أفضل ، وحث الناس على محبة الله ، بالاشارة الى القدوة الحسنة للملوك الأتقياء • كما وجد أن تسجيله فى تاريخه المساوىء التى وجد أنها بدأت تدب فى الحياة الدينية لن ينجم عنه سوى الخزى •

وتضمن كتاب (بيده) الخامس من تاريخه مقتطفات أخذها عن وصف آدامنان Adamnan رئيس دير أيونا Iona (ت ٧٠٤ م) عن الأماكن التى زارها الأخير ، ابان زياراته لفلسطين • ومع ذلك فان هذا التضمين يوضح الطبيعة الدينية لتاريخ (بيده) بصفة أساسية • ويوضح (بيده) قائلا : « أعتقد أن من المفيد للقراء قيامهم باقتباس مقتطفات واضافتها الى هذا التاريخ » • وجاء فى الفقرة المتضمنة لوصف مدينة هبرون Hebron ، ومقابر البطارقة ما يلى : « كانت مدينة هبرون عاصمة مملكة داود ، أما الآن فليس بها سوى أنقاضها الدالة عليها • وعلى بعد حوالى مائتين وعشرين ياردة تجاه الشرق من تلك المدينة ، يوجد فى كهف مزدوج مقابر البطارقة ، ورؤوسهم تواجه الشمال ويوجد سور يحيط بذلك الكهف من جميع الجهات • ويغطى حجر واحد كل قبر من تلك القبور ، منحوت على شكل كنيسة ، ولون أحجار البطارقة أبيض ، على حين أن حجر قبر آدم كان يميل الى السمرة ، وأقل جودة فى صناعته ، ويرقد آدم على مقربة من البطارقة فى أقصى شمال السور • ويوجد هناك أيضا بعض شواهد قبور أصغر ، وأكثر تواضعا لزوجات البطارقة الثلاثة • ويقع تل مامر Mamre على بعد ميل شمال تلك القبور ومغطى بالأعشاب والأزهار ، مع وجود هضبة منبسطة فى أعلى التل • وتوجد شجرة ابرهام (Ibraham's Oak ولم يبق منها سوى جزعها ، البالغ طوله قامتين ، وتحيط الكنيسة بتلك الشجرة » (٥١) •

ويمدنا (بيده) بمعلومة لها قيمة كبرى للدارسين للتاريخ ، لأصالتها التاريخية وهى تتحدث عن الرهبان الانجليز ، الذين ذهبوا الى ألمانيا للتبشير بالانجيل • وكان وايتبرث Whitebert ، من أوائل الذين ذهبوا • فقد ذهب الى فريزيا Frisia ، بيد أنه اضطر للعودة الى ايرلندا ، بعد أن أمضى عامين فى التبشير دون أن يحقق أى نجاح ، وظل فى المنفى فى ايرلندا • وفى سنة ٦٩٠ م حقق ويليبرورد Willibrord نجاحا ، بعد أن عبر بحر المانش ومعه أحد عشر مبشرا • وحظى ويليبرورد بتشجيع فعال من قبل ببوين من هيريستال Pepuin of Heristal ، عمدة القصر فى أوستراسيا Austrasia ، وأخيرا أصبح ويلبرورد رئيسا لكل

أساقفة فريزيا • وذكر (بيده) مبشرا إنجليزيا آخر يدعى هيوالد الأبيض Hewald the white ، الذى حمل هذا الاسم لبياض شعره ، وزميله الآخر هيوالد الأسود Hewald the Black • وقال كل منهما نعمة الاستشهاد فى فريزيا • وبفضل معجزة الهية ظلت جثتاهما طافيتين لمسافة خمسين ميلا ضد تيار النهر الى أن تم العثور عليهما ، وأمر بيبين بدفنهما فى الكنيسة فى كولون Cologne •

ويقدم لنا (بيده) فى الكتاب الخامس الجانب المألوف عن الدهيلم Aldhelm وتلقى ألدهيلم تعليمه الأول على يد راهب ايرلندى ، ثم ذهب الى كانتربرى ، حيث علمه هادريان كل صنوف المعرفة ، فى الأدب اليونانى والرومانى • وفيما بعد ، وفى سنة ٦٧٥م ، على وجه التحديد ، كان الدهيلم رئيسا لدير مالمسيبرى Malmesbury وذهب اليه الدارسون من كل أنحاء انجلترا للاستفادة بعلمه وفيما يلى وصف (بيده) لذلك العالم « عندما كان ألدهيلم قسا ورئيسا للدير المعروف باسم ماليمسبرى أمره مجمع محلى من أهالى تلك المدينة بكتابة كتابه المشهور ضد التحديد الخاطىء لعيد الفصح ، الذى وقع فيه الانجليز فى ذلك الحين ، وضد الأساليب الأخرى العديدة التى تتعارض مع ممارسة الشعائر السليمة ، وتتعارض مع سلام الكنيسة ، وبفضل ذلك الكتاب استطاع الدهيلم أن يعيد كثيرا من البريطون ، الذين كانوا خاضعين للسكسون الغربيين ، الى الصواب ، واختاروا الموعد الكاثوليكى المحدد للاحتفال بعيد الفصح • كتب أيضا كتابا ممتازا عن العزوبة ، وكان سداسى التفاعيل نظما ونثرا مقتدما بذلك عملا على مثال ما قدمه سيديوليوس Sedulius • وكتب العديد من الكتب الأخرى ، لأنه كان رجلا واسع المعرفة والاطلاع • وتمتع الدهيلم بأسلوب رفيع • وكان مشهورا ، كما ذكرنا ، بمعرفته الواسعة فى الدراسات الكنيسية والعامة » (٥٢) •

وفى الفصل الثالث والعشرين ، قدم (بيده) للقارىء فكرة سريعة عن الكنيسة وبريطانيا • وأورد ذكر أسماء كل الأساقفة الذين شغلوا الكراسى الأسقفية ، بيد أنه لم يذكر اسم أى ملك باستثناء الملك ايثلبولد Aethelbold • ملك ميرشيا Mercia الذى قال عنه ان كل الملوك ، جنوب همبر Humber ، دانوا بالطاعة له • ولفت (بيده) الانتباه الى ظهور مذنبين سنة ٧٢٩ م • « وقد أحدثا موجة من الذعر الشديد عند كل المشاهدين • وظهر المذنب الأول عند شروق الشمس ، فى حين ظهر الثانى عند غروبها ، على نحو ينذر بحدوث كارثة محدقة بالشرق والغرب على حد سواء • وكان المذنب الأول نذيرا للنهار ، والثانى

نذيرا لليل ، وبذلك توقع الجنس البشرى حدوث كوارث ليلا ونهارا • وكان لهما ذيول تشبه المشعل المتقد ، والتى اتجهت شمالا على نحو يوشك بحدوث حريق • وظهرت ذيول تلك المذنبات فى شهر يناير ، واستمر لمدة أسبوعين تقريبا » (٥٣) •

ويشير (بيده) الى الطريقة التى اجتاح بها العرب بلاد الغال ، « بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى نالوا الجزاء الرادع فى المملكة نفسها » • وعاشت بريطانيا نفسها فى سلام ، ورضى البكتيون Picts ، والانجليز بالبقاء داخل حدودهم ، وقنع الايرلنديون « بالحياة داخل حدودهم ، ولم يمارسوا أى مؤامرات أو غدر ضد الانجليز» واستمر البريطون كمصدر للقلق والمتاعب اذ عزلوا أنفسهم عن الانجليز بكل عناد ، « باصرارهم على كراهيتهم الفطرية لهم ، وعلاقاتهم السيئة مع الكنيسة الكاثوليكية بتحديدهم لميعاد عيد الفصح على نحو غير دقيق ، وتقاليدهم البعيدة عن الدين • بيد أن ارادة الله تصدت لهم ، وكذلك الشعب • ومن ثم لم يتحقق لهم ما آرادوه فى أى مجال » •

وعلى الرغم من أن نية (بيده) بدت على أنه يرى أن يترك القارىء لتاريخه راضيا عن الأحوال عندما أوشك أن ينهى كتابه ، فانه ذكر ملحوظة تنم عن عدم الارتياح ، عن عهد كيوولف ، الملك الذى خصص له المجلد • اذ تعددت الاضطرابات فى عهده • فكتب (بيده) ، « لدرجة أنه كان من المستحيل معرفة كيفية الحديث عنها ، أو التخمين عما ستتمخض عنه من نتائج » • وباختصار ذكر (بيده) أن أعداء كيوولف ألقوا القبض عليه ، ثم قاموا بجز شعر رأسه تعبيرا عن احتقارهم له • وذكر (بيده) فقرة لافتة للنظر لشدة غرابتها ، وهى أن العديد من أهالى نورثمبريا « طرحوا أسلحتهم جانبا » •ودخلوا الأديرة ، « مفضلين الانخراط — ومعهم أطفالهم — فى السلك الديرى ، عن أن يتدربوا على فن القتال » • ويبدو أن هذا التطور لايتمشى كلية مع ميل (بيده) عندما علق بوضوح وايجاز ، « ان نتيجة ذلك ، سوف يكتشفها جيل فيما بعد » • وفى الخطاب الذى أرسله (بيده) بعد ذلك بوقت قصير الى اجبرت رئيس الأساقفة ، كان واضحا استفساره عن الدوافع التى جعلت هؤلاء الشبان ينخرطون فى السلك الديرى • وفى رأيه أنهم فعلوا ذلك ، ليس بدافع رغبتهم فى الحياة الديرية ، التى لم يكونوا أهلا لها ، وانما كان الدافع ، هو التملص من الالتزامات التى تحملها المواطنون العاديون ، ومنها الالتزام بحمل السلاح •

ويتكون الفصل الأخير من كتاب (بيده) من اعادة مختصرة للنقاط الأساسية والأحداث التى ذكرها فى الصفحات السابقة ، « للتذكرة » وفى التلخيص ، بدأ (بيده) بغزو يوليوس لبريطانيا ، « فى الستينات قبل تجسد الهنا » وانتهى عند سنة ٧٣١ م ، بالاشارة الى رسامة تاتونى Tatwine رئاسة أساقفة كانتربرى · ثم يلى ذلك ذكره لقصة حياته بايجاز · وقائمة بكتاباته ، ودعاء للمسيح أن يمنحه الخلاص الأبدى · وأخيرا قال : « وهنا ، وبعون الله ، ينتهى الكتاب الخامس من تاريخ الكنيسة الانجليزية » (٥٦) ·

- ٣ -

الطبرى

ولد الطبرى (محمد بن جرير الطبرى) ، « المؤرخ المسلم الذى يحظى بأعظم قدر من الاحترام والتقدير والقدوة الذى لايبارى » (١) ، سنة ٨٣٩ م (*) فى آمل باقليم طبرستان ، الذى كنى به • ولابد أنه كان انسانا مبكر النضج على نحو غير عادى ، اذ ما أن بلغ السابعة من عمره حتى كان قد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب • واستهل الطبرى دراساته الأساسية فى آمل ، ثم ذهب الى كثير من البلاد : مثل الرى ، وبغداد ، والبصرة ، والكوفة ، ومراكز الدراسة المتعددة فى سوريا ، ثم ذهب الى الفسطاط فى مصر ، وأخيرا عاد الى بغداد سنة ٨٧٢ م • وباستثناء قيامه بزيارتين خاطفتين الى طبرستان ، قضى الطبرى معظم سنوات عمره المفعمة بالنشاط في بغداد ومات هناك عن عمر يناهز الرابعة والثمانين •

كان والد الطبرى أحد ملاك الأراضى الزراعية ، وهو مايفسر قدرة الابن على مواصلة دراسته فى مثل تلك الأماكن المتباعدة • ومكن الدخل الذى حصل عليه الطبرى من الأراضى الزراعية فيما بعد من أن يرفض المناصب المريحة فى الحكومة ، والتى كان من الممكن الحصول عليها • ولولا أنه كان انسانا له موارده المالية الخاصة ، لما تمكن من تخصيص معظم حياته للجهود العلمية المضنية • والواقع أنه كان من الممكن أن يجد الطبرى نفسه يحمل لقب مؤرخ القصر ، ولكنه لم يكن حينئذ سينال هذه المكانة السامية التى يشغلها حاليا عند الكتابة عن التاريخ الاسلامى•

وعندما عاد الطبرى الى بغداد ومارس دور المعلم ، أحرز قدرا

(*) ولد الطبرى آخر اربع وعشرين ومائتين من الهجرة النبوية الشريفة ــ المترجم •

مدهشا من المعرفة الواسعة والشهرة العالمية كحجة فى تفسير القرآن الكريم ومعرفة الحديث النبوى الشريف (٢) • واعتقد الذين كتبوا سيرة الطبرى أنه كان يمتلك مؤهلات العالم الواسع المعرفة ، ربما فى كل الفروع التى يتطلع أى دارس مسلم للتزود بها فى ذلك الحين • واشتملت تلك المعرفة على علم المنطق ، والرياضيات ، والدراسات الدينية ، والقانون ، وتأليف المعاجم ، وعلم النحو والصرف ، وعلم الأخلاق ، وعلم التفسير •

وفى عالم لم تكن قد ظهرت فيه الطباعة بعد كانت قدرة العالم على العطاء تظهر من خلال القائه للدروس بصفة أساسية ، وتلك كانت حالة الطبرى • وما عرفناه عنه أنه كان مدرسا محبوبا وله شعبية عريضة• فقد صرح أحد المعاصرين له ، من المتخصصين فى الدراسات الدينية قائلا : « اذا ما قدر للمرء أن يقطع رحلة طويلة الى الصين لمجرد الاستماع الى الطبرى وهو يفسر القرآن الكريم ، فانها ستكون رحلة تهون أمامها كل المتاعب » (٣) • ووفقا لشهادة أحد تلاميذه • كان الطبرى يبدأ يومه ظهرا عندما ينشغل بالكتابة حتى صلاة العصر • وبعد ذلك يلقى الدروس فى تفسير القرآن الكريم فى المسجد حتى صلاة المغرب • ثم يحاضر فى الشريعة الاسلامية قبل أن يعود الى منزله •

وابان وجود الطبرى فى الفسطاط ، صار له عدد من التلاميذ المؤيدين لتفسيره للفقه ، بالرغم من أن رأيه يمكن اعتباره مؤيدا للمذهب الشافعى • وفيما بعد عندما كان فى بغداد فهناك قصة تتحدث عن أنه جلب على نفسه حنق الحنابلة لتعليقاته المتسمة بالاستخفاف والتى أساء بها الى أحمد بن حنبل • ويقال أنه تم دفنه فى جنح الظلام خشية جماهير العامة التى كانت تعاديه لتعاطفه مع طائفة الشيعة • وربما كانت هذه القصة غير واقعية ولايمكن أن يقبلها الذين التاعوا لفقدان هذا العالم الشهير لما كان يتمتع به من احترام ، وهناك رواية أخرى تصف الحشود الضخمة التى شهدت جنازته •

ومازال هناك بعض الشك فى الأنباء التى تتعلق بحياة الطبرى • ومع ذلك فيسود اتفاق عام يتعلق بالكم الهائل من الكتابة الذى استطاع هذا العالم أن ينتجه طوال حياته • ويحفظ لنا التراث العربى أن الطبرى ظل يكتب أربعين ورقة يوميا لمدة أربعين سنة متصلة • ويقول العالم الجغرافى ياقوت ، الذى مات سنة ١٢٢٩ م أن الطبرى اعتزم تقديم تفسير للقرآن الكريم يبلغ عشرة أضعاف التفسير الذى قدمه ونعنى بذلك أنه كان مقدرا له أن يكون ثلاثين ألف صفحة وليس ثلاثة آلاف صفحه • وبناء على الاعتراضات الملحة التى أبداها تلاميذه فحسب اضطر الطبرى

الى وضع التفسير الذى احتوى على العدد الأقل فى الصفحات ويقال أيضا أن الطبرى كان قد أعد الرقم الأكبر نفسه لكتاب تاريخ الرسل والملوك ـ ثلاثين ألف صفحة ـ وأنه اضطر الى تخفيضه الى ثلاثة آلاف صفحة نتيجة لاحتجاجات هؤلاء الشباب أنفسهم • ويمكن التماس العذر للقارىء فى عصرنا عندما يبدى بعض التحفظات فيما يتعلق بمدى مصداقية مثل هذه المعلومة • وربما تكون تلك الرواية مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة بالرغم من الحقيقة القائلة بأن الطبرى قام باعادة كتابة ماكتبه « المؤرخون » السابقون ، قبل كل شيء ، ولم يكن محللا للتاريخ وانما قدم مجلداته الضخمة من الكتابة فى مظهر مختلف (٤) •

ويقال أن الطبرى كان فخورا بمؤلفاته الخاصة بالتشريعات الإسلامية بصفة خاصة ، والتى كانت فى مستوى ضخامة مؤلفاته التاريخية • بالاضافة الى ذلك أعد مرجعا لما اعتقد أنه أحاديث نبوية شريفة صادقة ، وأعد أيضا بحثا فى التشريع الاسلامى يحمل عنوان البسيط • وباستثناء بعض الشذرات فان مؤلفات الطبرى التى قدر لها البقاء هى تاريخ الرسل والملوك وتفسيره للقرآن الكريم • وحظى المؤلفان بكل القبول فى عهده ، واعتبرها الباحثون من المصادر الموثوق بها ، على مر القرون لدراسة تفسير القرآن الكريم ومعرفة التاريخ الاسلامى الباكر• بل وفى عصرنا هذا يجد الباحثون أنه لايمكن الاستغناء عنهما عند دراسة تلك الموضوعات • وقبل أن نقوم بتقسيم كتابته التاريخية ، فمن المهم أن ندرس ، بايجاز على الأقل ، بداية كتابة التاريخ الاسلامى • على أن افتقار تلك البدايات التاريخية الى المؤثرات غير العربية يزيد من جعل مثل تلك الدراسة أمرا ضروريا • ويبدو أن العرب لم يكونوا يستخدمون كلمة تاريخ قبل ظهور الاسلام وكانوا يفتقرون الى الاحساس التاريخى • فقد كان مستواهم الثقافى منخفضا الى الحد الذى لايسمح بمواصلة جهودهم الأدبية ، ولاسيما أنهم ظلوا دون تأثر ، بل ودون معرفة بالكتابات التاريخية الأقدم ، مثل كتابات الاغريق • تلك كانت حياة الشعوب البدوية ولم يشذ العرب عنهم • • وهناك حقيقة اضافية ربما تفسر عدم وجود كتابة تاريخية للفترة السابقة على ظهور الاسلام ، وهى الحكمة القائلة بأن « الاسلام يجب ما سبقه » ، ومعنى هذا أن البعثة النبوية الشريفة تعتبر أى شيء قبلها من الأمور التى لا طائل تحتها وغير ذى جدوى (٥) •• وابان عصر النبوة عمل الاحترام الشديد للقرآن الكريم ، على صرف النظر عن الكتابة التاريخية خشية أن يعمل هذا على اثارة الارتياب فيما اعتقده الجميع بأنه كلام الله : وهناك بعض التفسيرات لتأخر العرب فى اللجوء الى الكتابة وهى القائلة بأن للعرب قدرة خارقة

على التذكر • وساعد اختراع الورق فى القرن السابع الميلادى على حدوث التطور الكبير فى عصر الكتابة بما فيها الكتابة التاريخية •

كانت هناك محاولات للكتابة التاريخية قبل ظهور الاسلام تستحق الذكر عند الحديث عن المراحل الأولى للكتابة التاريخية الاسـلامية ، برغم أن مدى تأثيرها على الكتابة التاريخية فيما بعد مازالت موضع جدل والعرب ، مثل كل الشعوب السامية الأخرى ، يفاخرون بسلالات النسب والأصل وعلى الرغم من أن شجيرات النسب تلك من النادر أنها حفظت أكثر من قائمة ضئيلة جدا عن الأجيال المتعاقبة ، بالاضافة الى ملاحظة جانبية وعرضية عن الأعمال الجديرة بالذكر التى قد تضفى جلالا وروعة على أحد الأجيال ، فانها تشير الى وجود حاسة تاريخية ، واهتمام بدائى بالماضى وربما كانت المنافسة الأدبية قبل الاسلام أكثر أهمية من تأثير شجيرات سلالة النسب على كتابة التاريخ الاسلامى فتحكى هذه المنافسات الأدبية عن المعارك التى دارت بين القبائل العربية والأعمال البطولية التى حققها المتحاربون • وهناك قصص مشابهة لهذا النوع فى كتـاب العهد القديم (تلك التى تصف المصادمات بين الاسرائيليين والفلسطينيين) وتشير الى أن مثل هذا النوع الأدبى كان شائعا عند الشعوب السامية بصفة عامة • ومع ذلك فان « أيام العرب Battle-Days » هى نوع من الكتابة يدخل ضمن الأدب أكثر من التاريخ ، ومن غير المحتمل أن يقدر لتلك القصص البقاء على الاطلاق اذا لم تعرض كلها فى صيغة منظومة • وعلى أية حال ، فان هدفها كان تحقيق المتعة والتسلية ، وليس التزود بالعلم والمعرفـة ، وهى تفتقر الى الترابط الذى يتطلبـه السرد التاريخى •

وتجد الأصول العامة لكتابة التاريخ الاسلامى أساسا وطيدا فى الاشارات التاريخية التى وردت فى القرآن الكريم وفى الانطباع العـام الذى تتركه الكتب الدينية عن القدرة الالهية فى الحياة الدنيا منذ أن خلق الله آدم الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى قيام الساعة • وكان التاريخ بالنسبة للمسلمين الأول عاملا مساعدا على كشف مايبتغيه الله لبنى البشر ، مع ذكر ما فعله الله فى الماضى بهـم ، وأن وجود الأمة الاسلامية يحقق الخير فى المستقبل • ويشير القرآن الكريم أيضا الى الأمم التى حل عليهـا غضب الله لما ارتكبته من ذنوب • وأثارت تلك الاشارات فضول الأتقياء من المسلمين وحبهم للاستطلاع ، وفى عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثارت تساؤلات لابد من الرد عليها عن طريق الدراسة التاريخية •

وكانت ضرورة جمع الآلاف من الأحاديث النبوية الشريفة ، والتحقق من مدى صحة بعضها علميا لها الأهمية القصوى في التشجيع على قيام الكتابة التاريخية . وتحظى تلك الأحاديث النبوية الشريفة بنفس المكانة التى يتمتع بها القرآن الكريم عند الغالبية العظمى من المسلمين . وبناء على ذلك اكتشف المتفقهون فى الاسلام ، بين عشية وضحاها ، ضرورة ايجاد سلسلة من الأسانيد . وامتدت هذه الأسانيد لتشمل الرواة الذين نقلوا عن بعضهم البعض السنة النبوية الشريفة ، المتمثلة في الأحاديث التى نطق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأفعال التى قام بها الى أن انتهت بذكر أسماء المعاصرين للرسول الذين سمعوا منه الحديث أو شاهدوه يؤدى الفعل . وأخيرا فهناك حافز آخر ساعد على وجود الكتابة التاريخية الا وهو الرغبة فى تدوين الانتصارات التى أحرزها رسول الله صلى الله عليه وسلم والقادة المسلمون فى سبيل اعلاء كلمة الله .

وفى بداية الأمر شكلت كتابة التاريخ الاسلامى تكملة ضرورية لدراسة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وكانت مهمة المؤرخ فى البداية مهمة دينية . وفى الحقيقة كان هذا المؤرخ يعتبر نفسه أحد المتفقهين فى الدين . ولذلك فليس من قبيل الصدفة أن المؤلفين الكبيرين للطبرى ، وهما تفسير القرآن الكريم وكتابه عن تاريخ العالم والملوك يكملان بعضهما البعض فى فكر المؤلف . ووجد الباحثون الذين رجعوا الى سلسلة الأسانيد لاقامة الدليل على صحة الأحداث النبوية الشريفة أن استخدام الطريقة عينها أمر منطقى عند التحقق من الماضى بتاريخه وأحداثه . ومن ثم فان اعتماد المؤرخين على تلك الأحاديث النبوية الشريفة الى حد كبير ، يوضح سبب تجنبهم ، لعدة قرون القيام بدور المفسرين لأحداث الماضى . وعلى الأصح ، فقد اكتفوا بتدوين روايات تلك الأحداث ، كما فعل الطبرى ، والتى اعتبروها وثيقة الصلة بموضوعاتهم .

ويقدم الطبرى فيما يلى نموذجا رائعا للطريقة التى اعتادها الكتاب المسلمون ، بما فيهم المؤرخون ، ومنهم الطبرى نفسه ، عند تقديم سلسلة الرواة ، سواء أكان موضوع الكتابة عقائديا . أم تاريخيا . ويتحدث الموضوع عن فتح مصر فى عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فى الفترة مابين ٦٤٠ ــ ٦٤١ م . وفيما يلي ما كتبه الطبرى : « يقول ابن اسحاق ، كما ذكر ابن حميد ، أن سلامة أبلغه أنه بعد أن فتح عمر بن الخطاب بلاد الشام كتب الى عمرو بن العاص بالتحرك بجيشه الى مصر . واستطاع عمرو الوصول اليها وفتح حصن بابليون سنة عشرين من الهجرة ..

ويقول ابن حميد أن سلامة قال هذا نقلا عن ابن اسحق ، الذى قال ان القاسم بن قزمان أبلغه ـ نقلا عن زياد بن يزيد ، الذى قال أنه كان ضمن جيش عمرو عندما فتح مصر والاسكندرية ـ وكان فتح الاسكندرية فى عهد خلافة عثمان فى السنة الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين من الهجرة » .

وكتب الطبرى أن سيف قال فى الرسالة التى أرسلها السرى الى (الطبرى) أن شعيب أبلغه نقلا عن اسحق والربيع وأبى عثمان وأبى الحارث قالوا : ان عمر بن الخطاب ظل فى بيت المقدس بعد أن أعطى أهلها الأمان وأرسل عمرو الى مصر . وأرسل معه الزبير لمعاونته .

وأبلغه السرى نقلا عن شعيب ، نقلا عن سيف الذى قال أن أبا عصام أبلغنا نقلا عن ابن معدن وعبيده أن عمرو ذهب الى مصر بعد أن عاد عمر بن الخطاب الى المدينة ، وتقدم عمرو حتى وصل الى حصن بابيليون (٦) .

أدى الاعتماد على سلسلة الأسانيد الى لجوء المؤرخين المسلمين الأول الى الطريقة الحولية فى كتاباتهم . وكان لاستخدام طريقة الحوليات التى تضمنت ذكر الأحداث وفقا لترتيبها الزمنى فى سنة معينة أو عهد معين ، أن فرضت تلك الطريقة نفسها على المؤرخين المسلمين ، على المدى الطويل ، نظرا لسهولتها . وكان تقديم أقوال الرواة المتعددين فى تسلسل مسألة سهلة أيضا ، ومن ثم كانت الخطوة الطبيعية لوجود تعيين للتواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقا لتسلسلها الزمنى Chronology هى العامل المهم فى النظام الذى سار عليه تسجيل المعلومة التاريخية وظل قليل من هذا النوع من الحوليات التى كتبت قبل عصر الطبرى باقيا حتى عهده ، هذا فى الوقت الذى يعتبر الطبرى المعلم الأول لكتاب الحوليات المسلمين . وعلى الرغم من أن الطبرى أثبت أنه كان ضليعا فى هذا المجال ، فان الباحثين مالوا الى الاعتقاد بوجود جهود سابقة لجهده اتخذها نبراسا له فى كتابة حولياته .

ان الحديث عن سهولة الكتابة الحولية والمنسوبة الى قلة خبرة المشتغلين بالعمل التاريخى هى اشارة عن ميزتها فحسب . وهناك ما يمكن اعتباره ميزة أخرى فى أى حولية وهى أنها تحمل طابعا عاما من عدم التحيز فى أسلوبها . وفى العادة ، اعتقد كاتب الحولية أن مهمته تنتهى بتدوين الخبر . وليس ملزما بأن يفسر هذا الخبر أو يحكم على مدى صحته ، ولا مجبرا على أن يغير مضمونه ولم تقم الأخبار التى قام كتاب

الحوليات بتدوينها نقلا عن الكتاب الأول على الموضوعية الكاملة · ففي رواياتهم عن الصراعات بين المسلمين والامبراطورية البيزنطية ، على سبيل المثال ، اعتادوا على القول بأن المسلمين كانوا على حق ·

ومع ذلك فان مواطن الضعف الخطيرة كانت كافية لتشويه الكتابة الحولية · وتمثلت مواطن الضعف في اعطاء أهميـــة بالغة تؤكد دقة التسلسل الزمني للحدث التاريخي عندما تكون صحة الحدث موضع شك وبالاضافة الى ذلك فهناك مشكلة المعلومة المتداخلة التى تـكون على قدر كاف من الأصالة بيد أنها معلومة حدثت منذ عهد قديم ودون تاريخ محدد لحدوثها · وفي مثل تلك الحالات يكون الاغراء قويا على كاتب الحولية فيضع المعلومة وفقا لما يمليه عليه هواه أو وجود مكان لوضعها · ولاتمكن الكتابة الحولية القارىء من استخلاص معرفة التطورات الثقافية والاجتماعية عن أي عصر في يسر · ومهما تكن الظروف يمكن أن تحتوى الكتابة الحولية على تميز أدبي أو جمالي بصرف النظر عن قدرة كاتب الحولية على تقديم الدليل على صحة ماكتبه · فقد كان التاريخ يقدم للقارىء في زيه العملي ، وخاليا من كل مظاهر التزين ، ويغلب عليه الطابع الاخباري تماما · على أنه من يمن طالع القارىء لتاريخ الطبرى ـ وهو ما نقله هذا المؤرخ عن الذين سبقوه أنه سيجد حوادث عرضية في سياق السرد التاريخي لهذا المؤرخ ، لها أهمية فائقة ·

ويبدأ الطبرى تاريخه (تاريخ الرسل والملوك) ـ وهو أول كتاب عن تاريخ العالم باللغة العربية ـ بالتحدث عن بدء الخليقة ، ثم انتقل الى الحديث عن آباء الجنس البشري ثم الملوك والأنبياء · ثم انتقل بسرعة الى مملكة الفرس الساسانيين ، ثم عصر النبوة ، الى عصر الخلفاء الراشدين ، وأخيرا اختتم تاريخه بالأمويين وأوائل العباسيين حتى سنة ٩١٥ م · وعلى الرغم من افتراض أن تاريخه شامل للعالم ، فانه اقتصر على آسيا الاسلامية في معظمه · فلم يكن لديه وقت للكتابة عن شـــمال أفريقيا أو أوروبا · وقول الطبرى ان امتداد النفوذ العباسي غربا لم يصل الى أبعد من مصر تقريبا ، يمكن أن يفسر قلة اهتمامه بتلك الأقاليم · ومع ذلك فان انشغاله ببغداد والمناطق المجاورة لها قد يعكس ببســـاطة التأثير القوى الذى تتمتع به العاصمة الاسلامية الواقعة على نهر دجلة ، على الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية ·

وسار الطبرى وفقا للطريقة الحولية في تقديم المعلومات التاريخية عندما كتب عن العصر الاسلامي ، حيث أمده التاريخ الهجـرى بالقاعدة

الأساسية التى اعتمد عليها . اذ كانت عادته استخدام الجملة التالية : « ثم جاءت سنة .. » عند بداية كل حول فى جوليته . واعتاد على أن يختتم كل حول بذكر بعض المعلومات عن أمير الحج الى مكة كما مال الى ذكر الأحداث المهمة فى بداية كل حول . ولم يرد فى حولية الطبرى شىء عن أخبار الوفايات المصحوبة بترجمة موجزة للفقيد Obituary ، برغم أن هذه العادة تجلت بوضوح تام فى الحوليات الغربية ، كما لم يقم بذكر أسماء كبار رجال الدولة مالم يرد ذكرهم فى أحداث لها بعض الأهمية . على أن عادة الطبرى فى ذكر ترجمة مفصلة عن حياة كل خليفة فى نهاية عهد كل منهم ، يعتبر تحولا ضخما من مجرد الكتابة الحولية المحضة .

ان مواطن الضعف التى كبلت الطريقة الحولية فى الكتابة التاريخية كانت أيضا عبئا ثقيلا على كتابة الطبرى . اذ اكتفى بمجرد تدوين المادة التاريخية التى استطاع جمعها سواء بتقديمه سلسلة من الاسانيد أو شهود العيان ، وتقديم التفاصيل اما فى شكل حوليات أو ككل كما هى وأعنى بذلك تقديم أى معلومة لأى مؤرخ تتعلق بخليفة ما ، على سبيل المثال ، تليها المعلومة التى كتبها مؤرخ آخر تتعلق بنفس الخليفة . ولسوء الحظ ، أغفل الطبرى ذكر أسماء أسانيده والمؤلف أو شاهد العيان لبعض مقتطفات معينة . ولم يبذل جهدا فى اعادة صياغة خبر واحد من تلك التى كانت بين يديه . وان كان قد مارس قدرا يسيرا من تصنيف للحقائق التاريخية حتى ولو كانت متناقضة ، فبالنسبة اليه لم يكن التاريخ نوعا من الدراسة العقلانية أو يحتاج الى تفسير وتحليل . واقتصرت مسئوليته على مجرد نقل المعلومة التى جمعها بكل دقة ، ومهما كانت (٧) . وعبر عن هذا الموقف فى مقدمة كتابه التاريخى بما يفيد أن معرفة أخبار الأمم السابقة والمعلومات التى حدثت ، لم تصل الى من لم يكن معاصرا لها ، أو شاهد عيان ، الا عن طريق ماكتبه المؤرخون السابقون وما تناقله الرواة . ولا يحق لهؤلاء المؤرخين والرواة أن يستخدموا الاستدلال المنطقى أو التوضيح الفكرى . والآن اذا ما حدث ووجد فى كتابه الذى احتوى على ما نقله عن الماضى ، ما يثير اعتراض أحد القراء أو تناقض مع وجهة نظر أحد المستمعين لعدم الاقتناع بعدم صحة أو دقة أى خبر ، فهو ليس مسئولا عن ذلك ، وانما اللوم على من رواه له ، لأنه اكتفى بنقل الخبر على النحو الذى وصل اليه تماما بتمام (٨) .

ونظرا لأن الطبرى قدم الأخبار المتماثلة عن مصادر مختلفة للحادثة الواحدة دون أى محاولة للتوفيق بينها ، لذلك يعاب على تاريخه ما تضمنه

من تكرار الى حد الملل ، وتفاوت فى الاسلوب ، ووجود قدر من عـدم الترابط ، وافتقار الى الاتزان الى حد ما • فعلى سبيل المثال ، اذا كانت مصادره بها القليل أو لاشىء عن بلاد المغرب ، فمعنى هذا أنه قدم القدر اليسير أو لم يقدم شيئا الى قارئه • ومن ثم فانه لم يخصص سوى ستة سـطور فحسبب عن فتح الأندلس • ومن الطبيعى أن يختفى قدر من التكرار عندما وصل الى مرحلة الكتابة عن عصره ومعالجة الأحداث القريبة العهد منه ، وان ظهرت عدم قدرته على التمييز الدقيق لأهميـة تلك الأحداث بوضوح فتجاهل أنباء مهمة مثل هجوم الاسـطول البيزنطى سنة ٨٣٩ م (٦) • ولم يبد اهتماما كبيرا بالأحوال الثقافية أو الاجتماعية عندما كان يكتب عن فترات تاريخية قريبة العهد منه أكثر مما فعله عند الكتابة عن قرون سابقة حيث اعتمد كلية على مصادره •

وبرغم ما سبق ذكره من عيوب فان الطبرى هو المؤرخ الأول الذى استطاع أن يقدم للعالم وجهة نظر جديرة بالثقة وواضـحة تماما عن التاريخ الاسـلامى • كما تمثل أبلغ ثنـاء على السمعة الوطيدة لكتابه التاريخى فى أن المؤرخين الذين كتبوا من بعده لم يجدوا مايضايقهم فى السير على نهج طريقته عينها • ذلك لأنهـم اعتمدوا كلية تقريبا على الطبرى عند تقديم كتاباتهم الموجزة ، أو بدأوا كتاباتهم التاريخية من حيث انتهى الطبرى من كتاباته • ويرى ابن خلدون شيخ كل المؤرخين العرب أن الطبرى كان مؤرخا وحافظا لتراث الشعوب ولا يمكن أن يعلو فكر على فكره •

ويجد القارىء المنقبتين اللتين يغطيهما الأولية ونعنى بهما الدقة فى الكتابة والموضوعية فى الانجاز الرائع الذى قدمه الطبرى ، والذى استحق عليه أسمى آيات الثناء والاطراء بعد أن تصدى لمهمة حفظ تراث العصور الماضية • ومارس الطبرى مهمته بدقة الفنان أو الفن الحرفى التى يزاول بها عمله • واذا ما تساءل المرء عن سبب احجامه عن تفضـيل احدى الروايات التاريخية عن غيرها ، وهى الميزة التى ادعاها لنفسـه لتفسيره للقرآن الكريم ، فان تعليل ذلك هو أن الكتابة التاريخية لم تكن قد بلغت بعـد مستوى من النضج يسمح أو يتطلب التحليـل والشرح والتفسير • اذ كانت مسئولية المؤرخ على عهده قاصرة على مجرد جمع المعلومات التاريخية وتدوينها • ولايمكن أن تتم عملية التخلص من مظاهر التناقض واعداد سرد تاريخى منسجم ودقيق ، ويحظى بالقبول والاستحسان الا بعد أن تتم عملية جمع لكل المعلومات التاريخية الوثيقة الصلة بهذا الموضوع المراد كتابته •

وليس بخاف على فطانة كل لبيب ما تجشمه الطبرى من صعاب جمة من أجل الظهور بمظهر « المسلم الملتزم » عند تحدثه عن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ونظرا لأن التزامه هنا كان له أهمية قصوى، فانه لم يستطع أن يكون عمله مجرد تدوين الروايات التاريخية التى وصلت اليه عن الأحاديث النبوية الشريفة . أما بالنسبة إلى التاريخ فقد كان الموقف مختلفا تماما ، حيث أن الدقة التاريخية ليست أساسية بالقدر الذى تتطلبه المحافظة على حرفية النصوص الدينية . وبناء على ذلك أبدى الطبرى اهتماما طفيفا بمدى صحة الكتابة التاريخية بالاضافة الى قيامه بنقل الروايات التاريخية المتعددة بأمانة ، كما وصلت اليه . وبرغم ماتقدم ذكره فقد حدثت نتيجة عكسية لم يكن يتوقعها المرء ، اذ أخضع الباحثون فيما بعد ، تفسيرات الطبرى للقرآن الكريم ، الى الفحص والتدقيق الشديد ، وهى التى كان الطبرى قد أولاها قصارى اهتماماته ، وقام هؤلاء الباحثون أنفسهم بقبول كتابته التاريخية دون أدنى شك أو جدال تقريبا ، وهى التى لم يعطها الطبرى سوى القليل من الاهتمام . ومن ناحية أخرى يحتل تاريخ الطبرى مقاما فريدا اذ ليس هناك مناقس له .

وفيما يلى روايات عديدة من كتاب الطبرى عن تاريخ العالم . ولما كان الطبرى مسلما ملتزما ، فانه اعتقد بأن التاريخ يبدأ ببدء الخليقة ، وعلى ذلك افتتح سرده التاريخى بوصف ما حدث منذ البداية . وكما سبق أن أشرنا ، فغالبا ما أغفل الطبرى ذكر المصدر أو المصادر التى استقى منها مادته التاريخية ، وتكررت الحالة هنا ، ويستطيع المرء أن يستخلص من طبيعة سرده التاريخى ، أنه لم يقبل ، أو لم يكن يعلم بقصة بدء الخليقة وفقا لما جاء فى سفر التكوين Genesis ، وأنه استعان بما ورد فى القرآن الكريم .

يلى تلك المعلومة عن بدء الخليقة شىء عن عهد هارون الرشيد ، وهو من أشهر الخلفاء المسلمين فبدأ كتابته باعتلاء هارون لكرسى الخلافة ، ثم علو نجم أسرة البرامكة والنكبة التى حلت بهم . وعلى الرغم من أن الباحثين ليست لديهم الوسيلة لامكان التحقق من صحة وصدق روايات الطبرى ، فانهم وافقوا على احتمال حدوثها بصفة عامة ويرفض ابن خلدون رفضا قاطعا الصورة التى قدمها الطبرى عن العباسة ، شقيقة هارون الرشيد ، والخاصة بأنها أنجبت ولدا من جعفر الوضيع المولد . ومع ذلك فان الأمر المهم بشأن حجة ابن خلدون هو أنه لم يحتكم الى أى دليل تاريخى آخر لدحض قصة الطبرى ـ لا يوجد أى مصدر آخر يمكن أن يستند ابن خلدون اليه ـ وانما اعتمد على مجرد

استنتاجه المنطقى أن امرأة فى مثل مركز العباسة ذات الحسب والنسب لايمكن لها أن تنحدر الى مثل هذا السلوك المشين • ومن الواضح أن الطبرى لم يكن لديه أية تحفظات ، على الرغم من أن المرء قد ينتابه الشك فى أن الطبرى أورد ذكر قصة العباسة وجعفر بهدف تسلية القارىء بنفس قدر ابلاغه بما حدث •

وتحدث الطبرى عن عهد كسرى أنوشروان أعظم ملوك الدولة الساسانية الذى كان معاصرا لجوستنيان الامبراطور البيزنطى ، وما شنه الأول من حروب ضد الثانى • وبرغم مابدا فى رواية الطبرى من تحيز الى جانب المسلمين ، فقد تطابقت روايته التاريخية مع ما ورد فى المصادر البيزنطية • ولا يصح لنا أن نتوقع الموضوعية الكاملة من مؤرخ اعتمد على المصادر الاسلامية فحسب • واذا كان فى استطاعة المؤرخ الحديث الحصول على معلومات وافية عن الحروب التى دارت رحاها بين كسرى وجوستنيان من المصادر البيزنطية فان مايمكن أن نجد له أهمية كبرى فى تاريخ الطبرى هو ماذكره عن قضاء كسرى على الطائفة الدينية التى أوجدها زرادشت ، وعن وصفه للنظام الضريبى الذى وضعه كسرى ، علاوة على الموضوعات القيمة التى تتعلق بشهريار الذى حاول اغتصاب العرش ، والملكة بوران ، والملكة أزرمدشت ، « والتى كانت من أجمل نساء الفرس » •

وكتب الطبرى عن العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والعالم الاسلامى فيما بين ٧٧٩ ــ ٨٣٠ م • وجاء وصفه لتلك العلاقات مثالا رائعا لمقدرة المؤرخ على الأسلوب الحولى فى الكتابة (*) •

حديث لمحمد بن جعفر الطبرى مؤلف هذا الكتاب اعلم أن مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن جعفر ابن يزيد الطبرى •

لقد خلق الله الانسان وهو الغنى فوق عباده وليبلوهم أيهم أحسن عملا • وأمرهم بعبادته ليعرف المتقين منهم والذين يعرضون عن ذكره والذين يتبعون ما أنزله ، ومن يضعون أصابعهم فى آذانهم لقد شاءت حكمته أن خلقهم لتكشف أعمالهم أن قدرته سبقت كل شىء • فجاء فى القرآن الكريم (سورة الزاريات : ٥٦ ــ ٥٨) «*) « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » • ومعنى هذه الآيات : أن الله (وسبحانه وتعالى الذى خلق المخلوقات لطاعته وعبادته •

(*) فضلت أن أعيد صياغة النصوص المنقولة عن الطبرى وابن خلدون بلغة عصرية حتى يسهل على غير المتخصص فهمها اقتداء بالطبعات الميسرة فى أوربا للنصوص التاريخية بل والأدبية الهامة التى تقدم لغير المتخصصين (المترجم) •

وأنه لايسألهم جزاء ولا شكورا ، لأنه هو الذى يرزقهم جميعا • وهو الغنى فوق عباده وسيجزيهم أحسن ماصنعوا • واذا ما عصاه العباد فلن ينقص من ملكه شيء • واذا ما أطاعوه فلن يزيد من ملكه شيء •

خلق الله العالم ثم خلق كل المخلوقات • وخلق لهم عيونا ليشاهدوا بها عجائب صنعه ، وكل عظمته فى خلقه ، وجعل لهم آذانا ليسمعوا بها العلم والحكمة ، وزودهم بنعمة العقل كى يفقهون ، وعلمهم القدرة على التمييز بين الحق والباطـل ، وأن يفرقوا بين الطيب والخبيث • وجعل لهم الأرض مهادا ليقيموا عليها مساكنهم • وخلق السماء ، وسير السحاب الذى يمطر ماء ليخرج من الأرض حبا ونباتا ، وجعل من الماء كل شيء حى ، وفى ذلك يؤمن العباد بخالقهم الذى لايعبد سواه •

ويقول الطبرى ان الله خلق الشمس والقمر لأن الدنيا كانت فى ظلام ، ولولا وجودهما لما كان هناك ضوء فى الدنيا • وكان ضوء القمر يعادل ضوء الشمس فى بداية الأمر • واذا ما اسـتمر الحال كما كان لما استطاع أحد أن يميز بين النهار والليل ، ولما عرف الانسان الأيام ، والشهور أو السنين • ولما استطاع الناس تأدية الصلوات الخمس • ثم أرسل الله جبريل ليفرك بجناحه وجه القمر حتى لايكون مثل ضوء الشمس ، وبذلك يمكن تمييز النهار من الليل ، وحســاب الشهور والسنين • وفى هذا نعمة كبرى وخير كثير •

عصر هارون الرشيد (١٠)

يقال أن هارون اصطحب الهادى الى عيسى أباد ، وبعد أن صـلى صلاة الجنازة على جثمانه ، بويع هارون بالخلافة على الفور • وقيل ان يحيى بن خالد ، وزير الهادى ، كان سجينا فى ذلك الحين ، وأن الهادى عقد العزم على قتله • غير أنه ما ان تقلد هارون قلادة الخلافة على يد هرثمة بن عيان ، فى الليلة التى مات فيهـا الهادى ، حتى بادر باطلاق سراح ، يحيى بن خالد ، وعينه وزيرا له • وكان هارون فى الثـانية والعشرين عنـدما اعتلى عرش الخلافة • وكان مولد هارون فى الرى ، عندما كان المهدى فى هذه المدينة • وكان الرشيد أخـا فى الرضــاعة للفضل بن يحيى • وكان الهادى يرغب فى أن يتولى ابنه جعفر الخلافة من بعده ، وأقسم قادة الجيش على تنفيذ هذه الرغبة بالفعل ، بيد أن الهادى صرف النظر عن هذا الموضوع بعد ذلك • وبعد أن تولى هارون

مقاليد السلطة ، أجبر جعفر على أن يعلن على الملأ اعفاء هؤلاء الذين كانوا قد أقسموا يمين الطاعة له ، وأنه يوافق على أن السلطة الشرعية هى من نصيب عمه هارون • ثم أرسل هارون فى اليوم التالى رسائل الى كل الأقاليم معلنا عن قدومه وطلبه تقديم يمين الولاء له • وبلغ هارون أن الله رزقه ابنا فى الليلة عينها التى اعتلى فيها كرسى الخلافة • فاعتبر هارون ذلك فألا حسنا ، وأطلق على المولود اسم عبد الله وهو اسم المأمون نفسه وعندما وصل هارون الى بغداد ذهب ومعه حاشيته الى الجسر وقال الى يحيى : « ان المهدي قدم الى هدية عبارة عن خاتم من الياقوت ثمنه مائة ألف دينار ؛ وفى أحد الأيام شاهدنى فى منزل الهادى ونظر الى ذلك الخاتم وانتابته رغبة جامحة فى أن يكون فى اصبعه • وبعد ذلك بعث برسول يطلب منى الخاتم • وكنت أسير على الجسر عندما اقترب منى رسوله وتحدث الى طالبا الخاتم فاستشطت غضبا لهذا المطلب ، وخلعت الخاتم من أصبعى • وألقيت به فى مياه نهر دجلة • وقلت عليك أن تأمر الغواصين بالبحث عنه • « لقد مضت على الخاتم خمسة أشهر فى قاع النهر ولايعتقد أحد أنه من الممكن العثور عليه • ثم غاص الغواصون فى الماء ووجدوا الخاتم فى المكان الذى حدده هارون وكان هارون سعيدا واعتبر ذلك فألا حسنا ••

وفى السنة نفسها رزق الله هارون ابنه محمد الأمين الذى فضله على أخيه المأمون الذى كان أكبر منه ، ولأن الأخير كانت أمه جارية ، فى حين كانت والدة محمد الأمين زبيدة ابنة عمه جعفر بن المنصور • واختار هارون يحيى بن خالد وزيرا له ، وعهد اليه بادارة كل شئون الدولة •

« أسرة البرامكة ونكبتها »

كان ليحيى بن فضل أربعة أبناء : الفضل ، وجعفر ، وموسى ، ومحمد • ومارس الفضل وجعفر مهام الوزارة معا بدلا من والدهما نظرا لكبر سنه • ثم استدعى هارون كل من الفضل وجعفر لاعفائهما من واجبات المنصب • ولم يكن موسى ومحمد وزيرين ، وانما كانا يحملان لقب أمير • وكان لهما أبناء ، وليحيى أقارب ، وجميعهم يحمل لقب أمير• وبفضل نفوذ يحيى ارتقت كل أسرة البرامكة الى أعلى مراتب السلطة ، وكان جعفر الوحيد من بين أبناء يحيى الذى حظى بحب هارون • أما الفضل • الذى كان شقيقا فى الرضاعة لهارون ، فكان يشعر دائما بالتقزز الشديد اذا ما حضر حفلات الأنس والسمر التى كان يقيمها

هارون ، حيث كان الخليفة يمتع نفسه في صحبة النساء • والجواري ، والمغنين والمغنيات • وأخيرا قرر ان يظل بعيدا عن تلك الاجتماعات وأقسم الا يقرب الخمر مرة ثانية •

ونظرا لكبر سن يحيى فانه استأذن من هارون في الذهاب الى مكة ليتفرغ للعبادة • غير أن هارون رفض طلبه وقال : « ان ولديك الفضل وجعفر يتوليان مهام الوزارة • وعليك بتعيين أحدهما وفقا لرغبتك ، على أن يبلغني بذلك • وسيعرف قراراتي التي سيقوم بابلاغها اليك بدوره ، وبعد أخذ مشورتي ، سيقوم بتنفيذها » • وعلى ذلك اختار يحيى ابنه الفضل الذى كان أكبر من جعفر وأكثر خبرة ، وأكثر حنكة في ادارة الشئون العامة • وعهد اليه بحمل خاتم الخليفة وقلده مهام الوزارة • ولم يبد هارون اعتراضا على الرغم من أنه كان يفضل جعفر الذى أحبه لحسن طلعته ، ولمواهبه الفذة في فن الكتابة ولباقته الفائقة • واستمر الفضل يتولى مسئولية الوزارة ، بدلا من والده • ثم أسند هارون تلك المهام الى جعفر • وبعد ذلك بفترة من الوقت أخذ منه خاتم الخلافة وأعاده الى يحيى ، قائلا : « اعط هذا الخاتم الى أى من أبنائك وفقا لرغبتك طالما أنك أفضل القضاة في هذا الأمر • انى لا أرغب في التدخل في اختيارك » • واحتفظ يحيى بخاتم الخلافة وبقى في حوزته الى اللحظة التى فقد فيها الحظوة لدى الخليفة •

ولا يستطيع المرء أن يذكر اسم وزير لأى ملك من ملوك الفرس القدامى أو لأى خليفة من خلفاء المسلمين كان حاله أقرب الى أن يكون أمير مثلما كان حال يحيى وأولاده ، ولكنهم تعرضوا لثلاث أحداث متزامنة أولها استغرق فترة وجودهم في السلطة ، لأنه لا يمكن لأى انسان أن يحكم لفترة طويلة من الوقت دون أن يكون له أعداء يزداد عددهم كل عام لأنه من المستحيل على أى فرد أن يرضى كل شخص • ولم يكن يحيى يجهل هذه الحالة ، ولذلك فقد حاول مرارا أن يستقيل •

أن الحادثة الثانية التى ساهمت في سقوط البرامكة فهى كما يلى : كان أبو ربيع محمد بن أبى الليث ، فقيه الرقة ، رجلا ورعا ، ومسموع الكلمة بين الناس • وكان مستاء من نفوذ يحيى ، وقدم رسالة الى هارون قال فيها : « يا أمير المؤمنين ، ماذا ستقول لله يوم الحساب ، وكيف يكون ردك عن أحوال المسلمين وهم تحت نفوذ يحيى بن خالد ، وأبنائه وعشيرته ، بعد أن تولى شئون المؤمنين جماعة من الزنادقة ؟ ان يحيى وأولاده ، وكل أفراد أسرته من الزنادقة ، ويمارسون طقوس الزنادقة سرا انهم لادين لهم ! » •

وعندما علم يحيى بهذا الخطاب التزم الصمت وفى أحد الأيام سأل هارون الرشيد يحيى عن رأيه فى محمد بن أبى الليث • فرد يحيى بأنه منافق وخبيث ، ولا دين له ويخدع الناس بخطبه ، ويهاجم كل شخص الغ • ولما كان هارون غاضبا على محمد لذلك أمر بسجنه على الرغم من أن الخطاب ترك انطباعا فى نفس هارون • وتعددت مرات استفساره عن مدى التزام البرامكة بالتعاليم الدينية وتحرى عن معتقداتهم • وبدأ كل الناس الساخطين من تصرفات البرامكة يتجسسون عليهم ويبلغون الخليفة عن كل مساوئهم • فكانت محصلة ذلك أن بدأ قلب الخليفة يتغير من ناحيتهم •

ثم وصلت هارون شكوى ثالثة ضد البرامكة • اذ كان يحيى بن عبد الله الحسينى قد جاء الى القصر مع الفضل بن يحيى بعد ثورة فى طبرستان ، وسجنه هارون ، وعهد الى جعفر برعايته • وعندما أمر هارون جعفر بقتل يحيى بن عبد الله الحسينى ، قال يحيى لجعفر : « أنت أيها الرجل العالى الهمة ، تريد قتلى ، يا من تعرف من هم أجدادى ؟ انهم قد أعطونى ثقتهم ، ولكن قادونى الى هنا فانهم حنثوا فى قسمهم » • فأجاب جعفر : اذهب فأنت حر • واذهب الى حيث شئت • واذا ما سألنى عنك هارون ، سأخبره بما يجب قوله » • وانطلق يحيى على الفور وأبلغ الحاجب هارون بما حدث • وفى أحد الأيام عندما كان جعفر يتناول طعام الغذاء مع هارون ، سأله الأخير عن أحوال يحيى هذا • فأجاب جعفر أن يحيى مازال بالسجن • فأمره الخليفة قائلا : « أقسم برأسى وحياتى » • فسكت جعفر ثم قال : « يا أمير المؤمنين لا أحب أن أقسم برأسك وبحياتك • لقد كنت واثقا من أن يحيى رجل صالح ، ولا شيء يخيفنا منه • وأنه لايستطيع أن يجند أى جماعات معادية • ومن ثم قمت باطلاق سراحة • » • فقال له هارون دون أن يفصح عن أى استياء : « لقد أحسنت صنعا ، وكانت لدى نفس النية ، وأنا متفق معك » وعلى الرغم من أن هارون لم يتحدث أكثر من ذلك ، فان هذه الحادثة تركت فى نفسه حنقا شديدا •

أما الحادثة الأخيرة والتى ساهمت فى نكبة البرامكة فهى كما يلى : كان لهارون شقيقة تدعى العباسة ، ابنة المهدى ، الذى كان أكبر من الهادى بعام واحد • وعندما أراد الهادى أن يستخدم العنف ضد هارون قامت العباسة بنصحه للعدول عن ذلك قائلة : « لا تفعل هذا • انه شقيقك • ويجب أن يحكم بعدك • ولا أحد يعرف ماذا سيحدث » • ولهذا السبب أبدى هارون أسمى مظاهر الاحترام والمودة لأخته عندما اعتلى

عرش الخلافة • وائتمنها على بعض أسراره ، واستمتع بالجلوس معها ، وعاش معها فى غاية المودة والتراحم • ودعا الخليفة هارون وزيره جعفر لحضور تلك الولائم التى حضرتها شقيقته وجواريها • ولما كان جعفر حريصا على الا تصدر منه أى بادرة أو اشارة غير لائقة فى حضور العباسة لذلك فضل ألا يحضر تلك الحفلات فيما بعد • ففهم الخليفة سبب حذر جعفر ، وقال له : « أريدك أن تتزوج العباسة ، شريطة ألا تراها فى حضورى ، والا تلمسها ، واياك أن تعاشرها معاشرة الأزواج • وحينئذ تستطيع أن تحضر مجالس الطرب معنا دون خوف » • فأجاب جعفر أنه رهن اشارة الخليفة • ثم تم عقد زواج جعفر بالعباسة وظهر الزوجان فى وجود هارون وتحدثا عن بعد • وكانت العباسة أجمل نساء القصر جميعا ولا تدانيها حرة أو جارية فى الجمال ، كما كان جعفر رجلا وسيما • ولذلك سعى كل منهما الى لقاء الآخر سرا ، وتمخض هذا اللقاء عن طفل أنجبته العباسة • وأرسلت العباسة هذا الطفل الى مكة مع اثنتين من جواريها لرعايته بعد أن أعطتهما مبلغا من المال ومر عام على هذه الحادثة الى أن تشاجرت العباسة مع احدى جواريها • وضربت الجارية وهددتها بالقتل •• فتقربت الجارية من هارون وأفشت اليه بسر الطفل الذى أنجبته العباسة من جعفر • فأمرها هارون ألا تقص هذه الحادثة على أحد ، ثم ضمها الى جواريه •

وبعد أن حصل يحيى بن عبد الله على حريته ، بذل هارون جهودا لمعرفة محل اقامته وما أن عرف الخليفة ، أن يحيى هذا يقيم فى خراسان حتى أرسل عليا بن عيسى بن ماهان ، الى هذا الاقليم ، ومعه تعليمات بالبحث عن يحى والقاء القبض عليه • ومنذ ذلك الحين تغير شعور هارون من ناحية البرامكة • وأبدى الخليفة فتورا فى معاملاته مع يحيى وجعفر وعلق يحيى يوما على المعاملة الفاترة التى عامل الخليفة بها يحيى ، بيد أن يحيى لم يجرؤ على طلب انهاء خدمته • وبعد أن نجح على بن عيسى فى القاء القبض على يحيى بن عبد الله أرسله الى الرقة فى صحبة مندوب موثوق به • وهناك أعدمه هارون •

وما أن اطمأن هارون على نفسه من هذه الناحية حتى عقد العزم على العمل ضد البرامكة • فأعلن أنه ذاهب لأداء فريضة الحج وأخذ معه يحيى وبعض أفراد أسرة البرامكة • وبعد أن أدى هارون مناسك الحج ، ثم احضار ابن العباسة اليه ، وكان هذا الطفل قد جمع بين والده جعفر ووالدته العباسة فى الشبه • وكانت لدى هارون نية قتل الطفل بيد أنه غير رأيه بعد أن قال انه برىء تماما • ثم بدأ هارون رحلة العودة

الى الرقة • وفي مركز من مراكز البريد بالقرب من الأنبار استراح هناك لعدة أيام • وفي اليوم الرابع لوصوله الى الرقة دعا يحيى وأولاده الفضل ، وجعفر ، وموسى ، وخلع عليهم الخلع مظاهر العطف والمودة وجعلهم هذا السلوك يشعرون بالسعادة ، وأعاد ، فاطمأنت قلوبهم كل الاطمئنان • وعند صلاة العصر قال هارون لجعفر : « لن أسمح لك بالذهاب الى دارك ما لم أكن قد متعت نفسي بالشراب مع الجواري • وأن تمتع نفسك بجواريك » • ثم عاد هارون الى حريمه وبدأ في الشراب • وبعد فترة من الوقت بعث هارون برسول الى جعفر ليرى ماهو بفاعل • وعندما علم هارون أن جعفر في حالة معنوية سيئة أمر هارون الرسول بابلاغ جعفر بالنص التالي : « أقسم برأسي وبحياتي، أن تعد حفلا وأن تمتع نفسك ، ولن أشرب ما لم تكن أنت تشرب أيضا » • وأعد جعفر جفلا بيد أن قلبه كان مملوءا بالأسى والخوف • وكان لدى جعفر مغنيا ضريرا يدعى « أبو ذوقار » • وبعد أن شرب جعفر لفترة من الوقت قال للمغني : « ان روحي المعنوية منخفضة هذه الليلة » • فأجاب أبو ذوقار : « أيها الوزير ، ان أمير المؤمنين ، لم يبد نوايا طيبة لك ولأسرتك مثلما يحدث هذا اليوم • ويجب عليك أن تبتهج » • فقال جعفر : «انى أشعر بأحاسيس داخلية محزنة» • فرد عليه أبو ذوقار : « عليك بالتخلص من هذه الهواجس ومتع نفسك » •

وبالقرب من موعد صلاة المغرب قدم أحد خدم هارون الى جعفر حلوى ، وفواكه مجففة ، وروائح عطرية من الخليفة • وعند صلاة العشاء أرسل هارون ، كميات أكثر من الأولى ، ثم كميات أكثر للمرة الثالثة • وعند منتصف الليل خرج هارون من مكان حريمه ، واستدعى خادمه مسرور الطواشي وقال له : « اذهب على الفور الى مهجع جعفر واقطع رقبته وأحضر رأسه معك » • وعندما شاهد جعفر مسرورا ، ارتعد الوزير خوفا • فقال له مسرور : « ان أمير المؤمنين يريدك الآن » • فسأله جعفر : « وأين هو ؟ » فأجاب مسرور : « انه ترك مكان حريمه منذ لحظات وهو بقصره حاليا » • فقال جعفر : « دعني أدخل مكان حريمي لأترك لهن بعض التعليمات » • فأجاب مسرور : « ليس هذا ممكنا وعليك أن تترك لهم تعليماتك هنا » • ثم قاده مسرور الى أن وصل الى خيمته وهنا استل مسرور سيفه الضالع • وسأل جعفر مسرورا عن الأمر الذي تلقاه من هارون فقال مسرور : « لقد أمرني هارون بأن أقدم رأسك اليه » • فقال جعفر : « احترس فربما أصدر اليك هذا الأمر وهو مخمور مما يجعله يندم على ذلك فيما بعد » • ثم توسل جعفر لمسرور

مذكرا اياه بصداقتهما القديمة ، وطلب منه أن يعود الى الخليفة فوافق مسرور • وكان هارون جالسا على سجادته منتظرا خادمه الخصى • وعندما شاهد هارون مسرورا سأله على الفور : « أين رأس جعفر ؟ » فأجاب مسرور : يا أمير المؤمنين ، لقد أحضرت جعفر • « فرد عليه هارون قائلا : «انني لم أطلب جعفر وانما أطلب رأسه » • فعاد مسرور الى جعفر ودق عنقه • وعندما قدم رأس جعفر للخليفة قال له الخليفة : « احتفظ بالرأس والجثة الى أن أسألك عنهما • واذهب الآن ، وألق القبض على يحيى وأولاده الثلاثة • وشقيقه محمد بن خالد ، وضعهم فى خيمتك وقيدهم بالسلاسل وصادر كل ممتلكاتهم » •

وقام مسرور بتنفيذ كل تلك الأوامر • وأرسل هارون رأس جعفر الى بغداد عند الفجر • وفى اليوم التالى ذهب هارون الى الرقة • وتعرض كلا من يحيى وشقيقه للضرب والتعذيب بالسجن • وأجبرا على التنازل علنا عن كل ممتلكاتهما • وبعد أن مات يحيى بالسجن ، أطلق الخليفة سراح محمد بن خالد لعدم وجود أى شىء ضده ولأنه كان أفضل شخصية فى أسرة البرامكة • أما ماتم بشأن أفراد أسرة البرامكة فقد ظلوا جميعا فى السجون • وبعد مصادرة كل ممتلكات البرامكة أمر هارون بدق عنق كل من الفضل ومحمد ، وموسى ، فى حضرته • كما تم اعدام كل أفراد أسرة يحيى والمقربين اليهم • ولم يبق على قيد الحياة من أسرة البرامكة سوى بن خالد ، وأطفال الفضل وجعفر • وظلت رأس جعفر معلقة بمشنقة فى بغداد حتى أحرقت •

ان سلوك هارون فى هذه الحادثة هو سلوك مشجوب بكل المقاييس • فقد أساء هارون الى نفسه بما فعله • ونتيجة لقسوته وعقوباته الوحشية فقد تحدث الناس كثيرا عن هذا الموضوع • وعندما تحدث الناس عن نكبة البرامكة وسألوا عن السبب عرفوا أن كل ذلك بسبب العباسة شقيقة هارون الرشيد • وستظل ذكرى هذه الحادثة قائمة حتى قيام الساعة ، وسيعرف الجميع أن ما حل بالبرامكة كان بعيدا كل البعد عن الحكمة ، وبعد النظر •

وشجب الناس سلوك هارون لسبب آخر • فبسبب اختفاء البرامكة تعرض أمن الدولة لأخطار شديدة ، وتأسف الناس للقضاء على البرامكة• فقد واجه هارون اضطرابات وثورات فى كل مكان ، ولم يكن قادرا على السيطرة على أرجاء الدولة فقد ثار أقليم خراسان الذى كان تحت الادارة المطلقة لعلى بن عيسى ، واضطر هارون الى الذهاب الى هناك بنفسه • اذ تحرك من بغداد على رأس جيش بلغ تعداده خمسون ألف مقاتل ،

وعهد الى ابنه محمد الأمين بالبقاء في بغداد ، وإدارة شئون الدولة فيما بين حدود المغرب ومرتفعات حلوان ٠ وتوقف فى كرمنشاه بفترة من الوقت حيث عقد اجتماعا عاما لقواته ٠ والقى خطابا على قادة الجيوش ، وأمرهم بأن يقسموا يمين الولاء والطاعة لأبنه المأمون الذى تولى حكم كل الأقاليم الواقعة خلف حلوان ، ونعنى بها ، كوهستان ، وهمذان ، والرى ، وجرجان ، وطبرستان ، وخراسان ، وشرق بحر قزوين ، وتركستان ٠ وبدأ المأمور فى التحرك وتحت قيادته ثلاثون ألف مقاتل ، ثم تبعه هارون وبقية الجيش وعندما وصل هارون الى طوس Tous مات٠

عصر كسرى أنو شروان (١١)

٠ ثم صار كسرى أنو شروان بن قباذ ملكا ، الخ : وبعد أن تولى الملك أرسل خطابات الى حكام الأقاليم الأربعة فى بلاد الفرس ، وأتباعهم، وورد فى الخطاب الذى أرسله الى حاكم اقليم آذربيجان ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من كسرى بن قباذ الى زادهوى Zadhoe ، حاكم آذربيجان ، وأرمينيا ، والى أتباعه سلام ! لاشىء يثير قلق الانسان أكثر من الحالة التى يرى فيها نفسه غير آمن على ما يملكه ، ومعرضا لأعمال العنف ، أو ضياع ماتحت يديه ، أو فى نفسه ، أو خدمه ، أو متاعه أو مايعتقد أنه مفيد له ٠ واننا نعلم جيدا أن شغل الناس الشاغل هو حاجتهم الى ملك عادل » (*) ٠

(★) بالرجوع الى النص العربى فى كتاب الطبرى وجدت من الضرورى ذكر النص العربى بالكامل وان كان لا يخرج عن المعنى الذى جاء وفقا للترجمة عن اللغة الانجليزية التى نقلت عنها :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

من الملك كسرى بن قباذ الى وارى بن النخيرجان فاذوسبان أذربيجان وأرمنية وحيزها ، ودبناوند وطبرستان وحيزها ، ومن قبله : سلام ، فان أحرى ما استوحش له الناس فقد من تخوفوا فى فقدهم اياه زوال النعم ووقوع الفتن ، وحلول المكاره بالأفضل فالأفضل منهم ، فى نفسه أو حشمه أو ماله أو كريمه ، وانا لا نعلم وحشة ولا فقد شىء أجل رزيئة عند العامة ، ولا أحرى أن تعم به البلية من فقد ملك صالح » ، انظر الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ، ص ٩٨ ٠ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٩م ـ المترجم ٠

وما أن سيطر كسرى على مقاليد الحكم حتى استأصل شأفة طائفة قائمة على تعاليم الديانة المجوسية وفقا لتعاليم زراذشت المنافق • وكان عدد كبير من الناس قد انضم اليها ، وبناء على ذلك صار لها نفوذ كبير وكان مزدك أحد أتباع زرادشت • ودعا مزدك الناس ، وألزم أتباعه ، بأن يكون كل شيء مشاعا بينهم بما في ذلك كل ما تحت أيديهم من ممتلكات ونساء • وأقنع مزدك أتباعه أن ذلك ضرب من التآلف والمودة يرضى الله عنه ، ويجزي عليه خير الجزاء • والواقع أنه برغم أن تلك المبادىء الدينية التى دعا اليها مزدك لم تكن ملزمة ، فانهم اعتقدوا أن بركة الله ستحل عليهم لتعاونهم مع بعضهم البعض • وبهذا الاسلوب استطاع مزدك أن يحرض العامة ضد الطبقة العالية واختلطت الطبقات الدنيا بالسلالات الأصيلة ، وأصبح من السهل على أولئك الذين يحقدون على من يملكون ، أن تكون تحت أيديهم ممتلكات ، ومارس الأشرار شرورهم ، وأشبع الزناة شبقهم ، وجالسوا نساء الطبقات العليا ، بعد أن كان ذلك أمرا لايخطر على بالهم من قبل • ووجد كل الناس أنفسهم فى نفس الخطر • اذ لم يسبق لأى فرد أن سمع عن شيء من هذا القبيل • ومن ثم قام كسرى بمنع اعتناق أى أفكار استحدثها كل من زراذشت ، ومزدك • وقام كسرى بالقضاء على كل تلك الطائفة الدينية المعارضة لدين الدولة ، وأعدم الكثيرين من التابعين لها ، والذين رفضوا الانصياع الى أوامره • وبالاضافة الى ذلك أعدم كثيرا من أتبـاع مانى وحفظ للمجوس دينهم الذى آمنوا به من قبل (*) •

وأعجب الناس بفضائل كسرى ، ونغنى بذلك ، فطنته ، وثقافته ، وحسن ادراكه للأمور ، وشجاعته ، وبعد نظره ، بالاضافة الى دماثته ، وكرمه • وهى صفات لمسها الجميع وما أن وضع التاج على رأس كسرى حتى بادر كبار رجال الدولة والنبلاء بتقديم التماساتهم اليه • وما أن فرغوا من تقديم مطالبهم ، حتى وقف كسرى ، وألقى عليهـم كلمـة • فتحدث عن فضل الله على عباده الذين خلقهم • ثم تحدث عن ثقته فى الله فى قيادتهم الى الخير ، وفى عونه لهم • ولم يترك شيئا مهما الا وتحدث عنه • وذكرهم بالأهوال التى تعرضـوا لها من جـراء تعـاليم مزدك ، وفقدانهم لممتلكاتهم وتسفيه مزدق لمعتقـداتهم ، والفوضى الشاملة التى نجمت عن الأمور المتعلقة بأطفالهم وممتلكاتهم • ومع ذلك فقد وعدهم بالعلاج الناجح وطالب الشعب بالتعاون معه فى هذا المجال • ثم أمر باعـدام أتبـاع مزدك وتوزيع ممتلكاتهم بين المحتاجين • وتم اعـدام كل

(*) ما أورده المؤلف هو تلخيص ما ذكره الطبرى فى الجزء الثانى ص ٩٩ ـ ١٠٢ من الطبعة السالفة الذكر ـ المترجم •

من استولى على ممتلكات الآخرين ، وعادت الحقوق الى أصحابها • وأمر بأن يظل كل طفل فى الأسرة التى نشأ بها ، وأن يظل يحمل اسم الأب الذى يعترف بأبوته • وأمر كل رجل اغتصب امرأة أن يدفع لها صداقها، وأن يعيش معها كرجل وزوجة فى حالة موافقتها على البقاء معه ، ولها الخيار فى الانفصال عنه • أما اذا كان لها زوج من قبل ، فمن الضرورى عودتها الى زوجها السابق • والزم كل من أتلف ممتلكات الغير أن يدفع له تعويضا على الفور ، مع عقابه على ما اقترفت يداه • وسمح للأطفال الذين فقدوا آباءهم من الطبقة العليا أن يسجلوا على أنهم أولاده• أما بنات تلك الطبقة فقد أمر كسرى أن يتزوجن من الطبقة العليا نفسها ، وأن تجهز بيوت الزوجية الخاصة بهن من خزانة الدولة • وزوج الشباب من نساء الطبقة العليا ، بيد أنه الزمهم بالبقاء فى القصر الملكى لكى يستغلهم فى الوظائف العليا • أما عن زوجات أبيه ، فترك لهن الخيار فى البقاء مع زوجاته ، على أن يعيش معهن ، ويحصلن على المقررات التى اعتدن الحصول عليها ، أو أن يقبلن أن يكون كسرى زوجا لهن وفقا لمراكزهن •

وقام كسرى بحفر الترع ، واقامة القناطر ، وتقديم السلفيات للفلاحين ، وقدم اليهم المساعدات الأخرى • وقام باصلاح الجسور الخشبية ، والمبنية من الأحجار • وجدد القرى فى أماكن كثيرة • واهتم بالخيالة ، وزود كل فارس بجواد ومعداته ، وجدد لهم أمرا ثابتا• وعين حفظة على نيران المعابد ، وأصلح الطرق • وشيد القلاع والحصون على امتداد تلك الطرق للحماية من اللصوص وقطاع الطرق • واختار الموظفين والحكام الأكفاء ، وزودهم بالتعليمات المشددة • ودرس تاريخ حياة أردشير ، ورسائله ، وتعليماته ، واعتبره مثله الأعلى ، وطالب الشعب الاقتداء به فى ذلك •

وبعد أن استتب له الأمر فى كل البلاد ــ حكم مدة سنوات عديدة ــ تحرك صوب أنطاكية • واستولى على المدينة ، وعسكر بها قادته • ثم أمر بوضع خريطة دقيقة لأنطاكية بها عدد المنازل ، والشوارع ، وكل المنشآت الأخرى • ثم أمر بانشاء مدينة جديدة على نمط مدينة أنطاكية• وأطلق على تلك المدينة الجديدة « رومية » وأجبر سكان أنطاكية على الانتقال الى تلك المدينة الجديدة ، وذهب كل منهم الى المدينة الجديدة ، ودخل البيت المعد له ، وكأنه لم يغادر أنطاكية مدينته الأصلية •

وبعد ذلك هاجم مدينة هرقلة ، واستولى عليها ، ثم استولى على اسكندرونه وما بعدها • وترك جزءا من قواته فى أراضى الروم كحامية ، بعد أن انصاع امبراطور الروم لارادته ، وتعهد بدفع فدية • وبعد

عودته من بلاد الروم تحرك بجيشه صوب الخزر ، وأخضعهم لسيطرته عقابا لهم على مهاجمتهم لشعبه وبلاده • ثم توجه صوب عدن بعدد كبير من السفن الكبرى لاغلاق طريق الملاحة فى وجه الحبشة ، وذلك باقامة سلاسل حديدية ، ووضع الصخور الضخمة والأعمدة الحديدية فى جزء من البحر بين الجبلين ، وقتل كبار الدولة هناك • ثم عاد الى بلاده بعد أن صارت أراضى الروم عند هرقلية ، وأرمينيا تابعة له ، هذا بالاضافة الى كل الأراضى الواقعة بين اليابس والبحر ، وأعنى بها بلاد عدن •

ثم عين كسرى أنوشروان ، المنذر بن النعمان ملكا على العرب ، وأضفى عليه ألقاب الاجلال والتكريم • وبعد ذلك بقى فى حدود أراضى مملكته فى بلاد الفرس ، وعنى بكل الأمور التى تتطلب كل اهتماماته • ثم توجه صوب الهياطلة لينتقم منهم بقتل جده فيروز • بيد أنه عقد حلفا مع الخاقان ، ومهر هذا الحلف بالزواج ، وذلك قبل بدء الهجوم ، ثم أبلغه بنيته فى مهاجمة الهياطلة ، ورجاه التعاون معه ضدهم • ثم وصل الى بلاد الهياطلة ، وذبح ملكهم ، وقتل كل أفراد أسرته • وتقدم بجيشه الى أن وصل الى بلخ ، وما بعدها ، وأمر قواته أن تعسكر فى فرغانة • ثم عاد الى أراضيه فى الشرق ، بيد أنه ما أن وصل الى بلاده حتى جاءته وفود تطلب المساعدة ضد أهالى الحبشة • ومن ثم أرسل معهم أحد قادته ومعه قوات من الديلم ، والبلاد المجاورة • وقامت تلك القوات بقتل مسروق الحبشى وظلت هناك (باليمن) •

وظل كسرى يحقق انتصارات بصفة مستمرة وعلى كل الشعوب ، ولذلك تعددت الوفود التى زارت قصره من بلاد الأتراك ، والصين ، والخزر ، وشعوب أخرى بعيده • وأجل كسرى العلماء • واستمرت مدة حكمه حوالى ثمانية وأربعين عاما • وكان ميلاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) (*) ، ابان الفترة الأخيرة من حكم كسرى أنوشروان • ويقول ابن هشام أن كسرى حكم لمدة سبعة وأربعين عاما فحسب • ويقول ابن هشام كذلك أن عبد الله بن عبد المطلب ، والد الرسول (صلى الله عليه وسلم) (*) ، ولد فى السنة الرابعة والعشرين من حكم كسرى ، وأنه توفى فى السنة الثانية والأربعين •

ويواصل ابن هشام القول أنه عندما تولى كسرى السلطة أرسل فى طلب المنذر بن النعمان الأكبر ، وأقامه ملكا على الحيرة ، والتى كانت

(★) ما بين حاصرتين من عند المترجم •

من قبل تحت حكم الحارث بن عمرو ، الذى ظـــل حاكما لهذا الاقليم حتى وفاته ٠

ويحـكي ابن هشام أن كسرى توجه ضد برجان Burgan ، ثم عاد. وأمر باقامة بوابات ضخمة (عند القوقاز) ٠

(وأما عن تاريخ الحيرة) ، ووفقا لما كتبه ابن هشام : أن الملك الذى حكم العرب باسم ملوك الفرس بعد الأسود بن المنذر كان شقيقه المنذر بن المنذر بن النعمان ٠ وحكم لمدة سبع سنوات ٠ وحكم من بعده النعمان بن الأسود بن المنذر لمدة أربع سنوات ٠ ووالدته هى أم مالك ابنــة عمرو بن حجر ، شـقيقة الحـارث بن عمرو الكندى ٠ وخليفته جعفر بن علقمه بن مالك بن عدى بن ذوميل بن ثور بن عسس بن عربى ابن نمرة بن لخم ، وحكم لمدة ثلاث سنوات ثم صار المنذر بن امرىء القيس ، وهو ذو القرنين ، ملكا ٠ وأطلق عليه ذلك الاســـم لظهور خصلتين من شعره ٠ اسم أمه المعصومة ، وهى مارية ، بنت عــوف بن غسان بن خليل بن ربيع بن زيد بن عمير بن سعيد بن خزرج ٠ وبلغت مدة حكمه حوالى تسعة وأربعين عاما ٠ ثم صار عمرو بن المنذر ملكا ٠ ووالدته هى هند ابنـــة الحارث بن عمرو حفيـــد حجر ٠ وحـــكم لمدة ستة عشر عاما ٠ وبعد أن حكم لمدة ثمانى سنوات ، وثمانية شـــهور ولد رسول الله ٠ وكان ذلك فى عهد كسرى أنوشروان ، فى السنة التي تحـرك فيهـا الأشرم آكسوم (أبرهة الحبشى) (*) ومعـه الفيــل ، وقد قصد هدم الكعبة ٠

ويقال أنه كانت هنـــاك معاهدة بين كسرى والروم فى عهـد الامبراطور جوستنيان ٠ وابان تلك المعاهدة حدثت حروب بين خالد بن جبله (**) ملك العرب فى الشام ، والذى كان تابعا للامبراطور جوستنيان، وبين المنذر بن النعمان بن لخم الذى عينه كسرى ملكا على العـــرب فى عمان ، والبحرين ، واليمامة ، الى الطائف ، وباقى أراضى الحجـاز ، وعلى كل عرب تلك الأراضى ٠ وقام خالد بن جبله بمهاجمة أراضى المنذر ، وقتل كثيرا من رعاياه ، واستولى على كثير من الغنائم ٠ وشكا المنذر الى كسرى وطلب منه أن يكتب الى امبراطور الروم لكى يضمن تأمين بلاده ضد خطر خالد ٠ والواقع أن كسرى أرسل احتجاجا الى جوستنيان ، وذكره أن هناك معاهدة سلام بينه وبين الروم ، وأبلغه بما حدث للمنذر

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم ٠

(**) الواقع أن ملك العرب فى الشام أو ملك الغساسنة اســمه الصحيح هو الحارث بن جبله وليس خالد بن جبله كما ذكر الطبرى وذلك بعـــد الرجوع الى المصادر اللاتينية واليونانية والسريانية المترجمة فضلا عن المصادر الفارسية ـ المترجم ٠

حاكم العرب التابع له على يدى خالد ، وطلب منه أن يأمر الأخير بتعويض المنذر عن كل الغنائم التى أخذها من بلاد المنذر ، وأن يدفع دية له عن القتلى ، وأن يتابع عملية ارضاء خالد للمنذر • وهدد كسرى جوستنيان بأنه فى حالة عدم ارضاء خالد للمنذر ، فليعلم أن ذلك يعنى انتهاء معاهدة السلام •

وأرسل كسرى أكثر من رسالة الى جوستنيان بهدف معالجة ما تعرض له المنذر ، بيد أن جوستنيان لم يبد أى اهتمام بالموضوع • ومن ثم استعد كسرى للحرب وهاجم أراضى جوستنيان بجيش بلغ حوالى ثمانين ألف مقاتل ، واستولى على دارا ، والرها ومابوج Mabbug ، وقنسرين ، وحلب ، وأنطاكية التى كانت أهم المدن فى سوريا ، أباميا Apamea ، وحمص كثيرا من الأماكن المجاورة ، واستولى على كثير من الأموال ، والأشياء الأخرى التى وجدها فى تلك المدن • ونقل كسرى سكان أنطاكية الى السواد ، فى المكان الذى ذكرته من قبل ، وشيد لهم مدينة بالقرب من طيسفون (*) ، وكانت مشابهة لمدينة انطاكية تماما ، وأمرهم بالمعيشة بها • وأطلق على تلك المدينة رومية • وأنشأ لهم خمس دوائر من المحاكم : العليا ، والمتوسطة ، ومحكمة النهروان الابتدائية ، ومحكمة بدرشاه ، وباكو شاه • أما بالنسبة الى الأسرى الذين عاشوا فى رومية ، فقد طلب كسرى منهم تأدية خدمة عسكرية محددة ، وعهد الى باراز ، وهو مسيحى من الأهواز ، بتولى شئونهم ، وباراز هذا كان يرأس لجنة أعمال كسرى • وفعل كسرى هذا بدافع الشفقة على الأسرى ، ولأنه أراد أن يعطيهم الثقة فى باراز باعتباره يدين بدينهم • ودفع امبراطور الروم اتاوة الى كسرى مقابل عدم اعتداء الأخير على باقى مدن الشام ومصر • وتعهد امبراطور الروم بدفع اتاوة سنوية مقابل عدم الاعتداء على حدود بلاده • وأعطى امبراطور الروم كسرى وثيقة تعهد فيها بدفع الاتاوة السنوية ، ووقع عليها كبار دولة الروم •

وقبل عهد كسرى أنوشروان ، اعتاد ملوك الفرس على جمع ضريبة أرض من كل اقليم فى البلاد تعادل الثلث ، أو الربع ، أو الخمس ، أو السدس ، وفقا للمساحة المنزرعة فى كل اقليم ، وكذلك ضريبة رأس محددة • وفى أواخر عهد قباذ بن برويز ، قام هذا الملك بمسح الأراضى السهلة والجبلية لكى يحدد عليها ضريبة أرض دقيقة •

(*) طيسفون — اسم عاصمة الفرس الذى ورد فى المصادر الفارسية واليونانية واللاتينية ، أما المصادر العربية فقد استخدمت كلمة المدائن مازالت آثارها موجودة حتى الآن جنوب بغداد بحوالى ثمانية كيلومترات — المترجم •

وتم تنفيذ مسح الأراضي ، بالرغم من أنه لم يكن قد اكتمل عند وفاة قباذ • فقام ابنه كسرى باكمال مسح الأراضي عند اعتلائه العرش ، وكذلك النخيل وأشجار الزيتون ، حيث قام الكتبة بحصر جميع الايرادات • ثم أرسل دعوة عامة الى شعبه عن طريق رجال الضرائب لابلاغهم بالمبالغ المحددة ، والواجب سدادها للدولة ، وفقا لكل محصول ، وعدد أشجار النخيل ، والزيتون ، وعدد الأفراد الذين يجب عليهم دفع ضريبة الرأس • وعندما بلغ الشعب ذلك شرح لهم كسرى الموقف قائلا : « لقد قمنا بتحديد الحصص ، واجراء الترتيبات المتعلقة بالمبالغ المقدرة عليها في المسح الحالي للأراضي الصالحة للزراعة ، وأحصينا عدد أشجار النخيل ، والزيتون ، وعدد الأفراد الواجب عليهم دفع ضريبة الرأس ، على أن تدفع المبالغ كل عام ، على ثلاثة أقساط • وبهذه الوسيلة سنكون قادرين على جمع الأموال في خزانتنا ، لنكون قادرين على التصدي لأى أخطار تتعرض لها قلاعنا على الحدود أو أراضيها • وذلك لأننا لا نرغب في أن نفرض ضرائب جديدة عندما تجد مثل هذه الأمور • والآن فما رأيكم في خطتنا وفي قرارنا ؟) •

وبالنسبة لهذا السؤال لم يقدم أحد أى اقتراح بل ولم ينطق أحد ببنت شفة • وبعد أن كرر كسرى هذا السؤال ثلاث مرات ، وقف رجل من بين الجمع وقال لكسرى : « أيها الملك — أطال الله عمرك ! — افرض ضرائب دائمة على الأشياء المعرضة للتلف أو العطب : مثل شجرة الكرم التى تمت في يوم ما ، وحبة القمح التى تذبل والترعة التى تجف ، والبئر أو مجرى الماء الذى ينضب ماؤه • « فصرخ كسرى في وجهه عند سماع ذلك قائلا : « أيها الانسان الوقح والملعون ، الى أى الطبقات تنتمى ؟ » فرد عليه ثم قال كسرى : « قطعوه اربا اربا » • فأنقض الحاضرون عليه الى أن مات ، وكان معظم الذين قطعوه من الكتبة لأنهم أرادوا ابعاد الشبهة عن أنفسهم •

ثم أعلن الحاضرون رأيهم قائلين : أيها الملك ، اننا نقبل ما تفرضه من ضرائب على الأرض » • ثم اختار كسرى عددا من الشخصيات المسئولة والمرموقة ، وأمرهم بالتحقق من مقادير المحاصيل المتنوعة ، وعدد أشجار النخيل ، وأشجار الزيتون ، والأفراد الذين تنطبق عليهم ضريبة الرأس ، وعلى هذا الأساس حدد الضريبة مع السماح للرعية بأن تعيش دون ارهاق • وقدمت اللجنة المختارة تقريرها اليه (*) •

(*) ما ورد في هذه الصفحة ملخص واف ودقيق ولم يخرج عن النص العربى جـ ٢ ، ص ١٥٠ — ١٥١ — المترجم •

ثم عبر كل فرد منهم عن اعجابه الشديد برجاحة عقل كسرى التى بدت للعيـان فى تقريراته الضريبية ، وبعـد مشاورات مستفيضـة ، توصلوا الى اتفاق بضرورة فرض ضريبة الأرض على الغلات الزراعية التى يعيش عليها الانسان والحيوان ، وأعنى بها ، القمح ، والشعير ، والأرز ، وأشجار النخيل ، وأشجار الزيتون ، ففرضت ضريبة مقدارها درهم واحد على كل حقل زرع قمحا أو شعيرا ، وثمانية دراهم على حقل الكروم، ودرهم فارسى عن كل أربع أشجار من النخيل الفارسى ، ودرهم عن كل ست أشجار من النخيل العادى ، ودرهم عن كل ست أشجار للزيتون · واقتصرت الضريبة على النخيـل الذى ينمو فى الأراضى الزراعيـة ، أو بكميات كبيرة ، أما أشجار النخيل التى تنمو من تلقاء ذاتها فلم تحدد لها ضريبة · وفيما عدا المنتجات الزراعية السالفة الذكر ، فقد كانت باقى المحاصيل الزراعية معفاة من الضرائب ، وتصرف فيها الناس بحرية كاملة · وفرضت ضريبة الرأس على الجميع باستثناء النبـلاء ، وكبار رجال الدولة ، والجنود ، ورجال الدين والكتبة ، والعاملين فى خدمة البلاط الملكى · وكانت ضريبة الرأس تتفاوت مابين اثنى عشر درهما ، الى ثمانية أو ستة وفقا للوضع الاجتماعى والمالى للفرد · وتم اعفاء الذين لم يبلغوا العشرين أو الذين تجاوزا الخمسين من دفع ضريبة الرأس ·

وقدم القائمون على تقدير النسب الضريبية تقريرهم الى كسرى · ووافق كسرى ، وأمرهم بجمع الضريبة على أن تجمع على ثلاثة أقساط · وتلك الضريبة عينهـا هى التى سـار على نهجهـا عمر بن الخطـاب (رضى الله عنه) (*) بعد أن فتح بلاد الفرس ·

ثم أمر كسرى بتدوين تلك الضريبة فى سجل خاص ، ونسخ عدة صور من هذا السجل ، احتفظ باحداها فى ديوانه ، وأرسل واحدة الى جامعى الضرائب ، وواحـدة لكل قاض من قضـاة الأقاليم ليكونوا على معرفة بتفاصيل تلك الضريبة · وأصدر كسرى تعليماته الى حكام الأقاليم بمنع الموظفين من جمع أى مبالغ أكثر من الضريبة المحددة بعد أن زود هؤلاء الحكام بنسخة خطية من تفاصيل تلك الضريبة وأمر كسرى كذلك بتخفيض القيمة الضريبية على الأراضى الزراعية التى يتعرض انتاجها للانخفاض ، مع اعفاء من تجاوز الخمسين من ضريبـة الرأس · وأمر بضرورة ابلاغه بمثل تلك الحالات المستثناة حتى يقوم بدوره بابلاغها الى جامعى الضرائب · وأكد على ضرورة عدم تحصيل ضريبـة الرأس ممن كانوا دون العشرين ·

(*) ما بين حاصرتين من عندنا المترجم ·

وكان بابك بن بروان(**) أحد كتبة كسرى ، قد نال الحظوة عنده لأنه كان ذا حسب ونسب ، وكياسة ، ومقدرة ، ولذلك كله عهد كسرى اليه بادارة شئون خزانة السلاح • وقال بابك هذا للملك فى أحد الأيام : « لايمكنني القيام بأعباء مهمتى مالم تكن لى سلطة اصدار الأوامر للقوات ، تحقيقا لصالح الملك » • ووافق كسرى على منحه تلك السلطة • ثم أمر بابك باقامة منصة فى المكان الذى يعسكر الجيش به ، وفرشها بالسجاد ، والزرابى ، وأمر باعداد الوسائد ليضطجع عليها • وبعد أن أخذ بابك مكانه بالمنصة أمر المنادى باستدعاء الجيش الذى بالمعسكر للمرور أمامه فى جماعات الفرسان بمطاياهم ، وأسلحتهم ، والرجالة بكامل معداتهم • وبناء على ذلك مرت كل القوات بكامل معداتها أمام منصته ، ومع ذلك لم يشاهد كسرى •

وفى اليوم التالى أبلغ المنادى قوات الجيش بالاستدعاء السابق نفسه ، وللمرة الثانية مرت القوات فى جماعات أمام منصة بابك • وللمرة الثانية سمح لهم بابك بالانصراف على أن يعودوا فى اليوم التالى طالما لم يشاهد كسرى بينهم : وفى اليوم الثالث أمر بابك المنادى بالابلاغ بضرورة عدم بقاء أى أحد بالمعسكر ، حتى لو كان يضع على رأسه تاج الملك ، لأن الأمر جد خطير ، ولا يسمح بالتغيب أو الاعتذار عن الحضور • وعندما سمع كسرى ذلك خلع تاجه ، وتسلح مثل جنوده ، وحضر أمام بابك لكي يعرض نفسه للتفتيش الرسمى • واشتملت نوعيات المعدات الحربية للفرسان على صفائح معدنية لوقاية جسد الجواد ، وقميص به دروع ، ودرع لحماية الجسد كله مصنوع من الجلد أو المعدن ، ودروع لحماية الساقين تحت الركبة ، وزمح وترس • وهراوة خشبية مثبتة بحزام ، وبلطة ، وعصا معدنية قصيرة بها أطراف حادة حول رأسها ، وكنانة ، وقوسين لهما أوتار ، وثلاثين سهما ، وأخيرا قطعتين من الحبال مكورتين ومثبتتين فى مؤخرة خوذة الفارس • وسار كسرى أمام بابك بعد أن جهز نفسه بكل تلك المعدات السابقة باستثناء عدم وجود قطعتى الحبل بمؤخرة خوذته •

ولم يشأ بابك أن يمر كسرى دون اشارة اليه ، اذ قال : « أيها الملك ، انك تقف أمامى فى حالة لاتسمح لى على الاطلاق أن أستثنيك أو أخفف من حدة الموقف وبناء على ذلك عليك أن تتقدم الى ومعك كل الأسلحة المطلوبة ! » فأدرك كسرى أنه ينقصه قطعتى الحبل المكورتين ثم قام على الفور بتثبيتها فى مكانهما • ونتيجة لذلك نادى منادى بابك بصوت عال قائلا : « ان البطل ، وأول الأبطال ، يستحق ٤٠٠١ درهم » •

(**) فى النص العربى اسمه بابك بن البيروان ــ المترجم •

ثم أعلن بابك كل الأسماء • وأعطى بابك كسرى درهما واحدا أكثر مما جبل عليه أفضل الجنود • وبعد أن نهض من مكانه ، توجه صـوب كسرى وقال : « أيها الملك إن هذا التفتيش العام الذى أشرت به عليك ، يخدم تماما الهدف الذي يمكنني من أن أباشر عملي بكل كفاءة ومقدرة » •

وفي عهـد كسرى أنوشروان ولد رسـول الله (صـلى الله عليه وسلم) ، فى العـام الذى ذهب فيه أبرهة الأشرم ومعه الأحباش الى مكة ومعه الفيل لهدم بيت الله الحرام ، وكان ذلك بعد مرور اثنتين وأربعين عاما على حكم كسرى • وفى تلك السنة نفسها حلت هجوم جبله الذى خلده العرب من أشعارهم عن أيامهم •

ثم صار أردشير بن شيرى ملكا على الفرس من بعده الخ • وكان أردشير هذا طفلا فى السابعة ، ولم يكن هناك فى ذلك الحين من هو أكبر منه سنا فى الأسرة المالكة • ولهذا السبب اختاره كبار رجال الفرس ملكا • وتعهـد القهرمان الأكبر بتنشئته ، وعـرف هذا القهـرمان باسم ميه ـ أدهار ـ جوسنشاب •

وأدار هذا القهرمان أمور الدولة بمقدرة حتى أن الشعب لم يلحظ مسألة حداثة سن أردشير • غير أنه ظهر فى ذلك الحين سهرباراز (*) الذى كان قد عينه كسرى قائدا حربيا عند الحدود الرومانية ، وأطلق على قواته اسـم « السعداء » • وكان كسرى قد كتب اليه عن كل الأمور المهمة ، وطلب مشورته • ونظرا لأن كبار رجال الفرس أغفلوا مشورته عند اجلاسهم أردشير على العرش ، لذلك اعتاد شهرباراز هذا التعبير عن اعتراضاته ، والعمل على سفك الدماء ، واستغل تلك المناسبة من أجل العمل على الاستيلاء على السلطة • ونظـرا لاستخفافه بأردشـير لصغر سنه ، تحرك سهرباراز ، بكل ثقة واعتداد ، دون أن يعبأ بكبار رجال الدولة ، وقرر دعوة الشعب لعقد مؤتمر مهمته شغل عرش الدولة ، ثم تحرك بقواته صوب العاصمة •

وعمل جوسنشاب من ناحيته على تقوية أسوار وأبواب طيسيفون ، وأحضر أردشير الى العاصمة ، ومعه كل أفراد الأسرة المالكة ، وزوجاتهم هذا بالاضافة الى كل الأموال التى بخزانة أردشير ، وكل ما أمكن جمعه من مؤن ودواب • وبلغ عدد القوات الفارسية التى كانت تحت قيادة سهرباراز حوالى ستة آلاف مقاتل ، وهى التى كانت تعسكر على حـدود الروم ، واتخـذ موقعه بالقرب من طيسفون ، وحاصر الأهالى هنـاك وقاتلهم •وضرب حصارا حول العاصمة ، بيد أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها • ولما وجد أنه ليس فى مقدوره الاستيلاء على المدينة بالقوة ، لجأ

(*) شهريار فى المراجع العربية •

الى الخديعة والمكر ، ودبر هجمات اتسمت بالتآمر والخداع ، وذلك بالاستعانة برجل يدعى كسرى الجديد ، وكان هذا الشخص يشغل منصب قائد حرس أردشير ، ومكنه هذا الشخص وآخرون من دخول العاصمة من أبوابها . ولما دخل جوسناب العاصمة القى القبض على القضاة ، وقتلهم ، واستولى على ممتلكاتهم ، واغتصب نساءهم . وبناء على أوامر سهرباراز قتل بعض الناس أردشير فى السنة الثانية من حكمه فى شهربهمان ليلا ، وهو فى قصر كسرى . وحكم أردشير لمدة سنة واحدة وستة أشهر .

وصار سهرباراز هذا ملكا بالرغم من أنه لم يكن سليلا للأسرة المالكة . غير أنه أصابته حالة من الاسهال ابان اعتلائه للعرش ، لذلك اضطر الى الجلوس على اناء لقضاء حاجته لأن شدة الأسهال لم تتح له فرصة الذهاب الى دورة المياه . ورفض رجل من اصطخر يدعى بوسفروخ بن ماه خورسذان دان وأخويه الاعتراف بسهرباراز ملكا ، وغضبوا لمقتل أردشير ، واغتصاب سهرباراز للعرش ، وفى غمرة احساسهم بالمرارة أقسموا أغلظ القسم ، بكل جدية ووقار ، على استباحة دم سهرباراز . وقد تصادف أن ثلاثتهم كانوا من الحرس الملكي . وكان من عادتهم الاصطفاف فى صفين ، ويحمل كل فرد منهم سلاحه ، وخوذته ، وترس ، وسيف ، ورمح فى يده ، وذلك عند قدوم الملك على صهوة جواده . وعندما كان يمر الملك بالقرب من أى فرد من الحرس الملكى كان على هذا الفرد أن يضع ترسه على حافة صهوة جواد الملك ، ويضع جبهته على حافة الصهوة ، كما يفعل عندما يسجد أمام الملك . وفى أحد الأيام سهرباراز ممتطيا صهوة جواده ، ووقف الاخوة الثلاثة ، فى صف واحد بجوار بعضهم البعض لتحيته . وما أن صار الملك وجها لوجه أمامهم حتى سارع الاخوة الثلاثة بالاجهاز عليه . وخر سهرباراز صريعا من فوق جواده ، ثم ربطوا حبلا فى ساقه ، وسحلوه . وساعدهم فى ذلك بعض كبار رجال الدولة . وأقاموا بوران Boran ابنة كسرى على عرش الفرس ، بعد أن حكم سهرباراز لمدة أربعين يوما .

اعتلت بوران ابنة كسرى برويز العرش ، الخ . وقالت يوم ارتقائها : « انني سأتحلى بطهارة الذيل ، وسأنشر العدل بين الناس » وصكت العملة باسمها ، وأصلحت الجسور المصنوعة من الأحجار والأخشاب وأعفت الشعب من الضرائب المتأخرة ، وبعثت برسائل صريحة الى أراضى المملكة متمنية السعادة للجميع ، وترحمت على الموتى من أفراد الأسرة المالكة . وذكرت فى تلك الرسائل أنها تأمل أن يكون الله عونا لها فى مهمتها ، وأن يسدد خطاها ، وأن يجنب البلاد خطر

الوقوع تحت رحمة الحاقدين ، وألا تتعرض قوات الجيش لتصرفاتهم الرعناء ، ونيران الفتنة ، وأن تسير البلاد بما يرضى الله وطلبت منهم أن يتحلوا بالطاعة ، وحثتهم على ابداء مظــاهر الولاء ومن ثم تضمنت خطاباتها كل ماهو ضرورى · وأعادت الصليب الخشبى الى امبراطورية الروم · واستمر عهدها حوالى سنة واحدة وأربعة أشهر ·

وحكم من بعدها رجل يدعى جوسناسبده Gusnaspdeh · الذى كان أحد أقارب برويز ، غير أنه لم يكمل شهرا على كرسى الحكم ·

ثم حكمت من بعده أزارميدوشت Azarmidocht ، ابنة كسرى برويز ، الخ · ويقال أنها كانت من أجمل نساء الفرس ، وقالت عند اعتلائها للعرش : « اننا سنسير على نهج والدنا كسرى المنتصر تمــاما بتمام ، واذا ما تجاسر أحد على معارضتنا ، فسنقتله على الفور » · وكان هرمز أهم كبار رجال الدولة فى ذلك الحين · فسعى الى طلب يد الملكة · وكان ردها عليه على النحو التالى : « ليس من اللائق أن تتزوج الملكة · ولما كنت قد فهمت من رســالتك أن هدفك من ذلك هو اشــباع رغبتك الجنسية معى ، لذلك عليك بالحضور الى فى ليلة كذا » · وبالفعل ذهب هرمز اليها فى الليلة المحددة · وكانت الملكة قد أبلغت من قبــل قائد حرسها بأن يكمن لهرمز فى المكان الذى حددته وأن يقتله فورا · وبالفعل تم تنفيذ ذلك ، وسحل هرمز فى فناء القصر · وعندما وجد رجال القصر جثــة هرمز ملقاة فى فناء القصر فى صباح اليــوم التالى ، قاموا بنقل الجثة · بيد أنهم أدركوا أنه لم يقتل الا نتيجة لسبب بالغ الخطورة · وفى ذلك الحين كان رستم بن هرمز ، والذى أرسله يزدجرد فيما بعد لمحاربة العرب ، يعمل نائبا عن والده فى خراسان · وعندما بلغه نبأ مقتل والده زحف بجيش كبير صوب العاصمة ، واستطاع سمل عينى الملكة · · وقال بعض المؤرخين أنها ماتت مسمومة · وكانت مدة حكمها ستة أشهر ·

العــلاقات بين
الامبراطورية البيزنطية والاسلام ابان الفترة
ما بين ٧٧٩ و ٨٣٠ م (١٢)

وواصل هارون (٢١) ســيره الى أن عســكر عند قرية فى أراضى الروم بها قلعة تدعى سامالو Samalu ، وظل محاصرا لهــا لمدة ثمانية وثلاثين يوما ، وضرب حصارا حولها الى أن شاء الله له فتحها ، وهدمها ، بعد أن مات سكانها من الجوع والعطش ، وبعد أن قتل وجرح عدد من المسلمين ·

وبين تلك الأحداث (٧٨٠ ـ ٧٨١ م) ، تلك الغارة التى شنها عبد القادر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ؛ وتقدم البطريق ميخائيل للتصدى له ومعه تسعين ألف مقاتل ؛ وكان البطريق تازاذ Tazedh من بين رجاله • غير ان عبد القادر خاف من تازاذ ، ومنع المسلمين من مقاتلته ، وأمرهم بالعودة • وأراد المهدى (٢١) قتله ، وبعد آن تشفع له آخرون ، أودع السجن •

ومن بين (أحداث سـنة ٧٨١ ـ ٧٨٢ م) ، كانت الغارة التى حدثت فى فصل الصيف بقيادة هارون بن محمد المهدى ، وكان والده قد أرسله ، فى يوم السبت الموافق الثامن عشر من جمادى الآخـرة ، للاغارة على أرض الروم ، وعين مولاه الربيع لاصطحابه ، ودخل هارون بلاد الروم ، وفتح ماجيدا Magida • وقابلته فرسـان نيقيتاس Niketas نبيل النبلاء ، وتصدى له زيد بن مزيـد • وانتظر زيـد بعض الوقت ، ثم انقض فجأة على نيقيتاس ، وسدد اليه ضربات موجعة ، الى أن الحق به هزيمة منكرة • وأجبر زيد الروم على الفرار ، واستولى على معسكرهم • واستطاع زيد دخول نيقوميديا Nikomedcia • وواصـل هارون تقـدمه الى أن وصل الى خليج البحـر المطل على القسطنطينية ، وكانت أوغوسطا Augusta ، زوجة ليو Leo ، هى التى تحـكم الروم ، فى ذلك الحين ، لأن ابنها كان طفلا ، وكان والده ، قد مات ، وكانت هى الوصية عليه • وتم تبادل الرسل والسفراء بينها وبين هارون بن المهدى ، بهدف تحقيق السلام وتسوية الخلافات ، ودفع فدية • ووافق هارون على مطالبها فى الوقت الذى فرض فيـه شروطه عليها فيما يتعلق بالفدية ، ووافقت على ماطلبه • وكان ثمن شراء السلام من هارون تسعة آلاف أو سبعة آلاف دينار ، وقامت الامبراطورة بسداد الأقساط فى شـهرى ابريل ويونيـه من كل عـام • وكانت الامبراطورة ترسل الى هارون الفدية ذهبا ، وفضة ، وسلعا تجارية • وتم التوقيع على هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وكذلك تبادل الأسرى ، وكان تحت يدى هارون ٦٤٣ ، أسيرا ، بعد أن قتـل من الروم ٥٤٠٠٠ ، بالاضافة الى موت ٢٠٩٠ أسيرا بالسجن • وغنم هارون عشرين ألفا من دواب الحمل ، وذبح مائة ألف من الماشية والأغنام التى كانت فى حوزة الروم • ووقع فى يدى هارون مائة ألف من القوات النظاميـة باستثناء التجار والقوات المتطوعة • وبيع الحصان بدراخما واحدة ، والبغل بأقل من عشرة درخمات ، والصديرى الحربى Cuirass ، بأقل من درخما واحدة ، وبيع عشرون سيفا بدرخما واحدة •

وابان أحداث سنتي (٧٨٢ ـ ٧٨٣ م) ، قطع الروم علاقات السلام مع هارون وكان غدرهم في شهر رمضان (١٧ مارس ـ ١٥ ابريل) من تلك السنة - وكانت الفترة مابين عقد اتفاقية السلام ، ونقضها اثنتين وثلاثين شهرا .

وفي تلك السنة (٨٠٢ ـ ٨٠٣ م) ، أرسل هارون ابنه القاسم في احدى الغزوات الصيفية ، ثم عينه واليا على العواصم .

وفي هذه السنة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم في شهر شعبان (٢٥ يوليو ـ ٢٢ أغسطس) ، وحاصر كورا Kurra (Koron) - وشدد الحصار حولها ، وأرسل العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، الذي حاصر قلعة سنان Sinan ، الى أن عاني جند العدو من البلاء الشديد . وعرض عليه الروم تسليمه ٣٢٠ من الأسرى المسلمين مقابل أن يرجع عنهم ، وقبل القاسم العرض وعاد بسلام .

وفي هذه السنة نقض امبراطور الروم اتفاق السلام المعقود بين سلفه والمسلمين ورفض مواصلة سداد ماتعهد الامبراطور السابق بدفعه لهم .

ويرجع سبب نقضهم لاتفاق السلام مع المسلمين (والمعقود في عهد الامبراطورة رينا Rina مع المسلمين) ، هو أن الروم ثاروا ضد هذه الامبراطورة وعزلوها ، واختاروا نقفور Nitephoros ، امبراطورا بدلا منها . وذكر الروم أن نقفور هذا سليل جفنة الغساني ، وأنه كان يشغل وظيفة مراقب مصادر الدخل الحكومي ، قبل اعتلائه العرش . ثم ماتت رينا بعد خمسة شهور من عزلها . ويقال أن الروم أعلنوا ولاءهم التام لنقفور ، ومن ثم كتب خطابا الى هارون قائلا له :

« من نقفور ملك الروم ، الى هارون ملك العرب ، أما بعد .. فان الملكة التي كانت قبلي ، أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها اليها ، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، والا فالسيف بيننا وبينك » (٢٣) .

وعندما قرأ الرشيد رسالة نقفور استشاط غضبا ، الى الحد الذى لم يجرؤ فيه أحد على النظر اليه ، أو أن ينبت ببنت شفة ، وابتعد عنه أهل بيته ، خشية أن تزداد حدة غضبه بفعل أى كلمة أو حركة من جانبهم ، وكان وزيره فى حيرة من أمره : هل يقدم له المشورة ؟ أم يتركه وحده لتأملاته العميقة ؟ ثم طلب هارون محبرة ، وكتب الرسالة التالية على ظهر رسالة نقفور :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم .. قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام » (١٤) .

ثم نهض فى اليوم نفسه وتحرك بجيشه الى أن وصل الى أبواب مدينة هرقلة ، وجمع الأسرى والغنائم ، وأخذ معه الأشياء النفيسة ، وذبح وخرب ، ودمر ، وحرق ، ومحا من الوجود أشياء كثيرة . فاضطر نقفور الى طلب عقد معاهدة يتعهد فيها بدفع اتاوة سنوية ، ووافق هارون على هذا الطلب . وعندما عاد هارون من غزوته ، ووصل الى الرقة ، خرق نقفور المعاهدة ، ونقض الاتفاق . ولما كان البرد قارسا ، لذلك كان نقفور واثقا من عدم عودة هارون للقائه .

ومن بين أحداث هذه السنة (٨٠٣ ـ ٨٠٤ م) ، حدثت غزوة ابراهيم بن جبريل فى الصيف ، واجتياحه بلاد الروم فى اتجاه طريق الصفصف Al Safsaf .

وخرج نقفور للقاء ابراهيم ، ولكن وصلت أنباء الى الامبراطور جعلته يغير اتجاهه ولم يلتق بابراهيم . غير أن نيقفور سقط فى كمين الجيش من المسلمين ، فأصيب بجراح ثلاثة ، ومنى بهزيمة منكرة . ويقال أن الروم خسروا فى هذا اللقاء ٤٠٧٠٠ مقاتلا ، بالاضافة الى أربعة آلاف من دواب الحمل غنمها المسلمون .

وفى هذه السنة (٨٠٤ ـ ٨٠٥ م) ، تم افتداء الأسرى بين المسلمين والروم ولم يبق مسلم واحد فى بلاد الروم دون دفع فديته . وقال مروان بن أبى حفصة فى ذلك : « وحصل الأسرى على حريتهم ، بعد أن كانوا فى سجون عالية الأسوار ، وبعد أن كانت سجون المشركين قبورا لأسرى المسلمين ! » .

وفي السنة بنفسها تحرك الروم لخوض غمار الحرب في أنازاربوس Anazarbos وكنيسة السوداء Kanisa Al Saudaa ، واجتاحوا البلاد ، وغنموا الأسرى واسترد أهالي المصيصة Mopsouestia كل ماكان في حوزتهم • وفيها استولى الرشيد على هرقلة ، وانتشرت قواته وفرسانه ، في بلاد الروم ، وبلغ عدد قوات هارون المنتظمة حوالى ١٣٥٠٠٠ مقاتل ، بالاضافة الى الاتباع ، والمتطوعين ، وغيرهم ممن لم يتم تسجيل عددهم •••

ثم ذهب هارون الى طيانا Tyana . وعسكر بها • ثم انتقل من هناك ، وترك عقبة بن جعفر قائدا بعد أن أمره باقامة موقع حربى في ذلك المكان • وأرسل نيقفور الى الرشيد الاتاوة المنتظمة عن نفسه ، وعن خليفته المعين ، وعن كبار رجال دولته ، وعن باقي أفراد الشعب في دولته ، وبلغت هذه الاتاوة حوالى خمسين ألف دينار ، دفع منها نقفور أربعة دنانير عن نفسه ، ودينارين عن ابنه ستوراكيوس Stauracius ، وأرسله مع اثنين من كبار رجال دولته ، بخصوص احدى سبايا هرقلة ، وكان نصه : « الى عبد الله ، هارون أمير المؤمنين ، من نقفور ، ملك الروم • سلام لك • أيها الملك لى رجاء عندك ، هذا الطلب لن يؤذيك في دينك أو في دنياك ، اذ هو موضوع بسيط ويسير ، أرجوك أن تسمح لابنى بالحصول على احدى السبايا ، وهي مواطنة من أهالى هرقلة ، كنت قد خطبتها كزوجة لابنى ، وأرى من الحكمة أن تساعدني في ذلك • والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » •

وطلب نقفور من هارون أن يرسل اليه بعض العطور واحدى خيامه • وأمر الرشيد بالبحث عن هذه الفتاة ، وتم احضارها اليه ، وبناء على أوامره ، تزينت ، وارتدت الثياب الفاخرة ، وجلست على عرش في خيمته التى كان يعيش بها ، ثم استلمها •• مبعوثا نقفور ، وأعطاهما هارون تلك الخيمة وكل ما بها من أوانى وأدوات اعداد الطعام ، وماكان بها من أثاث •

وأرسل هارون الى نقفور العطر الذى طلبه ، كما أرسل اليه بعضا من التمور والتين والزبيب والعسل الأسود وقام مبعوثو الرشيد بتقديم كل هذه الأشياء الى نقفور وتعهد نقفور بألا يهدم قلعة سنان أو غيرها • وتعهد الرشيد بدوره الا يعمل على استرداد هرقلة وتعهد نقفور بدفع ثمانمائة ألف دينار الى الرشيد •

ـ ٤ ـ

أوتو الفريزنجى

ولد أوتو الفريزنجى Otto of Freising ، حوالى سنة ١١٠٠ م فى أسرة ببنبرج Babenberg الألمانية العريقة ، وهو « المؤرخ المدقق الرائد فى القرن الثانى عشر » (١) . أما والده فهو ليوبولد الثالث ، حاكم النمسا ، ووالدته أجنس Agnes ، ابنة هنرى الرابع امبراطور ألمانيا . ونال أوتو مكانة عالية بارتباطاته العائلية من جهة والدته التى كان زوجها الأول فريدريك من هوهنشتوفين Frederick of Hohenstaufen دوق سوابيا . وهذه الصلة الاجتماعية جعلت أوتو أخا غير شقيق لكونراد الثالث Conrad III الذى تولى الملك (١١٣٨ ـ ١١٥٢ م) ، وعما لفريدريك بربا روسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠ م) ، الذى خلف كونراد وتزوج هنرى ، شقيق أوتو ، والذى كان دوقا للنمسا ، احدى الأميرات البيزنطيات . ويمكن أن تفسر صلة النسب تلك اهتمام أوتو الشديد بالتاريخ البيزنطى .

وفى سنة ١١٢٧ م أو ١١٢٨ م شد أوتو الرحال الى باريس للحصول على قدر من التعليم يؤهله لمنصب أسقف ، وهى وظيفة ضمنتها له علاقاته السياسية . (كان أوتو الابن الأصغر ، ومن المحتمل أنه تم اعداده لخدمة الكنيسة منذ نعومة أظافره) . ولم يذكر أوتو أسماء الذين تعلم على أيديهم فى باريس . على أن الاهتمام الذى أبداه تجاه أبلرد Abelard وجلبرت دى لابوريه Gilbert de la Porrée فى كتابته يوحى بأنه قد درس على يد الأول أو الثانى . وربما استمع أوتو أيضا الى محاضرة هوج السانفيكتورى Hugh of St. Victor ، لأنه تأثر بفكره بشكل واضح . وفى سنة ١١٣٣ م . وبعد أن قضى أوتو خمس سنوات فى

باريس ، شد الرحال صوب موطنه ، بيد أنه قطع رحلته فى دير السسترشيان ، فى موريموند Morimond ، فى شرق شسامبين Champagne • ولقد تأثر أوتو بالطابع الدينى للجماعة لدرجة أنه فضل البقاء بين الرهبان الى أن اختاروه رئيسا للدير بعد عدة سنوات • وفى سنة ١١٣٧ م تمت رسامته أسقفا على فريزنج ، فى غرب بافاريا •

ويبدو أن أوتو قد زار ايطاليا فى نهاية سنة ١١٤٥ م ، وتعرف على البابا أوجينيوس الثالث Eugenius III • واصطحب أوتو أخاه غير الشقيق كونراد الثالث فى الحملة الصليبية الثانية التى جانبها التوفيق (١١٤٧ — ١١٤٩ م) ، وعلى الرغم من أنه لم يكتب تاريخا عن تلك الحملة الحربية — وفسر سبب ذلك أن هدفه ، « ألا يكتب عن مأساة ، وانما يكتب عن تاريخ يبعث على البهجة » (٢) • لذا وصف أحداثا عرضية عديدة ، بما فيها الفيضان المفاجىء الذى أغرق جزءا من الجيش الصليبى ، الذى كان على مقربة من القسطنطينية • وكان أوتو من بين القلة المحظوظة التى نجحت فى الوصول الى بيت المقدس ، ودخلت المدينة فى يوم أحد السعف ، فى الرابع من ابريل ، ١١٤٩ • ولا يوجد سوى النزر اليسير عن تاريخ حياته • وتذرع بالمرض سنة ١١٥٤ م ولم يصطحب فريدريك الأول برباروسا الى ايطاليا • وبعد ذلك بأربع سنوات ، انتابه بعض الاحساس بدنو أجله ، فقام بزيارة دير موريموند • ومات هناك فى الثانى والعشرين من سبتمبر سنة ١١٥٨ م ، ودفن بالقرب من المذبح العالى فى كاتدرائية فريزنج •

وتحت أيدينا الوصف الودى عن شخصية أوتو ، الذى كتبه رهوين Rahewin ، سكرتير الأسقف ، والذى قام باكمال (الأعمال the Deeds) • لم تكن ثقافته عادية فى مجال الآداب ، باعتباره الأول أو من بين أوائل أساقفة المانيا • ففى الحقيقة اذا ما استثنينا المامه التام بالأسفار المقدسة ، والتى كان له فيها باع طويل من ناحية معرفة معانيها الموجزة والخفية ، فقد استطاع من الناحية الواقعية ، أن ينقل الى بلادنا أروع انجازات الفلاسفة ، وكتب أرسطو : عن الموضوعات Topics والتحليل المنطقى Analytics والمناظرات Elenchics • وبسبب ذلك ، وبالاضافة الى انجازاته الأخرى ، ووثوقه من معرفته للشئون الدنيوية ، ومن فصاحته ، فانه كثيرا ما كان يتحدث ، بكل اعتزاز ، عن المسائل الكنسية أمام الملوك والأمراء • ولقد أكسبته سمعته الطيبة الناجمة عن كل ما تقدم ذكره ، المديح والاطراء ، على أن هذا الثناء — كما يحدث فى العادة — أثار قدرا من الحقد والحسد ليس بالقليل ، ومع ذلك فقد استطاع تجنب مكائد خصومه ، والنجاة من تعليقاتهم ، دون

أن يصاب بأذى ودون أن يهتز قيد أنملة ، اذ كان رجلا فاضلا بكل معانى الكلمة » (٣) ٠

ويرتكز تفوق أوتو ككاتب للتاريخ على مؤلفين ٠ وأشهرهما كتاب تاريخ المدينتين History of the Two Cities (٤) ، وهو عبارة عن حولية تتحدث عن تاريخ العالم وتبدأ منذ بدء الخليقة حتى سنة ١١٤٦ م ٠

وقام أوتو بكتابة هذه الحولية فيما بين سنة ١١٤٣ و ١١٤٧ م أما الكتاب الثانى فهو أعمال فريدريك برباروسا The Deeds of Frederick Barbarossa الذى بدأه سنة ١٠٧٦ م وتوقف عند سنة ١١٥٨ وهى السنة التى مات فيها أوتو ٠ وقام سكرتيره راهوين Rahewin باضافة تكملة له حتى وصل به الى سنة ١١٦٠ م ٠ على أن مدى صحة ومصداقية العديد من الأبحاث الفلسفية المنسوبة لأوتو ، وكذلك ما ورد عن تاريخ النمسا ، كان أمرا مثيرا للشك الى أبعد مدى ، مما دفع الباحثون الى تجاهلها على نحو متعارف عليه ٠ وكان أوتو متمكنا من اللغة اللاتينية ، على الرغم من أنه لم يكن ملتزما بالأنماط التقليدية ، اذ كان أسلوبه واضحا وسلسا ٠ وباستثناء الاقتباسات العرضية من أحد المؤلفين التقليديين ، كان أسلوب أوتو خاليا تماما من كل زخرف للصور البلاغية أو التباهى بسعة الاطلاع ٠ ومع ذلك ففى مقدمة كتابة عن الانجازات the Deeds ، والتى وجهها الى ابن أخيه ، تمسك أوتو بميزة الارتفاع فوق المستوى العادى للسرد التاريخى ، وكتب بمستوى أعلى ليكون ملائما للتفكير التأملى :

« ولا يمكن اعتبار ذلك تناقضا مع عمل تاريخى من هذا النوع اذا ما كان الأسلوب رفيعا ، عندما تفرض فرصة الاستطراد نفسها ، من السرد البسيط للتاريخ الى الأرفع — وأعنى بذلك الى المستويات الفلسفية الرفيعة ٠ ولم تتعارض هذه العادة عينها مع التفوق المميز للامبراطورية الرومانية فى ترصيع المؤلفات البسيطة بما هو أكثر رفعة فى المستوى ٠ اذ كثيرا ما قام لوكان Lucan وفيرجل Vergil والكتاب الآخرون الذين كتبوا عن المدينة the City بالارتقاء بأسلوبهم فى التعبير بغية اظهار بعض من الأسرار الأساسية للفلسفة ؛ وعند الكتابة عن الأحداث التاريخية ، والقصص الخرافية ، وسواء أكان الأمر يتعلق بالرعاة والمزارعين أم بالأمراء وكبار الاقطاعيين ٠ ولهذا فان أولئك الذين تكمن متعتهم فى الاستماع الى سجل الانجازات ، وكذلك كل من يمدهم صفاء التفكير العميق بالبهجة والسرور ، يجدون أنفسهم وقد جذبهم هذا الكتاب الى قراءته ودراسته » (٥) ٠

وقد يتساءل المرء عن كيفية استطاعة أسقف عمل بكل جد وكد في الشئون الأبرشية والملكية تدبير وقت لكتابة التاريخ • وقد تكمن الاجابة عن ذلك في ايمان أوتو العميق ، وفي فلسفته عن الحياة القائمة على الايمان بالغيب • واعتاد أوتو على أن يذكر القارىء بذلك بصفة مستمرة • ولا ريب أن أتو وجد في الرسالة الروحية لجماعة الرهبان السسترشيان جاذبية كبيرة ، وهو الشيء نفسه الذى حدث للكثيرين من رجال تلك الفترة عندما وصل ذلك النظام الديرى الى أوج شعبيته • وانخرط أوتو في سلك الرهبان السسترشيان في موريموند ، وتولى مسئولية الدير ، وبعد أن ترك الدير عاد اليه حيث لفظ أنفاسه الأخيرة هناك • ولابد أن أوتو اعتبر نفسه على الدوام أحد الرهبان السسترشيان. وتبلور ايمان الراهب الغيور من جماعة السسترشيان في أن يفعل المرء في الحياة الدنيا كل ما يؤهله للنعيم في الآخرة • ولابد أن هذا الايمان الراسخ قد دفع أوتو الى كتابة التاريخ • وفاقت الفكرة القائلة بأن هذا العالم مآله الى زوال بكل ما يحتويه من آلام ، والقائلة بحتمية الموت والحساب ، كل الأفكار التى وردت في كتابه عن تاريخ المدينتين الذى يعتبر أهم مؤلفاته • وعلى ذلك فبعد أن كتب عن الدمار والخراب الذى لحق بمدينتى قرطاجة Carthage وكورنثه Corinth القويتين والمزدهرتين كتب متأملا : « ان المحن والبلايا التى أوردنا ذكرها كافية للبرهنة على أن دوام أحوال الانسان من المحال • وطالما أن الكثير قد قيل عن اهتمامات المواطنين بالشئون العالمية ، فانى اعتقد أنه من الواجب علينا أن نهرع الى الانضمام الى زمرة المواطنين الذين يهتمون بالمسيح وبالعالم المسيحى • وعلى ذلك أود أن أذكر القارىء ، أنه كان لزاما علينا أن نكتب عن صراعات هذا العالم ، لكى تظهر بشاعة الأحداث المتعاقبة ، وان نظرتنا المتعقبة الى تلك الأحداث تدفعنا الى الاتجاه صوب سلام مملكة المسيح والسعادة الروحية التى ليس لها نهاية » (٦) •

ومرة ثانية ، وبعد أن ذكر أوتو أن العذراء بوبيلاى Popilia عذراء فيستا (*) عوقبت بالرجم حتى الموت لثبوت علم عفتها ولحقت في الوقت نفسه تقريبا اكسركسيس Xerxes هزيمة نكراء على أيدى اليونانيين ، فعلق أوتو على ذلك بقوله : « انه لمن الممل أن يتحدث المرء هنا عن شبكة معقدة من الكوارث أو البلايا ، بيد أنى أود أن أكتب باختصار لأشير الى شقاء البشر » (٧) •

(*) عذراء فيستال Vestal Virigin هى احدى الفتيات اللاتى اقسمن على عدم الزواج ، والتفرغ للعمل على استمرار النار المقدسة موقدة فى معبد فيستا Vesta ربة الموقد واهل البيت عند الرومان ـ المترجم •

واعتقد أوتو أن تلك الآلام الموجعة بارادة الله • ففى مقدمته عن المدينتين Two Cities ، وبعد أن قدم قائمة للمصادر الأساسية التى رجع اليها ، قال : « سيجد القارىء الفطن فى تلك الكتابات ، مادة تاريخية أقل بكثير من ذكر المآسى المؤسفة الناجمة عن الكوارث المهلكة • ويعتقد أن كل ذلك حدث بالتدبير الالهى الحكيم • وفى الوقت الذى يتكالب فيه الناس على الحياة الدنيا الفانية ، نجدهم وقد شعروا بالزهد فيها ـ بفعل تقلب أحوال حياة المرء بين الخير والشر ـ والابتعاد عن متاع الغرور واللهو ، والاقبال على معرفة الخالق » (٨) •

ومن ناحية ثانية كان أوتو حريصا على أشباع الفضول التقليدى عند الكثيرين فيما يتعلق بالماضى فكتب يقول : « أخذت على عاتقى أن أذكر فى كتاب المدينتين أنه فى استطاعة الباحث المدقق والمجتهد أن يجد سجلا لأحداث الماضى خاليا تماما من أى غموض » (٩) •

وأعلن أوتو أيضا أن محاولته ثنى أصحاب الطموحات العريضة عن شن الحروب كانت دافعا له للكتابة عن الأحداث الماضية • ولذلك كتب عن : « الحروب والممالك » المتداعية ، ليس بهدف تأليب البعض على غيرهم بذكر الأمثلة عن أولئك الذين تصرفوا بشجاعة ، وانما لكشف الستار عن أهوال الحروب ، والأخطار الناجمة عن الأحوال السياسية المضطربة » (١٠) • وبالاضافة الى ذلك ، فقد حظى الدافع الذى جعل الناس يكتبون التاريخ ، على موافقته عليه والعمل من أجله : « وهذا على ما أعتقد ظل هدف كل الذين كتبوا التاريخ من قبلنا : وهو الثناء على الانجازات المجيدة التى قام بها الشجعان من أجل تحريك قلوب البشر تجاه الفضيلة ، واسدال الستار على التصرفات الغاشمة ، أو ذكرها بهدف تحذير الناس من الاقتداء بها ، اذا لم يكن هناك مفر من ذكرها » • (١١)

وعندما أهدى أوتو كتاب المدينتين الذى ألفه ، الى الامبراطور فريدريك ، الذى كان قد طلب نسخة من ذلك الكتاب ، أولى أوتو اهتماما بالغا بمسألة الدافع على الكتابة التاريخية ، اذ قال : « لقد أطعت أوامرك عن طيب خاطر وبكل سرور ، لأنى أتفق معك فى أهمية رغبتك وحرصك على معرفة ما فعله الأباطرة والملوك فى الأزمنة الماضية ، وان معرفة ذلك ليس بهدف احكام السيطرة على الدولة بقوة السلاح ، وانما بتطويع القوانين وتطوير التشريعات أيضا » •

ولفت أوتو نظر فريدريك باعتباره أحد الملوك بأن الكلمات التالية التى وردت فى الكتاب المقدس هى فى الواقع موجهة اليه مباشرة للعمل

على الأخذ بها : « أيها الملوك ، أيها القضاة ، اسمعوا ، وأنصتوا ، يا من تتحكمون في مصائر البشر ، وتفاخرون بأنفسكم أمام كثير من الأمم ، ان الله العلى القدير سيحاسبكم على أفعالكم ، لأنه هو الذى منحكم السلطة والقوة » . (١٢)

وكان أوتو صريحا عند ذكره الدافع الذى قاده الى كتابة مؤلفه عن المدينتين ، والذى يعتبر أهم أعماله .

وكان هدفه من ذلك الكتاب جعل فريدريك والحكام الآخرين على قدر من المعرفة عند أداء واجباتهم اليومية ، وضرورة أن يتذكروا على الدوام أنهم الى زوال . ولابد أن الامبراطور فريدريك وجد فى كتاب المدينتين الشيء المفيد . « ان معرفة التاريخ .. ستكون مفيدة وضرورية لجلالتكم ، لأنه اذا ما أخذت بعين الاعتبار انجازات الشجعان وارادة الله وجبروته ، الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، والذى بيده الأمر ، فانك ستتقى الله مادمت حيا ، وستنعم بالخير ، وستظل حاكما إلى ما شاء الله من السنين الكثيرة) . (١٣)

وبرغم هذه الحياة التى يحاول فيها الملك اتقاء غضب الله فى كل تصرفاته ، فانه لا يمكن أن ينجم عنها سوى القليل من السعادة ، والكثير من الشقاء . ولهذا السبب يجب ألا ينسى الملك نهايته الحتمية . « وعلى ذلك التمس احاطة جلالتكم علما أننى كتبت هذا التاريخ ، وقد امتلأت نفسى بالاحساس بالمرارة نتيجة للتمرد والفتن التى سبقت عهد جلالتكم ومن ثم فانى لم أكتف بذكر الأحداث وفقا لتسلسلها الزمنى فحسب ، وانما عملت على صياغتها على نمط مأساة ، وذكرت مظاهرها المحزنة ، وبذلك انتهت بصورة غير سعيدة ، فى كل قسم من الكتب حتى الكتابين السابع والثامن . أما الكتب الأخيرة فقد كان الطابع الغالب عليها هو الحديث عن راحة النفس وحياة النعيم يوم الحساب » . (١٤)

وإذا ما انتقلنا الى البحث فى مؤهلات أوتو ككاتب للتاريخ ، فان علينا أولا دراسة المصادر التاريخية التى استقى منها ما قدمه من معلومات اذ كشفت الصفات المميزة لتلك الكتب ، وكذلك الأهداف التى صدرت من أجلها ، عن مدى سعة أفق أوتو فى التفكير ومدى موضوعيته فى البحث ، ومدى حرصه على أن يكون دقيقا فى كتاباته التاريخية . وفى بداية مقدمة الكتاب الأول عن المدينتين ، أحاط أوتو القارىء علما بأعمال الكتاب السابقين الذين رجع اليهم ، ومنهم ، « بومبيوس تروجوس Pompeius Trogus ، وجوستين Justin ،

وكورنيليوس Cornelius (تاكيتوس Tacitus) ، وفارو Varro ، وأوسيبيوس Eusebius ، وجيروم Jerome ، وأوروسيوس Orosius وجوردان Jordanes ، بالاضافة الى عدد آخر قد استغرق وقتا طويلا لسرد أسمائهم » (١٥) ٠

أما بالنسبة للكتابة عن القرن الأقرب للفترة التى عاشها أوتو فقد اعتمد على حولية فروتولف من ميشيلسبرج Frutolf of Michelsberg (ت١١٠٣) ، وهى الحولية التى قام اكهارد من أورا Ekkehard of Aura باكمالها حتى سنة ١١٠٦ م ، وربما كان أوتو يعرف اكهارد ٠ وذكر باستمرار أنه اعتمد على مؤرخين غير مسيحيين ، من أمثال سيوتونيوس Seutonius ... ، ويوسفيوس Josephus ٠ واعترف أنه اعتمد على مؤرخى أوائل العصور الوسطى ، أروسيوس Orosephus ٠٠ والقديس أوغسطين St. Augustine » سرت على نهج أوغسطين ، وأورسيوس فى كتابة هذا العمل الأدبى ، واغترفت من منهلهما الفياض كل ما هو وثيق الصلة بفكرتى وهدفى ٠ فقد عالج الأول نشأة وتقدم مدينة الله المجيدة والمناطق المحيطة بها المباركة من الله بأسلوب قوى وبليغ ، موضحا كيف ذاع صيتها بين شعوب العالم ، وذاكرا كيف ظل أهلها أو حكامها فى موضع متفوق عبر عصور حكام وشعوب العالم ٠ أما الثانى ، فقد رد على أولئك الذين يتحدثون بثرثرة لا قيمة لها ، عندما فضلوا العصور القديمة على العصور المسيحية فكتب تاريخا قيما عن التغيرات التى تعرضت لها الحضارة الانسانية وعن الحروب وأهوالها ، وعن تبدل العروش منذ نشأة العالم حتى عصره ٠٠ » (١٦)

وعلى الرغم من أن المصادر التى توفرت لأوتو كانت كافية لاعداد تاريخ عام للجنس البشرى ، فان الهدف الذى حدده لنفسه جعله لا يهتم بالكثير مما كان مكتوبا ٠ وكان هدفه الرئيسى أن يعلم قراءه ، أما عملية الأخبار فتأتى فى المرتبة الأدنى » وكانت أمنيته اقناعهم بأن هذه الدنيا متاع الغرور ، وليس بها سوى البؤس والشقاء ، برغم ما تتعطف به من لحظات من السعادة العابرة على المتعلقين بها ٠ وعلى ذلك فعندما واصل الكتابة مبتدءا ببدء الخليقة ، قام بالاستطراد فى ذكر الأحداث التى اعتقد أنها تخدم فكرته الرئيسية ، فى الوقت الذى مر فيه مرور الكرام على الأحداث التى لا تحمل أى مغزى : وكثيرا ما اختتم أوتو موضوعا فجأة متعللا بأن من سبقه من الكتاب قد أوفوه حقه فى البحث، وأنه لا حاجة له بالاستطراد فيه ٠ بل ان أحداث الامبراطورية الرومانية عالجها » باختصار شديد ٠٠٠٠ بعد أن سرد كتاب كثيرون أحداثها بأسلوب بليغ وبتفصيل تام » ٠٠ (١٧)

وبرغم ذلك ، ففي بعض الأوقات ، ذكر أوتو معلومات تاريخية ، يصعب على القارىء أن يجد مبررا لوجودها سواء من ناحية الأهمية التاريخية أم من ناحية علاقتها بالفكرة السامية عن المدينتين Two Cities ومثال ذلك تلك الحادثة المتعلقة بالطاغية الصقلي فاراليز Pharalis .
ولا شك أن أوتو وجد في هذه القصة باعثا على التسلية ، وأنه كان يأمل في مشاركة القارىء له في هذا الرأى ، وأن لها مغزى : فكتب يقول : « قام فاراليز بتعذيب الأبرياء باتباع أساليب تعذيب متعددة ، وأراد بيريلوس Perillus وهو أحد العمال المشتغلين في المصوغات البرونزية . أن يتقرب الى الطاغية فاراليز وذلك بأن قدم اليه تمثالا مجوفا على شكل ثور مصنوع من البرونز . وزود التمثال ببلف يسمح بدخول من أراد الملك تعذيبه . وعند اشعال النيران تحت الثور البرونز ، يصدر الشخص المعذب بداخله صوتا يشبه خوار الثور . وتقبل الطاغية هذا التمثال بكل ارتياح ، غير أنه أمر بادخال مخترعه في التمثال المذكور وجربه فيه عقابا له على ما اقترفت يداه » (١٨) .

وما أن بدأ أوتو الكتابة عن عصره حتى شعر بأنه أكثر تمكنا من القيام بدوره كمؤرخ . ويبدو أنه اتفق مع هؤلاء الكتاب القدامى الذين اعتقدوا أنه من المناسب ترك تدوين الأحداث التاريخية للمعاصرين لها .

« يقال انه كان من عادة القدماء أن يقصدوا حق تدوين الأحداث على من أدركها بحواسه أثناء وقوعها . لذلك أصبح من العادة اطلاق كلمة « تاريخ » المشتقة من كلمة hysteron والتى تعنى باليونانية « يدرك » لأن كل واحد منهم ستكون لديه المقدرة على وصف الأحوال التى شاهدها وسمع عنها بتعمق أكبر . كما أن استغناءه عن الآخرين يجنبه التخبط هنا وهناك في سعيه وراء الحقيقة حيث يتصادم شعوره باللهفة مع الشك والواقع أن من الصعب أن يركن المؤرخ لرأى شخص آخر كما لو كان عاجزا عن التحرى بنفسه » (١٩) .

وعندما وصل أوتو في كتابة تاريخه الى الحديث عن أحداث سنة ١١٠٦ م . أعلن بقدر من الارتياح أنه بدأ يكتب معتمدا على نفسه . « ومن قبل هذا التاريخ قمت بالرجوع الى أوروسيوس ، ويوسوبيوس ، والى من كتب بعدهما حتى وقتنا هذا . وبعد هذا التاريخ قمنا بالكتابة اعتمادا على ما شاهدناه بأنفسنا أو سمعناه من أهل الثقة ، حيث كانت الحوادث حديثة العهد في ذاكرتهم » (٢٠) .

وعند استخدام أوتو للمصادر التاريخية أبدى قدرا ملحوظا من الموضوعية وبعد النظر بالنسبة لغيره من كتاب التاريخ في العصور الوسطى • واذا ما بدا آنه يثني على قوة الألمان الا آن ذلك بأسلوب رقيق للغاية لدرجة أنه لم يضايق أحاسيس القارئ - الآ أنه لم يكن غافلا على الاطلاق عن عيوبهم ونقائصهم • فالملاحظة التي أنهى بها بحثه عن الطريقة التي عزل بها أوتو الأول Otto I الألماني البابا حنا الثاني عشر John XII توضح رغبته في أن يظل على الحياد ؛ اذ كتب يقول : « وسواء أكانت كل تلك الأمور قد تمت بطريقة قانونية أم لا فليس الهدف من هذا الكتاب هو اصدار الأحكام على ما قد حدث ، وانما قد أخذنا على عاتقنا أن نكتب عما قد حدث فقط » • (٢١)

وأبدى أوتو موضوعية مماثلة تنم عن بعد نظر عند ذكره لمن كان يعرفهم من الشخصيات المعاصرة له • ففي كتابته عن الدعوى القضائية التي أقامها برنارد من كليرفو Bernard of Clairvaux وعدد من الكهنة ضد جلبرت دي لابوريه Gilbert de la Porreés رفض أوتو الانحياز الى أحد الطرفين • وعندما نجح جلبرت في نهاية الأمر في تبرئة نفسه من تهمة الخروج على التعاليم الكنيسية المتفق عليها ، علق أوتو على ذلك بقوله : « وسواء أكان الأب Abbot كليرفو السالف الذكر قد تم خداعه في هذا الأمر ، نتيجة لسهولة انقياد الانسان باعتباره بشر ضعيف ، أم أن الأسقف المثقف واللبق تمكن من الافلات من الادانة الكنسية عن طريق اخفاء وجهة نظره بدهاء شديد ، فان مهمتنا ليست ابداء الرأى أو الفصل في الدعاوى القضائية » (٢٢) •

وباعتبار كون أوتو أسقفا وتابعا ملكيا فكثيرا ما وجد نفسه في غاية الاهتمام بالخلاف الذي أثاره المؤيدون لعلو مكانة حقوق الكنيسة أمام حقوق الدولة والمعارضون لذلك الرأى • ومن أهم الأسس التي استند اليها كبار رجال الكنيسة في ادعاءاتهم ما عرف باسم هبة قنسطنطين Donation of Constatine ومنذ القرن الخامس عشر اعتبر المؤرخون تلك الوثيقة مزورة • وفي عصر أوتو اعتبر كثير من الناس الوثيقة صحيحة ولا ريب فيها ، ووافق بعضهم على صحتها وان كانوا قد أنكروا سريان مفعولها ولم يرتب في صحتها سوى القليل منهم • وكتب أوتو عن هذا الموضوع بحذر شديد • وأشار أوتو الى أنه ما أن منح قسطنطين المسيحيين حرية العبادة ؛ « حتى قام ذلك الامبراطور برفع مكانة الكنيسة الرومانية الى حد كبير ، اذ سلم القديس سيلفستر Saint Sylvester بابا روما ، شارة السلطة ، ثم ذهب الامبراطور

الى بيزنطة وجعلها عاصمة لدولته . ولهذا السبب ادعت كنيسة روما أن الممالك الغربية تخضع لسيادتها ، على أساس أن قنسطنطين نقل السيطرة عليها الى كنيسة روما ، والدليل على ذلك لم يتردد في تحصيل الاتاوة المنتظمة الدالة على التبعية — الا من الممالك الفرنجية . بيد أن المؤيدين لسيطرة الامبراطورية على كل أملاك الدولة أكدوا على أن قنسطنطين لم يسلم الممالك الغربية الى بابوات روما وفقا لمفهوم خضوع تلك الممالك لسيطرة كنيسة روما ، وانما تم ذلك ابتغاء مرضاة الله الذى شاءت قدرته أن تعينهم كهنة — باعتبارهم كهنة الله جلت قدرته — وعلى أمل أن تحل عليه البركة ، وأن تحرسه العناية الآلهية بفضل صلواتهم . وقدم أصحاب هذا الرأى الدليل على أن قنسطنطين نفسه قسم مملكته ، وأعطى أحد أبنائه القسم الغربى ، وبذلك كانت روما ودول الغرب كلها من تصنيف ثيودوسيوس Theodosius ومن جاء من بعده على التوالى ، سواء أكانوا أمراء خاضعين لتعاليم الكنيسة أم غير خاضعين لتلك التعاليم heretics ويقال أنه لم يحدث أن قام حاكم ورع بتسليم أبنائه ما سبق ان قدمه للكنيسة ، أو حاول حاكم كاثوليكى الاستيلاء على أملاك تابعة للكنيسة على أنه ليس الهدف من هذا الكتاب العمل على حسم كل تلك الأمور حسما قاطعا » (٢٣) .

ومن المتوقع أن يكون القارىء متلهفا على معرفة كيفية تقديم أوتو لسرده التاريخى عن أشهر حادثة شغلت اهتمام المانيا والبابوية فى العصور الوسطى ، وأعنى بها المعركة التى حدثت بين البابا جريجورى السابع Gregory VII وهنرى الرابع ؛ ولا سيما أن أوتو كان أسقفا من ناحية ، وحفيدا لملك المانى من ناحية ثانية . لكن الواقع يقول أن أوتو كان مؤرخا . اذ ألزم نفسه بتقديم وصف واقعى لكل ما اعتقد أنه قد حدث بالفعل . (٢٤) . واذا كانت المبادىء التى تحكمت فى قلمه كمؤرخ جعلته لا يبدى أى تقييم للحادثة ، فانه لم تكن لديه الرغبة فى اغضاب السلطات الكنسية أو أقاربه . ومن بينهم الامبراطور فريدريك بربار وسا ، الذى كان ولابد أن يطلب منه التزام الصمت » . وفى عهد الإمبراطور هنرى تدهورت أحوال المملكة تدهورا شديدا ، وذلك لتمرد الغالبية العظمى من النبلاء على ملكهم ، وغمرت حمامات الدم ، كل أراضى المملكة تقريبا .. للخراب والدمار ، فقرر البابا جريجورى السابع اشهار سيف الحرمان الكنسى فى وجه هنرى بعد أن شق كل التابعين له عصا الطاعة . فأثار قرار البابا المزيد من السخط والاستياء فى كافة أنحاء الامبراطورية ، اذ لم يحدث من قبل أن صدر مثل هذا القرار ضد أى امبراطور رومانى . لذلك دعا الامبراطور فى وقت واحد ،

عددا كبيرا من الأساقفة من ايطاليا ، وبلاد الغال ، والمانيا ، الى الحضور الى مدينة بريكسن Brixen في بافاريا Bavaria الواقعة في وسط البرانس Pyrenees (٢٥) ، بالقــرب من وادى ترنت Trent حيث عقد مجمعا كنسيا شهيرا . وعندما وصل الجميع شكا الامبراطور بمرارة من المظالم التى صبتها الكنيسة الرومانية فوق رأسه ، واعنى بذلك ، انه ، وبدون استشارته (وهو الذى كان ملكا وشريفا رومانيا Patrician ويتحتم أن تكون له الكلمة الأولى عند اختيار أســقف مدينته) ، قام سكان روما بأنفسهم باختيار كبير الكهنة Pontiff على الرغم من أن والده الامبراطور قام بتعيين كثير منهم ، ودون انتخاب على ما يبدو وصارت مشاعر الجميع أكثر استعدادا للتعاطف مع شكوى الملك والانقلاب على الكنيسة الرومانية ، حيث أن الأمر لم يقتصر على عامة الشعب الذين ثاروا لاعتبارات الشرف المدنى ، وانما امتــد ليشــمل الأساقفة الذين حرضهم رجال الدين التابعين لهم ، وبخاصة بعد أن أمر البابا نفسه بمنع زواج رجال الدين فى ذلك الحين ، وهــكذا أعلن الجميع تأييدهم لمطالب الملك ، وعلى ذلك أعلن الجميع رأيهم وذلك بالغاء التعيين السابق ، وتم اختيار جيوبرت Guibert رئيس أساقفة رافنــا Ravenna وأطلق عليه اسم كليمنت Clement (أو ديمنت ! Dement) (٢٦) وتم اختيـــاره أسقفا لمدينة روما بموافقة الملك ، أما جريجورى السابع ، فقد تم خلعه بعــد أن وصفوه بأنه راهب مخــادع ومضلل ودجال ... وبعد ذلك حشد الملك جيشا كبيرا وغزا ايطاليا . وما أن وصل هنرى فى تقدمه الى مدينة روما حتى قام بعزل جريجورى وسط استحسان الشعب الرومانى لذلك العمل ، وأجلس مكانه جيوبرت على الكرسى البابوى وتسلم منه لقبى امبراطور وأغسطس . ولما كان جريجورى ، وهو الكاهن المبجل ، يعانى من الاحساس بالاضطهاد ، لذلك انتقل الى أقاليم توسكانى Tuscany الجبلية الأكثر أمنا ، ومنهــا الى أراضى الكونتس ماتيلدا Countess Matilda احدى قريبات الامبراطور . وبقى جريجورى هناك لفترة من الوقت ، وظل يكرر قرار الحرمان الذى أصدره ضد الامبراطور هنرى فى خطابات أرســلها الى أماكن كثيرة ، وحرض أمراء المملكة ضد الامبراطور . ثم ذهب الى كمبناى Campania وأبولاى Apulia ثم اتجــه الى احــدى مدن النورمان التى صارت تحت أيديهم فى عهد قائدهم روبرت جوسكارد Robert Guiscard وظل جريجورى هناك الى أن وافته المنية » (٢٧) .

وعلى الرغم من أن أوتو قد اتخذ موقف الحياد من باب الحكمــة فى الأمور البالغة الحساسية كالتى ذكرناها بعــاليه ، فانه كان مدركا

تمـــاما لمسئوليـــاته كمـؤرخ يتحتم عليـه أن يقول الحقيقـة • واورد ذكـر تفصيـلات كثيرة فى خطـاب ارسلـه الى رينولد من داسـبيل Rainald of Dassel مستشار فريدريك الأول بربا روسا • وطلب أوتو من رينولد أن يكون متعاطفا معه عند تفسيره لبعض الأمـــور التى ورد ذكرها فى كتاب المدينتين Two Cities التى قد تسبب أى استياء عند الملك • فقد كتب يقول : « يكتب المؤرخون وفقا لمنهج محــدد اذ يتركون الغث ويتجنبون ذكر الأكاذيب ، وينتقون المعلومة الصـــادقة ويعرضونها بكل دقة • لذلك أرجو ألا تتضايق سموكم أو (كمـا سبق أن قلت قبل ذلك) أو ألا تفسر الأمر على نحو غير مستحب أمام الامبراطور اذا ما ظهر فيما كتبته من مادة تاريخية وجود موضوعات محددة تحدثت عن نقد لأسلافه أو أجداده على أن وضع الحقيقة موضع الاحترام بالقدر الذي يجعل من الأفضل عرضها بين الناس خير من الغاء عمل المؤرخ عن طريق اخفاء رأى غير مستحب بهدف طمس الحقيقة » (٢٨) •

والواقع أن هـذا أسـلوب رائع جدير بمؤرخ شجاع • ومن المحتمل أن أوتو لم يكن على هذا النحو من الالتزام بصفة دائمة • فعلى سـبيل المثال ، لم يذكر فى كتابه عن الأعمال The Deeds الأحداث التى جرت فيما بين ١١٢٧ ــ ١٢٣٥ م والتى لم تضف سـوى القليل من المجـد والفخار لبيت هوهنشتاوفين Hohenstaufen (٢٩) وبرغم ذلك فانه فعل هذا الأمر فى الكتاب الذى كتبه خصيصا لقريبه فريدريك بربا روسا ، ويستطيع الناقد المدقق أن يؤكد على عدم ذكره معلومات كان من الممكن أن تكون مثيرة للغضب والاستياء • وعلى وجه العموم يستطيع المرء أن يجد قدرا من الصحة لا يستهان به عند أوتو : « اذ لا يستطيع أحد أن يتهمنى بالكذب فى الأمور التى ــ اذا ما قورنت بالعـــرف السائد فى الوقت الحالى ــ قد يصعب تصديقها ، اذ أنها مازالت حديثة العهد فى ذاكرتنا حتى وقتنا هذا وهى التى قمت بالكتابة عنها اضافة الى ما وجدته من كتابات لأهـل الثقة ، والتى لم أتخـير منها سوى القليل من بين الكثير » (٣٠) •

وحتى لا يبتعـد أوتو عن تلك القـاعدة نجد أنه قد أبدى بعض المخاوف ، بين الفينة والفينة ، التى تتعلق بمدى صحة بعض المعلومات عن طريق اضافة تعبير « يقولون ان » أو « يقال ان » • ويظهر مثال واضح لمثل هذا التردد فى سرده التاريخى المتعلق بالقس حنـا Prester John تلك الشخصـية البارزة الأسـطورية • وهو أسقف سريانى ذهب الى أنطاكية لبحث أمـور متعــددة مع البطريرك ، وقال ابان وجوده هناك :

« أنه منذ عدة سنوات كان هناك شخص يدعى حنا ، وكان ملكا وقسا ، ويسكن فيما وراء بلاد الفرس وأرمينيافى أقصى الشرق ، والذى كان يدين هو وشعبه بالمسيحية على المذهب النسطورى ، وشن حربا ضد ساميردى Samiardi صديق الفرس الساميردى ، ملكى الفرس والميديين الشقيقين،وتمكن حنا هذا من اقتحام اكباتانا Ekbatana (عاصمتهم) ، وهى التى سبق أن تحدثنا عنها من قبل . وعندما التقى الجيشان حدثت معركة استمرت لمدة ثلاثة أيام نظرا لأن الفريقين كانا على استعداد للموت عن أن يلوذا بالفرار . ونجح القس حنا Prester John فى اجبار الفرس على الفرار ، بعد مذبحة مروعه ، انتهت بانتصاره . وقال أنه بعد هذا النصر تحرك بجيشه لمساعدة الكنيسة فى بيت المقدس ، بيد أنه عندما وصل الى نهر دجله لم يتمكن من نقل جيشه عبر النهر بأى وسيله ، فاتجه صوب الشمال ، اذ علم أن مجرى النهر كان متجمدا . . ويقال أنه من السلالة المباشرة للمجوس الذين ورد ذكرهم فى الأناجيل الأربعة القانونية ، وأنه سيطر على الشعوب نفسها التى كانوا يحكمونها ، وأنه تمتع بشهرة عظيمة وثروة لا حصر لها ، وبرغم ذلك فلم يستخدم صولجانا باستثناء الزمرد . ويقول الناس أنه أتخذ من آبائه القدوة الحسنة ، بحماس شديد ، عندما ذهبوا لتمجيد المسيح فى مذوده اذ عقد العزم على الذهاب الى بيت المقدس ، بيد أنه لم يتمكن من ذلك للسبب المذكور بعاليه » (٣١) .

وأبدى أوتو مقدرة على الحكم على الأمور بعين ثاقبة عند وصفه لموت تيومو Tiemo أسقف سالزبرج Salzburg وعلى الرغم من قبوله للرواية التى ذكرت عن استشهاد هذا الأسقف على أنها من مصادر موثوق بها فانه صرف النظر عن بعض المعلومات المتعلقة بموته باعتبارها كاذبة . وكان الامبراطور آليكسيوس Alexius قد اعتقل هذا الأسقف المذكور ابان عبوره أراضى آسيا الصغرى ، متوجها الى بيت المقدس ، وسلمه الى ملك ميمفيس Memphis وفيما يلى وصف أوتو لتلك الحادثة . « يقولون أن الأسقف المبجل تيمو Tiemo صدر اليه أمر بعبادة الأوثان . وبعد أن طلب فترة ارجاء لعبادة الأوثان (وحصل عليها) ، دخل المعبد ، ونظرا لأنه كان يتمتع بعقل سليم وجسد قوى ، قام بتحطيم الأوثان التى كان عليه أن يعبدها ، وأثبت بذلك أنها ليست آلهة وانما من صنع الانسان . لذلك اقتادوه ، وبعد أن عانى من آلام التعذيب الوحشى بكل أنواعه ، توجوه بتاج الاستشهاد المجيد . واذا كان من الموثوق به أنه ذاق الموت لايمانه بالمسيح ، الا أنه من الصعب

التصديق أنه حطم الأوثان ، ذلك لأن المعروف فى كل أنحاء العالم أن المسلمين يعبدون الها واحدا فردا صمدا » (٣٢) .

ومن الواضح أن أوتو أدرك ادراكا كاملا أن مصادره — حتى أولئك الذين كانوا على استعداد أن يكتبوا بصدق وأمانة — كثيرا ما قدموا روايات مختلفة للحادثة الواحدة ، وذلك وفقا لمدى ولائهم وتحيزهم . واستشهد بموقف الكتاب الكلتيين الذين كتبوا روايات مختلفة عما حدث عشية موت كونراد الأول Conrad I سنة ٩١٨ م . وعلل أوتو حدوث ذلك التضارب فى الروايات بين الكتاب لأن كل واحد منهم حاول الاطراء على دولته قدر استطاعته . أما أوتو فقد وعد بأن يلتزم « بالموقف المحايد فى هذه الأمور . وأن يعض بالنواجز على خيط الحقيقة .. وأن يستعين بالله حتى لا ينحاز يمينا أو يسارا » (٣٣) .

واذا كان أوتو لم يبد سوى الموضوعية الكاملة فى كتابه « الأعمال » Deeds والذى كتبه خصيصا الى قريبه فريدريك الأول بربروسا ، فان ذلك هو كل ما يتوقعه المرء من أشد المؤرخين تدقيقا . ومع ذلك ، فلا ريب أن هدفه من هذا الكتاب تزويد قريبه بالعلم والمعرفة فى مجال مسئولياته وبالقدر نفسه اعلامه عن أحسوال الماضى . ولذلك للمرء أن يفترض أن بعضا من الثناء والمديح الذى طرحه على فريدريك كان المقصود به تشجيعه على مواصلة ما فعله وتحديد معالم طريقة التصرف التى يجب عليه الالتزام بها حتى يحظى برضاء الله عليه . وفى أواخر سنة ١١٥٤م قاد فريدريك جيشه الى ايطاليا عبر جبال الألب . وتعرض جنوده لمشقة نفاد المؤن الغذائية لأن المنطقة بالقرب من فيرونا Verona كانت جبلية الى حد كبير ، كما قام هؤلاء الجنود بالاعتداء على حرمه بعض المعابد والمزارات فى المنطقة وسلبوا ما بها من مقتنيات نفيسة وقيمة . وقدم أوتو وصفا لتلك الحملة فيما يلى « وباختصار ، لما كان الجيش غير قادر على اجتياز طريقه بين المناطق الجبلية الشديدة الوعورة ، وتعذر عليه الحصول على ما يسد رمقه ، لشدة حالة الجدب الشديد التى تعانى منها تلك المنطقة ، لذلك كله دفعتهم الحاجة الماسة لانتهاك حرمة الأماكن المقدسة . ومن أجل التكفير عما حدث — برغم أن ما حدث تم تحت الضرورة الملحة — أمر الملك بجمع تبرعات من كل المقاتلين بجيشه . وأصدر قائد الجيش أوامره بتسليم تلك المبالغ التى بلغت قيمتها حدا لا يستهان به الى أسقفى مدينتى ترينت Trent وبريكسين Brixen لتوزيعها على المناطق التى بها مزارات للقديسيين وتضررت من عدوان الجند عليها . وهكذا نهض ذلك القائد باعباء مهمة اقرار العدل والخير

العام مؤديا بذلك دور قائد شهم . وقبل أن يبدأ ذلك القائد في تحقيق انجازاته الرائعة ، عقد العزم على العمل وفقا لما يرضى مـالك الملوك ، وخالق كل شيء ، والذي بدون مشيئته لا يمكن الاقدام على عمل أي شيء أو انجازه بنجاح ، وأدرك أنه لابد من تجنب الأعمال التي ينجم عنهـا حلول غضب الله على عباده » (٣٤) .

واذا كان أوتو قد سمح لنفسه بالتعبير عن قدر من المحاباة عندما كتب عن قريبه فريدريك ، فانه انساق مع خالة العداء التي أفصحت عنها أسرته تجاه عشيرة وتلسباتش Wittelsbach والعداء التقليـدي تجاه عائلة ببنبرج Babenbergs ولذلك فانه وصف الأمير الذي كان يدعى أوتو أيضا : « على أنه كان على مثال والده الخائن والظالم ، والذي كان قد فاق كل أسلافه في الخبث والحاق الأذى ، أنه حتى يومنا هذا لم يتوقف عن اضطهاد كنيسة الله » (٣٥) . ومن النادر أن لجأ أوتو الى مثل ذلك القدح . وربما كان اريوس Arius هو الشخص الأخـير والوحيد الذي تعرض لمثل ذلك التشهير . « الذي لا يدانيه أحد في الدناءة والحقارة على الاطلاق » (٣٦) وعلى الرغم من أن ادانة أوتو للامبراطور نيرون Nero (٣٧) كانت شـديدة أيضـا فانها تساوت مع اذانات كل المؤرخين المسيحيين والوثنيين لذلك الحاكم الروماني .

وبصفة عامة أبدى أوتو اعتدالا في التعبير عن آرائه عندما كتب عن الشخصيات التي كان يكرهها أو الذين تعارضت سياساتهم مـع استقلال أبناء وطنه من الألمان وأفراد أسرته ولم يحدث أن ذكر أوتـو نفسه الا عرضا . وذكر أوتو النص الكامل لخطـاب البابا أيوجنيوس Pope Eugenius الذي أرسله الى ألمانيا ، والذي هاجم فيـه البابا الأساقفة الألمان ، وأنهى أوتو الخطاب بالتعبير عن موافقته على الاجـراء الذي اتخذه الملك كونراد Conrad ، عندما عين أحد رجاله على الكرسي الأسقفي في مجدبرج Magdeburg (٣٨) وعبر أوتو على رفضـه بكل صراحة ودون تحيز للأسلوب الاستبدادي الذي انتهجه شـقيقه ليوبولد Leopold حاكم النمسـا الألماني : « قام ليوبولد باحتلال بافاريا عنوة بعد أن تحرك بجيش أحسن تسليحه الى أن وصل الى لتش Lech ودمر التحصينات التابعة لبعض أعدائه هناك ، وخرب كل المناطق الريفيـة المحيطـة ، وعـاد عبر أراضينا ملحقـا الكثير من الأذى بكنيستنا » (٣٩) .

وكان أوتو حريصا على تجنب ابراز أهمية خاصة عن أجداده أو أفراد أسرته فسيجد القارىء صعوبة في تحديد اسم والده بين الذين وافتهم المنية وذكر أسماءهم في الفترة ما بين ١١٣٦ ــ ١١٣٧ م (٤٠) . وبرغم

ذلك ، فقد يخامر المرء بعض الشك عندما يجد أوتو يكتب عن النصر الذى أحرزه هرمان Hermann (أرمينيوس Arminius) أحد « أجداده » على الرومان فى غابة تيتوبرج Teutoberg فى العام التاسع للميلاد .

« وفى الوقت الذى كان فاروس Varus يتحرك فيه بكل شراسة ونهم – كما هى عادة الرومان – صوب المغلوبين على أمرهم ، تمكن الجرمان من القضاء عليه وابادة الفرق الثلاث التى كانت معه . ويقال أن أغسطس Augustus تأثر بشدة نتيجة لتلك الكارثة التى حلت بالجيش الرومانى حتى أنه كثيرا ما تعمد ضرب رأسه فى الحائط من شدة شعوره بالحزن والأسى ، وهو يقول : يا كونتيليوس فاروس !! Quintilius Varus أعد لى فرقى الثلاث . وكتب سوتونيوس Suetonius أن هذه الحرب بين الرومان والألمان – والتى كانت صراعا شرسا ومريرا ، منذ الحروب الأفريقية الأشد ضراوة – استمرت حامية الوطيس لمدة ثلاث سنوات شاركت فيها خمسة عشر فرقة . ومن ثم يمكن لنا أن نستنتج مدى قوة تلك القبيلة الألمانية ، اذ أنها استطاعت أن تحدث هذا القدر من الخراب والتدمير فى الجيش الرومانى فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية الرومانية فى أوج قوتها » (٤١) .

وتحددت فكرة أوتو عن الكون ومكانة الانسان فيه فى تفسيره للتاريخ أو فى فلسفته التاريخية وكانت فكرة أوتو تلك هى من الناحية الواقعية فكرة القديس أوغسطين ذاتها التى أعلنها فى كتابه مدينة الله the City of God وكرر هذا الرأى بدورة الفكرة المفهومة ضمنا فى الأناجيل الأربعة القانونية ، ويعنى بها أن الله هو الخالق . وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأن بيده الأمر فى الحياة الدنيا ويوم الحساب وليس الانسان هو الوحيد الذى يتصرف باعتباره مصيرا ، وانما يمتد ذلك ليشمل الكون كله والحركة التاريخية . وكان أوتو قد عبر عن موافقته على تقسيم العصور الستة التى ذكرها أوغسطين ، ونعنى بها ، العصر الأول من آدم حتى طوفان نوح ، والثانى من الطوفان الى ظهور ابراهيم ، والثالث من ظهور ابراهيم الى ظهور داود ، والرابع من داود الى الخروج من مصر فى عهد موسى ، والخامس من الخروج الى تجسيد المسيح ، والسادس هو عصر النعمة الآلهية ويتفق أوتو مع أوغسطين على تحديد العصر السادس بمولد المسيح، وفى اعتقاده بأن العصر الأخير أوشك على الانتهاء ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .. فكتب أوتو قائلا : « لأننا نعيش فى الأيام الأخيرة لهذه المملكة ، ونتعرض لكل ما كنا نتوقعه ، بشأنها ، ونتوقع أن ما كنا نخشاه ، صار قاب قوسين أو أدنى » (٤٢) .

ولم يأخذ أوتو بالتقسيم الدقيق للعصور الستة ، فيما يتعلق بالامبراطوريات العالمية وفقا لما أعلنه أوغسطين ، وانما فضل التعديل الذى عرضه جيروم Jerome اذ كتب يقول : « سأقدم شرحا موجزا للنهج الذى يسير عليه التاريخ ، واذا ما تمت معرفته ، يمكن أن تكون طبيعة هذا الجهد التاريخي واضحة وضوحا جليا ، وهو أنه منذ بدء الخليقة حكم العالم أربع ممالك رئيسية ، ومقدر لها البقاء حتى قيام الساعة ، وتتخلف احداهما الأخرى وفقا للقانون الطبيعى ، ويمكن أن تتحد معا بأساليب متعددة ، من وجهة نظر دانيال بصفة خاصة . ولذلك قمت بكتابة أسماء حكام تلك الممالك ، ورتبتها وفقا لتسلسلها الزمنى ، فذكرت الأشوريين أولا ثم (مغفلا ذكر الكلدانيين الذين لم يذكرهم كتاب التاريخ ضمن الآخرين) ، ذكرت الميديين Medes والفرس ، وأخيرا الاغريق والرومان ، وذكرت أسماء أباطرتهم حتى الامبراطور الحالى ، متحدثا عن الممالك الأخرى ، على نحو عرضى فحسب ، كى أوضح التغيرات التى طرأت على الأحداث » (٤٣) .

والواقع أن أوتو أبدى اهتماما أقل مما قد يتوقعه القارئ من الجملة السابقة واستخدم أيضا تعابير ومعايير فنية كى يؤكد بالدليل والحجة على صحة افتراضه من أن العالم سينتهى ابان فترة الحكم الرومانى ، ووفقا لما ذكره أوتو قام الرومان بتسليم السيادة الى الاغريق فى القسطنطينية الذين قاموا بدورهم بتسليمه إلى الفرنجة (والألمان) فى الغرب .

واستمر أوتو يعلن ارتياحه لتقسيم أوغسطين للبشر الى مجموعتين أو معسكرين مدينة الله The City of God ومدينة الشيطان City of Evil of the Earth وذلك طوال سياق كتابه الضخم الذى حمل عنوانا جديرا بالاهتمام ، وهو الحولية أو تاريخ المدينتين The Chronicle or History of the two Cities

وأفصح أوتو عن ذلك فى مقدمة الكتاب الأول معلنا أنه العامل الملزم الذى سيوجهه فى كتابته عن تاريخ العالم :

« وبعد التفكير مليا ، ولفترة طويلة ومتكررة ، فى الأمور الدنيوية ، وما حوت من تغيرات وتقلبات ، وموضوعات متنوعة ومعقدة ، وهى أمور « تجعل الحكيم متعلقا بأحوال الدنيا الا أنى وجدت من منطلق قوة الرشاد فحسب أن على المرء تجنبها واراحة نفسه منها . اذ أنه من واجب الحكيم الا يدور حول العجلة الدائرة ، وانما يتخذ موقعه بحزم كالشيء الوطيد بفضل ثبات قواه . وبناء على ذلك ، فطالما أن الأشياء عرضة للتغير وليس

مقدرا لها أن تظل ساكنة ، فما هو الانسان العاقل الذى سينكر أنه يجب على الحكيم أن يهجر الهموم ويذهب الى تلك المدينة التى ستظل آمنة من خوف وباقية الى أبد الآبدين ؟ انها مدينة الله ، بيت المقدس ، التى يتطلع اليها أبناء الله ، وهم فى هذه الحياة الدنيا ، يعانون من متاعب هذه الحياة ، وكأنهم يعانون من الأسر البابلى • ونظرا لوجود مدينتين ــ مدينة الحياة الدنيا ، والأخرى مدينة الخلود ، الأولى على الأرض ، والثانية فى السماء ، الأولى مدينة الشيطان ، والثانية مدينة المسيح ــ لذلك أعلن الكتاب الكنسيون أن الأولى هى بابل Babylon والثانية بيت المقدس » (٤٤) •

اهتم أوتو فى الكتب السبع الأولى من حوليته عن المدينتين بتاريخ الجنس البشرى منذ بدء الخليقة حتى عصره • وطوال تلك الفترة الطويلة من الزمن وجدت مدينة الله ، ومدينة الشيطان ، وقدر لهما البقاء ، غير أنهما تداخلتا لأن كلا منهما وجد بها أخيار وأشرار ، وبدأت مدينة الله وجودها على الأرض منذ عهد آدم ، بيد أنه ظهر فى الحال أفراد فى تلك المدينة من بين الشعب الموعود Promised People الذين لم يخشوا الله • وشاء الله أن يعيش مواطنون من هذه المدينة خارج اسرائيل • وفى أزمنة العهد القديم Old Testament كان هناك ملوك يهود ولم يقدر لهم أن يكونوا من بين أهالى مدينة الله ، كما كان هناك أيضا بابوات أشرار منذ تجسد المسيح ، وقد باءوا بغضب من الله • ووفقا للمفهوم المحدود لم يكن هناك سوى مدينة واحدة حتى سنة ٣١٣م، عندما سمح قنسطنطين للمسيحيين ، بممارسة شعائرهم الدينية ، بكل حرية ، ونعنى بها مدينة الله ، ومنذ تلك السنة ، استحوذت هذه المدينة وحدها على اهتمام أوتو ، فمن وجهة نظر الأفراد العاديين ستظل المدينتان على وجه الأرض حتى نهاية العالم وحتى قيام الساعة ، ثم يتم فرز الذين أحبوا الله عن أولئك الذين حقت عليهم كلمة العذاب ــ وهكذا ينعم الأولون فى مدينة الله ، أما الآخرون فلهم مدينة الشيطان • وشرح أوتو ذلك قائلا : « والى هذا الحد ، أعتقد أنى ذكرت ما يكفى فيما يتعلق بالمدينتين • وعن كيفية تقدم احداهما أولا عن طريق بقائها مختفية فى الثانية حتى قدوم المسيح • وبعد ذلك بازدهارها التدريجى الى أن جاء عهد قنسطنطين • ولكن بعد عهد قنسطنطين وبعدما توقفت المتاعب من خارج حدود الامبراطورية بصفة نهائية ، بدأت تحدث فى الداخل بتحريض من الشيطان ، واستمرت الصراعات الداخلية حتى عصر ثيودوسيوس الاكبر وكان أريوس Arius المسئول الأول عن ذلك ، وقام الحكام وكبار القاده بمعاونته ، غير أنه ، من وقت لآخر ، ونظرا لأن جل الشعب والأباطرة (باستثناء بعضهم) كانوا من

المتمسكين بالمعتقد العالمي القويم Orthodox Catholics لذلك بدا لى أنى أكتب تاريخا عن مدينة واحدة من الناحية الواقعية ، وهى التى سميتها الكنيسة . وبرغم أن الأخيار والأشرار شكلوا مجتمعا واحدا ، فانى لا استطيع أن أطلق عليهم مدينتين كما ذكرت من قبل ، ولذلك لا يصح الا أن أسميها سوى مدينة واحدة على وجه الدقة ـ ومع ذلك كانت تلك المدينة كمثل حبة القمح المختلطة بالعصافة . ومن أجل ذلك فعلينا مواصلة تتابع الأحداث التاريخية التى بدأناها . واعتنق الأباطرة الرومان والملوك (ملوك الممالك الشهيرة المسيحية ، لأن صوت كلمة الله وصل الى كل بقعة على الأرض ، وفى أقصى مكان بالمعمورة . واستراحت مدينة الأرض The City of Earth وقدر لها أن يكون مصيرها الى زوال ، ومن ثم فان تاريخنا هو تاريخ مدينة المسيح The City of Christ غير أن تلك المدينة دار فناء وهى : « على مثال الشبكة التى ألقيت فى البحر بما احتوت عليه من الأخيار والأشرار . وبرغم وجود اليهود الملاعين ، وعبدة الأوثان ، فان شعبنا كسب الى صفة الممالك العريقة ، ولم يكن هؤلاء اليهود ، وعبدة الأوثان منبوذين أمام الله فحسب ، بل وفى كل بقاع الأرض ، لذلك فمن النادر ذكر أى شىء عنهم ، اذ لا يوجد عنهم ما يستحق تدوينه للأجيال القادمة » (٤٥) .

وبرغم الاسم العظيم لكتاب أوتو الرئيسى ، والشهرة الفائقة التى حققها لوضوح فلسفته التاريخية ، فانه أبدى اهتماما قليلا نسبيا عند سرده لفكرة المدينتين . وفى أغلب الأحوال حصر أوتو تأملاته فى نطاق ذلك الخط فى مقدمات كتبه المختلفة ، وفى التعليقات الموجزة التى أنهى بها تلك الأجزاء . فالفقرة السابقة تشكل نموذجا لمقدماته ، أما الفقرة المقتطفة التالية ، والتى اختتم بها الكتاب الثانى ، توضح الطريقة التى أنهى بها كل قسم . « وعند هذا الحد كنا مكرهين على شجب رداءة تقلبات أحوال الحياة بكل شدة . وياللعجب ! لقد وجدنا أن الامبراطورية الرومانية تدفع ثمنا غاليا من دماء أعدائها ، وبنفس القدر من دماء مواطنيها . فبفعل التغيرات المتعاقبة ، والتى كانت على مثال أمواج البحر ـ التى كانت تزيد حدتها حينا ، وتخف أحيانا لكثرة الكوارث الناجمة عن الظواهر الطبيعية ـ فقد بدت الجمهورية الرومانية حينا وقد وصلت الى عنان السماء قوة ، بعد أن أخضعت الأمم والممالك بقوة السلاح ، وباحكام سيطرتها عليهم ، وأحيانا أخرى انحدرت الى الهاوية ، عندما أغارت عليها تلك الأمم والممالك ، أو عندما اجتاحتها الأوبئة والأمراض . على أن ما هو أكثر أهمية من تلك الأمور ـ هو أنه بعد أن استقرت الأمور للرومان ، اجتاحت بلادهم الحرب الأهلية وانقض بعضهم على

البعض الآخر يبقر بطنه على نحو يثير الشفقة والرثاء . ولابد أن تكون كل تلك الكوارث التي تفجرت عن الأحوال المضطربة ، لها القدرة على الأخذ بيد الناس نحو الحياة الحقيقية والأبدية في جنة الخلد . غير أنه وكما ذكرنا من قبل ، ففي الوقت الذى تعرضت فيه مدينة العالم لكل تلك المحن وما شابهها ، بدت أضواء الحقيقة في الظهور كما يفعل ضوء الفجر عند تبديده ظلمة الليلة الحالكة . وهكذا فبعد أن كنا نتمنى اللحظات التى تنزل فيها الكوارث المتتابعة على الميديين والفرس ، بل وعلى الاغريق والرومان ، أصبحنا الآن نتحدث عن قرب حضور المسيح ، المصلح الحقيقى ، والمحقق للسلام فى كل شىء ، « سواء أكان هذا الشىء على ظهر الأرض أم فى السماء ، وهو السلام الذى تحقق فى كل أرجاء العالم فى عهد أغسطس عند مولد المسيح » (٤٦) .

وفى الكتاب الثامن اختتم أوتو حديثه عن المدينتين Two Cities وعن الخلاف بينهما أيضا . وكانت هاتين المدينتين قد مرتا بمرحلتيهما الباكرتين السابقتين على وجود النعمة الالهية ، ثم مرتا بمرحلة النعمة الالهية . والآن وقد وصلت المرحلة الثالثة وانفصلت المدينتان واستمرتا على هذا النحو الى الأبد ، احداهما خيرة تماما ، والأخرى شريرة تماما . وقبل نهاية العالم سيظهر المسيخ الدجال Anti-Christ الذى سيصاحب حضوره اضطهاد عنيف بهدف تطهير المؤمنين . ان المسيخ الدجال هو الشيطان بعينه . وباعتباره منافقا شديد البراعة ، فسيضل كثيرا من الناس ، ولا سيما أعداد كبيرة من اليهود ، غير أن مصيره القتل فى الوقت المحدد . ثم تلى ذلك « فترة من الوقت للتوبة » وهى فترة لا يعلم مداها الا الله . » « وعندما توشك كل الأمور التى تم التكهن بها على الانتهاء والاكتمال ، وتظهر علامات غير مألوفة ، ومثيرة للدهشة على الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والبحر ـ وعندما تخر قوى البشر من شدة الخوف ، ومن شدة ما يتوقعونه من الأهوال ـ ثم يحدث فناء لمدينة الشيطان ، ونمو لمدينة المسيح ، يأتى يوم المسيح ، وفقا لكلمة الحق التى يقول الله فيها معزيا شعبه العزاء الجميل : « وعندما ترون حدوث هذه الأمور . فاعلموا أن مملكة الله قريبة » (٤٧) .

لم يجرؤ أحد من المؤرخين أن يواصل كتابته التاريخية متصورا ما سيحدث فى آخر الزمان ، وان كان قليل من علماء اللاهوت قد فعلوا ذلك . ومع ذلك فقد جاوز أوتو حد الجرأة بذهابه الى ما بعد الزمان ، برغم أنه اعترف بعدم ثقته فى نفسه . اذ اعترف بافتقاره الى المقدرة للتحديث عن الحياة الأبدية ، بيد أنه يشعر بأن هذا الأمر مفروض عليه ، وأنه

بنعمة الله ، سيحاول أن يكتب عن الآخرة . وعلى ذلك فقد كتب عن بعث الموتى وعن حسابهم ، الذى سيكون سريعا : « وغنى عن القول أن الحساب سيكون سريعا يوم القيامة ، لأن المحاسب علام بما فى القلوب ولما حدث فى كل العصور ، وغفور للخطايا وما شابهها . وليست المحاكمة يوم الحساب على النمط الذى نعانى منه فى محاكم هذا العالم . ففى عالمنا هذا ووفقا للاجراءات القضائية ، وفى حالة الشخص المتهم يقيم المدعى العام الدعوى ، ويتولى المحامى الدفاع ، ويحاول الشاهد الادلاء ــ بشهادته المقنعة . أما القاضى ، وهو الذى لا يعلم سرائر الناس ، اذ ما هو الا مجرد بشر ، فغالبا ما ينخدع ، وكثيرا ما يحكم ببراءة شخص كان لابد من ادانته : ونظرا لأن مثل ذلك لن يحدث يوم القيامة اذ سيكون الانسان حسيبا على نفسه بنفسه ، فلابد وأن نعتقد أن الحساب سيكون سريعا سرعة تفوق ادراك البشر » (٤٨) .

وما ظل يقال حتى الآن فسره أوتو بقوله : « هو محاولة معرفة مصير المدينتين ، بعد البعث والحساب . « ان الأشرار سيلقون فى نار جهنم ، أما الأخيار فسينعمون بجنة الخلد مع الملائكة . وبرغم تأملاته الطموحة التى تتعلق بنوعية الحياة الأبدية التى أعدها الله الذى لا تدركه الأبصار فقد أنهى أوتو كتابته باشارة متواضعة . واعترف أوتو بأن كتابه ليس واضحا كل الوضوح ، ووجه كلامه الى قارئه (فريدريك) قائلا : « سيكون من واجبك اكمال ما يحتاج الى الاكمال ، وتصحيح ما يحتاج الى التصحيح ، وحذف كل ما هو حشو فى الأسلوب ، ولما كنت مثقلا بالخطايا ، وأحاول جاهدا فى هذا البحر الخضم من العالم ، فانى أطلب منك مساعدتى بعزاء دعواتك » (٤٩) .

واذا كان هناك أى ريب بشأن المشيئة التى تسير أمور العالم ، فان هذا الشك تبدد فى الكتاب الثامن حيث ذكر أن كلمة الله هى التى تنهى كل شىء . وظل أوتو يذكر قارئه بهذه الحقيقة الأساسية فى كل جزء من كتابه عن المدينتين The Two Cities وأدرك أوتو ببعد نظره الثاقب دور العناية الالهية كعامل موجود فى كل العصور ، سواء العصر المعاصر له أم القديم ، المسيحى أم الوثنى . ويمكن للمرء أن يلحظ أن أوتو اعتبر أن مسئوليته كمؤرخ تحتم عليه التأكيد على استمرارية تأثير المشيئة الالهية . وهكذا يمكن القول أن قراءة وكتابة التاريخ لا مبرر لها سوى خدمة الحاجة الدينية . ومن أجل ذلك ، ولكى يؤكد أوتو على فكرة المدينتين The Two Cities فقد بدأ وأنهى كل كتاب من كتبه الثمانية بانطباعات عن المعنى الخفى للأحداث ومدى تأثيرها على

الحياة الأبدية . ان كل البشر وكل الأمور ، تسير وفقا لمشيئة الله ، من أجل الخلاص من الخطيئة . بل ان الأحداث التى قد لا تمت بصلة للارادة الالهية ، وجدت تفسيرا لها عند أوتو . اذ كتب يقول : « أعتقد انه لا يصح أن ننسب الى مجرد الصدفة ، وانما لارادة الله الذى يفصل الليل عن النهار ، تلك الأحداث التى وقعت ابان خروج بنى اسرائيل من مصر — أو وفقا لما قاله الآخرون ، ابان اقامتهم المؤقتة فى أرض الميعاد — عندما انتشرت فى كل أرجاء العالم جرائم جديدة ولم نسمع عنها من قبل (كالتى ذكرتها من قبل) . بل أننا نقرأ ، وكأن الأمر عاديا تماما ، عن هيرود Herod ملك هذا العالم ، الذى أصابه الانزعاج لمولد المسيح ، ملك السماء ، وعندما ذهب الرب الى مصر ، لم يهدأ بال ذلك الملك اللعين ، وحرض الناس على الأعمال الشريرة . وللسبب نفسه ، كثيرا ما نرى ، وحتى يومنا هذا ، أن العالم قد اعتراه القلق والاضطراب كلما دعا الرب عباده من مصر العالم الى مملكته . ولسبب مماثل حدثت تلك الأحداث عند خروج شعب الله الى أرض الميعاد وطرد القبائل التى تسكن هناك » (٥٠) .

ويعزو أوتو النصر الحاسم الذى أحرزه الرومان على قرطاجة الى قدرة العناية الالهية . اذ كتب يقول : « ان ما ينسبه الرومان الى آلهتهم المدافعين عن المدينة The City هو ما ننسبه بالحقيقة الى قدرة الله المنتقم الجبار ، والذى لا يمكن لورقة واحدة من أى شجرة أن تسقط على الأرض دون مشيئته » (٥١) . بل وتجلى عون الله فى ظهور قسطنطين ونجاحه فى التخلص من المتنافسين الآخرين الذين سعوا للحصول على العرش الامبراطورى . « وعندما شاءت ارادة الرب اعلاء شأن كنيسته ، التى عانت الكثير من المحن والبلايا ، والاضطهادات ، اختار ، جلت قدرته شخصية بارزة من بين الجميع ، وعهد اليه بالعمل على اعلاء شأن الكنيسة ورفعتها ، عن طيب خاطر وبأقصى سرعة . وهكذا فوض الله ، امبراطور الرومان الذى دان اليه كل العالم بالولاء والطاعة من أجل العمل على اعلاء شأن الكنيسة .. وأنت تعلم أن كل هذا لم يحدث مصادفة أو بطريقة عشوائية ، وانما بفضل القدرة الالهية العادلة ، فأنظر كيف أصبح الانسان الذى كان يتسلل فى تكتم شديد ، ويفر من أمام غيره قادرا على أن يسيطر على الملوك .. والقضاة ، وقد نال احترام وتبجيل كل ملاك الأرض ، بعد أن أتوا اليه وانحنوا فى تواضع أمامه تحية له ، وأبدوا احترامهم الشديد لأخامص قدميه وهو جالس على عرشه » (٥٢) .

وفى كتابه عن الأعمال The Deeds أضفى أوتو على العناية الالهية الدور الايجابى نفسه فى شئون البشر بالقدر الذى ذكره فى كتابه عن

المدينتين فبعــد أن وصف كيف بدأ كونراد الثـــالث Conrad III وجيشـه المسير من نورمبرج Nuremberg ســـنة ١١٤٧ فى الحملة الصليبية الثانية ، ثم مروا على ريجنزبورج ـ Regensburg ثم تجاه نهر اندانوب ، ثم تحدث أوتو عن العاصـفة الهـوجاء التى داهمت الجيش الصليبى بالقرب من مدينة كيريفاش Cherevach (كاتالكا Catalca) وبعد أن انتهى الجيش من نصب خيامه ، هبت عاصفة شديدة ، أحدثت خسائر كبيرة فى الأفراد والخيول ، وتلفا فى معظم المعدات الحربيـة ٠ « وفجأة هبت عاصفة شديدة من الرياح والأمطار جعلت الخيام تتـرنح وتتمزق ، ثم قذفت بتلك الخيام أرضا بشدة ، واستيقظنا من فراشـنا الذى كنا قد آوينا اليه بعد تأدية صلاة الفجر ٠ فسادت حالة من الهرج والمرج غطت عنان السماء تقريبا ٠ وبعد أن أنذر وجود جدول صغير من المياه بغضب الله فى علاه ـ وهو الجدول الذى نشأ سواء نتيجة لزيادة منسوب البحر المجاور أم لانهمار المطر أم لوابل المطر الغزير المفاجىء ـ وقد أدى تزايد تلك المياه الى غمر المعسكر بها تماما ٠ وماذا كان علينـا أن نفعله ؟ اذا نظرنا لاعتقادنا بأن ما حدث انما هو عقاب من الله أكثر من من مجرد طوفان طبيعى ، لذلك فقد سيطرت علينا جميعا حالة من الفزع والذعر ٠ ومع ذلك فقد هرعنا الى خيولنا القوية ، وحاول كل منا عبور النهر قدر استطاعته ٠ وكان فى مقدرة المرء مشاهدة البعض يسبح ، والبعض الآخر يتشبث بالخيـــول ، والبعض قد أمسـك بالحبــال وتعلق بها علهم يهربوا من الخطر ، والبعض ألقى بنفسه فى مياه النهر على غير هدى ، وغرقوا ، لأنهم أربكوا بعضهم البعض ، بتصرفهم العشوائى واعتقد عدد كبير أنه فى استطاعتهم عبور النهر سيرا على الأقدام ، غير أن قوة اندفاع المياه جرفتهم ، وجرحتهم الصخور ، وابتلعتهم التيارات المائية الدائرية ، وهكذا انتهت حياتهم ٠ أما البعض الذين لم يعرفوا السباحة، فقد حاولوا انقاذ أنفسهم بالتعلق بالسابحين ، ومحاولة الالتصاق بهم ، طلبا للنجاة ، غير أنهم أجهدوهم ، وشلوا حركتهم الى الحد الذى لـم يتمكنوا فيه من تحريك أذرعتهم ، ثم غاصوا جميعا فى الماء ، وغرقوا ٠ وفى صباح المأساة ، وعندما انحسرت المياه ، وظهر سطح الأرض ، كنا قد تبدد شملنا جميعا فى كل مكان ، وكان فى استطاعتك مشـــاهدة الصورة الحزينة لمعسكرنا ، والتى كانت على عكس الصورة السارة التى كان عليها فى اليوم السابق ٠ وهكذا بدت قدرة الله العلى القدير بلا أدنى ريب ، وظهر أن السعادة البشرية لا دوام لها » (٥٣) ٠

ومع ذلك لم يظهر أوتو دور العناية الالهية على أنهـا قوه عنيدة ومستترة ، أو أنها تكشف عن وجودها لمجرد اقناع الناس بقصر الحياة

الدنيا وأهمية الحياة الأبدية . ان الله يعذب البشر على خطاياهم ، ويعفو عنهم عندما يتوب الانسان ، أو عندما يسأل المؤمنون الله العفو ، ولا سيما شفاعات وتضحيات الأتقياء . ومن ثم كتب أوتو عن عمليات السلب والنهب التى تعرضت لها فرنسا ابان الحروب بين لويس السابع وثيوبولد Theobald ، كونت بلوا Blois ، « انه لو لم يعم السلام ربوع البلاد مؤخرا بفضل حسنات ، ودعوات ، ومشورة الأتقياء ، الذين قطنوا تلك البلاد لكان من المعتقد أن تتحول تلك الأراضى الى خرائب بكل ما فى الكلمة من معنى » (٥٤) .

وليس من المدهش أن نرى رجلا مثل أوتو قد آمن بالمعجزات بعد أن أبدى تبجيلا شديدا لقدرة الله وعلامات وجوده التى حلت فى كل الوجود . غير أن الله لا يظهر تلك الأدلة الواضحة على سلطانه وجبروته الا فى الأحوال النادرة ، وذلك وفقا لمفهوم أوتو . إن الله العلى القدير يفضل أن تحدث الأحداث وفقا للقوانين الطبيعية التى وضعها لهذا العالم . ولهذا السبب وجد أوتو مكانا للقليل من المعجزات . ونسب أوتو بعضا من تلك المعجزات الى القديس كوربنيان Corbinian ، على اعتبار أنها حدثت على يديه ، وكان كوربنيان هذا أسقفا لاقليم فريزنج Freising ... . وكتب أوتو عن كوربنيان فقال : « يقال أنه فى احدى المناسبات ذهب القديس كوربنيان الى روما ليلبى احتياجات كنيسته ، وفى الطريق ، هاجم دب جواد أمتعة الأسقف وقتله ، فأمسك رجل الله الدب ، ووضع سرج التحميل عليه ، وأمره بحمله ، وكانت كلمة الرب ، « امض من أى سيف » ، اذ أجبرت هذا الحيوان المتوحش على طاعة أوامر رجل الله . وابان تلك الرحلة نفسها ، وأثناء معاناة الوفد المرافق له من الجوع فى مكان صحراوى ، ظهر لهم فجاة عقاب ، وألقى اليهم بسمكة واحدة . وأكل كل الحاضرين من السمكة ، وكانوا فى غاية الانتعاش والحيوية على نحو مثير للدهشة » (٥٥) .

وماذا ـ يا ترى ـ عن موقف أوتو من الأساطير الوثنية ؟ ويبدو أنه كان ميالا للتسليم بوجود شىء من الحقيقة فى تلك الخرافات ، بالرغم من أنه رفض كل العناصر فى تلك الأقاصيص الا بقدر ما يمكن اعتباره ضرب من أعمال الشياطين . فالطريقة التى عالج بها قصة رومولوس Romulus وريموس Remus ، وهى القصة عند الرومان الأوائل ، توضح موقفه العام تجاه تلك الأساطير . فهو يروى كيف أنه بعد أن خلف أموليوس Amulius روكاس Rrocas كملك لايطاليا ، اكتشف شقيقه نومتور Numitor . أن ابنته ريا سيلفيا Rhea Silvia ، قد صارت أما لتوأمين من الذكور ، بالرغم من أنها

كانت راهبة مكرسة لخدمة فيستا Vestal Virgin (*) • فقام بالقاء التوأمين فى نهر التيبر •• ويقول أوتو « لقد شيد الأخوين التوأمين ريموس ورومولوس المدينة التى قدر لها أن تكون عاصمة العالم • ونظرا لافتراض الكتاب الرومان أن روما قدر لها أن تحكم العالم بالقوة العسكرية ، لذلك ادعوا أن الطفلين التوأمين هما ابنا مارس Mars (**) ، ولكى يبرهنوا على صحة دعواهم أجزموا على أن أنثى ذئب قامت ــ على عكس المألوف ــ برضاعة ورعاية الطفلين • وسواء كان الطفلان قد تمت رضاعتهما بمعرفة ذئبة ، كما ذكر أولئك الكتاب ، أم (كما قال البعض الآخر) بمعرفة احدى النســوة المنحرفات harlot ، أو احدى السيدات التى أطلق عليها لفظ « ذئبة Wolf » بسبب حيــاتها الوضيعة ــ اذ أننا نطلق على بيوت تلك النسوة » بيوت الدعارة Lupanaria ، وهذه الكلمة مشتقة من كلمة ذئبة lupa فان هذا الأمر لا يعنينى فى شىء على الاطلاق • فلقد أوردت ذكر هذه القصة لمجرد ايضاح أن الاله مارس ليس أبا للطفلين ، وأن والدهما هو أحد أفراد البشر ، وفقا لأحد المصادر التى يمكن الاعتماد على صحتها ، وهذا المصــدر هو احدى الكاهنــات للمعبد الوثنى » (٥٦) •

وأشــــار أوتــو الى أن القصــص التى ذكرت عن أديســــيوس Odysseus ، الذى مر بعشر سنوات من المغامرات المثيرة ، قبل أن يعود بصفة نهائية ، الى رفيقته المخلصة بنيلوبى Penelope ، فى أتيكا Ithaca ، يمكن أن تكون مجرد أساطير ، أو أن تكون خصائصها والتى لا يمكن تصديقها ، عمل من صــنع الشياطين • وكتب أوتو يقول : « وسواء ابتكر الاغريق والرومان كل تلك القصص بدافع الحب لالهتهم أم كانت من أعمال الشياطين التى قصدت تضليل الناس ، بالتعاون مع بعض القوى الطبيعية الخفيــة ، فليس لهــذه القصص عــلاقة بكتابنــا هــذا » (٥٧) •

وظل أوتو يشير الى العلاقة بين الكنيســة والدولة فى كتابيــه : المدينتين ــ The Two Cities ، والأعمال The Deeds • وفى هذا المجال كان أوتو سديد الرأى • وباعتباره أسقفا وتابعا اقطاعيا للملك ، فقد وجد نفسه فى أشد المواقع حساسية بالنسبة للخلاف الدائم الذى نشــأ تقريبــا منذ اللحظة التى وافق فيها قسطنطين على منح المسيحيين التسامح الدينى • وزاد من دقة موقف أوتو أن قريبه فريدريك الأول

(*) نسبة الى فيستا Vesta ربة نار الموقد عند الرومان ــ المترجم •
(**) مارس • Mars هو اله الحرب عند الرومان ــ المترجم •

برباروسا ، كان الامبراطور الرومانى المقدس ، واتضـح ، أن كليهمـا اقطاعى قدير وطموح • وعلى الرغم من أن طموحات فريدريك حققت له مكاسب مهمة فى ألمانيا بشأن تدعيم مركزه فى مواجهة الكنيسـة ، دون أن يغضب المؤيدين للسـيادة الكنسية كثيرا ، فان زياراته الى ايطاليا ، وتصرفاته هناك هى التى أدت الى الدخول فى صـدام مباشر مع البابا ، رئيس الكنيسة • وكان الاجتماع الأول بين البابا والامبراطور قد انتهى نهاية موفقة تماما ، وعبر أوتو عن سعادته عندما قدم للقارىء وصـفا مفصـلا للطريقة الودية التى تعامل بها حاكمى الكنيسـة والدولة ، مع بعضهما البعض • وكان المشهد الأول لذلك التعامل الودى عندما أرسل فريدريك حملته الأولى الى ايطاليا من أجل القضاء التام على كل المخاوف التى انتابت البابا أدريان الرابع Adrian IV ، وذلك بالقـاء القبض على أرنولد من بريسكيا Arnold of Brescia ، واصـدار أوامره باعدامه • « وعسكر الملك بالقرب من فيتربو Vitrebo ، وهو فى طريقه الى المدينة The City (*) • وكان أدريان ، البابا الرومانى ، فى استقباله فى ذلك المكان ، ومعه كرادلته ، واستقبلوا الملك استقبالا لائقا بمقامه • واستمع الملك باهتمام بالغ للشكاوى المريرة التى ألقاها البابا على سمعه • فمنذ محاولة هـؤلاء الأهالى ارجاع أوضـاع رجال مجلس الشيوخ على ما كانت عليه من قبل ، عن طريق حالات الشغب المتكررة التى قاموا بها ، فانهم لم يكفوا عن توجيه الاهانات لباباواتهم • ومما عمل على زيادة تفاقم الأمر ، واشتداد خطورة سلوكهم المحرض على الفتنة ، أن شـخصا يدعى أرنولد من بريسكيـا Arnold of Brescia ، والذى ورد ذكر اسمه آنفا ، دخل المدينة The City ، وتحت عبـاءة الدين ـ أخذ يردد كلمات من الأناجيل الأربعة القانونية ـ وتصرف كذئب فى ثوب حمل ، وبذلك أستطاع أن يؤجج نيران الغضب والعنف فى عقول البسطاء من الناس ، الذين أفسدهم بتعاليمه الدينية المضلة الى أبعد مدى ، واستطاع اقناع ـ بل اضلال ـ جموع غفيرة يصعب حصرهـا ، بتعاليمه الدينية » (٥٨) •

ثم قدم أوتو وصفا لتاريخ حياة أرنولد بالاضافة الى ملخص عن أفكاره « الثورية » التى دفعته الى اعلان الثورة ، التى أدت فى النهاية الى هروب أدريان من المدينة • بيد أن خصوم أرنولد ، والعناصر المحافظة على القديم من بين رجال الكهنوت والطبقة الأرستقراطية فى أغلب الأحوال ، نجحوا جميعا فى نهـاية الأمر فى القـاء القبض على أرنولد بمسـاعدة فريدريك ، وبعد ذلك قدموه للمحاكمة وأعدموه • واستمر أوتو فى وصفه

(*) روما •

فقال : « بيد أن قلمي يميل الى العودة ثانية الى الموضـــوع من باب الاستطراد ، فبعد أن اتحد الرجلان اللذان يحكمان العالم وضما أتباعهما تقدما معا فى المسير لعدة أيام ، وقد تبادلا الأحاديث الودية . كما يحدث بين الأب الروحى ، وأحد أبنائه • وتم بحث الأمور الكنسية والعلمانية ، وكأن دولة واحدة قد قامت من بين بلاط قصرين ملكيين » (٥٩) •

والثابت أن روح التعاون هذه بين البابا والامبراطور لم يقدر لها البقاء طويلا ، ومن حسن حظ أوتو أنه أنهى سرده التاريخى لكتاب الأعمال The Deeds قبل أن تتفاقم المشاكل الحقيقية • وفى مقدمة الكتاب الرابع بالكنيسة بشيء من التفصيـل أشار أوتو الى نظرية الفريق الذى أصر من حوليته عن المدينتين Two Cities بحث أوتو مسألة علاقات الدولة مع امتلاك الكنيســـة للسيفين ، « اقرأ عن قصة آلام الرب » • (لوقا ٢٢ : ٣٨) • وبعد أن فسروا هذه الفقرة من الكتاب المقدس ، أعطت الدليل القوى للجماعة الدينية على حق استخدام السلاحين الدنيوى والدينى فى ممارسة واجباتها ، حتى ولو كان ذلك على حساب السلطات المدنية • أما الفريق المعارض فقد حاول أن يثبت عكس ذلك مستشهدا بالكتاب المقدس أيضا ، وهو أن بطرس لم يستخدم سوى سيفا واحدا (يوحنا ١٨ : ١٠) ، وعلى أساس أن هذه الاشارة التى وردت فى الكتاب المقدس تؤكد على أنه ليس من حق الكنيسة اصدار أوامر الى السلطات المدنية فى أمور الحياة العامة • « وهكذا ، فكما أنه لا يجوز للمرء الذى يحمل السيف الدنيوى ، أن يتصرف فى الأمور الدينية ، فانه ليس من الملائم أن يغتصب رجال الدين السلطات التى ليست من اختصاصهم من الناحية الواقعية • وقدم كثير من الناس نصوصا من الكتاب المقدس تؤكد على صحة ما قلته • والواقع أنهم ذكروا ما قاله المسيح وما قاله القديسون ، وعلى سبيل المثال فقد ذكروا النص الذى جاء فى الكتاب المقدس والقائل بما يلى : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » (٦٠) •

ومع ذلك فلم يترك أوتو المسألة هنا كما يشتهى المؤيدون للسيادة العليا للدولة ، وأكد أوتو على أن الله أحاط كنيسته بسلطـات ملكيـة تتناسب مع تلك المؤسسة الجليلة ، وأشار الى أن كثيرا من الأتقياء ، ومن بينهـم البابـوات سـيلفستر Sylvester ، وجريجـورى الكبـير Gregory the Great ، والقديس بونفاس St. Boniface « الرائد الدينى الألمانى » ، قد مارسوا ، جميعا ، سلطات بعيدة كل البعد عن سلطاتهم الدينيــة • ثم أعلن أوتو عن موقفه • « انى أعترف بأنى لا أعلم تماما اذ ما كانت حالة الرفعة وعلو المكانة التى وصلت اليها كنيسة الله اليوم ترضيه فى علاه ، أكثر من حالتها السابقة والتى قامت على

التواضع والخضوع . والواقع أن الحالة الأولى يبدو أنها كانت أفضل عند الله ، وان كانت الحالة الحاضرة أكثر حظا . ومع ذلك ، فانى أتفق فى الرأى مع الكنيسة الرومانية المقدسة ، التى ولا شك أنها قامت على دعائم وطيدة ، وأعتقد بأن ما تؤمن به تلك الكنيسة يجب أن يؤمن به الجميع ، وأن ما لها من سلطة من الممكن أن تظل قائمة باعتبارها حقا مشروعا » (٦١) .

وبرغم ذلك اعترف أوتو بعدم مقدرته على التحدث بثقة كاملة عن قضية شديدة التعقيد ، وترك قارئه ، وعلى وجه التخصيص فريدريك ، مع التذكرة بأن القضية ما زالت دون حسم . وان كان قد مال الى المؤيدين للسيادة الكنسية على الدولة ، بحذر شديد . اذ كتب يقول : « يكفى ما قيل عن استقامة وتقوى رجال الكهنوت وعن منصب الملك ومقامه . غير أنه اذا ما رغب أى شخص فى محاولة استيضاح الأمر بامعان وتعمق أكثر ، فانه لن يقبل بأنى قد تحيزت فى هذا الأمر » (٦٢) .

ليس من السهل تقييم أوتو الفريزنجى كمؤرخ . فلكل كتاب من كتابيه صفة مختلفة كثيرا عن الكتاب الآخر . ففى كتابه عن المدينتين Two Cities مارس دور المتمسك بمبادىء .. الفضيلة والأخلاق . وهدفه من هذا الكتاب اقناع القارىء — على ضوء الحوادث التاريخية — بأن الحياة قصيرة الأمد ومملوءة بالشكوك والشقاء . ومع ذلك فقد أراد الله الرءوف الرحيم لهذه « الشرور » أن تكون حتى لا يتكالب الناس على الملذات العابرة فى هذه الحياة الدنيا ، وأن يعملوا من أجل النعيم الدائم فى الحياة الأبدية . وكان هدف أوتو : « تأليف تاريخ أستطيع من خلاله ، بعون الله وبفضله ، أن أصور شقاء أهالى بابل Babylon ، وأن أبرز أيضا مجد مملكة المسيح ، التى يتحرق شوقا اليها ، أهالى بيت المقدس ، بكل أمل ورجاء » (٦٣) . وفى كتابه عن الأعمال The Deeds ، ارتدى أوتو زى كاتب حولية ، برغم أنه لم يترك كلية موضوع كتابه عن المدينتين The Two Cities ، خلف ظهره . ومن ثم فعند انهائه لوصفه للعاصفة الهوجاء التى قضت على معسكر الصليبيين بالقرب من القسطنطينية علق بقوله : « ان السعادة الانسانية ليست دائمة ، وتنتهى بسرعة خاطفة » .

لم يظهر أوتو اهتماما بالتاريخ الدنيوى ، كما أنه لم يكتب بهدف التسلية والمتعة ، برغم أنه أدرك ادراكا كاملا أهمية تقديم معلومات تاريخية شيقة على أمل جذب اهتمام قارئه . فالحادثة الخطيرة المتعلقة ببيرلوس Perillus والثور البرونزى يمكن أن تقع ضمن ريجولوس Regulus ، أحد الأبطال الرومان ابان الحروب البونية Punic Wars ولابد أن يكون أوتو قد اعتقد أن قراءه سيستمتعون بالقراءة عن

ريجولوس ، برغم أنه اذا ما هوجم لذكره القصـــة فى كتاباته ، فمن الراجح أن يبرز موقفه من منطلق ما لهذه القصـــة من مغزى أخلاقى ، يكمن فى أنه من الواجب على المرء أن يكون صادقا مع نفسه اذ كتب يقول : « ألا ترى أن هذه الكلمات تدفعنا الى أن نأخذ المثل فى القدرة على التحمل والجلد ، وحب الفضيلة ، واحتقار الموت والألم ؟ والا فما هو الداعى الى التأكيد على أنه من خصائص الشجاعة والاقدام ألا يخاف المرء شيئا ، حيث يتضـــاءل كل شىء أمام المـرء ، اذ الحقيقـة أن حب ريجولـوس Regulus لبلده أو لأعزائه ، أو حتى خوفه من العذاب ، أو التعرض الجسدى للتعذيب بالمخلعة (*) Rack ، كل ذلك لم يثنه عن الوفاء بنذره ــ وهو الأمر الذى جعله يضحى بالعالم الحاضر ، وبالوالدين ، وبما ملكت يداه ، وأخيرا بنفسه » (٦٤) •

ان عدد السطور التى خصصها أوتو للكتابة عن ريجولوس تؤكد على أهمية الفكرة الأساسية التى حددت نوعية المادة التاريخية التى اختارها لاخراج كتابه عن المدينتين The Two Cities • ففى الوقت الذى كان عليه أن يزود القارىء بمعلومات عامة عن الماضى ، نجـد أنه انتقى مادة تاريخية نادرا ما كانت دون مغزى • ولهذا السبب فقد انتقل بسرعة نسبية من الحديث عن بدء الخليقة الى التاريخ القديم الى تجسيد المسيح Incarnation ، ومن تجسـيد المسـيح أمـــده ظهـور المسيحية بكثير من المناسبات والفرص للتعبير عن خواطره فى الأخلاق والمسائل الأخلاقية ومن أول نظرة تبدو الصفحات الأربع تقريبا التى أفردها أوتو للحديث عن الاسكندر الأكبر تفوق الحد وان ما يفسر هذه النظرة هو أوروسيوس Orosius الذى اعتمد عليه أوتو فى الكتابة عن الاسكندر الأكبر كتب عن ذلك الفاتح ضعف الأسطر التى كتبها أوتو تقريبا •
وبالاضافة الى ذلك ، فمن المهم أن كلا من أوروسيوس وأوتو أظهر اهتماما كبيرا بالموت الباكر لهذا الفاتح العالمى عن طريق الكتابة بخط كبير عن مقتله ، الذى من المحتمل أنه كان على يـد خادم خائن دس له السم ، وهدفهما الكتابة باسهاب عن المصير المثير للشفقة والرثاء الذى ينتظر البشر •

أما فى كتاب الأعمال The Deeds ، حيث وجد أوتو أنه ليس ملزما بعرض خواطره فى الأخلاق والمسائل الأخلاقية ، فقد شعر أنه فى حل من القاء الضوء على أية حادثة اعتبرها مثيرة للاهتمام • وهذا هو الانجاه الذى سلكه معظم كتاب حوليات التاريخ الوسيط • وكتب أوتو عن ارسال روجر الثانى ملك صقلية أسطولا ، « من سفن ثلاثية المجاديف

(*) المخلعة rack :

triremes وثنائية المجاديف biremes (وهى التى توصف حاليا باسم galleys أو Sagitteae) ، وسفن أخرى لنقل المعدات الحربية لمحاربة الاغريق • وبعد سيطرة هذا الأسطول على عدد من المدن ، وجدوا أن مدينة كورفو Corfu منيعة جدا لدرجة أنهم لجأوا « الى الحيلة والخداع » •

« وهكذا بعد ارسال بعض الرجال فى الطليعة تحت ذريعة وجود جثة معهم يرغبون فى دفنها ــ لوجود جماعة من الكهنة أو الرهبان فى القلعة المذكورة ، كما كان ذلك من عادة الاغريق ــ استطاعت تلك الطليعة اقتحام المدينة ، والاستيلاء على الحصن ، وطرد الاغريق وتمركزت قواتهم العسكرية هناك • ثم تقدموا فى عمق بلاد اليونان واحتلوا بهجوم عاصف كورنثه Corinth ، وطيبه Thebes ، وأثينا Athens التى لها شهرتها فى مجدهم التليد • وأخذوا معهم بالقوة قدرا هائلا من الغنائم ، واقتادوا الأسرى بما فيهم العمال المهرة المشتغلين بصناعة المنسوجات الحريرية وفى ذلك قصدوا الامعان فى اهانة وتحقير امبراطور الاغريق ، وفى الوقت نفسه السعى الى ارضاء ملكهم • ثم طلب روجر من الأسرى المشتغلين بصناعة المنسوجات الحريرية تعليم العمال فى باليرمو Palermo ، عاصمة صقلية ، فن نسج الحرير • ومنذ ذلك الحين فصاعدا انتقلت صناعة الحرير الى روما بعد أن كانت قاصرة على الاغريق من دون الأمم المسيحية » (٦٥) •

أبدى أوتو مقدرة على ابداء الرأى فى الأخبار الماضية بعين فاحصة بنفس القدر الذى قام أى من الكتاب المعاصرين له • وآمن أوتو بوجود الملائكة والشياطين ، والقوى الخارقة للطبيعة بصفة عامة وهو الأمر الذى يتحتم على القارىء الحديث قبوله من أى مؤرخ فى التاريخ الوسيط • بيد أن طريقة معالجته للأساطير والخرافات القديمة تمدنا بنموذج ممتاز لأسلوبه فى معالجة الأمور الخارقة للطبيعة • فبالنسبة لحالة البطل الاغريقى أوديسيوس ، قام أوتو بتجريد تلك الأقاصيص مما بها من معانى خارقة للطبيعة وحاول تفسير أصولها على ضوء العلاقات الانسانية • ولا بد أن أوتو كان من بين القلة الذين رفضوا صحة القصة القائلة باصابة قنسطنطين بمرض الجذام • ويعتقد أن هذا المرض دفع قنسطنطين البار الى التنازل عن حكم الغرب الى البابا سيلفستر Sylvester عندما شفاه الله من مرضه باعجوبة • وكتب أوتو : « من الواضح أن ما نقرأه عن حياة القديس سيلفستر ومرضه بالجذام واعتناقه المسيحية من الأمور المشكوك فيها » (٦٦) •

كان أوتو ملتزما بقول الصدق كمؤرخ كنسى باستثناء ميله الى

مديح فريدريك فى كتابه عن الأعمال The Deeds ، اذ تقمد عند تدوين ما قد يراه قريبه فريدريك ، غير مستحب الذكر . ويحسب لأوتو موقفه بشأن الخلاف على تقليد المنصب بين الكنيسة والدولة ، لأنه تحدث بصراحة فى كل ما قاله عن الجانبين . وعلى الرغم من أن أوتو قد بدا منحازا الى جانب قريبه فريدريك بشأن التعيين فى الكرسى الأسقفى فى مجدبورج Magde burg. (٦٧) ، فانه ترك انطباعا فى النهاية عن أن هيمنة الكنيسة فى عهده كانت وفقا لمشيئة الله .

وعلى غير ما كان شائعا بين كتاب الحوليات فى العصور الوسطى كان أوتو شديد الاعجاب بجمال الطبيعة . فغالبا ما توقف عن اكمال سرده التاريخى ليقدم احدى التعليقات عن جمال السمات السطحية لموقع أو اقليم (الطوبوغرافيا topography) وعندما شرع كونراد الثالث فى تنفيذ حملته الصليبية ، « تبددت قشعريرة برد الشتاء ، وخرجت الأزهار والنباتات من باطن الأرض بعد أن جاد وابل من مطر الربيع ببعض ما عنده ، وأشاعت المروج الخضراء البسمة فى كل مكان ، وملأت وجه الأرض بالبهجة والحبور » (٦٨) ، وقدم أوتو وصفا لمناظر أخرى ، كما حدث ، على سبيل المثال ابان عقد اتفاقية سلام بين فريدريك وتورتونا Tortona . وكان أهالى المدينة قد خرجوا فى النهاية من المدينة تحت وطأة الحصار والمعاناة . « وخرج أبناء المدينة التعساء ... من محل اقامتهم بالقلعة ، وهو المكان الذى ظلوا به وهم فى حالة مثيرة للشفقة والرثاء ، لينعموا بالحرية واستنشاق نسيم الربيع العليل ، وقد شحبت وجوههم وكأنهم جثث خارجة من قبورها » (٦٩) .

قدم قليل من المؤرخين فى العصور الوسطى وصفا للشخصيات ، وكان أوتو ضمن هؤلاء المؤرخين الا أنه نادرا ما فعل ذلك . بيد أنه فى مقدور القارىء أن يكون صورة ذهنية عن نوعية أبلارد Abelard . على الأقل من وجهة نظر أوتو ، على ضوء ما قاله أوتو نفسه : « وكان بطرس أبلارد هذا قد كرس نفسه منذ فترة طويلة للدراسات الأدبية والأمور الأخرى القليلة الأهمية ، بيد أنه كان معجبا بنفسه وشديد الثقة فى قدرته الفكرية ، لدرجة أنه لم يحاول أن يحط من قدر نفسه وينزل عن عليائه ويصغى الى معلميه ... ثم صار معلما وذهب الى باريس ، وأبدى مقدرة فائقة فى البحث فى مواضيع لها أهميتها بالنسبة للفلسفة ، وفى غيرها من مجالات التسلية واللهو فى الحياة الاجتماعية » (٧٠) .

تلك كانت المناسبة الوحيدة التى كتب فيها أوتو بأسلوب المتهكم .

أما عن القيمة التاريخية لكتابى أوتو فلا ريب فيها . فكتاب الأعمال The Deeds ، مفيد جدا للمؤرخ الحديث ، أما كتاب المدينتين

The Two Cities فهو أكثر اهمية • وقد وصف كتاب الأعمال بأنه أفضل دراسة بيوجرافية عن القرن الثانى عشر ، ولا سيما أن العصور الوسطى لم تمدنا سوى بالقليل من هذا النوع • ومع ذلك فقد تضمن كتاب الأعمال معلومات قيمة عن فريدريك بربادوسا وعصره ، بالاضافة الى ملاحظات جانبية مهمة عن شخصيات بارزة مثل أرنولد من بريسكيا Arnold of Brescia ، وبطرس أبلارد Peter Abelard ، وجلبرت دى لابوريه Gilbert de la Porrée • وربما لا يجد المؤرخ الحديث فى أى كتاب آخر دليلا أكثر اقناعا يساعده على تقدير مدى التأثير القوى للفلسفة المسيحية القائمة على اخضاع الفلسفة للاهوت واقامة صلات عقلانية بين العقل والدين Scholasticism ، والتى كانت آخذة فى الانتشار • فعلى سبيل المثال ، وردت فى كتاب الأعمال ، ابان كتابة أوتو عن التحقيق مع جلبرت دى لا بوريه ، دراسة متضمنة أربع صفحات بهدف توضيح مشكلة عالمية الخلاص المنسوبة الى الثالوث الأقدس •

ولو كان انتاج أوتو قاصرا على كتاب الأعمال The Deeds فحسب ، لما نال سوى مجرد ذكر اسمه كأحد كتاب القرن الثانى عشر • أما كتابه الثانى عن المدينتين The Two Cities فقد حقق له شهرة وجعله مؤهلا لأن يكون أحد أفراد جماعة فلاسفة التاريخ المنتقاة • ولا شك أن كتاب المدينتين يمثل أعظم قصة متزنة عن الجنس البشرى حيث اشتمل على سجل تاريخى عما فعلته الأمم والأفراد ابان مسيرتهم الشاقة نحو الحياة الأبدية ، مع وجود الله ، المطلع عليهم ، والذى يمهل ولا يهمل • وسيجد الباحث القليل من المعلومات التاريخية البحتة ، باستثناء ما ورد فى الكتابين السادس والسابع عن فرنسا وألمانيا فى الفترة السابقة على عصر أوتو • ويؤكد كتاب المدينتين على استمرار فكرة مدينة الله City of God للقديس أوغسطين ، وعلى مقدرة غرب أوربا على تخريج أساقفة فى القرن الثانى عشر ، نذروا أنفسهم للعلم وللمسئوليات الروحية • على أننا اذا ما حاولنا وصف أوتو على أنه فيلسوف فى التاريخ ، فان ذلك ربما يكون ضربا من المبالغة أو المغالاة • ومع ذلك فلابد للمرء التسليم بتفوق أوتو باعتباره أعظم كاتب للتاريخ عمقا فى التفكير طوال كل العصور الوسطى العالية •

ـ ٥ ـ

متى باريس

ليس معروفا سوى القليل عن الحالة الشخصية الأصلية لمتى باريس Matthew Paris أشهر كتاب الحوليات الانجليز • ونظرا لأنه دخل دير القديس البنز St. Albans سنة ١٢١٧ م وربما كان فى السابعة عشرة ، لذلك يمكن للمرء أن يفترض أنه ولد حوالى سنة ١٢٠٠ م • وليس فى استطاعة أحد المغامرة بالتخمين بشأن محل ميلاده ، أو طبقته الاجتماعية • بل ان وجود كلمة باريس فى اسمه تثير الحيرة والارتباك ، اذ ربما تكون اسما لوالده أو أسرته • على أية حال ، فان التحاقه بالجامعة فى باريس ، لم يرد عنه أى اشارة فى كتاباته ، كما أنه ليس فى استطاعة أى شخص الاشارة الى أن وجود كلمة باريس ضمن اسمه ينم عن حبه للفرنسيين • فبالنسبة لجيرانه عبر بحر المانش ، لم يضمر لهم كراهية بقدر ما كان يشعر بها تجاه الاغريق •

ويبـدو أنه عاش حيـاة عزلة فى سانت البنز ، الى أن زار دير وستمنستر سنة ١٢٤٧ م ، وربما تعرف على عـدة مدن وأديرة ، ابان تلك السـنوات الباكرة ، برغم وجود تلميحـات فحسب عن ذلك فى كتاباته • وقبل سنة ١٢٣٦ م بعدة سنوات أصبح مساعدا لروجر من وندوفر Roger of Wendover ، كاتب حولية الدير ، اذ مات روجر فى تلك السنة وأخذ متى باريس على عاتقه تولى مسئولياته • وربما ألزمته واجباته الجديدة بالبقاء على مقربة من مدينة سانت البنز ، باقى أيام حياته ، باستثناء زيارات طارئة الى لندن ، والى الجماعات الديرية الأخرى المجاورة • وعلى الرغم من أن (متى) كشف عن اهتمامه الكبير بأخبار القارة الأوربية ، فمن المدهش أنه لم يزرها سوى مرة واحدة •

وكانت هذه الزيارة « رغم أنفه » (١) على حد قوله • ففى سنة ١٢٤٦ م احتاج اليه هاكون الرابع Haakon IV ، ملك النرويج ، لتسوية المشكلات المالية لدير القديس بينيت St. Benet فى جزيرة نيدار هولم Nidarholm بالنرويج ، مع المرابين الانجليز • وليس معروفا سبب لجوء هاكون الى طلب عون (متى) ، بيد أن (متى) استطاع أن يعالج الموقف بنجاح • وبعد ذلك بعامين أى سنة ١٢٤٨ م، تعرض الدير لمشكلات مالية للمرة الثانية ، وان كانت المشكلة تلك المرة مع رئيس الأساقفة ، وتطلب الأمر ذهاب متى لابداء المشورة • وتمخض هذا الطلب عن قيام متى برحلته الوحيدة الى بلد أجنبى • وواكبت تلك الزيارة حادثة تستحق التعليق عليها ــ وهى أن لويس التاسع ملك فرنسا سلم (متى) رسالة الى ملك النرويج فى محاولة منه لاقناعه بمشاركته فى حملته الصليبية • كما أن تكليف (متى) بحمل تلك الرسالة يلقى مزيدا من الضوء على طبيعة ، ونوعية ارتباطاته ، وآرائه التى كان لها أهمية كبرى ، وهو مؤرخ حولية للعصور الوسطى •

وفيما عدا تلك الحقائق القليلة ، فليس معروفا سوى القليل عن حياة (متى • بل ان سنة وفاته ظلت غير مؤكدة ، على الرغم من ان الدارسين حددوها بسنة ١٢٥٩ م ، لأن حوليته توقفت فجأة فى مايو من تلك السنة • وبتتبع آخر ما دونه (متى) فى مخطوطته يظهر ما كتبه خليفة (متى) ــ وامتنع هذا الراهب المتواضع عن ذكر اسمه أمام « ذلك الرجل العظيم » ــ ان مؤرخ الحولية العظيم قد أكمل مؤلفه : وتحت هذا الاعلان السابق مباشرة ، أضاف أحد زملائه من الرهبان ملاحظة موجزة ومشابهة عن (متى) وهو على فراش الموت ، وهى ، « عند هذا الحد توفى متى باريس » (٢) •

ان الفترة ما بين سنة ١٢٤٦ م ، عندما أخذ متى على عاتقه مهمة كتابة الحوليات ، حتى ١٢٥٩ م سنة وفاته ، كانت كلها سنوات نشاط ، وانتاج علمى وافر • وتشغل كتاباته الجزء الأكبر من اثنى عشر مجلدا فى سلسلة الوثائق الرسمية the Rolls Series (٣) ومعظم المخطوطات الأصلية كتبت بخط يده • وعلى الأرجح فان الرسوم التخطيطية والتوضيحات التى وردت فى تلك المخطوطات هى من صنع (متى باريس) نفسه • واشتملت تلك التوضيحات المصورة على تروس ، وسيوف ، وأقواس ونشاب ، وتيجان أساقفة ، وصولجانات أساقفة ، بالاضافة الى موضوعات أكثر طموحا ، مثل حصار دمياط ، وصورة لفيل ومعه رجل يحمل درعا مصفحا • ووضع تلك الرسوم الخطية فى الهوامش ليوضح سرده التاريخى (فعلى سبيل المثال كان يرسم تاجا ، وصولجانا مقلوبين

إشارة الى موت أسقف) • وليس من قبيل المصادفة القول بأن صور (متى) الايضاحية أهلته الى اعتلاء مكانة رفيعة فى تاريخ الصور الزيتية فى العصور الوسطى • كما أن خرائطه جعلت له مكانه فى تاريخ فن رسم الخرائط ، أما ما رسمه من تروس ، وشعارات النبالة ، فقد خلدت ذكراه فى علم شعارات النبالة •

واشتمل انتاج (متى) العلمى ، والذى تميز بغزارة ماكتبه ، على الحولية الكبرى ، والتى كانت أروع انتاجه العلمى ، وتاريخ انجلترا (وهو نسخة مختصرة من الحولية الكبرى بعد أن حذف معظم الموضوعات التى لا تتعلق بشكل مباشر بتاريخ انجلترا) ، والحولية الموجزة (وهى اختصار لتاريخ انجلترا ، وكتاب الاضافات ، وهو مجموعة من الوثائق التى أشار اليها فى الحولية الكبرى) ، وأعمال رؤساء الأديرة (وهو وصف موجز لتاريخ مدينة سانت البنز ، من خلال حياة رؤساء الأديرة بها) ، وحياة الأوفيين Vitae Offarum (حياة الأوفيين Two Offas اللذين ارتبط اسماهما بانشاء الدير) ، وتاريخ ملوك انجلترا • (وهو احدى المؤلفات التى نسبت الى (متى) من وستمنستر فى وقت ما) ، وهى حولية عن ملوك انجلترا ، تبدأ بالملك ألفريد Alfred •

واتضح أن كتاب تاريخ ملوك انجلترا كتبه متى الباريسى بخط يده فى الفترة ما بين ١٢٤١ م الى ١٢٤٩ م ، أما بعد سنة ١٢٤٩ م ، فقد قام ناسخون آخرون بكتابته • وعلى الرغم من أن ذلك الكتاب استمد مادته العلمية من كتاب الحولية الكبرى ، فان أسلوبه الواضح يوحى بأن المؤلف قصد به ان يكون نسخه شعبية للعمل الكبير • وكتب (متى) أيضا الشىء القليل عن سير القديسين ذاكرا حياة القديس ستيفن لانجتون Stephen Langton • وقد أثير بعض الجدل حول أصالة العديد من كتابات (متى باريس) •

وتبدأ الحولية الكبرى ، وهى الأثر الأدبى الرئيسى لمتى باريس ، بتاريخ الملوك لروجر من وندوفر ، بعد أن قام متى باجراء تعديل طفيف عليه ، وتلاه حوليته كعمل متمم اعتبارا من سنة ١٢٣٦ م • (ويبدأ تاريخ الملوك منذ بدء الخليقة) • وليس من المعروف سبب قيام (متى) باجراء تعديلات متعددة على ما كتبه روجر قبل أن يبدأ فى ذكر ما كتبه من مادة تاريخية • ونظرا لأن تعديلاته تجاوزت حد تصحيح أخطاء ، فلا شك أنه اعتقد أن تعديلاته سوف ينتج عنها وصف تاريخى أكثر تناسقا ، وقيمة من الناحية العلمية • (ومع ذلك فقد ارتكب (متى) أخطاء ابان محاولته تصحيح ما كتبه روجر وقام متى باحداث تغيرات فى أسلوب روجر بهدف اضافة لمسة من الأهمية على وصف روجر التاريخى •

وقام (متى) باضافة كلمات ، بل وفقرات كاملة بهدف العمل على زيادة قوة تأثير ما كتبه روجر • وهى اضافات تمكن القارىء من الاحاطة بأحداث الماضى بشكل أفضل ، من وجهة نظر (متى) على الأقل • وقدمت تلك الاضافات الدليل على أن الأحداث كانت من صنع الأفراد الذين كان بعضهم من الأتقياء ، وغالبيتهم من الأشرار •

وستوضح الفقرات التالية طريقة متى فى تنقيحه لحولية روجر • وكان روجر قد كتب بطريقة موضوعية تماما عن كيفية عودة هنرى الثالث الى انجلترا عند نهاية سنة ١٢٣٠ م ، بعد الاعداد للدفاع عن اقليم بواتوه Poitou • وبالنسبة لتلك الحملة الخالية من عنصر الاثارة ، قدم (متى) معلومة اضافة عن هنرى قائلا أنه فعل ذلك « بعد أن أنفق مبالغ طائلة من المال ، وبعد أن عانى من نقص شديد فى الرجال ، اما نتيجة للموت ، أو ما تعرضوا اليه من مرض ومجاعة ، أو بعد أن تحولوا الى حالة من الفقر المدقع » (٤) والمثال الثانى والمتعلق باعادة صياغة ما كتبه روجر ، أورد (متى) فيما كتبه مشاركة البابا لهنرى الثالث فى السلوك المريب على نحو صارخ ، والناجم عن الحقد الشديد من حين الى آخر • وذكر روجر ، دون تعليق ، فى حوليته عن سنة ١٢٣٠ م ان حنا من برين John of Brienne قد هرب الى فرنسا • فأضاف (متى) الى هذه المعلومة التعليق القائل بأن حنا فعل ذلك • « ومعه المرتزقة التابعين له ، والذين غمرهم البابا بالمنهوبات الكنسية ، وقدم اليهم الغنائم التى جمعها من الفقراء الذين تعرضوا للأسر على يديه » (٥) •

وما ان وصل (متى) الى سنة ١٢٣٦ م فى حولية روجر حتى توقف عن تعديله لها ، وبدأ فى الكتابة عن الأحداث التاريخية وفقا لجهده الشخصى • ويبدو أن (متى) خطط على أن تنتهى حوليته عند أحداث سنة ١٢٥٠ م ، ثم غير رأيه ، واستمر فى سرد مادته التاريخية حتى شهر مايو ١٢٥٩ م • وفى الوقت الذى واصل فيه كتابة حوليته ، اختلس بضع ساعات لمراجعة ما كتبه ، لتصحيح الأخطاء ، وتوضيح الفقرات الغامضة • ولنا أن نقبل رغبته فى تحسين انتاجه العلمى على هذا النحو ، وبخاصة أن حوليته ظلت فى حوزته ، وكانت فى حاجة الى ذلك التحسين•

ومع ذلك لم تتوقف محاولات (متى) عند حد التنقيح عن طريق تصحيح الأخطاء ، والأسلوب على نحو جانبه التوفيق ، وانما امتدت لتشمل عملية التخفيف من حدة الأسلوب العنيف فى النص الذى كتبه فى عشرات الحالات • وفى أغلب الأحوال أنصب تعديله للنص الأصلى على توجيه اللوم الشديد لهنرى الثالث لممارسته الابتزاز الاستبدادى ، وعلى البابوية التى اعتراها الفساد ، مستخدما فى ذلك أساليب قاسية •

على أن أحد توضيحاته اللافتة للنظر بشأن الطريقة التى انتهجها (متى) عند تغييره لأسلوبه الباكر ، بهدف تنقيح النص الأصلى ، تعلق بالاخوان الرهبان الفقراء friars • ولم يخف (متى) حبه لنظم الاخوة المسيحية التى تعيش على الصدقات • واحدى الفقرات التى عبر فيها (متى) عن وجهات نظره عن الاخوان الرهبان الفقراء ما يلى ، « وفى هذا الوقت نذر الاخوان الدومينيكان Dominicans ، والاخوان الفرنسسكان Franciscans أنفسهم ، بكل جد وكد ، لالقاء المواعظ الدينية التى أتت أكلها حاليا • وعملوا بكل مثابرة من أجل نجاح الحركة الصليبية • وقاموا بالدعوة للمشاركة فى الحركة الصليبية ، والقاء الخطب الرنانة ، والمصحوبة بعبارات اللوم ، ثم استمروا فى رسم اشارة الصليب على الناس من شتى (مختلف) الأعمار ، من الذكور والاناث ، ومن كل الطبقات الاجتماعية ، بصرف النظر عن الحالة الصحية • بيد أنه فى اليوم التالى ، بل وربما بعد ذلك على الفور ، كانوا يستردون اشارة الصليب ممن يدفع لهم مبلغا من المال مقابل اعفائهم من قسمهم بالمشاركة فى الحرب الصليبية • وكانوا يودعون الأموال فى خزانة احدى الشخصيات المهمة • وبدا هذا الأمر كله على أنه خاطىء ومثير لسخرية البسطاء والعامة ، وادى الى فتور الحماس الدينى لدى كثير من الناس ، « طالما أنهم قد تحولوا الى ما يشبه الخراف التى تباع من أجل صوفها » (٦) •

وبعد ذلك بعدة سنوات أسدل (متى) ستارا على وصفه الأول ، وأحل محله فقرة تخص أنشطة الاخوان الرهبان المتجولين للتبشير friars ذاتها • وتبدو الصورة الجديدة مختلفة تماما : « وفى هذا الوقت بذل الدومينيكيون والفرنسيون كل ما فى وسعهم من جهد ، وتعاون غيرهم معهم • وكانوا جميعا على بينة ، بفن القاء المواعظ الدينية وتدربوا عليها ، وجنوا ثمارا متعددة لكل جهودهم ، ونثروا بذور الحب فى حقل المسيح • وحتى لا يحول أى عائق دون أن ينال أى مسيحى مخلص الغفران الكنسى بناء على وعد الاخوان الرهبان للذين تمنوا المشاركة فى تلك الحملة الصليبية ، فانهم وافقوا عن طيب خاطر على قبول فدية للحصول على الغفران redemption من أى فرد وفقا لحالته المالية وبفضل جمع تلك التبرعات الضخمة لاعلاء كلمة الله ، يمكن القول ان الاستجابة العاجلة لذلك القرار ، كانت مساوية للمشاركة فى هذه الحملة الصليبية تماما بتمام • هذا بعد أن وصل الجميع الى أنه حتى لو أضيف النساء ، والأطفال والمرضى ، بل والفقراء والمعدمون ، الى الرجال ، فليس فى مقدورهم مجتمعين أن يحققوا سوى القدر اليسير أمام الحشود الضخمة لأعداء المسيحية (٧) •

ويبدو أن قيام (متى) بعملية تهـذيب ما كتبه ظل قائما حتى مماته ، وأرجو ألا يكون استخدامى لتعبير « تهذيب » قاسيا • وللمرء أن يتساءل اذا ما كان متى قد قام بتعديل أسلوبه الخاص بما يرويه من تاريخ فى مرحلة كتابته الباكرة بناء على ضغط من رؤسـائه ، لأنه غير رأيه ، واعتقد أن تعبيراته الأصلية غير صحيحة ، أو لأنه اعتبرها منفرة وغير دقيقة تماما • وهناك تفسير محتمل ، وهو انه قد أدرك أنه عبر عما يجول بخاطره على نحو غير مستساغ ، من حين الى آخر ، وان كان ذلك أمرا مألوفا عند الكتاب الذين كتبوا بحماس شديد • وأنه اكتشف ذلك بعدما كبر فى السن ، وقام باعادة قراءة ما كتبه • وهناك احتمال لتفسير محاولته تغيير ما كتبه فيمـا بعد ، وهو أن ازدياد معرفته الشـخصية بالاخوان الرهبان الفقراء ، عن ذى قبل ، دفعه الى تغيير آرائه السابقة التى بناها لما رواه المتحاملون عليهم •

وفى المجال القاصر على مجرد ذكر الأخبار ، والذى يتعارض مع دور (متى باريس) الضليع فى تحليل الأحداث التاريخية ، فانه تجنب ذلك الدور فضلا عن عدم وجود كاتب فاقه من ناحية المصادر التى أتيحت له واستقى منها أخباره • ولهذا السبب فان النظرة الأولى الوثيقة الصلة بتقييم (متى) باعتباره كاتب حوليات هى انها تعطى انطباعا بأهمية تلك المصادر • ولا ريب أنه يجول بخاطر قراء حوليات (متى) سؤال عن كيفية محاولة راهب متقوقع فى ديره الكتابة بما زاد عن مجرد تدوين عادى للحوادث التى أثرت على ديره بشكل مباشر أو حدثت فى المناطق المجاورة له • لذلك فان ما حققه (متى) من سمعة يحسد عليها كأحد كتاب الحوليات للتاريخ الأوربى تجعل مسألة حصـــوله على المعلومات التاريخية التى قدمها أمرا مثيرا لاهتمام القارىء وفضوله الى حد كبير •

ولا ريب أن قدرا كبيرا من المعلومات التى أوردها متى فى حوليته ، وصلت اليه عن طريق الزوار الذين نزلوا فى الدير • فمن وجهة نظر (متى) لا يمكن أن يمتاز موقع مدينة سانت البنز St. Albans ، والتى لا تبعد سوى مسيرة يوم واحد على الطريق المؤدى الى شمال وشمال غرب انجلترا ، عن بعد القارة الأوربية اليه • وفى عصر كانت فيه الحانات(*) قليلة ، استفاد كثير من الناس من كرم ضيافة الدير • وذكر (متى) أن الدير الذى عاش به أعد حظيرة لخيول النزلاء تسع ثلاثمائة جواد • أما الفقراء والزوار ارضاء للدافع الدينى فقد وصلوا سيرا على الأقدام •

وكان الملك هنرى الثالث أشهر الشخصيات البارزة التى زارت مدينة سانت البنز St. Albans ووفقا لحولية (متى) ، فقد نزل هذا الملك بالدير ما لا يقل عن تسع مرات • وفى احدى تلك الزيارات للدير

(*) كانت الحانات مزودة بغرف للمبيت والحانة هنا تشبه الخان الشرقى •

ظل به ستة أيام • ومن حسن حظ متى أنه استطاع اللقاء بالملك هنرى الثالث • ومن ثم كان على علم بكل الأنباء والأخبار التى تحدث عنها الملك منه مباشرة ، ودون أن يعلمها بطريق غير مباشر سواء من رئيس الدير أو الأخرين • وكتب (متى) عن زيارة الملك الى الدير فى مارس ١٢٥٧ م • فقال : « لقد أطال الملك اقامته ••• لمدة أسبوع ، ونظرا لأن كاتب هذه الحولية كان مرافقا مستديما للملك فى القصر ، وعلى مائدة الطعام ، وفى حجرة الاستقبال ، فان الملك أملى عليه بكل اهتمام ودماثة » (٨) •

وفى نهاية سنة ١٢٤٧ م قام (متى) باحدى زياراته النادرة الى وستمنستر Westminister ، بناء على دعوة من الملك هنرى الثالث الذى دعاه ليقيم بالقرب من العرش الملكى ، حيث تحدث مع الملك ، ثم دعاه الملك بعد ذلك لتناول الطعام معه • وفى مناسبة أخرى ذكر (متى) أن البابا عرض على هنرى الثالث أن يعتلى ابنــه عرش ألمانيــا بدلا من فريدريك الثانى Frederick II ، بيد أن هنرى رفض ذلك العرض « وهذا ما قاله لى الملك المذكور ، أنا (متى) كاتب تلك الصفحات » (٩) •

ومن بين الشخصيات البارزة الأخرى التى زارت الدير : الملكة اليانور Eleanor وريتشارد ، ايرل كورنول Cornwall ، شقيق هنرى ، وهاكون الرابع Haakon IV ملك النرويج ، وأعضاء المجلس الملكى ، والبــارونات ، والأســاقفة ، ومن بين الأخــيرين روبرت جروســتست Robert Grossiteste ، أسقف لنكولن Lincoln ، الذى كان باحثا شهيرا وعالما كبيرا • وكان لارتباط (متى) بكبــار الموظفين فى خزانة الدولة أهمية قصوى بالنسبة اليه • اذ يوجد ما لا يقل عن أربع عشرة وثيقة مسجلة فىكتابه « كتاب الاضافات » Liber Additementorum وهى نسخ من الأصول الموجودة فى الكتــاب الأحمر بوزارة الماليــة •

وزارت الدير أعداد غفيرة أقل مقاما — يوميا تقريبا — وكان من بينهم جماعات الدومينيكان Dominicians ، والفرنسسكان Franciscans • ونظرا لقدرة الاخوان الرهبان الفقراء على التنقل والترحال ، ولاستعانة البابوات بهم الى أبعد مدى ، واتخاذهم كمبعوثين تابعين للبابوية ، فان معلوماتهم عن الحوادث التى جرت بالقارة الأوروبية وما خلفها كانت تفوق غيرهم بكثير • ويكشف الخبر الذى تلقاه (متى) من الأراضى المقدسة سنة ١٢٥٢ م عن أن معلوماته كانت تصل اليه بطريق غير مباشر من « الرهبان السسترشينيين Cistercian ، الذين عادوا من هنــاك ••• بعــد أن حصلوا على معلوماتهم من الكاردينال حنا ، الانجليزى الأصل ، والمعروف باسم الكاردينال الأبيض لأنه كان أحد أعضاء جماعة الرهبان السسترشينيين والذى أرسل رسائل الى باقى أفراد جماعته على يد أحدهم » (١٢) •

ومع ذلك فيظهر بوضوح مدى ما تثيره تلك المعلومات غير المباشرة من شك تجلى فى نوعية الخبر الذى نقله « رجل مبجل ، وهو رئيس جماعة اخوان كنيسة القديس توما الدينية فى مدينة عكا ، الى (متى) سنة ١٢٥٧ م بمدينة سانت البنز ، اذ أبلغه ، « أن نوعا من الصواعق الجهنمية هبط من السموات العلا ، وأشعل النيران فجأة فى معبد محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) ، ثم حدث انفجار ثان مشابه للأول ، وحول المعبد المذكور الى أشلاء صغيرة • وعلى ما نعتقد حدث انفجار ثالث خسف بحطام المعبد والتمثال فى أعماق الأرض • وقال ان هذه النيران قضت على الأخضر واليابس لشدة اشتعالها ، برغم أنها ليست مضيئة ، وامتدت لتحرق باطن الأرض ، وما بها من صخور وكأنها نار جهنم ، وبناء على ذلك احترقت مكة بأسرها • وكذلك اشتعلت تلك النيران فى كل المنطقة المجاورة لها » (١٣) •

وهناك معلومات ذكرها (متى) فى حوليته كشاهد عيان لها ، كما أنه من النادر ذكره مشاهدته لحادثة وصفها فى حوليته • ومع ذلك فى استطاعة القارىء التأكد من أنه شاهد ما رواه • ومثال ذلك تلك المناسبة المنعمة بالجلال والرهبة ، عندما اعتقد الكثيرون بأن دم المسيح تم احضاره الى دير وستمنستر فى يوم عيد القديس ادوارد سنة ١٢٤٧م • فيقول (متى) ان الملك ، الذى صاحبه كل رجال الاكليروس بلندن ، قام بحمل الاناء المقدس من كنيسة القديس بولس الى وستمنستر حيث أقيم قداس ، ثم ألقى أسقف نورونش Norwich عظة فى الكنيسة • وابان المناقشات بعد الانتهاء من اقامة الشعائر الدينية طرح سؤال عن كيفية قيام المسيح من بين الموتى « بكامل جسده » ، ومع ذلك ترك دمه على الأرض ووفقا لرواية (متى) ، استطاع روبرت جروستيست Robert Grosseteste ، أسقف لينكولن Lincoln ، تبديد كل الشكوك ، « على نحو محكم وصائب جدا » • وقام (متى) باضافة أدلة وبراهين الأسقف ، وذكرها فى كتابه الخاص بالاضافات ، وأن كاتب هذه الحولية سمع تلك البراهين بنفسه ، ودونها حرفيا وبكل دقة » (١٤) •

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم • ويلاحظ القارىء الكريم أن جوزيف داهموس مؤلف هذا الكتاب ، وهو مؤرخ لا يدين بالاسلام رفض تماما هذه المعلومة لأنها عارية تماما من الصحة لعدم وجود سند تاريخى لها فى أى مصدر آخر ، وأنها ليست من الواقع فى شىء • وللمترجم الحق فى القول أنها مثال لمعلومات وأكاذيب ، وأساطير ذخرت بها معظم المصادر التاريخية الأوربية فى العصور الوسطى • كما تعبر عن نظرة الرهبان فى أوربا تجاه الاسلام فى العصور الوسطى • (المترجم) •

كما أن القوة التى وصف بها متى كثيرا من الحوادث التاريخية تدفع القارىء على أن يفترض وجود (متى) كشاهد عيان لها . اذ يستطيع المرء أن يضعه بين الشخصيات البارزة وبقية الضيوف الذين اجتمعوا لحضور حفل زفاف مارجريت ابنة هنرى الى الاسكندر ملك اسكتلندا فى مدينة يورك ابان عيد ميلاد سنة ١٢٥٢ م « ولقد احتشد هناك جمع غفير من الاكليروس والفرسان حتى ان روعة هـذا الاحتفال الزفافى الضـخم تألقت فى كل مكان ، ذلك لوجود ملك وملكة انجلترا ، ونبلائهم ، الذين لا يمكن سرد أسمائهم لأن ذلك سوف يستغرق وقتا طويلا ، وحضر ملك اسكتلندا ايضا والملكة والدته التى وجهت اليها الدعوة ابان وجودها فى القارة الأوروبية ، وحضرت معها حاشية كبيرة من اسكتلندا وفرنسا ، اذ هى من مواليد فرنسا . ووفقا للعادة المتبعة مع الملكات الأرامل ، كانت الملكة الوالدة تحصل على ثلث الموارد المالية لمملكة اسكتلندا ، والتى بلغت ما يزيد على خمسة آلاف من الماركات (*) . هذا بالاضافة الى ما تحت يديها من الممتلكات الأخرى التى منحها لها والدها انجيلرام Engelram ، ومن ثم ظهرت فى القارة الأوروبية ومعها حاشية ضخمة من المرافقين لها ، والذين اتسموا بالأبهة والمهابة . وعندما وصلوا جميعا الى مدينة يورك ، أقام المرافقون لتلك اسكتلندا فى شـارع واحـد . دون أن يختلطوا مع الآخرين ، من باب الحذر والاحتراس ، وفى الوقت الذى قام فيه بعض القادة التابعين لسادتهم الاقطـاعيين بتدبير أماكن اقامة لسادتهم ، قام البعض الآخر بالمشاركة فى مبارزات بدأت بالأيدى ، ثم بالهراوات ، وانتهت بالسيوف ، وجرح بعضهم جروحا بالغة الخطورة ، وخر أحدهم صريعا ، أما الذين جرحوا فلم يبرءوا من جراحهم . ومع ذلك استطاع الملكان ، اللذان كانا فى مكان المبارزة ، أن يضعا حدا لها بمساعدة الحرس الشخصى التابع لكل منهما ، وهو الحرس الذى اتسم بالحكمة والاعتدال » (١٥) .

ومن غير المحتمل أن (متى) شهد تلك الأحداث فى يورك بنفسه ، برغم أن الطريقة الشخصية التى استخدمها باستمرار فى وصف تلك الحوادث توحى للقارىء بأنه كان شاهد عيان لها . ووجد (متى) متعة فى وضع جمل من عنده فى صيغة المتكلم ، بل وخطب أيضا ، على لسان الشخصيات الكبرى ، وهو اجراء يزيد من التوهم بأنه كان موجودا ابان الاحتفال .

وكانت أهم مصادر معلومات (متى) التاريخية ، وبخاصة تلك التى وردت اليه عن البلاد الأجنبية ، ترد اليه عن طريق الرسائل التى وردت

(*) المارك Mark وحدة نقد انجليزية قديمة تعادل ١٣ شلنا و ٤ بنسات . (المترجم) .

اليه بصفة شخصية أو التي نقلها اليه من أرسلت اليهم تلك الرسائل ، وهو الأمر الذى كان أكثر حدوثا • ويمكن التماس العذر لمتى عندما يكون المرسل والمرسل اليه من الشخصيات المهمة مثل فريدريك الثانى ، امبراطور ألمانيا ، وهنرى الثالث ملك انجلترا • ثم نجد (متى) وقد سلم بفحوى الرسالة ، واعتبرها جديرة بالثقة الى أبعد حد ، وبخاصة عندما تكون تلك الرسالة غير سياسية • ومن الممكن من أول وهلة وضع الخطاب الذى أرسله فريدريك الى هنرى ، وأدرجه (متى) فى الحولية عن سنة ١٢٤١ م تحت هذا الصنف • وكان فريدريك قد كتب الى صهره هنرى ، على أمل ضمان تعاونه معه ضد الخطر المحدق ، « الذى ينذر بالقضاء التام على الوجود المسيحى » ، وضد التتار على وجه التخصيص ، الذين اندفعوا فى شرق أوربا بأعداد ضخمة • واعترف فريدريك أنه ليس لديه علم عن المكان الذى جاء منه هؤلاء القوم ، سوى أنهم « جاؤوا من الأقاليم الجنوبية ، منذ عهد قريب » • وأنهم تكاثروا كالجراد ، وعقدوا العزم على القضاء على كل الشعوب ، وفرض نفوذهم المفزع على كافة أنحاء العالم • ولكى يؤكد فريدريك على وحشية هؤلاء التتار ، وعلى جسامة الخطر الذى يتعرض له العالم الغربى على أيديهم ، قام الامبراطور بوصف التتار وذكر عاداتهم •

« وكان الفرد من التتار قصير القامة ، بيد أنه كان مكتنز الجسد ، وقوى البنية ، وضخم العضلات ، وشديد البأس ، وشجاعا ، وعلى استعداد تام لمواجهة أقسى الصعاب بمجرد اشارة واحدة من قائده • كما كان كبير الوجه ، ومقطب الجبين ، ويطلق صيحات مرعبة تتناسب مع غلظة قلبه ، ويرتدى جلود الثيران ، والحمير ، والخيول ، غير المدبوغة • ويحمى نفسه بقطع من حديد ملتصقة بجسده ، وما زال الفرد منهم يستخدمها حتى وقتنا هذا • اننا لا نستطيع القول دون الاحساس بالأسى والمرارة أن هؤلاء التتار قد زودوا أنفسهم بأسلحة المسيحيين الذين غلبوا على أمرهم • ونظرا لغضب الله علينا ، فاننا نتجرع كؤوس المنية بسلاحنا الذى سقط فى أيديهم • ان التتار محاربون لا نظير لهم ، ويحملون جلودا صناعية ، ويعبرون بها البحيرات ، والأنهار دون خطر • وعندما ينفد ما عندهم من علف الماشية تعيش خيولهم على لحاء الأشجار وأوراقها ، وجذور الأعشاب ، التى يقدمها الرجال الى تلك الخيول • ومع ذلك ظلت خيولهم سريعة ، وقوية فى وقت الحاجة » (١٦) •

ومن بين الأنباء التى تضمنها خطاب الامبراطور فريدريك الى هنرى ملك انجلترا اشارة خطيرة عن البابوية ، وهى أنه فى الوقت الذى دعت فيه خطورة الموقف كل المسيحيين الى الاتحاد للتصدى للخطر المحدق ،

ظل البابا يرفض عروض فريدريك من أجل السلام بكل عناد ؛ ولا بد أن (متى) قد شارك الآخرين فى التخفظات التى أبدوها بشأن التسليم الكامل بصحة كلمات فريدريك . فيقول (متى) إن أعداء الامبراطور قد اتهموه بتحريض التتار على مهاجمة تلك الشعوب ، ثم القيام بارساله هذا الخطاب لمجرد اخفاء اشتراكه فى الجريمة التى اقترفها . وقام (متى) من ناحيته بالإشارة الى بعض الأخطاء فى رسالة الامبراطور . فعلى سبيل المثال شكك (متى) فى أن الرحالة قد غاب عن انتباههم أمة التتار الكثيرة العدد ، وفقا لما ذكر فريدريك فى رسالته . وتساءل (متى) قائلا : « أين كانت هذه الأمة الكبيرة تخفى نفسها حتى الآن ؟ » ومهما كان اعتقاد (متى) فى مدى مصداقية رسالة فريدريك عن التتار ، فانه كان سعيدا بضمه رسالة الامبراطور الى الوثائق التى تخص التتار ، وأصبحت فى حوزة الدير . ويدعو (متى) القارئ الذى يرغب فى معرفة المزيد عن التتار بزيارة مدينة سانت البنز ، والاطلاع على ذلك الملف » (١٧) .

وبرغم أن تلك المعلومات المتعلقة بالتتار قد تثير الشك ، فانها تشكل احدى المقومات الكبرى لحولية متى باريس . وقام (متى) بتسجيل الأحداث على ما يرام ، وبذل كل ما فى وسعه ، دون أن يكون للعاطفة تأثير عليه . اذ ان ما كتبه عن انجلترا ، وويلز ، واسكتلندا يبدو بوضوح أنه كاتب حولية دقيق ومدقق ، باستثناء قيامه بتوجيه اللوم الشديد الى الملك أو الى أحد ممثلى البابا . بل ان معظم المعلومات التى قدمها عن التطورات بالقارة الأوربية يمكن الاعتماد عليها ، فى معظمها ، عن أى مصدر آخر لتلك الفترة .

ويمكن الاعتماد على (متى) عندما قدم وصفا واقعيا ودقيقا عن حادثة نقل تاج الشوك الذى كان على رأس المسيح ، وهو فى طريقه الى الجمجمة ، وفقا لما اعتقد الكثيرون من المسيحيين . ووقعت هذه الحادثة سنة ١٢٤٠ م وهزت مشاعر المسيحيين الغربيين . وعلق (متى) على ذلك الأمر الخاص بنقل التاج من القسطنطينية الى فرنسا ، بأن الامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية كان فى حاجة ماسة الى المال ، « وهو أمر شائع عند أولئك الذين يدخلون الحروب » . ومن ثم فاتح لويس ملك فرنسا الورع ، وعرض عليه بيع هذا الأثر المقدس ، « نظرا للروابط القديمة بينهما والقائمة على الصداقة وصلات القربى » :

« قام الملك الفرنسى ، بارسال مبلغ ضخم من المال ، من وافر كرمه ، الى امبراطور بلدوين Baldwin ، بناء على نصيحة مستشاريه من أهل الخبرة ، ووالدته التى شاركته الرأى ، وبعد أن نفد ما عند بلدوين

من أموال نتيجة للحروب المتواصلة ٠ ومن ثم عمرت خزانة بلدوين بالمال مرة ثانية ، وارتفعت الروح المعنوية عند أتباعه وجيشه ، وتراقصت الآمال الكبار أمام عيني بلدوين بتحقيق نصر مؤزر على الاغريق ٠ وفي مقابل هذه الاعانة المالية الضخمة التي حصل عليها من الملك ، أرسل الملك تاج المسيح تنفيذا لوعده واتفاقاته ٠ والواقع أن هذا التاج أثمن من الذهب والتوباز ٠ وعندما وصل التاج الى المملكة الفرنسية صار مفخرة وتشريفا لها ٠ وظل محاطا بكل خشوع ومهابة ٠ كما أنه كان باعثا لفخر كل اللاتين ٠ ووضع التاج في كنيسة الملك بباريس ، بعد الاحتفال به في موكب مهيب ، وسط رنين نواقيس الكنائس » (١٨) ٠

واذا كانت تعقيدات الدبلوماسية الدولية لم تكن احدى الظواهر في القرن التاسع عشر ، أو اذا ما رغب المرء في العودة الى الوراء ، فهي لم تظهر الا على عهد قادة ايطاليا في أواخر العصور الوسطى ، فانها كانت واضحة للعيان في وصف (متى) عندما خاض كونت فلاندرز Flanders سنة ١٢٤٠ م ٠ وذهب هذا الكونت الى انجلترا بناء على اذن لويس ملك فرنسا ، وسيده الاقطاعي الأعلى ٠ « ولم يقتصر استقباله على وجود الملك (هنري) ، وحاشيته فحسب ، وانما شاركت جموع غفيرة من سكان لندن الذين امتطوا صهوات خيولهم المزركشة ، وسط دق الطبول وأصوات الأبواق ، وكل مظاهر الحفاوة ، والتكريم ، والسعادة ، والابتهاج ، وغمروه بالهدايا ٠ وقدم الملك اليه خمسمائة (أو ثلاثمائة كما يقول البعض) ، من الماركات الجديدة من العملة الاسترلينية وخصص له منحة سنوية تعادل ذلك المبلغ نفسه لمدة العشرين سنة القادمة ، من خزانة الدولة ، نظرا لتقديم هذا الكونت فروض الولاء الاقطاعي للملك ٠ وبعد الانتهاء من تسوية هذه المسألة عاد الكونت الى فلاندرز على الفور ٠٠٠ ثم بدأ في اثارة القلاقل في أقاليمه ، واستدعى جنوده وأتباعه النظاميين والمرتزقة ، وبذلك حشد جيشا ضخما ٠ وهاجم أسقف لييج Liége المنتخب ، الذي كان مواليا للامبراطور (فريدريك) ، وأحد أقاربه ، وبعضا من الموالين للامبراطورية ، الذين ظلوا مرافقين للأسقف المنتخب ، بناء على أوامر الامبراطور ٠

« وقام جلالة الامبراطور بارسال رسالة احتوت تهديدات شديدة اللهجة ، الى الكونت المذكورة بمجرد سماعه لتلك الأحداث عله يرتدع من تصرفاته الرعناء والمتهورة ، والتي لم يتوقع الامبراطور حدوثها ، لا سيما وأن الامبراطور كان يتعرض لمشاكل من قبل البابا بسبب أمور شديدة التعقيد ، وكذلك من قبل حلفائه ، بل ومن أسقف لييج المنتخب ، صديقه وقريبه ٠٠٠٠ لذلك كله حذر الامبراطور الكونت بالكف عن اثارة

المتـاعب وأمر الامبراطور دوقى ليـوفان Louvain ، وبرابانت Brabant ، وغيرهما من الحكام المجاورين للامبراطورية ، من أجل التصدى لهجمات كونت فلاندرز ، والعمل على فت عضده • ثم كتب الى كونت بروفانس Provence ، الذى كان أحد الموالين للامبراطور ، وأمره الامبراطور باعتباره حليفا مخلصا ، أن يحبط مخططات ومحاولات كونت فلاندرز ، الذى كان قد أبدى تعاليا على كونت بروفانس ، بيد أن الكونتين رفضا اطاعة أوامر الامبراطور • ثم أرسل الامبراطور الى كونت تولوز Toulouse ، يأمره ــ تحت التهديد بانزال العقاب الرادع ــ أن يشن حربا ضـد كونت بروفانس ، الذى رفض أن يعـاقب كونت فلاندرز • وأرسـل الامبراطور مسـاعدات فعـالة الى كونت تولوز Toulouse لتمكينه من شن غارات متكررة ضد كونت بروفانس • ولما كان كونت تولوز يعانى من أضرار قديمة الحقها الفرنسيون به لذلك هب بنفسه ، بمجرد وصـول طلب الامبراطور ، وزحف لملاقاة كونت بروفانس بكل تلهف • ولما تعرض كونت بروفانس لضربات قاصمة على يد كونت تولوز هرع الى ملك فرنسا طالبا الحماية ، ومتوسلا اليه بكل تذلل أن يقدم اليه النجدة العاجلة • ولما علـم ملك انجلترا أن كونت بروفانس • قد تعرض لخسائر فادحة فى الأفـراد ابان كفاحه المرير كتب الى الامبراطور رسـالة ودية ، طالبا منه باسـم صـلات القربى أن يصفح عن كونت بروفانس والد زوجته أما ملك فرنسا صاحب النفوذ السياسى الكبير ••• فقد سارع بارسال سبعمائة فارس ومعهم ما يزيد عن عددهم بكثير من المقاتلين للتصدى لهجمات أعداء الشعب البروفنسالى Provencals (١٩) •

ويثير متى باريس دهشة القارىء باستمرار نظرا لوفرة التفاصيل التى يصف بها الحوادث ، ولطريقته المشوقة فى العرض لها ، حتى لو كانت تلك الحوادث قد حدثت على بعد أميال عديدة من مكان ديره • فالحدث الذى وصفه فى الفقرة التالية حدث عبر بحر الشمال فى ألمانيا • كما تلقى الجمل والفقرات المقتبسة من الأدب الاغريقى والرومانى ، وكذلك الاشـارات الضـمنية مزيدا من الضـوء على ولع متى باريس بالأدب الكلاسيكى ، كما اعتقد متى أن استخدامه للصور البلاغية يعمل على زيادة المنزلة الأدبية لطريقته الفنية فى سرد الأخبار ، جمالا وروعة •

« وفى العام نفسه (١٢٥٦ م) ، كان وليم الهولندى ملكا بناء على تعيين البابا الذى رفعه الى مكانة سامية عندما جعله ملكا على ألمانيا • وراودت وليم فكرة السيطرة على الامبراطورية الرومانية ، بعد أن غمر البابا بالأموال على نحو مستمر ، ولذلك ما أن سنحت بارقة أمل حتى شن حربا

ضد سكان فريزلند Friesslands ، وهم شعب اتصف بالفظاظة ، والهمجية ، والبعد عن كل مظاهر التحضر · ويقطن شعب فريزلند في الاقليم الشمالي ، وهم شعب ماهر في الحروب البحرية ، ويقاتلون ببسالة وشجاعة على الجليد · ويعيش سكان فريزلند في تلك الأقاليم الباردة كما قال جوفينال Juvenal : « على المرء أن يلوذ بالفرار اذا ما وصل الى حدود السارماتيين والمحيط المتجمد الخ ·· » وعلى ذلك أعد سكان فريزلند كمائن على امتداد شاطىء البحر ، وبين الصخور ، وكذلك على امتداد الأراضي الزراعية المليئة بالمستنقعات · (كان الشتاء قد بدأ عند اقتراب موعد عيد الطهارة للقديسة العذراء) · وتعقبوا آثر وليم السالف الذكر · وقد تسلحوا بالرماح التى أجادوا استعمالها ، بالاضافة الى البلطات والرماح الدانمركية ، وارتدوا الثياب الكتانية ، وستروا أجسادهم بالدروع الخفيفة · وعند وصولهم الى منطقة معينة تقابلوا مع وليم ، الذى كان واضعا خوذة على رأسه ، ودروعا حول جسده ، وممتطيا صهوة جواد حربى مغطى بالدروع · بيد أنه عندما تقدم في مسيره ، تكسر الجليد ، برغم أن سمكه زاد على نصف قدم وغاص الحصان فى الوحل حتى جانبيه ، وتسمر الجواد فى المستنقع · فاستشاط وليم غضبا وغرس مهمازه الحاد فى جانبي الحصان حتى وصل الى أمعائه · عند ذلك عمل الحصان الغاضب على التخلص من سيطرة وليم عليه ، ولكن دون جدوى ، ثم حاول أن يشق طريقه فازدادت جراحه ، وغاص جسده فى الوحل عن ذى قبل · وأخيرا تمكن الجواد من طرح وليم أرضا بين قطع الجليد الزلق والخشن · ثم انقض سكان فريزلند على وليم ، الذى لم يجد أحدا يقدم له يد المساعدة فى محنته ، اذ لاذ رفاقه فى السلاح بالفرار لتجنب وقوعهم فيما حدث له ، وأمطره سكان فريزلند بوابل من رماحهم من جميع الجهات · وبالرغم من توسلاته اليهم ، فانهم لم يتركوا جزءا من جسده الا وقد أصيب بطعنة دامية · وأوشك جسده أن يتجمد من شدة الرطوبة والبرد ·

وبالرغم من أن وليم عرض عليهم مبلغا كبيرا كفدية ، اذا ما تركوه ، وسمحوا له بالانسحاب ، فان هؤلاء الرجال ، الذين تحجرت قلوبهم ، زادوا فى غيهم وقطعوا جسده اربا اربا ·· وهكذا فان وليم ، الذى ذاق حلاوة حكم الامبراطورية ، والذى كان من قبل كونتا لهولندا ، وصنيعة البابا وتلميذه ، سقط على يد أعدائه بعد أن كان فى أوج منزلته العليا الى أعماق الفوضى والضياع · ويقول أحد الفلاسفة : « ان الموت وفقا لمشيئة الأعداء موت مضاعف » وعندما بلغ البابا نبأ مقتل وليم ، حزن حزنا شديدا ، لما أنفقه من أموال جمعت من كل مكان ، وبكل الوسائل »(٢٠) ·

ان الاشارات الانتقادية التي ذكرها متي عن البابا تبرز مظهرا لأثره الأدبي يجعل من متي كاتبا لحولية لا يحظى سوى بالقليل من الاجلال ، اذ لم يكن قادرا على أن يروى المعلومة الخاصة بالبابوية بمعيار التحرر أو بقدر من الادراك العقلي لذلك الموضوع ، كما كان يتوقع المرء ذلك من كاتب مسئول مسئولية تامة · فأسلوبه اللاذع عندما كتب عن البابوية وممثلي البابا شابه أسلوب مجادل بروتستانتي عنيف عاش في القرن السادس عشر ، وليس أسلوب راهب بندكتي عاش في القرن الثالث عشر · على أن ما يجعل موقف متي ، بالنسبة لهذه الناحية ، متعذر التبرير أو الدفاع عنه كلية ، هو روح الأنانية المتأصلة في نفسه والتي حركته ، وأعنى بذلك ، اعتراضه على الابتزاز البابوى ، والهيمنة البابوية على الكنيسة · ومع ذلك فباتخاذه هذا الموقف يكون قد مارس دور المتحدث باسم ديره ، وباسم الكنيسة الانجليزية بصفة عامة · ومما لا ريب فيه أنه عبر عن مشاعر معظم هيئات الكهنوت خارج ايطاليا ·

ولا بد للمرء أن يعترف بأن الكنيسة الانجليزية استطاعت أن تبرر اعتراضها على الابتزاز البابوى من منطلق ان الأموال التي قامت البابوية بابتزازها كانت تنساب بتدفق الى حلفاء البابا في حربه ضد فريدريك الثاني ، وهي الحرب التي ليس لها ما يبرر وجودها من وجهة النظر الانجليزية · (ومن بين التبريرات الأخرى لتعاطف الانجليز مع فريدريك الثاني هو أن ذلك الامبراطور كان صهرا للملك هنرى الثالث) · ورفضت الكنيسة الانجليزية الأدلة والبراهين التي عرضها البابا من أنه فرضت عليه معركة حياة أو موت مع الامبراطور الذى أصر على عدم التوقف الا اذا أكمل سيطرته التامة على شبه الجزيرة الايطالية بما فيها مدينة روما · وارتاب كثير من أهل الفكر والحكمة في تحليل البابا للموقف ، ومن بينهم لويس التاسع ملك فرنسا · وبالرغم من أن كل بابا كانت له أولوياته السياسية قبل انتخابه ، فان كلا منهم انتهج سياسة التصلب والعناد نفسها تجاه فريدريك ·

وفي سنة ١٢٣٦ م ، واصل متي كتابة حوليته ، وكتب عن « الجشع البغيض الذى مارسه البلاط الرومانى » (٢١) · وفي تلك السنة ذاتها ، اتخذ متي جانب الامبراطور فريدريك الثاني في أول اشارة له عن الخلاف بين فريدريك هذا والبابا :

« وفي ذلك الحين أعاق البابا خطة الامبراطور القائمة على غزو ايطاليا بفضل الأوامر البابوية التي بعث بها وكان الامبراطور قد حشد كل القوات الامبراطورية التي استطاع حشدها ، لمهاجمة الايطاليين

المتغطرسين ، ولا سيما أهالى مدينة ميلان ، لأن تلك المدينة كانت مرتعا لكل المذاهب الدينية التى لا تؤمن بمذهب الكنيسة العالمية ، بالاضافة الى المرابين • ويبدو أن الامبراطور وجد أنه ليس من الحكمة فى شىء الذهاب لتقديم المساعدة للأراضى المقدسة قبل القضاء على هؤلاء المسيحيين المزيفين الذين كانوا أشـد خطـرا على المسيحية من المسلمين • وتعجب فريدريك الثانى أشد التعجب لمحاباة البابا لسكان مدينة ميلان ، ومنحهم الحماية ، فى الوقت الذى يحتم عليه واجبه أن يكون أبا للاتقياء ومطرقة لضرب الأشرار » (٢٢) •

وعلى ضوء تعاطف متى مع فريدريك ابان خلاف هذا الامبراطور مع البابوية ، والمدن الشمالية بايطاليا ، يستطيع المرء أن يدرك ادراكا كاملا شجبه الشديد لابتزاز البابوية الذى كان من الممكن أن يكون عدوانيا حتى لو كانت تلك الأموال تنفق على قضية «عادلة» • وفيما يلى مثال توضيحى من عشرات الأمثلة ومن الملاحظات الانتقادية التى أدرجها متى فى أماكن كثيرة ، وفى كتاباته وهـذا المثال التوضيحى ، ذكره فى أحـداث سنة ١٢٤١ م • « وفى ذلك الحين ، امتد جشع البلاط الرومانى البغيض الى حد الخلط بين الصواب والخطأ ، ضاربا عرض الحائط بكل الحياء ، كما تفعل المرأة العاهرة ، التى تبيع نفسها ، لكل من يدفع لها • ذلك كله بعد أن اعتبر هذا البلاط الرومانى ، أن الربا ليس سوى اثما طفيفا ، وأن بيع وشراء المناصب الكهنوتية ليست ضمن الجرائم على الاطلاق • وزاد الأمر سوءا ان انتقلت تلك العدوى الى الدول المجاورة ، بل ان انجلترا نفسها لم تسلم من تدنيس طهارتها ، بسبب تلك الأمراض الخطيرة ، وربما كان ذلك كله باذن من البابا جريجورى (التاسع) أو بمساعدته • وعلى الرغم من كثرة الأمثلة المتشابهة والتى فاحت رائحتها ، فانى وجدت من المناسب أن أروى بايجاز مثلا واحدا ، لكى أوضح كيف حل غضب الله ، الذى يمهل ولا يهمل ، على ذلك البلاط المذكور (٢٣) •

ومما أثار اعتراض متى ، والكنيسة الانجليزية ، والشعب الانجليزى أكثر من المطالب المالية ، قيام البابوية بتعيين ايطاليين فى الرتب الكنسية ذات الدخل فى انجلترا • على أن السبب الأساسى لقيام البابا بتعيين هؤلاء الأجانب فى الكنائس هو ضمانه قيامهم بمعاونته فى مواجهة نفقات الادارة البابوية فى روما ، فهى التى تتولى أمور كل العالم المسيحى • وعندما كانت معظم الموارد المالية ناتجـة من الأرض الزراعية ، ودخل الرتب الكنسية فى العصر الوسيط ، لم يكن أمام البابوية من رأى منطقى من وجهة نظر البابوية للتمويل سوى هذا الأسلوب الذى اتبعته • وتوضح الوثيقة التالية أن الحاجة الى جمع أكبر قدر ممكن من الموارد المالية لمواصلة

الحرب ضد فريدريك الثاني ربما كانت تمثل مسألة ملحة لا تقل اطلاقا عن تمويل الادارة البابوية . وفي هذه المرحلة أصدر البابا أوامره بتعيين عدد ضخم من الايطاليين في المناصب الدينية ذات الدخل في انجلترا .
« يتم توزيع المناصب الدينية ذات الدخل بين الأبناء والأقارب من الرومان ، بناء على رغبتهم ، شريطة أن يثوروا جميعا ثورة رجل واحد ضد الامبراطور ، وأن يبذلوا كل مساعيهم من أجل الاطاحة به عن العرش الامبراطوري .... ولذلك أرسل البابا تفويضاته المقدسة الى ادموند Edmund ، رئيس أساقفة كانتربري ، والأساقفة في لينكولن Lincoln ، وساليزبري ، يأمرهم بتعيين ثلاثمائة من الرومان في المناصب الدينية ذات الدخل التي تكون شاغرة ، ومحذرا اياهم بعدم شغل أي منصب قبل أن يتم توزيع ذلك العدد المذكور ... على أن ادموند ، الذي استسلم طوعا أو كرها ، لأساليب الابتزاز البغيضة السالفة الذكر ، ودفع ثمانمائة من الماركات الى البابا ، والذي شاهد أن الكنيسة الانجليزية يتمرغ أنفها في التراب يوميا ، وعلى نحو متزايد ، وتنهب ممتلكاتها ، وتحرم من حرياتها ، صار متبرما من الحياة لرؤيته مثل تلك الآثام تحدث على الأرض . ولذلك بعد أن طلب ادموند الحصول على موافقة الملك ، وبعد تلقيه اجابات غامضة ترك البلاد ، وهو يتجرع كؤوس المرارة ، وأبحر الى فرنسا ، حيث صحبته حاشية قليلة العدد ، واتخذ مقامه في بونتجني Pontigny وهذا المكان الذي أقام به سلفه القديس توماس St. Thomas ، ابان حياته في المنفى ، وشغل ادموند نفسه في الصلاة والصوم » (٢٤) .

كان قلم متى الحقود أقل ضراوة عندما كتب عن هنري الثالث والحكومة الملكية اذا ما قورن بما كتبه عن البابوية والادارة البابوية ــ الرومانية . وتعرض كل من الأفراد والمؤسسات الاجتماعية الى ما يدنو من حط بالقدر والنقد الجارح بالقدر الذي طرحه متى على كل من البابوية والتاج . ومن النادر أن اكتشف متى أي شيء يمكن أن يستحق البابا أو الملك الثناء عليه ، بل أنه من النادر أن قام متى باتخاذ موقف الرفيق الايجابي للمشاركين معه في المعاناه ضد خصومهم . ويرجع هجوم متى على السلطة الكنسية والملكية ، وغضبه عليهما لممارستهما سلطات قضائية في مدينة سانت البنز .

وهو الأمر الذي يكشف عن السبب الرئيسي في حقده عليهما . واذا كان رئيس دير سانت البنز قد تمتع بموقف مستقل سواء بالنسبة للعلاقات مع الملك أو مع البابوية وذلك طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، الا أن هذا الاستقلال تعرض للهجوم من قبل كل من

الملك والبابا فى القرن الثالث عشر الميلادى : ولم يجلب للدير فقدانه لاستقلاله سوى تزايد عدد المطالب المالية من قبل البابوية والملك ، وهى التى فرضت على الدير . وكذلك تدخل كل من البابوية والملك فى اختيار الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وممارستهما الوساطة لتعيين الموالين لهما فى المناصب الكنسية ذات الدخل .

وبالطبع كان تدخل السلطة الملكية فى اختيار الأساقفة مسألة قديمة ، بيد أن كتابات متى فى حوليته عن سنة ١٢٤٦ م بدت غير مقبولة تماما ، اذ أنه عرض هذا الأمر وكأنه اجراء جديد ابتدعه هنرى الثانى . وكتب متى قائلا : « كانت قوانين ساليزبرى Salisbury لا تسمح لأحد بالحصول على موافقة الملك ، ما لم يكن ينتمى الى البلاط الملكى لكى يحمى الكنيسة من الأخطار ، ويحظى بقبول الملك . ومن ثم تم اختيار وليم من يورك ، وهو من أشهر رجال الدين المقربين للملك ، وعمدة بيفرلى Beverley ، وكان ضليعا فى القوانين . وعين أسقفا ، وراعيا للأرواح . كما كان هناك اعتقاد بأن هذا الاختيار يرضى الله ، ومقبول من الملك . ومن ثم منح التشبيت الدينى دون تأخير » (٢٥) .

وكان اختيار أحد محاسيب الملك هنرى مجرد جزء من تسوية بين الملك والبابا ، وهو الأمر الذى لم يكن مقبولا لدى المؤرخ متى الى حد كبير ووضح ذلك بجلاء فى حالة ايلمار Ailmar ، شقيق الملك هنرى من والدته : « وهو الذى قام البابا بمنحه التشبيت الدينى على الكرسى الأسقفى فى ونشيستر Winchester ، بالرغم من صغر سنه ، وعدم معرفته للتعاليم الدينية ، وعدم مقدرته على شغل هذا المنصب أو أو الرعاية الروحية لكثير من الأرواح . وحظى ايلمار بكل عطف وتأييد من قبل البابا ، لدرجة أنه احتفظ بالموارد المالية التى كانت تحت يديه قبل توليه الكرسى الأسقفى ، وحدث ذلك كله بفضل رعاية الملك له . على أن البابا أمر على الفور بمنح ابن كونت بورجوندى Burgundy هبة تدر دخلا قدره خمسمائة من الماركات لذلك الطفل ، حتى يقدم البابا الدليل على أنه لم يزرع حبا فى أرض قاحلة دون أمل جنى المحصول » (٢٦) .

وكانت طلبات هنرى المتواصلة من أجل الحصول على اعانات مالية ، السبب الرئيسى فى اثارة اعتراضه على سياسة الملك وقيامه بدور المتحدث باسم الكنيسة الانجليزية والطبقة الأرستقراطية فى انجلترا . على أن المؤرخين ليسوا على اتفاق كامل فيما يتعلق « بعدم مشروعية » تلك الطلبات . وحتى السنوات الأخيرة ، مال هؤلاء المؤرخون الى قبول

اعتراضات متي العنيفة ، باعتباره رأى مسئول صدر عن ناقد محايد ، وجرىء ، استطاع التصدى بشجاعة متناهية للسلطة الملكية بسبب انحرافاتها فى ادارة الدولة وسعيها لفرض الهيمنة • ونظرا لأن الأبحاث العلمية المتلاحقة قد وضعت ادراك متى الحسى ، وكذلك موضوعيته فى الكتابة ، موضع الشك ، فان موقف الملك وسياسته كان لهما نصيب أكثر تعاطفا عند التقييم •

ومع ذلك اذا ما اعتبرنا الحكم القاسى الذى أصدره متى على هنرى ، كان حكما خاطئا ، فانه لم يكن فى حجم الحكم الذى أصدره من قرأ حولياته متى فى الوقت الحاضر • اذ اكتفى كتاب الحوليات فى العصور الوسطى بتغطية الأحداث التى جرت على عهدهم بقدر ما أثرت فى نفوسهم ، على نمط المراسلين الصحفيين ، الى حد ما ، على الرغم من أنهم لم يكونوا فى موقع المسئولية • ويمكن القول بصفة عامة أن الأحداث أو التطورات التى أصابت كاتب الحولية أو مجتمعه بالضراء ، قام بالتعبير عن حالة الرثاء لما حدث ، أما الأحداث التى عادت عليهم بالخير ، فقد قاموا بمدحها والثناء عليها • وليس من الواقع فى شىء أن نصف متى باريس بأنه مراقب موضوعى للأحداث ، وقادر على الاقتراب منها بمثل الرؤية الواضحة لابن خلدون الذى عاش بعده بمائة وخمسين عاما ، والذى كانت قدراته التحليلية جريئة حتى على عهده • ولم يدرك متى تلك الظروف ادراكا كاملا ، مثل تزايد نفقات الحكومة ، والتى ربما كانت مبررا لطلبات هنرى المتكررة من أجل الحصول على المساعدات المالية • وقام متى بابراز تبذير الملك ، وانفاقه على أقارب زوجته الأجانب ، وعلى المغامرات الخارجية ، ومنها وضع ابنه ملكا على عرش صقلية • ولابد أن المؤرخين فى عصرنا هذا ، قد توقعوا أن تلك الطريقة هى من بنات أفكار متى • ولا شك أن قيام هنرى باغداق أقارب زوجته ، وأصدقائه بالذهب ، والمناصب جعله عرضة للهجوم والانتقاد ، وأمد نقاده بالذرائع المحتملة دون مشقة ، والتى أقنعتهم بأن الاضطرابات المالية للادارة الملكية كانت نتيجة لسوء تدبيرها ، وبالاضافة الى عداء البارونات لهنرى ، والذى عبر عنه متى ، يكمن أيضا الخوف من تعريض السلطة الملكية لامتيازات البارونات للخطر : تلك الامتيازات التى قاموا بانتزاعها من حنا ، والد هنرى فى رنيميد Runnymede •

ويبدو أن متى كان يشعر بالابتهاج ، وهو يذكر قراء حولياته بالعمليات المتكررة التى مارسها هنرى عندما أغدق الأموال على أقارب زوجته الفرنسيين ، الى حد الاثراء • فعندما غادر جوى دى لوزينان Guy de Lusignan ، شقيق الملك هنرى من والدته مدينة لندن فى

نهاية ١٢٤٧ م ، كتب متى ما يلي : « ملأ الملك أمتعته بكميات كبيرة من المال حتى أنه كان مضطرا الى زيادة عدد الخيول • ومنح هنرى قلعة هيرتفورد Hertford الى شقيقه وليم من فالينس William de Valence ، ومعها مظاهر الحفاوة والتكريم المناسبة ، وأعطاه مبلغا كبيرا من المال ••• وبالنسبة الى أخيه الثالث اثيلمار Ethelmar ، فقد أمده بالكثير من أموال الخزانة العامة ، التى جمعها عن طريق التوسلات الملحة ، واغتصبها من كل أسقف ، ورئيس دير ••• حتى أن هنرى هذا صار يفوق الرومان وقاحة • أما عن اثيلمار المذكور ، فقد فاق الأساقفة فى الثروة » (٢٧) •

وكان متى ميالا الى القاء بعض المسئولية على المستشارين العاملين مع الملك ، بشأن سوء الادارة فى الدولة ، لأنهم أسدوا اليه « نصائح ضارة » • وبناء على تشجيعهم ودون الاهتمام برعيته ، فان هنرى : « أقسم علنا فى مؤتمر (سنة ١٢٣٧ م) الذى دعا اليه النبلاء من كل مكان بعيد ، أنه خالى الوفاض ، وأنه يعانى من فقر مدقع ، وأنه فى أشد حالات الفاقة • ولذلك استحثهم بالحاح ، أن يعطوه ثلث الممتلكات بكل أنحاء المملكة ، تدعيما ومساندة لمنزلته كملك ، ومن أجل توطيد أركان الدولة على أسس أكثر ثباتا • وتضايق النبلاء بشدة عند سماعهم لذلك الحديث ، وأجابوا بأنهم كثيرا ما تعرضوا لمظالم من هذا القبيل • وأنهم شاهدوا الأجانب ، وقد أصابتهم التخمة من جراء تكدس الثروة لديهم ، فى الوقت الذى أنهك الفقر كيان المملكة ، وباتت الدولة ، وقد أحدقت بها الأخطار من كل صوب • ومع ذلك ، فبعد مناقشات مطولة ، ونظرا لأن الملك بلع كبرياءه ، وعد بأنه سيلتزم بمشورتهم من ذلك الحين فصاعدا ، وبدون تردد ، استطاع الحصول على ثلث الممتلكات المنقولة دون صعوبة تذكر • وبعد ذلك أصدر أمره بالجمع وتقدير قيمة ما جمعه ، وفقا للقيم الشائعة ، وكيس وفقا للقيمة الملكية • ولم يسمح بوضع ما جمعه فى الأديرة والقلاع ، وفقا لما اتفق عليه من قبل وتم الاعداد له ، ولم ينفق بناء على مشورة النبلاء ، اذ أنه لم يستشر أحدا من رعاياه بالمملكة • وانما سلمت تلك الأموال الى الغرباء لتنقل الى خارج البلاد • وتحول هنرى الى انسان مسخه السحر الذى خلب لبه ، اذ لم تعد لديه المقدرة على الفهم السليم • ومن ثم انتشر التذمر بين الشعب ، وازدادت حدة السخط والغضب عند النبلاء » (٢٨) •

وعلى الرغم من شدة عنف مهاجمة متى للمطالب ، والاتجاهات السياسية ، لكل من البابا ، والملك هنرى ، فان ولاء هذا المؤرخ لكل منهما لم يكن موضع شك • اذ كتب سنة ١٢٤٨ م يقول : « تجرأ رئيس أساقفة

أنطاكية ، وتهور تهورا شديدا عندما حرم كنسيا البابا ، مستخدما في في ذلك سلطة جوفاء ، وحرم أيضا الكنيسة الرومانية ورجالها ، وتفوه في عظاته الدينية بأقوال تنم عن عدم احترامه للمقدسات · وادعى لنفسه مكانة تفوق مكانة قداسة البابا ، والكنيسة الرومانية ، لأن القديس بطرس الرسول ظل يدير شئون الكنيسة في أنطاكية لمدة سبع سنوات ··· وأخفى هذا البابا المزيف المذكور بعاليه ، ما أحدثه من أذى ، وما قدمه من حجج باطلة ، الى أن رد كيده الى نحره ، واستغفر لخطاياه ، في الوقت الذى ظل فيه ، البابا الحقيقي دعامة للكنيسة ، وخليفة بطرس الرباني (على الرغم من أنه لم يسر على نهج بطرس) ، شامخا ، ورابض الجأش ومؤجلا العقاب الى يوم الحساب » (٢٩) ·

وبمناسبة زيارة هنرى الى دير سانت البنز في مارس سنة ١٢٥٥م ، كتب متى الكلمات الودية التالية عنه : « ذهب الملك الى دير القديس البنز ، في التاسع من شهر مارس من هذا العام ، في الوقت الذى كان ابنه ادوارد موجودا في جاسكونى ، وظل الملك هناك لمدة ستة أيام ، قضاها في الصلوات ، ليلا ونهارا ، في خشوع تام ، على ضوء الشموع · ومقدما صلواته للقديس البنز باعتباره أكبر شهداء المملكة · وكانت صلواته نيابة عن نفسه ، وعن ابنه ادوارد ، وعن أصدقائه الآخرين ·· وقدم الملك قربانا الى الله والى الشهيد المقدس عبارة عن عباءتين نفيستين ، ورداء خارجيا بلا كمين ، ويطرح على الكتفين ، وهو خاص بالقاء التراتيم · وكان هذا الرداء فخما ومزينا بالذهب · ويجب الاشارة الى أنه لم يحدث من قبل أن قام أى ملك لانجلترا بالتبرع بمثل هذا العدد الكبير من الجوخ المخملي الأسود أو الأرجواني الذى زين جدران تلك الكنيسة ، كما فعل هنرى الثالث ملك انجلترا ، كما هو مسجل في الكتاب الصغير بالكنيسة المذكورة وفيه وصف كامل لقطع الجوخ المخملي الأسود أو الأرجواني ، ومجموعة النواقيس ، والمعادن النفيسة · وبذلك يكون هنرى قد فاق الملك أوفا Offa ، مؤسس دير سانت البنز ، بل وكل من سبقه » (٣٠) ·

وبالنسبة للفترة الزمنية ، خصص متى معظم اهتماماته الى البابوية ، والى هنرى الثالث ، والى فريدريك الثاني · ويعود تفسير اهتمامه بفريدريك الى زواج ذلك الامبراطور من شقيقة هنرى ، وقد أدى هذا الارتباط العائلى الى جعل العاهلين حليفين قويين في أى نزاع مع فرنسا والبابوية · ويفسر أيضا اهتمام متى الشديد باعداد حملة صليبية ، ما أولاه من عناية للامبراطور فريدريك ، لأنه اعتقد أن هذا الامبراطور قد جاهر بضرورة تخليص الأرض المقدسة بكل صدق ، وبلا أدنى ريب ·

وكذلك باعتبار فريدريك ملكا رومانيا مقدسا ، فقد كان ينظر اليه كنصير للعالم المسيحى ضد التهديد الخطير الذى فرضه التتار • وفى تفسير اهتمام متى بفريدريك يجب ألا يتجاهل المرء الحقيقة المحضة الناجمة عن الروابط الوثيقة التى قامت بين الامبراطور وهنرى ، وهى أن كثيرا من المعلومات والاتصالات الفكرية وغير الفكرية وجدت طريقا لها الى انجلترا حتى وصلت الى متى فى نهاية الأمر •

وكان الخطاب الذى أرسله فريدريك الى ريتشارد ايرل كورنول Cornwall ، فى سنة ١٢٣٧ م ، أعد تلك المعلومات ، حيث وصف فريدريك انتصاره المبين على جيش ميلانى عند كورتنوفا Cortenouva • ولم يفصح متى عن كيفية وصول الخطاب أو صورته الى حوزته ، بيد أنه قدم النص الكامل لتلك الرسالة الخطية التى وردت على لسان فريدريك « وبفضل فرصة مواتية ••• لقد حدث أن أهالى ميلان وحلفاءهم استعدوا لاقامة حامية فى بريشيا Brescia ، ومن ثم فصل أحد الأنهار بيننا وبينهم • وقد أحاطهم ذلك النهر بسور واق • ثم أقمنا معسكرنا على الجانب الآخر من نهر اوليو Oglio • غير أن الفرسان المخلصين وسكان المدن عادوا الى أهاليهم ، لعدم تمكنهم من تحمل حالة الضجر الناجمة عن التأجيل غير المتوقع ، وشدة العواصف فى ذلك الوقت • ومع ذلك ، فقد كلفنا جماعة من جيشنا ، وتقدمت بحذاء ضفاف النهر السريع الجريان ، صوب الجسور ، التى كان على من اختار الرحيل الى منازلهم عبورها • ونظرا لعدم مقدرة أهالى ميلان ، ومن تحالف معهم ، على البقاء طويلا فى الأماكن التى تحصنوا بها نتيجة لندرة المستلزمات الضرورية من المؤن ، فانهم عبروا نهر اوليو Oglio ، مستخدمين مخاضات النهر ، والجسور المقامة عليه ، الى أن وصلوا الى أرض منبسطة ، ظانين أنهم قد يفلتون من أيدينا بالفرار سرا ، وربما لم يتصوروا أننا كنا على مقربة منهم • وما أن اكتشفوا أننا على مقربة منهم حتى قصف بهم الخوف والذعر كقصف الرعد وعند مشاهدتهم لقواتنا الأمامية من جيشنا الامبراطورى ، بل وقبل أن يستطيعوا رؤية أعلامنا المظفرة ، وشعاراتنا الامبراطورية المتمثلة فى صوز النسر حتى لاذوا بالفرار من أمامنا • وهم فى حالة من الفوضى والارتباك الى أن وصلوا الى ساريتهم التى كانوا قد بعثوا بها الى نيوفا كروتشه Nuova Croce ، على خيولهم وبأقصى سرعة ممكنة الى الحد الذى لم تتمكن فيه قواتنا المطاردة لهم من رؤية وجوه هؤلاء الآبقين • ولما كنا نعتقد أنه من الواجب علينا الاسراع فى تقديم المساعدة لقواتنا الاضافية التى تقدمت فى جماعة صغيرة ، فاننا اتجهنا نحوهم بأقصى سرعة بكامل جيشنا • وفى الوقت الذى توقعنا أنهم قد ردهم

العدو على أعقابهم ، فاننا لم نتمكن من متابعة المسير بسبب كثرة عدد الخيول التي هامت على وجهها في كل حدب وصوب (نظرا لأن راكبيها قد تخلوا عنها) ، وكذلك الأعداد الكبيرة من الفرسان الراقدين على الأرض من الجرحى والقتلى • أما من بقي من العدو على قيد الحياة ، فظل واقفا أو راقدا على الأرض ، وقد أحاط بهم مساعدو الفرسان ، الذين يسهرون على خدمة سادتهم • واكتشفنا موقع ساريتهم ، بالقرب من أسوار نيوفا كروتشه ، ومحاطة بالخنادق ويحميها عدد كبير من الفرسان ، وكل جنودهم من المشاة ، الذين قاتلوا ببسالة دفاعا عنها • ثم وجهنا اهتمامنا الى مهاجمة هذه الراية والعمل على الاستيلاء عليها • وشاهدنا بعض قواتنا ، بعد نجاحهم في شق طريقهم عبر الخنادق ، وبعد ما أبدوه من شجاعة فائقة ، استطاعوا شق طريقهم الى سارية العدو • ولكن عندما حل ظلام الليل الذى كان رجالنا يتحرقون شوقا لحلوله ، اذ توقفنا عن الهجوم حتى الصباح الباكر من اليوم التالى ، ورقدنا للراحة ، وظللنا مستلين سيوفنا ، ولم نخلع ملابسنا الحربية مصممين على احراز نصر لا ريب فيه ، والحصول على السارية الرمزية للعدو • وعندما بزغ النهار ، اكتشفنا أن سارية العدو قد نقلت من مكانها وتركت بين مجموعة كبيرة من العربات المقفلة القديمة والمهملة وبلا حراسة ، وتم نزع الصليب الذى كان معلقا على الطرف الأعلى من السارية • ويبدو أن الفارين من الأعداء وجدوا أن الصليب كان ثقيلا ولذلك تركوه في منتصف الطريق • أما حامية قلعة نيوفا كروتشه ، ومن بها من المقيمين ، والذين كنا نعتقد فى افلاتهم من أيدينا ، فقد خرجوا منها • وتجمعوا تحت قيادة الحاكم الايطالى (بودستا Podesta) ، وهو ابن دوق البندقية ، ورفعوا علمهم ، ولسوء حظهم لم يفلتوا من أيدينا • ولكى أقدم وصفا مختصرا لما حدث ، اكتفى بالقول بأن حوالى عشرة آلاف رجل (٣١) كانوا ما بين أسير وقتيل ، ومن بينهم عدد كبير من النبلاء وكبار الشخصيات من جماعات أهالى ميلان • اننا نبلغك بكل هذه الأمور لأنها تدخل السرور على قلبك • صدر فى كريمونا Cremona فى الرابع من ديسمبر فى الخمسعشرية (*) الحادية عشرة » •

وعلى الرغم من تعاطف متى مع فريدريك ، فانه عبر عن رفضه لما فرضه الامبراطور المنتصر على ميلان ، من مطالب زائدة عن الحد • اذ قال أن أهالى ميلان عرضوا عند استلامهم : « تقديم كل ما يملكونه من الذهب والفضة الى الامبراطور • وأن يجمعوا كل أعلامهم ويحرقونها عند قدمى

(*) الخمسعشرية : Indication هى وحدة زمنية مؤلفة من ١٥ سنة كانت تصطنع فى الامبراطورية الرومانية وغيرها ، لتاريخ الأحداث العادية • (المترجم) •

الامبراطور » • كعلامة للخضوع والطاعة • ووافقوا أيضا على تقديم عشرة آلاف رجل لمصاحبته فى حملة صليبية ضد المسلمين فى فلسطين • « غير أن الامبراطور رفض بكل كبرياء كل تلك العروض ، ولم يحد قيد أنملة عن مطالبته بأن يكون كل المواطنين خاضعين خضوعا تاما لمشيئته ، بما فى ذلك كل مدنهم ، وكل ممتلكاتهم • وأمام هذا الطغيان ، أجاب المواطنون بالاجماع أنهم لن ينفذوا ذلك على الاطلاق » وقالوا : « لقد علمتنا التجربة ، ولا نخشى قسوتك وبطشك ، ولذلك فاننا نفضل الموت بالسيف ، أو بالرمح ، أو بالحربة ، ونحن ندافع عن أنفسنا ، عن الموت تحت مذلة الغدر ، والمجاعة ، وشدة الغيظ » • وبدأ الامبراطور يفقد تأييد الكثيرين منذ ذلك الحين ، لأنه تحول الى طاغية ، فى الوقت الذى بدأ فيه أهالى ميلان فى استرداد قوتهم لتواضعهم • وبناء على ما جاء فى أحد الأناجيل الصحيحة : « ومن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرفع » (٣٣) •

ان ما يفسر تعاطف متى مع فريدريك الذى عبر عنه بصفة عامة ، مرجعه الى رباط المصاهرة مع هنرى الثالث ، الذى كان ملكا على انجلترا برغم كل نقائصه • كما أن متى لم ينس على الاطلاق أنه رجل انجليزى ويظهر اسم متى من بين المشكلين الأول للوعى القومى الانجليزى ، وهى الظاهرة التى أرجعها العلماء الى القرن الثالث عشر • ولا يدانى متى سوى القليل من المؤرخين المعاصرين فى كراهيته التامة للفرنسيين ، فى الوقت الذى لا يضاهيه أحد فى القسوة التى هاجم بها السياسات البابوية التى ملأت المناصب الدينية ذات الدخل فى انجلترا بالايطاليين ، واستنزفت الأموال الانجليزية فى تمويل الطموحات البابوية « السياسية » ضد فريدريك • وكان وصول كونت فلاندرز Flanders عبر بحر المانش الى انجلترا فى صيف ١٢٤٤ م بهدف مساعدة هنرى فى حربه مع أهالى اسكتلنده دافعا لمتى لاصداره الرأى التالى : « لقد أثار قدومه سخطا شديدا وسخرية فى قلوب النبلاء الانجليز ، لأنهم قالوا أن انجلترا قادرة على استئصال شأفة اسكتلنده بدونه اذ أحضر الكونت المذكور معه ستين فارسا ومائة من الأتباع والخدام المزودين بالسلاح ، وكل فرد منهم كان متلهفا على اغتنام أموال الملك » (٣٤) •

ولا ريب أن متى شارك النبلاء الانجليز الاستياء لقدوم كونت فلاندرز الى انجلترا • ومن بين أسباب هذا الاستياء قيام حنا بالتنازل عن السيادة الاقطاعية العليا للبابا انوسنت الثالث سنة ١٢١٣ م ، اذ كان حنا هذا شخصا صريحا للغاية دون أدنى تحفظ • لذلك فعندما شب حريق فى المقر البابوى فى ليون Lyons سنة ١٢٤٥ م ، ونتج عنه

(★) لوقا : الاصحاح الثامن عشر ـ ١٤ •

أضرارا جسيمة ، ذكر متى : « إن ذلك الميثاق البغيض المتعلق بدفع الاتاوة الانجليزية للبابوية والذي تم التوقيع عليه في عهد الملك حنا ، صاحب الذكرى الباعثة على الأسى ، كان من بين الأشـــياء التي أتت عليهـــا النيران » (٣٥) .

وبالنسبة لأهالي ويلز عبر متى عن مشاعر مختلطة . فعندما حاربوا الملك هنرى كان متى ميالا الى التعاطف معهم . وبالنسبة لمناسبات أخرى فان ما كتبه فيما يلي يوضح موقفه على نحو أفضل : « ان ولاء أهالي ويلز هو ولاء الضرورة والحاجة ، اذ أنهم لا يبدون ذرة من الرحمة حينما تكون السلطة في أيديهم . وعندما يحالفهم الحظ يضطهدون من يقع تحت أيديهم . ولكن اذا ما تعرضـــوا للهزيمـــة يلوذون بالفرار أو يخلدون الى المذلة والهوان . ومثل أولئك القوم لا يمكن الثقة فيهم على الاطلاق . وكما يقول الشاعر : « انى أخشى الاغريق حتى لو قدموا لى الهدايا » . وكما يقول الفيلسوف سينيكا Seneca : « لن تستطيع على الاطلاق اقامة معاهدة عدم اعتداء مع عدو » (٣٦) .

وفاق حب متى لديره حبه لانجلترا ، وشعر بالاعتداد لوجوده بين هذه الجماعة الديرية التي تبوأت مركزا قياديا بين الأديرة الانجليزية . وعبر متى بارتياح شديد لرفض رئيس ديره ــ الأسقف الوحيد الذي لديه شجاعة ــ الموافقة على اختيار بونيفيس Boniface رئيسا لأساقفة كانتربرى ، بحجة أنه غير جدير بتولي شئون هذا المنصب (٣٧) . وأشار متى الى أن رفض رئيس الدير الموافقة على « انتخاب » (٣٨) بونيفيس أدى لوضـــع رئيس دير وستمنستر خاتمـــة في المكان الذي يتحتم فيه وضع خاتم رئيس ديره . « اذ أن القديس البنز هو أول شهيد في انجلترا ، ومن ثم فان رئيس ديره هو الأول على رؤساء أديرة انجلترا في الدرجة الكهنوتية ، والمكانة السامية ، ولذلك لا بد وأن يوضع خاتمه قبل غيره » (٣٩) . وعندما رفض رئيس دير متى طلبا لاحقا لرئيس أساقفة كانتربرى بأن يصدر أوامر مقدسة في الكنيسة الديرية والا تعرض لشيء يعرض مركز رئيس الدير الى الاعفاء من منصبه ، أبدى متى ارتياحه عندما سجل في حوليته الموقف الصلب الذي اتخذه رئيس ديره (٤٠) .

وفاخر متى بديره ، والنظام الديرى البندكتي بنفس القدر الذي عارض فيه كل جديد ، وتجلى ذلك في العداء الذي أبداه تجاه الاخوان الرهبان الفقراء الجوالة Frairs ، في سنواته الأولى التي كتب فيها حوليته في دير ســانت البنز . وباســتثناء جماعة السسترشـيان Cistercians ، لم يجد متى سوى القليل من الجدوى ، في وجود الأنظمة الدينية الأخرى ، وان كان لم يقصد نظاما معينا منها على وجه

التخصيص ، « التى كانت تتكون يوميا ، وتمارس نشاطها دون توقف » .
ولقد أثار حفيظة متى وجود الكثيرين من المثقفين الذين استخفوا بالنظام الديرى للقديس بندكت ، وبالقديس أوغسطين السامى المنزلة وهو ما يتعارض مع قانون المجمع العام الذى عقد على عهد البابا انوسنت الثالث صاحب الذكرى المجيدة ، (٤١) كما أن تلك المشاعر التى أبداها هؤلاء المثقفون إنتقلت عدواها بسرعة الى التنظيمات الدينية الجديدة التى ظهرت مؤخرا (٤٢) .

على أن ما عمل على زيادة الشعور بالمرارة عند التنظيمات الديرية القديمة ، ورجال الكهنوت من غير الرهبان ، على وجه الخصوص ، ضد الاخوان الرهبان الفقراء الجوالة Friars ، قيامهم بالطواف فى كل مكان لالقاء المواعظ الدينية دون قيد أو حد ، وقبولهم القربان المقدس ، وسماعهم لسر الاعتراف . ويعزو متى « حماس » هؤلاء الاخوان الى عاملى حب المال وانتحال حقوق الآخرين ، اذ يقول : « وفى الوقت الذى كان فيه النبلاء والأثرياء على حافة الموت ... قامت تلك الجماعات الدينية بدافع من حب زيادة المكاسب المالية ، بحث هؤلاء النبلاء والأثرياء على الحاق الأذى والخسران بالقساوسة الذين ألفهم الجميع . ومارست تلك الجماعات الدينية مهمة الاعتراف التى يمارسها الكهنة . وابتزوا الوصايا المستترة . وأثنوا على أنفسهم ، وعلى جماعاتهم الدينية فحسب . واعتبروا أنفسهم فوق من سواهم . وهكذا لم يعد أى رجل مؤمن ، فى هذه الأيام يعتقد فى حصوله على النجاة من الخطيئة ، الا اذا سار وفقا لتوجيهات الوعاظ والرهبان الفرنسيسكان Minorites (٤٣) . ولرغبتهم الشديدة فى الحصول على الامتيازات فى قصور الملوك والحكام ، فانهم مارسوا دور أعضاء المجالس الاستشارية ، والحجاب ، وأمناء الخزانة العامة ، والراغبين فى الزواج ، والوسطاء لاتمام الزيجات . وقاموا بدور المنفذين للابتزازات البابوية ، وتقديم العظات الدينية . وكانوا اما مداهنين أو ساخرين بأقصى شدة . كما باحوا بأسرار الاعتراف التى يتلقاها الكاهن ، وكانوا يوزعون الاتهامات جزافا ... وينظرون الى رهبان السسترشيان على أنهم قساوسة سذج ، ويميلون الى المسالمة ، ولا أضل لهم ، وعلى الأصح غير مهذبين . ونظروا الى رهبان النظام الديرى الأسود (البندكتيين) على أنهم أشخاص انغمسوا فى الملذات الحسية ويتصرفون بكبرياء » (٤٤) .

وربما يتوقع القارىء لحولية متى التى كتب فيها بمثل هذا الانفعال الشديد عن البابا والملك ، والاخوان الرهبان الفقراء الجوالة ، أنه يبدى تحاملا أشد حدة عندما تكلم عن اليهود أو المسلمين مثلا . ولحسن الحظ لم تكن هى الحقيقة الواقعة . وحقيقة أن متى يبدو أنه شارك الكثيرين

من الشخصيات وأصحاب الثقافة فى التعامل الفطرى تجاه الأقليات . ويوضح هذه السمة قبوله ببساطة لأسطورة طقوس القتل اليهودى ، وهى أسطورة أنكر صحتها القليلون من المعاصرين له .

وعلى سبيل المثال كتب متى فى حوليته عن سنة ١٢٥٥ م واقعة كأنها حدثت حقا وصدقا ، وهى أن اليهود خطفوا غلاما فى الثامنة ، ثم بعثوا سرا فى طلب رفاقهم من اليهود فى كل أنحاء انجلترا للحضور والمشاركة فى تعذيب المسيحى وقتله . وكان مقررا أن يتم تنفيذ حكم الاعدام للغلام وفقا لما ورد عن صلب المسيح فى الأناجيل القانونية الأربعة . تماما بتمام ، وأعنى بذلك ، أنهم عذبوا الغلام ، ثم توجوه بالأشواك ، ثم صلبوه فى نهاية الأمر . وبعد مرور عدة أيام على تنفيذ الجريمة المزعومة ، تم القاء القبض على صاحب المنزل الذى كان الفتى يلعب أمامه قبل اختفائه ، وألقى القبض عليه . واستدرج لتقديم اعتراف كامل ، مقابل وعد باستخدام الرأفة معه . ووفقا لذلك قدم صاحب المنزل اعترافا بأن « كل ما يقوله المسيحيون صحيح : لأن اليهود يصلبون كل عام تقريبا غلاما كاهانة لاسم عيسى Jesus » . وتمت محاكمة قادة الجريمة على يد هيئة من المحلفين الذين أصدروا قرارا باعدامهم مع اعدام الواشى بهم ، « الذى تم ربطه فى ذيل أحد الخيول وسحبه الى أن وصل الى المشنقة ، حيث انضمت روحه الى الأرواح الشريرة فى الأثير » (٤٥) .

ويصر متى باريس على التأكيد للقارىء أن المدانين بارتكاب هذا العمل تمت محاكمتهم محاكمة دقيقة تماما ، وثبتت ادانتهم . ولام متى جماعة الفرنسيسكان بكل شدة لمحاولتهم تبرير موقف هؤلاء اليهود الذين ناشدوهم اسداء العون . واعتقد متى أن هؤلاء الاخوان الرهبان الفقراء لابد وأنهم قد أدركوا أنه لا يمكن أن يكون هناك أمل فى الحياة الدنيا أو الآخرة لمثل أولئك المجرمين الأشقياء ، كما أن الطبقات الدنيا انقلبت على جماعة الفرنسيسكان كعقاب عادل لاتخاذهم جانب اليهود ، « وتوقفوا عن تقديم الصدقات اليهم » (٤٦) .

ومع ذلك فبرغم تحامل متى على اليهود ، فانه عبر عن اشفاقه عليهم ، من حين الى آخر ، اذ قال : « انهم أشد الناس تعاسة وشقاء » . ففى حوليته عن سنة ١٢٤٣ م أشار متى اليهم باعتبارهم ضحايا جشع واستبداد الحكومات الملكية بصفة مستمرة . وفى سنة ١٢٥٤ م أشار متى الى ازدياد شدة ثقل وطأة الابتزازات الملكية الى الحد الذى « ظهر فيه اليهود فى حالة من الفقر المدقع تماما » (٤٧) . وبحث متى أيضا فى أخبار المسلمين بتسامح نسبى برغم أن كراهيته الشديدة لمحمد

« صلعم) (*) نفسه وللدعوة الاسلامية كانت أمرا آخر تماما » (٤٨) .

ويكشف متى باريس كتابته عما يعتبره كثير من الباحثين الاهتمام الفريد بالظواهر الطبيعية فى العصور الوسطى ، ولا سيما عندما تكون تلك الظواهر غير عادية ، أو يغلب عليها الطابع التدميرى . ولا شك أن منشأ ذلك الفضول غير العادى يرجع الى التحذير الوارد فى كل الأناجيل الشرعية الأربعة من أن المعجزات نذير بنهاية العالم ، وبالاضافة الى ذلك اعتقاد الكثير من المسيحيين بأن الله يبتلى العباد بالعواصف والأوبئة ، على الدوام ، لعقابهم على خطاياهم . ويصف متى عددا من الحرائق الضخمة التى حدثت سنة ١٢٤٨ م قائلا : « ولا نذكر على الاطلاق أننا شاهدنا مثلها من قبل » . وشبت حرائق فى عدد من البلاد ، بل أن النيران أتت تماما على ثلاث مجتمعات تقريبا ؛ وكانت برجين Bergen احداها . ومن الواضح أن الله قد تجلت مشيئته بحدوث تلك الحرائق كعلامة للغضب الالهى . وكان ذلك صحيحا تماما بالنسبة للحريق فى برجين حيث « هبط من السماء لهب نتيجة لغضب الله على خطايا البشر ، وكان مثل اللهب الذى ينفثه تنين يجر ذيله من خلفه . وسقط هذا اللهب على قصر الملك ، الذى كان يبعد مسافة قدرها خمس مرات لمدى انطلاق سهم ، لذلك كان بطش ربك الشديد حقا وصدقا أمام أعين سكان المدينة » (٤٩) .

وذكر متى أيضا أن زلزالا دك مدينتى شيلترين Chiltren وسانت البنز سنة ١٢٥٠ م ، وأثار الذعر الشديد بين الحمام ، والغربان ، والعصافير والطيور الأخرى حتى أنها : « نشرت أجنحتها فجأة ، ولاذت بالفرار ، وكأنها قد أصابها مس من الجنون ، وظلت تطير جيئة وذهابا على غير هدى ، مثيرة الخوف والرهبة فى قلوب الذين شاهدوا الحادثة » . غير أن ما أثار مخاوف الناس بصفة خاصة ، هو الاعتقاد بأن هذه الظاهرة تعلن بأن : « الساعة اقتربت » (٥٠) .

كان متى دقيقا جدا فى وصفه ظهور المذنبات لدرجة أنه فى استطاعة العالم الفلكى فى العصر الحديث الاعتماد كثيرا على حولياته عند اعداد سجل عن تكرر حدوثها فى ذلك الحين . على أن خسوف القمر الذى تحدث عنه متى فى السادس من أكتوبر ، سنة ١٢٤١ م ، كان الثانى من نوعه فى مدى عامين ، وأكد متى على أن هذا الحدث « هو الأمر الذى لم يحدث له مثيل على الاطلاق حتى يومنا هذا » (٥١) .

وكتب متى عن نجم ساطع ظهر ليلة الاحتفال بعيد القديس جيمس St. James ، ثم تحرك صوب الشمال ، « ولم يكن سريعا ، وانما

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

تحرك على مثال طيران الصقر » • وأخيرا غاب هذا النجم عن الأبصار خلف سحابة من الدخان والشرر • وحدد متى نوع تلك الظاهرة الطبيعية ع أنها كانت مذنبا أو تنينا ، « وكانت أكبر بكثير من نجمة الصبح Lucifer وتشبه سمكة البورى ، ومقدمتها شديدة البريق واللمعان ، وينطلق دخان كثيف وشرر غزير من مؤخرتها • » ولم يستطع أحد أن يقدم تعليلا مقبولا عن تلك الظاهرة ، برغم وجود أمر لا ريب فيه ، وهو أن المحاصيل التى كانت قد أعاقت الأمطار المتواصلة نموها تقريبا ، بلغت بعدئذ حدا من الوفرة بشكل ملحوظ عند تغير الطقس فى الوقت نفسه » (٥٢) •

وقدم متى تفسيرا للظاهرة الطبيعية التى حدثت مساء السادس والعشرين من يوليو سنة ١٢٤٣ م ، « الى الباحثين والعلماء » • وفيما يلى وصفه لتلك المعجزة الخارقة : « وفى السنة نفسها ••• كانت السماء صافية تماما بالليل ، وكان الجو صحوا إلى الحد الذى ظهرت فيه المجرة Milky Way (*) بالدرجة التى تحدث فى ليالى الشتاء الخالية من السحب • وكان القمر فى اليوم الثامن من ميلاده (هلالا) • ثم شاهدنا النجوم تتساقط من السماء مندفعة بسرعة كالسهام ذهابا وايابا ومن جانب الى آخر • ولكن على عكس ما يحدث فى العادة ، انطلق شرر ليس بالقليل من نوع النجوم (التى عدها أرسطو فى كتابه عن النيازك من الظواهر الطبيعية) • وكانت مثل البرق الناجم عن الرعد ثم انبعثت ثلاثون أو أربعون نجمة ، فى لحظة واحدة ، بعضها فى اتجاهات مختلفة والبعض الآخر الى أسفل ، فى الوقت الذى بدأ فيه انطلاق اثنتين أو ثلاث منها فى صف واحد • وعلى ذلك اذا ما كانت تلك الظواهر نجوما حقيقية (وهو الأمر الذى لا يمكن أن يقبله عاقل) • فمعنى ذلك أن السماء لم يعد بها نجمة واحدة • على أية حال علينا أن نطلب من المنجمين الافصاح عما تنذر به هذه الظاهرة التى بدت مدهشة ومعجزة بالنسبة لكل المشاهدين » (٥٣) •

وقد أدت الخسائر الفادحة فى الأرواح الناجمة عن الوباء الأسود ١٣٤٨ ــ ١٣٥٠ م الى التعتيم على الأوبئة وأمراض الطاعون التى داهمت أوربا بصور أقل ضراوة ، من حين الى آخر ، ابان الألف سنة السابقة على حدوث الوباء الأسود • ويذكر متى أنه فى نهاية سنة ١٢٤٧ م كانت الكوارث مفزعة جدا ، « اذ دفنت تسع جثث فى يوم واحد فى مقبرة كنيسة القديس بطرس بمدينة سانت البنز » (٥٤) •

ويمكن للقارىء أن يقبل الدقة النسبية لاحصائيات متى ، لأن هذه الكوارث حدثت على مقربة منه • ومن ناحية أخرى ، يتردد المرء اذا ما حاول

(*) درب التبانة •

التسليم بما رواه عن أن حوالى خمسة عشر ألف من الفقراء ماتوا جوعا فى لندن سنة ١٢٥٨ م ٠ وخلاصة القول فقد أشار متى الى أن الكثيرين لقوا حتفهم ، « حتى اضطر اللحادون الى دفن العديد من الجثث فى مقبرة واحدة بعد أن غلبهم الاعياء على أمرهم » (٥٥) ٠

ولم تثر الحيوانات الغريبة حدة الفضول مثلما حدث فى العصور الوسطى ، عندما كانت حدائق الحيوانات غير معروفة تقريبا ٠ ولا بد أن متى لم يجد حيوانا مثيرا للدهشة أكثر من الفيل الذى أرسله لويس التاسع الى هنرى الثالث كرمز للمشاعر الودية المتبادلة بينهما ٠ وعلق متى على ذلك الحدث : « لقد اعتقدنا أن هذا هو الفيل الوحيد الذى شاهدناه فى انجلترا ، أو ربما فى البلاد المطلة على هذا الجانب من جبال الألب ، ولذلك اندفع الناس زمرا لمشاهدة المشهد العجيب » (٥٦) ٠ وفى الوقت نفسه ، تقريبا ، كتب متى عن حيوان ضخم غريب الشكل ، قذفت به مياه البحر بعد أن أعيته شدة تلاطم الأمواج ، واعتقد أنه مات من الطعنات والجراح التى أصابته ٠ « وكان هذا الحيوان الغريب الشكل أكبر من الحوت ، بيد أننا لا يمكن أن نعتبره من أنواع الحيتان » (٥٧) ٠

على أنه من الممكن اعتبار الجملة الأخيرة من الفقرة السابقة ، والتى اختتم بها متى أحداث عام ١٢٥٨ م ، أنها كانت مجرد نسيج خياله ٠ اذ أنه من النادر أن يقوم كاتب الحولية فى العصور الوسطى بتقديم موجز الى القارىء ٠ وانما تنتهى مسئولياته عند مجرد سرد الأحداث ٠ كما أن ما قدمه متى من عبارات مجملة بشكل منتظم اعتبارا من سنة ١٢٤١ م لا يمكن أن يقبلها القارىء فى العصر الحديث على أنها خلاصات لأحداث سنة بعينها ٠ اذ أن غالبيتها ليست سوى اشارات رمزية لما يجب أن تكون عليه الخلاصة ٠ وفيما يلى ما كتبه عن سنة ١٢٤٤ م ٠ « وهكذا انتهت هذه السنة التى كانت وافرة الانتاج فى الفواكه والحبوب ، لدرجة أن ثمن مكيال الحبوب انخفض الى شلنين ، وكانت أحداث تلك السنة ليست على ما تشتهى النفس بالنسبة لما يدور فى الأراضى المقدسة ، وتميزت تلك السنة بالاضطرابات فى انجلترا ، وكانت المملكة الفرنسية محفوفة بالأخطار ، وتزايدت الشكوك فى الكنيسة ، واشتدت حالات الشغب والاضطرابات بين الايطاليين » (٥٨) ٠

وأعد متى سردا موجزا للأحداث بذل فيه جهدا مضنيا غطى به فترة خمسين عاما انتهت فى سنة ١٢٥٠ م ٠ على أن نعمد متى اختتام حوليته قد يساعد على تفسير الطابع القاتم لوصفه للأحداث التاريخية ٠ وابان النصف قرن السابقة على ١٢٥٠ م ، فمن وجهة نظر متى ، « حدثت أحداث كثيرة مدهشة وغير عادية ، لم تحدث من قبل ٠٠٠ وهناك أحداث كتب

عنها كتاب كثيرون وباحثون فى التاريخ ، ذكروا أنه لم تحدث عبر القرون مثل تلك المعجزات والأمور المدهشة ، والتى تثير الفزع حاليا ، لما لها من عواقب وخيمة » (٥٩) ·

ومن بين الأحداث التى سردها متى ، الغزوات الشرسة التى شنها التتار المتوحشون ، واستيلاء المسلمين على بيت المقدس ، ومعاناة انجلترا من قرار الحرمان الكنسى لمدة سبع سنوات الى أن صارت اقطاعة تابعة للبابوية ، وهزيمة أوتو الرابع إمبراطوز المانيا فى موقعة بوفين Bouvines (١٢١٤ م) · وتكرر حدوث حالات · الكسوف والخسوف ، والزلازل ، والظواهر الطبيعية الأخرى (كالبرق والرعد ··· الخ) ، (ولم تكن تلك الظواهر سوى نذير بأن دمار العالم أصبح قاب قوسين أو أدنى) ، والقاء فريدريك القبض على كثير من الأساقفة لمنعهم من حضور اجتماع مجمع مسكونى ، وحملتى هنرى الثالث على فرنسا حيث ، « عاد بعدهما الى انجلترا يجر أذيال الخزى والعار » ، والبابوات الثلاثة الذين اعتلوا العرش البابوى فى مدى عامين ، وقيام البابوية بتعيين الكهنة الايطاليين · فى الاقطاعات الكنسية بانجلترا ، « وهم الذين لم يهتموا برعاية المؤمنين على الأطلاق » ، وظهور جماعات دينية جديدة من بينها جماعة البجينيين Beguines ، بل أنه كتب عن الانحرافات الشديدة التى تفشت بين البندكتيين إلى حد ليس له مثيل فى الفترات السابقة ، وعن قمع الحركة الإلبجنسية والقضاء التام عليها (وربما كان ذلك هو العمل الوحيد الذى جعل متى يفصح صراحة عن أنه كان بتوفيق من الله واحدى نعمه على البشر !) ، وعن شغل الكرسى الأسقفى فى كانتربرى ، « بشخصية ليست على مستوى الكفاية ، فرضها ملك انجلترا فرضا » ، وعن اندحار الجيش الصليبى الذى كان تحت قيادة لويس التاسع فى مصر ، وعن الحرب الضروس التى نشبت بين البابوية وفريدريك الثانى وموت الأخير ، « الذى وضع العالم فى حيرة » (٦٠) ·

وقد يعتبر النقاد ممارسة متى اقحام الأحكام الأخلاقية أبرز مواطن الضعف عنده باعتباره أحد كتاب التاريخ · والواقع أنه مال كثيرا الى هذا الاتجاه · اذ لم تسلم الشخصيات البارزة التى اعتلت كرسى رئيس أساقفة كانتربرى من قلمه الساخر · فعندما وصل رئيس أساقفة كانتربرى الى انجلترا ، كتب متى قائلا : « ولم يشعر أحد بالابتهاج لمقدمه ···· لأن الجميع بلا استثناء تذكروا كيف تصرف فى لندن بكل قسوة وشذوذ ، اذ أنه انتزع من رجال الدين حق زيارتهم ، وبالاضافة الى ذلك ، فانه انتهج أساليبا متعددة أدت الى حرمان المملكة والكنيسة من الخيرات » (٦١) · بل أن موت بعضهم لم يخلصهم من اللوم والتقريع · فذكر متى وفاة

الكاردينال حنا من الكولون John of Colonna في حوليته عن سنة ١٢٤٤ م بالجملة الثالية : « وفى الوقت نفسه من هذه السنة ... مات حنا من كولون ، وهو كاردينال رومانى ، والذى كان وعاء يتضح بكل أنواع الكبرياء والوقاحة ، والذى فاق كل الكرادلة فى حيازة الممتلكات الدنيوية وكان هذا الكاردينال هو المثير الفعال ، والمسئول التام عن تفاقم الخلافات بين الامبراطور والبابا » (٦٢) . ولم تكن الشخصيات العلمانية أسعد حظا من رجال الكهنوت . ففى ذكره لأحداث سنة ١٢٥٨ م كتب عن وفاة وليم هورن William Horn ، المشرف الادارى لنورثمبرلاند Sheriff of Northumberland ، والذى كان : « أشد الناس بخلا ، وقسوة بالفقراء ، واضطهادا للجماعات الدينية ، وعلى ما يعتقد ، فان جشعه الدنيوى ، وتعطشه للثروة ، أوديا بحياته ، ليلقى مصير تنتالوس Tantalus (*) » (٦٣) .

واذا كان متى قد انهمك فى اصدار الأحكام الأخلاقية على نحو فاق به كتاب الحوليات الآخرين ، الا أنه شاركهم فى استخلاص الدروس الأخلاقية عن الحياة بصفة عامة . وعند متابعة وصف متى للاحتفالات الفاخرة بمناسبة زواج الايرل ريتشارد من كينثيا Earl Richard to Cynthia ؛ فنجد أنه يجعل القارىء يفكر مليا فى ذلك الوصف : « كانت هناك كل مظاهر البهجة والبذخ المتعلقة بحفل الزفاف ولقد فاق هذا الحفل كل الحفلات التى أقامها النبلاء من قبل فى الفخامة والروعة . وقد يحتاج الأمر الى كتابة بحث مطول وممل لوصف هذا الحفل . ومع ذلك فيمكننى القول بايجاز أنه كان هناك ثلاثون الفا من الأطباق والصحائف فى جناح اعداد المائدة وبدت كل مظاهر الأبهة والبذخ والمغالاة والتباهى فى وجود جماعات مختلفة من المغنيين ، وفى تنوع الوان ملابسهم ، وفى اعداد أطباق الطعام ، ودعوة المدعوين لحضور الاحتفال ، بيد أن كل تلك المظاهر لم تكن سوى عرض زائل وتافه ، ودليل على أن هذا العالم مخادع ومضلل ، لأنه ما أن لاح ضوء الفجر حتى تبددت تماما » (٦٤) .

ويتخذ متى موقف المعبر عن خواطر فى المسائل الأخلاقية عندما وصف الشجار المأساوى بين كاهنين فى احدى الكنائس بلندن ، والذى انتهى بمقتل احدهما . وعلى الرغم من أن المذنب حاول اخفاء جريمته ، وذلك باحداث جروح عميقة فى جسده ، فان جريمته افتضح أمرها ،

(*) تنتالوس : ملك تزعم الأسطورة الاغريقية أنه عوقب بأن غمر الى ذقنه فى الماء وقد تدلت الأغصان المثقلة بالفاكهة قرب شفتيه ولكن كلا من الماء والفاكهة كان يرتد بعيدا عنه كلما حاول بلوغه — المترجم .

ولقى ما استحقه من عقاب . واختتم متى وصفه لهذه الحادثة بالملاحظة التالية : « ان ما يجعلنا نشعر بالحزن والأسى ، أن كل المجتمع الدينى قد جلب على نفسه الفضيحة ، والخزى ، والعار ، بعد أن سيطر عليهم الشيطان ، الذى حبب اليهم الفسوق والعصيان . وماذا يقول هذين الكاهنين اللذين خرجا على القانون الكنسى ، أمام القاضى الأعلى الذى يحاسب كل الناس ؟ ويل لهما لما اقترفت أيديهما من اساءة الى الدين بصفة عامة . فكان من الواجب على رجلى الدين اللذين أغواهما الشيطان ، أن يكونا حذرين ، وأن يكبحا غضبيهما عندما ظهرت بوادر المنازعات واللوم ، لأن : « الغضب يؤدى الى النزاع ، والنزاع يؤدى الى الشجار ، والشجار يؤدى الى الموت . كما أن الموت على هذا النحو يؤدى الى موت أبدى » (٦٥) .

ويقدم هذا التفسير الموجز لرأى متى الفرصة المناسبة لتوديعه . واذا كان هناك أى مجال للشك أو الاعتراض ، فان الاشارة الى الموت والخلود كافية لتمييزه ، باعتباره أحد كتاب الحوليات فى العصور الوسطى . ويود متى أن يذكر القارىء بوجود الله ، والعناية الالهيــة ، والحكم الالهى . تلك كانت الأفكار الأساسية التى شارك فيها متى رفاقه ، بسرد الوقائع التاريخية كما حدثت ، ولم يخرج تقريبا عن ترتيب وقوعها الزمنى . وكان منهجه هو مجرد سرد للأحداث ، اذ أنه تجنب عادة ممارسة دور المفسر للأحداث التاريخية . اذ انتهت مهمته عند كتابة ما حدث ، واذا ما كانت هناك قوانين غير القوانين الالهية لتفسيــر الحدث فانه لم يدركها ، شأنه فى ذلك شأن معاصريه من كتــاب الحوليــات المسيحيين المعاصرين له .

ويقف متى أيضا بجوار رفاقه من كتاب حوليات العصور الوسطى فى الاهتمام الذى أبداه تجاه الظواهر الطبيعية ، وفى التركيز على الأحوال السياسية والكنسية ، وفى عــدم الاهتمــام بالمزارعين والتجار ، وكل ما يحدث باعتباره تاريخ اجتماعي واقتصادي (ومع ذلك قام متى بتذكير القارىء بعدم استقرار سعر الخبز من حين الى آخر) وشارك متى النساخ الديريين فى عدم معرفته النظرية السياسية ، وايمانه بالمعجزات وكل ما ينذر بالشر ويبشر بالخير ، وفى نزعته التشاؤمية : ونظرا لأن كل الناس يعصون الله ، فلن يكون المستقبل سوى بما لا ترضاه النفس وتهواه !) وفى الوقت الذى أفصح فيه متى عما يجول فى نفسه ومزاجه الخاص بأسلوبه الذاتى فى الكتابة ، وبقدر يفوق كتاب الحوليات فى العصور الوسطى التقليديين ، الا أنه ظل موضــوعيا مثلهم عند تقديم معلوماته التاريخية . وقد أبدى تواضعا شديدا ، فى الأحوال النادرة التى أشار بها الى نفسه . ففى نهاية أحداث سنة ١٢٥٠ م ، كتب متى قائلا : « وهنا

تنتهى حوليات الأخ متى باريس الراهب فى دير سانت إلبنز ، والذى أخذ على عاتقه مشقة الكتابة من أجل فائدة الأجيال القادمة كلها ، وابتغاء مرضاة الله واجلالا للقديس البنز ، أول الشهداء الانجليز ، وحتى لاتتعرض ذكر الأحداث الجديدة للتلاشى أو للنسيان بمرور الوقت» (٦٦) . ولم يكتب أكثر من ذلك .

على أن نقطة الضعف الرئيسية التى أخذت على متى ، باعتباره أحد كتاب الحوليات ، هى افتقاره للموضوعية عند الكتابة فمن النادر وجود صفحة واحدة فى حوليته لم ينفث بها تحامله وتعصبه . اذ كان محافظا على القديم ومقاوما للتغيير بالمعنى التقليدى ، وأعنى بذلك أنه كان شديد التمسك ببقاء الأحوال كما هى ، أو كما يعتقد ؛ ولقد عارض الابتزازات التى مارستها البابوية والادارة الملكية ، الأمر الذى عرض استقلال ديره للخطر . وللسبب نفسه تعاطف متى مع البارونات فى صراعهم من أجل المحافظة على المكانة المهيمنة فى المجتمع وفى الشئون العامة . ورأى متى فى ظهور جماعات الرهبان الذين يتنقلون ويعيشون على الصدقات Mendicant Orders ، أمرا مثيرا للتفزز والاشمئزاز ، برغم أن الكنيسة كانت فى أمس الحاجة الى نوع مختلف من الرهبان . واعترض متى على زيارة المفتشين الماليين Grosseteste للأديرة فى أبرشيته فى لينكولن Lincoln ، برغم أنه لا بد قد وافق سرا على دوافع الأسقف . ومع ذلك فلم يدرك الباحثون قوة التأثير الكامل لتحيزه وتعصبه سوى فى السنوات القليلة الماضية . اذ سيطرت قوة تأثيره على كتاباتهم خلال النصف الأول من هذا القرن ، بشأن مهاجمة الملك هنرى والبابوية ، وموالاته لفريدريك الثانى بما لا يدع مجالا للشك .

وفى مجال التفوق على زملائه من كتاب الحوليات فقد فاقهم متى جميعا لاستخدامه أسلوبا قويا ، وفى طريقته الذاتية فى معالجة سرده للأحداث التاريخية . وكانت قدراته الوصفية والسردية للحكايات والنوادر فريدة فى عصره ، وكانت جهوده فى تدعيم الجانب الأدبى لسرده للأحداث رائعة عندما أورد ذكر مقتطفات للكتاب القدامى . على أنه أورد ذكر عبارات مستخدما فيها صيغة المتكلم مرات عديدة ، وكذلك خطبا ومحادثات لها مناسباتها ، ويضاف الى ذلك أنه يكشف عن حرصه على أن تكون حوليته مجلبة للسرور والمتعة ، لكل من يطلع عليها . وعلى هذا الأساس يستطيع المرء تبرير وجود الكثير من الحوادث العرضية التى قد ترفض السجلات الرسمية ذكرها لعدم أهميتها . ومهما وجد القارىء ما يسره عند الاطلاع على تلك الصور البلاغية فانها تقلل وتنقص من المصداقية التامة لرواية متى ، وبخاصة عندما أفصح هذا المؤرخ عن تحامله

وانحيازه • فقليل من القراء يمكن أن يقبلوا ، كما ذكر ليولين Llewellyn تلك العبارات التى أوردها متى على لسان أمير ويلز وهو يخاطب جنوده سنة ١٢٥٧ م قبيل مواجهة جيش هنرى الثالث • وكتب متى باريس أن الأمير أشار الى هنرى كملك : « عمل على جعل شعبه يعانى من الفقر ، وحرمه من حق الارث ، وحط من قدره » (٦٩) •

لقد سبق متى باريس عصره ، في ادراكه أهمية الوثائق ، والأوامر الرسمية ، الخطابات والمحادثات ، كمستندات تاريخية • ولهذا السبب ، وخشية أن يشوه الطابع الأدبى لحوليته استخدامها ، قام بجمعها فى مجلد منفصل أطلق عليه الاضافة Additamentum • كما أدرك أيضا المشكلة الكبرى التى واجهت المؤرخين الذين يخافون الله عبر القرون • اذ كتب يقول : « ان مهمة من يكتبون التاريخ صعبة ، فاذا ما حاولوا قول الحقيقة ، أثاروا غضب الناس ، واذا ما حاولوا كتابة ما يخالف الواقع ، فلن يرضى الله عنهم (٦٨) • على أنه مما يحسب لمتى باريس أنه كان أقل خوفا من غضب الناس عن خشية الله •

— ٦ —

حنا فرواسار

على الرغم من تأكيد حنا فرواسار على أنه مؤرخ أكثر من كاتب حولية ، فانه ما زال أكثر كتاب حوليات العصور الوسطى ثقافة واثارة للمتعة . وعملت ظروف عديدة على جعله مثيرا للمتعة . فقد عاش فرواسار في عصر الاثارة ، وجعل الناس الذين يحدثون الاثارة اهتمامه الأول — ووصف هؤلاء الناس — والحوادث — بأسلوب ذاتي ، ومفعم بالحيوية ؛ ولم يكن جيوفرى تشوسر Geoffrey Chaucer ، المعاصر لفرواسار شخصا مثيرا ، وفقا لتعريف هذا المؤرخ للحوليات لذلك التعبير ، ومن ثم لم يذكره في حولياته (١) . ولم يذكر كلاهما في كتاباته أنه قابل الآخر . وكان تشوسر مهتما بالأنماط أكثر من اهتمامه بالشخصيات البارزة ، وظل موضوعيا بتزمت في كتاباته . في حين أن فرواسار ظل يقدم شخصياته الى قرائه ، حاصرا اختياره في أفراد الطبقة الأرستقراطية أو الشخصيات التي تلي تلك الطبقة الذين أكسبتهم شجاعتهم أو أعمالهم السياسية اهتماما خاصا . ولم يرد ذكر أي شيء عن تشوسر في حوليات فرواسار ..

ومع ذلك فلابد أن فرواسار كان يعرف تشوسر ، تماما كمعرفته لكل من بيترارك Petrarch ، وبوكاكيو بوكاتشيو . اذ حضر الأربعة حفل زواج لوينل دوق كلارينس Lionel, duke of Clarence من فايولنت ابنة جالزوفيسكونتي Violante the daughter of Galeazo Visconti في ميلان . بيد أن فرواسار لم يجد ما يدعوه الى ذكر ذلك . وكان كل من فرواسار وبيترارك قسيسين . وعلى الرغم من أنهما ارتديا الزي الكهنوتي ، على نحو غير متطفل ، فان قليلا من الناس

كانوا على علم بتلك الحقيقة • وعلى مثال بوكاتشيو ، بدأ فرواسار بقرض الشعر ، بيد أن ما قدماه من نثر أوصلهما الى مرتبة التفوق ومن بين الكتاب الأربعة ، تشوسر ، وبيترارك، وبوكاتشيو، وفرواسار، وجد الرجل الفرنسى نفسه فى مجتمع رفيع المستوى (٢) • ومن بين الأربعة أيضا كان فرواسار أكثرهم شغفا بالحديث الى الناس والاستماع اليهم ، لأنه اعتمد عليهم فى الحصول على كثير من المعلومات التى صاغها فى حولياته • وتردد تشوسر بشأن التكلف وفرض الحساسية فى الحديث والملبس ليجعل شعبه يعيش ولم يظهر فرواسار اهتماما بتصوير الشخصية بالالفاظ • اذ كان اهتمامه بالناس • أو الذين قاموا بأعمال مهمة أو بطولية والمهمين عليه لديه • وركز اهتمامه على الحدث لا على الشخصية ، وبرغم أن دراسته كانت سياسية على نحو محدد ، وفى نطاق مفهوم الفروسية ، فان الصورة التى رسمها عن عصره فى تلك النواحى أمدت قراءه بفكرة أكثر دقة عن المجتمع المعاصر أكثر مما فعل زميله الانجليزى المعاصر على قطعة القماش المعدة للرسم الزيتى والأشمل مدى •

وكان فرواسار ابنا لأحد أبناء المدن الأثرياء ، وولد سنة ١٣٢٧ م ، أو حوالى ذلك التاريخ ، فى ڤاليتسينز Valenciennes ، احدى مدن هاينوت Hainout ، وهى كونتية فى اقليم شلدت Scheldt العليا ، وهى اليوم ، اقليم فى بلجيكا • واختار فرواسار الدراسات الكهنوتية ، وواصل بمثابرة تلك المهمة برغم أنه وجد متعة أكثر فى الأدب الرومانتيكى ، وفى الغناء ، وفى صحبة النساء ، أكثر مما وجده فى المسائل الروحية على حد قوله • وفى العشرين من عمره توقف عن دراساته اللاهوتية ، وتفرغ لكتابة الحوادث التاريخية التى حدثت فى فرنسا فى ذلك الحين بناء على طلب سيده الاقطاعى روبرت من نامور Robert of Namur • ثم ذهب الى البلاط الانجليزى سنة ١٣٦١م حيث قدم أول عمل تاريخى له ، وهى قصيدة عن معركة بواتيه Poitiers • وتسلمت الملكة فيليبا Phillippa ، احدى بنات بلده ، القصيدة « التى حققت لى فائدة كبرى » (٣) • وابان السنوات الخمس التى قضاها فى انجلترا ظل ينعم بكرم ضيافة فيليبا له ، وسنحت له الفرصة بالقيام برحلة شمالا ، « وجاب كل أنحاء اسكتلندا » (٤) فى صحبة الملك داود الذى قام بجولة ملكية فى أنحاء البلاد •

ثم وجدنا فرواسار فى بوردو Bordeaux سنة ١٣٦٧ م ، حيث وصل تلك المدينة ابان احتفال الأمير الأسود the Black Prince بميلاد ابنه ، ريتشارد الثانى فيما بعد • وفى السنوات الخمس التالية ظل ينتقل بين فرنسا وايطاليا ، وكان مطلبه المنشود بلاط الأمراء ، بما

فى ذلك البابا فى أفينون Avignon • وعلى سبيل المثال ، ذهب فرواسار الى ميلان فى صحبة لونيل دوق كلارنس بمناسبة زواج الأخير من ابنة أمير ميلان سنة ١٣٦٨ م • وفى سنة ١٣٧٣ م عاد الى هاينوت حيث مارس واجبات مساعد قسيس فى أبرشية ليستين Lestines بهدف الحصول على عمل أفضل ـ الى أن تم إنقاذه من هذا العمل الذى لا يتمشى مع ميوله حيث عمل على ادارة شئون منزل ونسلاس دوق برابنت Wenceslas, the duke of Brabant وعندما مات ونسلاس سنة ١٣٨٣م • انتقل فرواسار الى كنيســة جوى دى شاتيلون Guy de Châtillon ، مع كونت بلواه Blois ، الذى جعله قسيسه الخاص • واشار عليه بأن يتولى كتابة حولياته • وفى نهاية سنة ١٣٨٨ م • ذهب الى بيرن Bèarn على المنحدرات الشمالية لجبال البرانس من أجل الحصول على معلومات اضافية لكتاباته ، وقضى هناك ســتة أشهر ممتعة ومثمرة فى أورثيز Orthez ، وهى قلعة تابعة لجاستون فيوبوس Gaston Phoebus ، كونت فواه Foix •

وفى ســـنة ١٣٩٧ م وجد فرواســار نصــيرا آخر فى وليم من أوستريفانت William of Ostrevant حــاكم هاينــوت ، وذلك لأن « كونت وكونتية بلواه انغمســا فى ملذات المائدة كثيرا جــدا ، والتهما أطباقا عديدة من الحلوى حتى صارا فى حالة من البدانة الشديدة » (٥) والأسوأ من ذلك أنهما تعرضا لأزمة مالية شديدة • واستطاع فرواسار الذهاب مرة ثانية الى انجلترا بفضل مساعدة وليم • وكانت هذه المرة سنة ١٣٩٥ م عندما أهدى ريتشارد الثانى كتابا فى الشعر الغنائى ، مكتوبا بخط جيد ، ومزخرفا بألوان الذهب والفضة ، ومجلدا باللون القرمزى ـ المخمل ، وبه زهرة من نفس المادة فى منتصفه ، وله قفلان كبيران مكفتان بالفضة ومرصعان ترصيعا بديعا بزهرتين فى منتصفهما(٦) • ورغم سرور الملك بالهدية الا أن فرواسار شعر بخيبة الأمل اذ « لم أجد أحدا من معارفى فى الرحلات السابقة ، وكانت كل الخانات مشغولة بأناس جدد ، وبات أطفال معارفى السابقين رجالا ونساء (٧) » ، ثم اختفى عن الأنظار بعد عودته الى هاينوت ، وينسب المؤرخون وفاته الى عام ١٤٠٤ أو بعد ذلك التاريخ بقليل •

كان فرواسار مؤرخا للفروسية ، فلقد أدى دوره هذا بأمانة ، اذ شغف من بين فنون الأدب بقرض الشعر فى مستهل حياته ، بيد أن منظوماته لم تجلب له شهرة أو تقديرا ، وان كانت كفيلة بتخليد اسمه فى سجل الأدب الفرنسى حتى ولو لم يكن قد كتب الحوليات • ولقد نظم نحو أربعة عشر ألف بيتا من الشعر الغنائى وقصة منظومة بعنوان فارس الشمس الذهبية • ومن الغريب أنه اختار اسكتلندا مسرحا لأحداث قصته الرومانسية لأن ذلك البلد لم يكن مثل غيره من البلدان التى عرفها فرواسار لا فى فروسيته ولا فى رومانسيته ، ولقد تعاون مع راعيه ونسيسلاس الذى كان شاعرا هو الآخر فى نظم أبيات قصته ، والذى نثر فى مواضع شتى من القصة غنائيات من نظمه هو •

بيد أن نظم الشعر وكتابة القصة لم يمثلا سوى نشاط ثانوى لفرواسار الذى كان جل اهتمامه منصبا على تدوين التاريخ الذى شغف به كما يظهر من كتاباته : « وبغية أن استكمل هذا التاريخ المجيد والمبتج أليت أناجون فرواسار على نفسى أن أبذل قصارى جهدى لأكتب عن الوقائع المجيدة للحروب التى دارت رحاها بين فرنسا وانجلترا وحلفائهما ••• وسأعمل ما حييت على استكمال تلك المهمة التى يزداد شغفى بها كلما مضيت فى العمل » (٨) •

كان الهدف الأول لفرواسار من كتاباته هو اثارة الاحساس بالمتعة لمن يقرأ ما كتبه بالاضافة الى التسلية (٩) • وشارك فرواسار المؤرخين الذين سبقوه ، والذين جاؤوا من بعده فى الحافز الذى أثارهم : تاركين للأجيال القادمة سجلا من الأعمال التى كانت باعثا على الالهام اذا ما كانت رفيعة المستوى ، وباعثا على الاتزان والاعتدال اذا ما كانت رديئة • أما عن الدور الثانى فلم يكن لدى فرواسار سوى القليل ليذكره • بل يبدو أنه تجنب اقحام القصص أو المعلومات التى قد تشوه اسم أى شخص • اذ أغفل ذكر أليس بيريه Alice Perres « الطموحة » عشيقة ادوارد الثالث فى أواخر عهده • كما أغفل أيضا ذكر اتهام حنا من جونت John of Gaunt عم ريتشارد الثانى الذى سعى الى اعتلاء العرش بدلا منه • واذا ما ورد أحيانا فى حولياته ذكر أفعال دون المستوى الرفيع ، فلا شك أن ذلك أمر يدعو للأسف ، وان كان الموضوع جعل ذكر هذه الأفعال أمرا ضروريا• على أن اهتمامه الأول كان فى حفظ المعلومات عن الأعمال الخالدة فكتب يقول : « ان تلك الخطط الجديرة بالاحترام ، والمغامرات الشريفة ، والأعمال القتالية التى حدثت ابان الحروب بين انجلترا وفرنسا ، تستحق أن تحكى كما ينبغى لها ، وأن تظل ذكراها الى الأبد ــ ويستحق الرجال الشجعان الثناء الأبدى على ما قدموه من قدوة فى حسن الأداء • انى أجلس لأكتب تاريخا جديرا بالثناء والمديح الوافر » (١٠) •

ويريد فرواسار من قارئه أن يعلم أنه وضع نفسه في منزلة المؤرخ ، وليس مجرد كاتب حولية • وفسر ذلك بقوله : « اذا ما اقتصرت على مجرد القول بأن مواضيع كذا وكذا حدثت في وقت كذا ، دون أن أدخل بعمق في الموضوع ، الذى كان مرعبا ومصحوبا بالكوارث الى حد كبير ، فان ما أكتبه يكون حولية وليس بتاريخ » (١١) على أن الفرق الذى ذكره فرواسار بين الحولية والتاريخ مبنى على قدر المعلومات المتوفرة • واذا عرضت المادة التاريخية في قالب قصص عادى ، على طريقة المؤرخ الذى يسجل الأحداث عاما بعد عام فانها تكون حولية • أما التاريخ فيحتاج الى العمق ، والوصف التفصيلي • وهى من الأمور التى لم يتوان فرواسار عن التزود بها ، برغم احتمال قيام القراء المتبرمون بالتعبير عن مشاعر الرثاء •

وسواء أكان فرواسار يكتب باعتباره مؤرخا للأحداث التاريخية وفقا لتسلسلها الزمنى أم يكتب باعتباره دارسا للتاريخ فان الأهم من هذا وذاك حقيقة أنه كان يقول الصدق •وبالنسبة الى فرواسار كان قول الصدق هو المطلب الأول لأى كاتب للتاريخ قراءه بذلك في مناسبات عديدة • وكان اعدام السير سيمون بيورلى Sir Simon Burley ، مثالا لذلك وهى مأساة « جعلتنى أشعر بالاستياء والغضب الى أبعد حد ••• وكنت في أعماق نفسى أشعر بالحزن والاسى ، لانى عرفته فارسا نبيل الخلق منذ شبابى ، وعلى قدر كبير من تقدير عواقب الأمور وفقا لفهمه » (١٢) وكان بورلى قد وجد نفسه متورطا في صراع السلطة المرير بين ريتشارد الثانى والطبقة الأرستقراطية التى عارضته • وكان بورلى قد وجه اليه اتهام باختلاس مائتين وخمسين ألف فرنك ــ وهو اتهام اعتبره فرواسار لا أساس له من الصحة ثم تم نقله الى القلعة ، وبعد ذلك بوقت قليل ، « حملوه على الفور ••• وقطعت رقبته ، باعتباره خائنا ، في الساحة التى تقع أمام القلعة » • وبرغم معاناة فرواسار من الألم النفسى المبرح ، فانه شعر بأنه ملزم بتسجيل هذا الحدث • « وبالرغم من أنى رويت هذه الميتة المحزنة ، التى كنت ملزما بذكرها وفقا لتصميمى على الا أكتب سوى ما هو حق وصدق في هذا التاريخ » (١٣) •

على أنه لم تكن ثمة حادثة جرحت مشاعره في الصميم أكثر من اعدام السيرسيمون لأنها أساءت الى سمعة زملائه من أبناء بلده ، حدثت سنة ١٣٨٨ م • وكانت قوة صغيرة تحت قيادة دوق جيولدرز Gueldres قد استطاعت هزيمة جيش من أهالى برابنت Brabant • وفى الهجوم الأول المفاجىء سقط ما يزيد على مائة وعشرين من أهالى برابنت من على صهوة خيولهم • « وسيطرت عليهم حالة من الفزع الشديد والفوضى

والارتباك ... اذ أخذوا على حين غرة ... وبرغم كثرتهم العددية ، ووجود العديد من كبار السادة الاقطاعيين ، فقد تشتت شملهم جميعا » . وذكر فرواسار الحادثة برغم ما عاناه من خزى ومهانة . حيث كتب « لا أستطيع تحمل هذا الخزى الدائم الذى تمخضت عنه الهزيمة النكراء التى منى بها أهالى برابنت ، بيد أنى لابد وأن أقدم النتائج المحزنة لهذه المعركة وفاء لوعدى الذى ذكرته فى بداية هذا التاريخ بألا أذكر سوى ما هو حقيقى وبمنتهى الدقة » (١٤) .

واذا لم يحرف فرواسار الحقيقة أو لم يحتفظ لنفسه بالمعلومات التى وجدها محرجة أو غير مقبولة اجتماعيا فان كثيرا من العلماء يصرون على أنه اضطر الى صياغة تاريخه بالقدر الذى يتلاءم مع رغبات وميول الذين شملوه برعايتهم له وعاش فى كنفهم . ولا بد أن الاغراء كان واقعيا . فقد مكنه سخاء الذين عاش فى كنفهم من أن يحيا الحياة التى تمناها لنفسه بوجوده المستمر بين أفراد الطبقة الارستقراطية ، واعداده حولية عن أعمال الفروسية فى عصره . ومع ذلك فقد يلتمس القارىء له العذر فى صياغة تدريخه على النحو الذى يرضى من عاش فى كنفهم لسببين أولهما أنه بدون الرعاية التى ينعم بها لدى من عاش تحت رعايتهم لما ظهرت الحوليات ، وأن تاريخا متأثرا بالموقف الشخصي خير من لا شيء . وثانيهما ان فرواسار لم يدع أنه كتب تاريخا متوازنا وصحيحا تماما عن عصره . فكان هدفه تسجيل المواقف والأحداث المترابطة المتعلقة بالطبقة الارستقراطية ، وطبقة الفرسان والحروب بين فرنسا وانجلترا وحلفائهما .

ويعتقد على وجه التعميم أن النص الأول للكتاب الأول يكشف عن بعض الانحياز الى انجلترا . وكان فرواسار قد كتب هذا الكتاب بناء على طلب روبرت من نامور Robert of Namur ، أحد أقارب الملكة فيليبا Philippa ، التى مكث فى قصرها بضع سنين وينسب جزء من هذا التعاطف مع الانجليز الى جين لوبل Jean Le Bel كاهن ليج Liege ، الذين اعتمد عليه فرواسار فى كتابه مؤلفه الأول هذا الى حد كبير . ثم ظهرت نسخة منقحة للكتاب الأول عندما كان يعيش فرواسار فى كنف جوى دى بلواه Guy de Blois تكشف عن استقلال أكثر فى حين أن النسخة الثالثة التى ظهرت سنة ١٤٠٠ م أو ما يقرب من ذلك التاريخ كانت خالية تماما من أى انحياز للانجليز . ويبدو فرواسار متعاطفا مع الفرنسيين فى الكتابين الثانى والثالث . ولابد أن ذلك قد أرضى جوى دى بلواه الذى عاش فرواسار فى كنفه فى ذلك الحين بينما الكتاب الرابع نسخة فرواسار عندما كان يعيش فى كنف وليم من أوسترفنت William of Ostrevant ، وفى هذا الكتاب ظهر قدر من الانحياز للبورجنديين Burgundian .

وعلى الرغم من أنه قد يتردد عندما يناقش مدى موضوعية فرواسار ، ما هو موجود عن انحيازه لكنه لا يكفى للتقليل من قيمة حولياته ، فان من الممتع أن نرى فرواسار نفسه ، وقد أثار القضية وفعل ذلك ابان وصفه لحادثة تعرض لهـــا دوق بريتانى Brittany • حيث كتب يقول : « لا يصح أن يقال ، أنى حرفت كتابة التاريخ من قبيل محاباة جوى دى بلواه (الذى أقنعنى بالكتابة ، ودفع الى نفقات كتابة هذا التاريخ •• ارضاء لى) ، لأنه كان أحد أقارب دوق بريتانى الشرعى ••• ان الأمر ليس كذلك • ودون أن أبدى مشاعر خاصة الى هذا الجانب أكثر من ذاك الجانب ، كما أن هذا الأمير الشهم ، الذى تفضل بتغطية نفقات كتابة هذا التاريخ لم يفرض على أبدا أن أكتبه بأية طريقة أخرى » (١٥) •

ويجب على المرء أن يضع فى اعتباره أنه عندما أثار فرواسار قضية المحاباة المحتملة من جانبه أنه كان يفكر من منطلق قومى • اذ أن مفهوم القومية وفقا للعصر الحالى كان غريبا على عصر فرواسار • فمفهوم القومية هو نتاج للثورة الفرنسية الى حد كبير • فقبل نهاية القرن الثامن عشر يمكن للمرء أن يتحدث عن وعى قومى لا عن القومية ، وكلما رجع الانسان الى ما قبل سنة ١٨٠٠ م ، كلما كان نمو الوعى القومى أضعف • وفى عهد فرواسار لم تكن هناك أمة فرنسية أو أسبانية • واذا ما كانت انجلترا قد صارت دولة موحدة ، فان رجال معظم الطبقة الارستقراطية الانجليزية شعروا برباط أقوى مع زملائهم من النبلاء غير بحر المانش أكثر من رباطهم مع جيرانهم فى أرض الوطن • ويحكى فرواسار أن الطبقة الارستقراطية تلقت نبـأ انتصـــار الفرنسيين على الفلمنكيين فى روزبيك Rosebecque بكل الرضا والارتياح • « لم يأسف نبلاء انجلترا عند سماع ذلك الخبر ، لأنهم قالوا ، اذا ما قدر للطبقة العامة من شعب الفلاندرز الانتصـار على ملك فرنسا ، وقتلوا طبقة النبلاء فى فرنسا ، لازداد شعور طبقة العامة بالاعتداد بأنفسهم الى الحد الذى يجعل كل طبقة النبـلاء تشـعر بالحزن والأسى » (١٦) •

كان فرواسار أحد مواليد امارة هاينوت Hainaut ، وهى احدى مجموعة الامارات التى تقع بين فرنسا والمانيا ، وتمتعت بصلات قوية مع انجلترا • ولم توجد روح الحكم الذاتى فى أى مكان بأوروبا سوى فى شمال ايطاليا • وبالنسبة لفرواسار فان قدرا من التحرر من الأحقاد المحلية والاقليمية امتزج بحبه الى هاينوت • وهذا نتيجة لحبه الحقيقى للفروسية أينما وجدت ، يضاف اليها اعجابه بالطبقة الأرستقراطية فى كل البلاد دون تمييز •

واذا ما استطاع القارىء المدقق للحوليات أن يتبين قدرا من تحول التعاطف مع الانجليز الى الفرنسيين ثم الى البورجونديين ، فان هذا لدليل واضح على تلهف فرواسار على اضفاء المديح على كل الرجال الشجعان ، مهما كان أصلهم ، والذين أظهروا شجاعة فى ساحة الوغى • ومن النادر وجود صفحة واحدة فى الحوليات لا يطلع عليها اسكتلندى ، أو انجليزى أو فرنسى ، أو قشتالى Castillian الا وشعر كلهم جميعا بقدر متساو من الرضا والارتياح • فالطريقة التى وصف بها فرواسار القتال الشرس الذى دار ابان الحرب بين الانجليز والاسكتلنديين قبيل معركة أوتيبورن Ottebourne فى سنة ١٣٨٨ م توضح رغبته فى ارضاء كل الأطراف حيث دار القتال بين أتبـاع دوجلاس Douglas وعشائر بيرسى Percy ، والاثنان من ألمع الشخصيات فى تاريخ القتال الطويل الأمد على امتداد الحدود الفاصلة بين انجلترا واسكتلندا • ويؤكد فرواسار للقارىء منذ البداية ، « لقد استقيت معلوماتى من كل من الطرفين » ثم قال « اتفق الطرفان على أنها كانت أشرس وأعنف معركة جرت بينهمـا • وأعتقد عن يقين فى ذلك لأن الانجليز والاسكتلنديين محاربون ممتازون ، ولا يرحم أحدهما الآخر اذا ما التقوا فى معركة ، ولا يعوق شجاعتهم شىء طالما كانت أسلحتهم قادرة على مواصلة القتال • وعندما يلحق كل منهما ضربات منهكة بالفريق الآخر ، وينتهى الأمر بانتصار أحد الفريقين ، يشعرون بالفخر الشديد لانتصارهم ويسارع الفريق المنهزم بافتداء أسراه على الفور • واعتادوا على معاملة الأسرى معاملة طيبة ، لدرجة أنه عند رحيلهم يعودون ثانية لتقديم الشكر • ومع ذلك فلا يعرفون سوى الجدية فى القتال اذا ما دارت رحى الحرب • ولا يتقاعسون عن خوض المعركة على الاطلاق • وسترى أعمالا بطولية ممتازة ذكرتها كما حدثت بكل دقة فى التفاصيل التى أوردتها عن تلك المعركة » (١٧) •

واذا كان فرواسار موفقا فى الاحتفاظ بوضع مستقل بصفة عامة عند وصفه للمعارك بين الجيوش المختلفة ، فان هذا لا يعنى أنه لم ير أن الشعوب المختلفة لها ملامح وسمات مختلفة -- وانمـا وجد البرتغاليين « يميلون الى سرعة الانفعال ، والاستبداد ، أما الانجليز فوجدهم يميلون الى اغاظة الآخرين والى الحقد والغطرسة » (١٨) • وعندما كتب فى أوائل عهـده عن الانجليز الذين قابلهم ابان فتـرة اقامته المؤقتة فى بوردو Bordeaux ، وجد أنهم كانوا متكبرين أيضا « أنا ، مؤلف هذا التاريخ كنت فى بوردو وعندما تحرك أمير ويلز بجيشه الى أسبانيا ، وشاهدت كبرياء الانجليز الشديد ، الذين لم يتصرفوا بسماحة مع أى أمة سوى أنفسهم ، وكما لم يستطع كبار الشخصيات فى جاسكونى أو أوكوتين

أن يحصلوا على منصب أو وظيفة فى بلادهم ، برغم أنهم أفنوا أنفسهم فى الحروب ، وذلك لأن الانجليز قالوا عنهم أنهم ليسوا فى مستواهم ، وأنهم غير جديرين بالاندماج فى مجتمعهم ، وهو الأمر الذى جعل أهالى جاسكونى فى حالة سخط ونقمة » (١٩) ٠

ونظرا للسنوات التى قضـاها فرواسار فى انجلترا ، فليس من المدهش أن بعضا من كراهية انجلترا للاسكتلنديين انتقلت اليه ٠ ففى احدى تعليقاته الأولى عن الاسكتلنديين صرح بأنهم « شعب تافه وفظ » ٠ وأعلن مرة ثانية ، « لن تجد رجلا جديرا بالاحترام ٠ فى اسكتلندا ، انهم مثل الحيوانات المتوحشة ، فهم لا يرغبون فى التكيف الاجتماعى مع أى شخص ٠ ويشعرون بالحسد من ثروة الآخرين الى حد كبير ، وغير آمنين على ما فى أيديهم ، لأن بلادهم فقيرة جدا » (٢٠) ٠ فذات مرة كتب عن قصة الجاسوس الانجليزى الذى سرق جواده عندما كان يقوم ببعض أعمال التجسس على امتداد الحدود الشمالية ٠ فلاحظ فرواسار أن تلك الحادثة لا يصح اعتبارها غير عادية لأن الاسكتلنديين « كلهم لصوص » (٢١) ٠

ومن ناحية أخرى ، فانه امتدح الاسكتلنديين على بسالتهم فى القتال بشكل مستمر : « ان الاسكتلنديين شعب جرىء ومقدام ، وشديد الجلد ومتمرس على الحرب » (٢٢) ٠ على أن الانطباع الذى أخذه عن بعض شعوب أسبانيا وايطـاليا كان مختلفا تمـاما ٠ فكتب : « يتشـابه القشتاليون Castillians والجاليكيان Galicians واللومباردين والايطاليون الى حد كبير ، فهم جميعا مع الجانب الأقوى ، ويصيحون ، « المنتصر على الدوام ٠٠٠ ! » (٢٣) ويبدو من الأهمية بمكان عدم توجيه فرواسار كلمة نقد واحدة للفرنسيين ٠

واذا ما وضع المرء فى اعتباره رغبة فرواسار فى التعبير عن نفسه باستخدامه عبارات الازدراء لتلك الشعوب المختلفة فمن المدهش أنه لم يذكر شيئا يحط من قدر اليهود ٠ واحدى المناسبات القليلة التى اهتم بهم فيها كانت متعلقة باضطهاد من الواضح أنه كان واسع الانتشار ، وعانوا منه سنة ١٣٤٩ ٠ فكتب يقول : « وفى ذلك الحين ، تعرض اليهود فى كل أنحاء العالم للقبض عليهم والموت حرقا ، وقام سادتهم الاقطاعيون بالاستيلاء على ثرواتهم باستثناء مدينـة أفينون Avignon ، وأراضى الكنيسة التابعة للبابا ٠ واعتبر أى يهودى فقير نفسه آمنا اذا ما استطاع اخفاء نفسه ، والوصول الى تلك الأراضى » (٢٤) ٠

ونظرا لأن فرواسار كان مؤرخا حوليا للمعارك وللأعمال البطولية التى جرت فى ساحة الوغى ، وابان حصار المدن والقلاع ، أو المبارزات

الفروسية فحسب تقريبا ، فان المسألة المتعلقة بنوعية الفلسفة التاريخية التى أقرها وأيدها لم تثر اهتماما كبيرا • على أن فرواسار نفسه لم يقل سوى القليل الذى يمكن اعتباره وثيق الصلة بهذا الهدف كما أن كتاباته لا توحى بأى فعالية للمبادىء أو القوانين التى يمكن أن يكون لها تأثير أو توجيه على مجرى الأحداث • ولو أن فرواسار غطى السنوات الخمس والسبعين فى وحدة كاملة موحدة وجعل لها بداية وخاتمة ، لأعطى الايحاء بافتراض وجود قوى كانت توجه سلوك الناس لكى تكشف عن بعض النماذج فى الطريقة التى جرت بها الأحداث • وتتكون حوليات فرواسار من سلسلة مستمرة من الأحداث المترابطة فى الحياة الواقعية والأحداث العرضية عرضها مرتبة وفقا لتسلسلها الزمنى الى حد كبير ، وعلى ما يبدو فقد عالجها فى سياق غير متنوع ، وهو نفس الأسلوب الذى استمر بعد أن انتهى فرواسار من كتاباته •

ويشير فرواسار من حين لآخر الى طبيعة التعليق الفلسفى الشائع بين كثير من الكتاب مثل ، « لكل شىء فى الوجود نهاية » (٢٥) وهناك العديد من المناسبات التى عزا فيها حادثة الى الصدفة أو الى حسن الحظ أو علم حسنه ، « وإذا ما شاء الله شيئا فلا راد لقضائه » (٢٦) ونسب هذه الملاحظة المهمة الى دوق لانكستر Lancaster عندما علم بغرق الأسطول الذى أرسله أروندبل Arundel لنجده دوق بريتانى فى عاصفة • وهناك اشارة مشابهة منسوبة للقوى الخارقة للطبيعة ، وظهرت هذه القوة المتعلقة بالسحر والشعوذة فى ارتباطها بنشوب القتال فى بلاد الفلاندرز • فكتب فرواسار أن الايرل earl ، « الذى كان حكيما ومتبصرا بعواقب الأمور » حاول أن يحول دون نشوب هذه الحرب بيد أنه أخفق فى ذلك • « ان هؤلاء الذين يقرأون هذا الكتاب أو يستمعون اليه ، سيقولون أنه من عمل الشيطان ، فأنت تعرف أن العقلاء يعتقدون أن الشيطان الخبيث والمخادع يعمل ليلا ونهارا لاشعال نيران الحرب حيث يوجد سلام وتآلف ، ويسعى بالوسائل التى لا تخطر على بال لتحقيق أهدافه • وهكذا حدث فى فلاندرز ، كما سترى بوضوح ، وتعلم من المفاوضات والمعاهدات والأوامر المجلبة ذات الصلة بتلك الأمور » (٢٧) •

ولا ريب أن الفكرة المطروحة هنا تعبر عن مسيحيين فى العصور الوسطى ، علاوة على ما يتوقعه المرء من القسيس فرواسار • وعلى ذلك ربما افترض القارىء أن فرواسار اتفق فى الرأى مع لورانس من فونجاس Lawrence of Fongasse ، الذى كان يعمل مرافقا فى خدمة ملك البرتغال ، والذى نسب حسن حظ بلاده وملكها دون حنا Don John الى فضائل ذلك العاهل • اذ قال عن الملك أنه : « يتقى الله ويعمل

ما يرضاه ، وقلبه معلق بالكنيسة ، التى عمل على علو شأنها بكل ما يملك من قوة ٠٠٠٠ وفوق كل ذلك ، عمت العدالة أرجاء دولته دون تحيز ، وحصل الفقراء على حقوقهم » (٢٨) ٠

ومع ذلك فيجد القارىء المحب للصراع والأعمال الرياضية الكثير والذى يوافق ميوله ، مثل الملاحظة التى أبداها فرواسار فى سياق حديثه عن القصــة المسلية عن أمريجوت مارسيل Amerigot Marcel ، قائد جماعة من الرفقاء الأحرار ٠٠ وتكون هؤلاء الرفقاء من الجنود المتعطلين الذين مارسوا عمليات العنف والسطو على المناطق الريفية ابان السنوات التى أعقبت انهيــار فرنســا بعــد معركة بواتيه Poitiers (سـنة ١٣٥٦ م) ٠ وانضم كثير من الجنود السابقين الى مارسيل الذى حقق قدرا من النجاح المتواصل فى عمليــات السلب والنهب ٠ بل أنــه نجح فى الاستيلاء على قلعة لاروش دى فينداياس La Roche de Vendais ، التى اتخذها وأتباعه قاعدة انطلقوا منها لنهب المناطق الريفية المجاورة ٠ بيد أن نجمه أخذ فى الأفول فى النهاية ٠ فقد قويت المقاومة تدريجيـا الى الحد الذى جعلته يخاف على نفسه من الاعتقال ٠ وكانت غلطته الكبرى فى طلبه العون من أحد أقاربه الذى أسلمه على الفور ، وأنهى فرواسار هذه الحادثة الواقعية بالتعليق التالى : « وهكذا تعامل الهة الحظ عند الرومان أحبابها ، فتقوم بحملهم الى أعلى نقطة فى عجلتها ، ثم تقذف بهم فى الوحل فجأة ٠ ويشهد على ذلك أمريجوت مارسيل فكأن هذا الشخص الأحمق يمتلك أكثر من مائة ألف فرنك نقدا ، ثم خسرها وخسر نفسه فى يوم واحد ٠ ولذلك أقول أن السيدة الهة الحظ dame Fortune خدعته ، كما خدعت الكثيرين من قبله ، وستخدع الكثيرين من بعده » (٢٩) ٠

على أن طبيعة ومدى مصادر المعلومات التى رجع اليها المؤرخ ، عامل حاسم فى تحديد مصداقيته ٠ ويظهر هنا سجل فرواسار الذى يستحق الثناء كما أن كلماته باعثة على الاطمئنان ٠ « ربما يسأل البعض عن كيفية المامى بالأحداث فى هذا التاريخ ، وعن حديثى عنها بتفصيل دقيق وردى عليهم أنى بذلت جهودا مضنية وتحملت الجسام ٠ وبحثت فى الممالك والأقطار عن الحقيقة ، أو ما ذكر عنها : كما أن الله منحنى النعمة والفرصة لأشاهد بنفسى ، وأكون معارف لى مع الغالبية العظمى من كبار السادة الاقطاعيين فى فرنسا وفى انجلترا ٠ ويجب أن يكون معلوما أنه سـنة ١٣٩٠ م كنت قد قضيت سبعة وثلاثين عاما فى كتابة هذا التاريخ ٠ وفى ذلك الحين كنت قد بلغت السابعة والخمسين من عمرى ، ولذلك كان يمكن للمرء أن يتعلم الكثير فى تلك الفترة ، عندما كان فى تمام الصحة والعافية وكان يمكن له أن يلتقى بكل الأطراف ٠ وابان شبابى ، كنت

على صلة مع ملك وملكة انجلترا لمدة خمس سنوات ، وقضيت فترة طيبة فى قصر حنا ملك فرنسا وابنه الملك شارل : ونتيجة لذلك كنت قادرا على أن أسمع الكثير فى تلك الأوقات ، وبالتأكيد كانت متعتى كبيرة عندما تمكنت من الاستفسار عن كل شيء يتعلق بما يدور فى هذا العالم ثم قمت بتسجيل كل ما سمعت وعرفت » (٣٠) ٠

ولم يقتصر فرواسار على بذل الجهود المضنية فى جمع المعلومات ، وانما أدرك ادراكا كاملا أهمية الحصول على التفاصيل من طرفى أى نزاع ٠ فقبل أن يبدأ وصفه للمعركة التى دارت بين الانجليز والاسكتلنديين فى أوتربورن Otterburne سنة ١٣٨٨ م يحكى فرواسار عن جهوده فى الحصول على المعلومات فيقول : « كنت على علم بكل تفاصيل هذه المعركة من الفرسان وحملة الدروع الذين اشتركوا فيها من كل من الجانبين ٠ وكان مع الانجليز فارسان شجعان من أهالى فواه Foix ، وساعدنى الحظ بمقابلتهم فى أورتيه Orthès بعد انتهاء المعركة بعام ٠ وعند عودتى من فواه ، قابلت فى أفينون Avignon فارسا واثنين من حملة الدروع الاسكتلنديين من جماعة الايرل دوجلاس Earl Douglas وتعرفوا على ، من خلال الذكريات التى ذكرتهم بها عن بلدهم ، لأنى فى مرحلة شبابى ، أنا مؤلف هذا التاريخ ، تجولت فى كل أنحاء اسكتلندا ، وقضيت خمسة عشر يوما كاملة مع وليم ايرل دوجلاس والد الايرل جيمز James ، الذى نتحدث عنه الآن فى قلعته فى دالكيث Dalkeith التى تبعد خمسة أميال عن ادينبره Edinburgh وعلى ذلك قد حصلت على معلومات من الطرفين » (٣١) ٠

ولا بد أن فرواسار قد قام برحلات أقصر بهدف الحصول على معلومات مستقاة من مصدرها الأول عن الأحداث المختلفة التى عقد العزم على وصفها ٠ وفى سنة ١٣٩٤ م قام فرواسار برحلة قصيرة الى آبيفيل Abbeville حيث اجتمع بها المفاوضون الانجليز والفرنسيون لبحث ترتيبات السلام ، وذهب فرواسار ، « ليعرف حقيقة ما يجرى هناك » (٣٢) ٠ وعندما حانت الفرصة جمع مؤرخنا بين العمل والمتعة ٠ فقال أنه قام بزيارة قصيرة الى باريس سنة ١٣٨٩ م ، « ليكون على علم بتفصيلات المؤتمرات التى كانت منعقدة فى ليولنجم Leulinghem بين الفرنسيين والانجليز ، وليحضر الولائم الرائعة بمناسبة دخول الملكة ايزابيلا Isabella باريس » (٣٣) ٠ وتحقق هدفى فرواسار ، وحضر حفل زواج دوق بيرى Berry فى ذلك العام ٠ « كان حفل الزواج رائعا جدا ٠٠٠ واستمرت الولائم والمباريات أربعة أيام ، أما أنا ، كاتب هذا الكتاب ، فكنت مشاركا فى كل ذلك » (٣٤) ٠

واذا ما وضع المرء فى اعتباره طبيعة مصـادر معلومات فرواسـار المتنوعة وغير الرسمية ، فان القارىء الذى يسلم بصحة كل ما فى حولياته على نحو مقبول يكون قارئا سهل الانخداع ، وربما يشعر القارىء بالاطمئنان على نحو مقبول عندما يورد فرواسار مصادرة ، ويصبح أكثر يقينا عندما يعلن مؤرخ الحوليات أنه استقى المعلومات من المصدر الأصلى • ولا يحتاج المرء الى أنباء أكثر من قوله أن الملكة فيليبا Philippa حققت ايرادا سنويا قدره خمسة وعشرين ألفا من النوبيلات nobles (*) ، من أكبر عزبة قدمت اليها كهدية ، وذلك لأنه « خدم تلك الملكة الطيبة الذكر •• وعمل سكرتيرا لها ، وسمع من السادة الاقطاعيين وزوجاتهم ، ومن الفرسان الذين حصلوا على نصيبهم من ريع تلك العزب » (٣٥) • وفيما يتعلق بزيارة دوقة لانكستر وابنتها الى ملك وملكة البرتغال سنة ١٣٨٦ م ، كتب فرواسار قائلا : « ابتهج القصر كله ابتهاجا عظيما عند وصول هاتين السيدتين ، بيد أنى لن أدعى لنفسى ذكر تفاصيل ما حدث لأنى لم أكن هناك ، فكل معلوماتى نقلا عن الفارس الشهم السير جنا فيرناندو بوراتليت Sir John Fernando Portelet الذى كان هناك » (٣٦) •

واذا لم يفترض القارىء صحة كل ما كتبـه فرواسـار من معلومات تاريخية ، فعليه أن يعلم أن الحالة سيجدها عندما يرجع الى كل الكتاب الذين سبقوا عصر فرواسار تقريبا ، والذين أخذوا على عاتقهم القيام بدور المؤرخ • فيقول هيرودوت ان الجيش الفارسى الذى غزا أتيكا سنة ٤٩٢ ق•م زاد على مليونين من الجنود • وهذا الرقم رفضه كل العلماء باعتباره مبالغ فيه الى حد اثارة السخرية • وكثير مما تضمنه تاريخ المؤرخ الرومانى ليفى Livy لا بد وأن يدخل فى اطار الأساطير • ومن ناحية أخرى كان العلماء على استعداد لقبول الدقة الواقعية لوصف فرواسار لمعركة كرسى ، على سبيل المثال ، بل والاستشهاد بقوله بخصوص الأعداد التى ذكرها والتى اشتركت فى تلك المعركة • ويجب على القارىء أن يضع فى اعتباره أمرين عندما يقرأ ما كتبه فرواسار أولا ، أن فرواسار عاش قبل العصر الذى أصبح فيه التاريخ علما ، فهو لم يزر أماكن حفظ السجلات ، ولم يدرس أو يقارن بين المعلومات المتعارضـة كمـا هو ضرورى فى عصرنا هذا (٣٧) • ثانيـا ، أن هدفه لم يكن كتـابة تاريخ متوازن عن الأحوال السائدة فى تلك الفترة وانما أن يكتب سجلا عن أعمال البطولة التى ظهرت فى الحروب بين فرنسا وانجلترا وجيرانهما ، « وأن يقدم وصفا دقيقا » •

(*) noble هى قطعة نقد ذهبية انجليزية قديمة قيمتها ثمانية شلنات ونصف • المترجم •

عن كيفية مهاجمة القلاع والمدن وكيف تم الاستيلاء عليها • وبدلا من نقد فرواسار لعدم دقته ، « فاننا سنكون مندهشين الى حد ما للمصداقية العامة لتلك الحوليات أكثر مما بها من أخطاء خاصة » (٣٨) •

وقبل أن نعتبر فرواسار صاحب الدور الأعظم كمؤرخ للفروسية فى غرب أوربا فى القرن الرابع عشر ، فمن المفيد أن نلقى نظرة على أنواع المعلومات الأخرى التى قدمها للقارىء فى حولياته • واذا كان العديد من العلماء قد ذهبوا بعيدا جدا فى أعجابهم بفرواسار الى حد أنهم اعتبروه هيرودوت أواخر العصور الوسطى ، فان ذلك لم يكن من الواقع فى شىء • واذا كانت الحروب هى موضوع الكتابة عند فرواسار وهيرودوت ، الا أنه فى الوقت الذى قدم فيه المؤرخ اليونانى كثيرا من المعلومات المتعلقة بالعرف والعادات والأنماط الاجتماعية للشعوب المختلفة التى ذكرها فى تاريخه ، فان فرواسار لم يذكر شيئا بالكامل تقريبا عن هذه النواحى • ومع ذلك فليس من الانصاف فى شىء أن نعيب على فرواسار لافتقاره الى الاهتمام بعامة الشعب ، وماذا يفعلون وكيف يعيشون حيث كان عامة الشعب لا يقعون فى مدى نطاق اهتماماته التى جعلها كل سبيله فى الحياة • وكان هدف فرواسار من تقديم وصفه للمعارك وأعمال البطولة ، استنادا الى خلفية من التاريخ السياسى ، من أجل المتعة والتسلية ورفع الروح المعنوية بين أسياده وأصدقائه من الطبقة الارستقراطية •

على أن فرواسار نظر الى الطبقة الأدنى من الطبقة الأرستقراطية من حين الى آخر • فعند الكتابة عن المعارك لا بد أن يشمل ذلك بالطبع حملة الدروع والجند • وهناك مناسبات عندما كانت الطبقات الدنيا مصدر ازعاج لمن هم أعلى منهم اجتماعيا • وكانت ثورة المزارعين فى انجلترا سنة ١٣٨١ م أشد تلك المناسبات خطورة • وكما يتوقع المرء تعاطف فرواسار مع هؤلاء الذين يمثلون الوضع السائد من أصحاب السلطة العليا ضد هؤلاء الذين يعكرون صفو الأوضاع ، على الرغم من أنه بذل جهدا فى تقديم الوقائع والحجج المؤيدة لموقف المزارعين • ولما كان لدى فرواسار أمل فى أن يكون تاريخه ، « مثالا يحتذى به لكل البشر » • لذلك فانه يستلفت القارىء باعتباره متوازنا بدرجة مقبولة •

« من المتعارف عليه فى انجلترا ، وفى العديد من البلدان الأخرى أيضا أن لطبقة النبلاء امتيازات كبيرة على طبقة العـامة الذين ظلوا فى حالة استرقاق ، وأعنى بذلك ، أنهم كانوا ملزمين بحكم القانون والعرف أن يحرثوا أراضى الأغنياء ، ويحصدوا الحبوب ويحملونهـا الى مخزن الحبوب ، ويدرسونها ويقومون بتذريتها ، وكانوا ملزمين أيضا بجمع القش المستخدم كعلف للماشية ونقله الى المنزل • وكانت طبقة العامة

ملزمة بأداء كل تلك الخدمات لسادتهم الاقطاعيين ، وكان هذا الوضع أكثر شيوعا في انجلترا عنه في أي بلاد أخرى • وكانت هذه الخدمات تؤدى لصالح الأساقفة والأغنياء • وكانت هذه الخدمات ثقيلة الوطأة في كونتيات كينت ، واسكس ، وسكس ، وبدفورد ، عن أي منطقة أخرى في المملكة » •

« وبدأت عناصر السخط في تلك المناطق تعبر عن نفسها قائلة أنهم يتعرضون لظلم صارخ ، وأنه لم يكن هناك عبيد عند بدء الخليقة ، ولا يصح أن يعامل أحد كعبد ، ما لم يكن قد اقترف خيانة ضد سيده الاقطاعي ، كما عصى ابليس ربه • غير أنهم لم يفعلوا مثل ذلك ، لأنهم ليسوا ملائكة أو أشباحا ، وانما بشر مثل سادتهم الاقطاعيين تماما بتمام ، ولكنهم عاملوهم كالأنعام • وأن هذا الأمر لن يسكتوا عليه فانهم عقدوا العزم على الحياة أحرارا ، وأنهم يجب أن ينالوا أجورهم على أعمالهم التي يقدمونها للسادة الاقطاعيين » •

وجعل حنا بول « القس المخبول » (*) من نفسه متحدثا باسم هؤلاء المزارعين الذين كانوا يعانون من الشعور بالسخط والاستياء • اعتاد القاء خطاب عليهم بعد قداس الأحد في ساحة السوق عن المظالم التي يتعرضون لها على أيدى سادتهم الاقطاعيين • وقال لهم : أصدقائي الكرام ، ان الأمور لا يمكن أن تستقيم ، ولن تستقيم ما لم يكن كل شيء مشتركا ، عندما لا يكون هناك تابع أو سيد اقطاعي ، وعندما تذوب كل الفوارق بين الطبقات • وعندما نكون والسادة الاقطاعيون سواء بسواء • ألم يستغلونا ؟ وما هو السبب الذى يجعلهم يستعبدوننا ؟ ألسنا جميعا أبناء لآدم وحواء ؟ وما هو دليلهم ؟ وما هي مبرراتهم التي تجعل لهم السيادة علينا ؟ اللهم الا لاجبارنا على العمل بكل جد وكد من أجلهم لينعموا • انهم يرتدون الملابس الحريرية وكل ما هو غال وثمين ، ويتزينون بفراء القاموم الأبيض (**) ، في الوقت الذى أجبرنا فيه على ارتداء الردىء من القماش • انهم ينعمون بالنبيذ ، والتوابل ، والخبز الفاخر ، في الوقت الذى لا يبقى فيه لنا سوى الخبز الأسمر المصنوع من دقيق الجوادار (***) ، ومن بقايا القش والتبن ، ولا نشرب سوى الماء • انهم يمتلكون القصور

(*) لا نعتقد أن حنا بول كان مخبولا ويرجع استخدام فرواسار لهذه الصفة الى محاولته ارضاء الطبقة التي كتب لها وعاش على موائدها • ـ المترجم •

(**) القاموم الأبيض ermine هو فراء القاموم الذى كان يرتديه الملوك والقضاة ـ المترجم •

(***) الجوادار rye ، هو نبات من الفصيلة الحبية يعطى حبا ، ودقيقه يعطى خبزا أسمر ، ويستخدم حبه في صناعة الخمور • ـ المترجم •

الفاخرة ، وعلينا نحن التعرض للرياح والأمطار ابان أعمالنا المضنية في الحقول •وبفضل نتاج جهدنا يعيشون في رفاهية وأبهة • ويطلقون علينا لفظ عبيد ، ويعتدون علينا بالضرب اذا ما لم نقم بأعمالنا ، وليس لنا سيد نشكو اليه ، بل لا يوجد من لديه الاستعداد للاستماع الينا وتحقيق العدل • هيا بنا الى الملك الشاب ، لنشكو اليه حالنا ، واجبارنا على حياة العبودية ، ولنبلغه أننا لن نرضاها بعد اليوم ، وأننا سنبحث عن وسيلة شرعية لاسترداد حقوقنا » (٣٩) •

وأدان بعض النقاد فرواسار لاتخاذه موقف المتبلد المشاعر أمام معاناة الطبقات الدنيا • واستشهدوا بفقرة من حولياته ، لكي يبرهنوا على صحة دعواهم ، وتتعلق هذه الفقرة باستيلاء الأمير الأسود على بلدة ليموجيز Limoges ، واعدام كل سكانها بناء على أوامره • وكانت أنباء انضمام تلك البلدة قد أثارت حنق ذلك الأمير الذى « أقسم بروح والده ، والذى لم يسبق له أن حنث في ذلك القسم ، أن يعمل على استرداد تلك البلدة ••• وأن يجعل سكانها يدفعون ثمنا غاليا لخيانتهم » (٤٠) • وبعد أن حاصر الجيش البلدة من جميع الجهات ، شرع الحفارون فى حفر نفق تحت أسوار البلدة • وبعد مرور حوالى شهر أبلغوا الأمير الأسود بانتهاء مهمتهم « كان ذلك الخبر باعثا لسرور الأمير ، الذى رد عليهم قائلا : أتمنى أن يتحقق كلامكم غدا فى الساعة السادسة صباحا » • وأشعل الحفارون النيران فى المواد القابلة للاحتراق فى داخل الحفر ، وفى صباح اليوم التالى ، دمروا جزءا كبيرا من السور الذى ملأ الحفر •

وشاهد الانجليز ذلك وهم فى غاية السرور ، لأنهم كانوا جميعا مسلحين ، وعلى استعداد لدخول البلدة • وقام المشاة باقتحام بوابة البلدة ، بعد تحطيمها وتحطيم كل الحواجز حيث لم يكن هناك دفاعات غيرها ، وتم كل شىء على وجه السرعة الى الحد الذى لم يدع فرصة للسكان لابداء أى مقاومة •

واندفع الى داخل البلدة كل من الأمير ، ودوق لانكستر ، وايرلات كامبردج وبمبروك Pembroke ، والسير جوسكارد دى أنجل Sir Guiscard d'Angle ، وآخرون ومعهم رجالهم • فقام الجميع بعمليات سلب ونهب ، والكل حريص على الحاق الأذى بمن فى البلدة ، ثم قاموا بقتل الرجال والنساء والأطفال ، وفقا للأوامر • لقد كانت مهمة جنونية تقريبا • فالجميع من كل الأعمار والأجناس ركعوا أمام الأمير ، طالبين الرحمة ، بيد أنه كان فى حالة غضب شديد ، ولم يستمع الى أحد منهم ، وأمر باعمال السيف فى رقابهم ، أينما وجدوا حتى أولئك الذين لا ذنب لهم ، لأنى أعلم أن الفقراء تعرضوا لنفس المصير ، وهم

الذين لم يشاركوا فى الخيانة ، بيد أنهم تعرضوا لنفس مصير قادة الخيانة .

وفى ذلك اليوم تعرضت بلدة ليموجيز الى أحداث مؤسفة جعلت أشد الناس قسوة ، أو من لديه أدنى احساس دينى ينفطر قلبه من هول الكارثة ذلك لأن أكثر من ثلاثة آلاف من الرجال والنساء والأطفال لقوا حتفهم . اللهم أرحمهم جميعا انهم شهداء بكل حق وصدق » (٤١) .

على أن الشىء الذى يصدم القارىء فى أيامنا هذه عن العمل الوحشى الذين اقترفه الأمير الأسود أن عصره اعتبره مثالا للشهامة والفروسية . وربما كان من الأفضل اعتبار هذا التصرف أحد هفوات الأمير الأسود بدلا من ادانة فرواسار . حيث أوضح فرواسار بشكل لا ريب فيه أسفه الشديد للمأساة باعتبارها أمرا ليس له ما يبرر وجوده بهذه الصفة الكلية ، وبصفة خاصة ادانته لقتل « الفقراء » . كما أنه اذا ما حاول الاشارة الى مذبحة الجماهير بتعبير أكثر ألما وانزعاجا عن قوله « انه عمل مثير للاكتئاب » ، ربما عرضة لأن يفقد أسياده الذين عاش فى كنفهم ، وجمهور القراء والمستمعين ــ وحولياته . وأنه أشار الى الضحايا التعساء بوصفهم « شهداء بكل حق وصدق » .

وللسبب نفسه لم يذكر فرواسار المرأة الا فى مناسبات قليلة ، اللهم باستثناء الحالات التى تدخل فى نطاق ما أعد نفسه لوصفه . ولا يمكن تفسير صمته النسبى على أنه مبنى عن شعور باللامبالاة تجاه العنصر النسائى أو أنه دلالة على التحيز التقليدى للذكور . وانما عندما تحين الفرصة ، كان يقوم بوصف العمل البطولى أو الجرىء لأى شخص ــ سواء أكان نبيلا ، أم مزارعا أم امرأة . وكان يفعل ذلك دون ابداء معانى اضافية قد تثير استياء جماعة معينة . وهنا فى روايته التاريخية يصف الطريقة التى سلكتها الكونتس Countess صاحبة مونتفورت Montfort ، « التى امتلكت شجاعة الرجال ، وقلب الأسد » عندما هبت للدفاع عن مدينة هينيبون Hennebon ، فى اقليم بريتانى ضد الفرنسيين . وكان زوجها أسيرا فى أيدى الفرنسيين . كما قام الفرنسيون بمحاصرة المدينة لعدة أيام تحت قيادة اللورد شارل دى بلواه Lord Charles de Blois . وكانت الكونتس من بين القلة الذين عارضوا الاستسلام ، وسارعت فى طلب النجدة من انجلترا . « وارتدت بذلة حربية كان يرتديها النبلاء فى العصور الوسطى . وامتطت صهوة جواد حرب ، وأخذت تعدو مسرعة عبر شوارع المدينة ، تستحث المواطنين وتشجعهم على الدفاع عن أنفسهم بكل قوة . وأمرت سيدات المدينة والنساء والأخريات أن يضعن العوائق فى الشوارع ، وأن ينقلن

الأحجار الى الاستحكامات والمتاريس ، وأن تلقين الأحجار على الأعداء • وأمرت باعداد القدور التى بها جير حى للغرض نفسه •

وفى اليوم نفسه قامت الكونتس بعمل بطولى رائع : اذ صعدت برجا عاليا ، لترى كيف يتصرف شعبها وبعد أن شاهدت أن كل اللوردات الآخرين فى جيش العدو • وقد غادروا خيامهم ، وأوشكوا على شن الهجوم• عند ذلك نزلت على الفور من البرج ، وامتطت صهوة جوادها ، وهى فى كامل عدتها الحربية ، واصطحبت معها ثلاثمائة من الفرسان وشنوا هجوما مضادا على معسكر العدو ، وهدموا ذلك المعسكر ، وأشعلوا فيه النيران دون أن تحدث اصابات فى قواتها ، لأن الخدم والفتية الذين كانوا بمعسكر الأعداء كانوا قد لاذوا بالفرار بمجرد اقترابها منهم •

واستطاعت الكونتيس قيادة قواتهـا العسكرية الى بلدة بريست Brest حيث استطاعت جمع خمسمائة رجل آخرين • ونجحت فى قيادتهم ثانية الى داخل مدينة هينيبون فى منتصف الليل دون أن يعلم الفرنسيون بما جرى • وبرغم بطولتها فان المدينة كانت قد قررت كلها تقريبا الاستسلام للفرنسيين فى اللحظة الحاسمة التى وصلت فيها نجدة انجليزية تحت قيادة السير ولتر مانى Sir Walter Manny

ويمضى فرواسار فى وصف كيف استطاع الانجليز شن هجوم غير متوقع على برج كبير استخدمه الفرنسيون فى السيطرة على أسـوار المدينة ، وقضوا على من فيه من المدافعين ، ودمروه ، ثم استطاعوا اجبـار قـوة فرنسية على التراجع كانت قد حاولت مهاجمتهم • وعندمـا عادوا الى القلعة ، ذهبت الكونتيس لمقابلتهم ، وقبلت السير ولتر مانى ، وكل القوات المرافقة له ، واحدا بعد الآخر ، كما تفعل أى سيدة شجاعة من طبقة النبلاء » (٤٢) •

ويقدم فرواسار كونتيس أخرى أبدت شهامة من نوع مختلف • وهذه السيدة هى زوجة ايرل ساليزبورى Salisbury الذى كان سجينا فى فرنسا ، والتى عملت على طرد الاسكتلنديين الذين هاجموا قلعة يارك Yark • واضطر الاسكتلنديون الى الانسحاب من المنطقة على أثر انتشار نبأ قدوم ادوارد الثالث وجيشه • ثم ذهب الملك الى الكونتيس ليعبر لها عن تحياته • « وذهبت السيدة لمقابلته ، وقد ارتدت أفخر أنواع الثياب وأغلاها الى الحد الذى لم يتمكن فيه أى شخص من التحول عن النظر اليها بدهشة واعجاب بسبب سلوكها الراقى ، وجمالها الساحر ، وخلقها الدمث • وعندما اقتربت من الملك قدمت واجبات التحية له وهى ساجدة ، وشكرته على حضوره لمسـاعدتها ، ثم رافقته الى القلعة ، لاستضافته ، وتقديم واجبات الاحترام بكل ما فى استطاعتها ، وكان الجميع مبتهجا بالنظر اليها : ولم يستطع الملك أن يحول نظره عنها ، واعتقد أنه لم يسبق

له أن شاهد سيدة فى مثل ذلك الجمال والمرح والحيوية الى حد أن أصابته شرارة من الحب الجارف ، والتى استمرت لفترة من الوقت ، لأنه لم يصدق أن العالم كله به امرأة جديرة بالحب سواها » ٠

واصطحبت الكونتيس الملك ادوارد الثالث الى حجرته التى أعدتها خصيصا له ، ثم ذهبت لترحب بالوفد المرافق للملك ، وبعد أن صدرت الأوامر باعداد الطعام وتزيين القاعة ، عادت الى ادوارد لتجده غارقا فى بحر من الأفكار ٠ وعندما حاولت ايقاظه من حالة الاستغراق فى التفكير ، أبلغها أن أمرا قد استحوذ على قلبه لدرجة أنه لم يستطع أن يبعده عن أفكاره منذ أن قدم الى القلعة ٠ وعندما أشارت عليه الكونتيس أن يوقف القلق بشأن الاسكتلنديين ، مفترضة أن ذلك هو السبب لحالة الاكتئاب التى يمر بها ، أفصح الملك لها عن شىء آخر تماما ، وقا لها أن هذا الشىء ليس سوى هيامه بها ٠ وقال لها : « بسعادتى متوقفة على ردك » ٠

فردت عليه الكونتيس : « مولاى العزيز ، لا تسلى نفسك باتخاذى مادة للتسلية ، أو بمحاولة تحريضى على الانحراف الخلقى ، لأنى لا أستطيع أن أصدق أنك تعنى ما قلته أو أن ملكا نبيلا وشهما مثلك قد يفكر فى تلويث سمعتى و سمعة زوجى ، وهو الفارس الشجاع ، الذى خدمك باخلاص ، والذى يعانى من الأسر الآن ، دفاعا عنك ٠ سيدى ، ان ما قلته لن يضيف اليك أى مجد بكل تأكيد ، لو تكونأفضل مما أنت عليه ٠ ان ما يجول بخاطرك لم يطرق بالى اطلاقا ، وأسأل الله الا يحدث لى مثل هذا الشىء فى المستقبل نحو أى رجل على وجه الأرض ، واذا ما كنت أستحق اللوم ، فان من حقك أن توجه لى هذا اللوم ، وبيدك معاقبة جسدى بالعدل الكامل » ٠

وعندئذ تركت الكونتيس الملك ادوارد الثالث ، وهو يعانى من الشعور بالخجل ، وذهبت لمتابعة الاستعدادات النهائية ، ثم عادت الى ادوارد ومعها العديد من الفرسان لتدعوه لحضور طعام الغذاء ٠ وابان تناول الطعام ، « آكل الملك قليلا جدا ، وكان فى حالة استغراق فى التفكير طوال الوقت ، وملقيا ببصره تجاه الكونتيس كلما سنحت الفرصة له ٠ « وبعد أن قضى الملك ليلة ، وهو فى حالة من القلق ، دعاها فى الصباح وطلب منها أن تقدم له ، اجابة مختلفة « فى المرة القادمةالتى يراها فيها ٠ فأجابت الكونتيس : « مولاى العزيز ، فليحفظك الله فى نعمة الصلاح الأبدى ، وليبعد عن قلبك تلك الأفكار البغيضة ، لأنى على استعداد لخدمتك فى الحاضر والمستقبل وعلى الدوام مع الاحتفاظ بشرفى وشرفك » (٤٣) ٠

غير أن هذا لم ينه المسألة فيحكى فرواسار كيف أن ادوارد نظم سلسلة من الولائم ، ومباريات سباق الفرسان ، بعد ذلك بوقت قصير ،

فى لندن ، ودعا اليها اللوردات وأزواجهم فى انجلترا وفرنسا • « وطلب ادوارد صراحة من ايرل ساليزبورى أن يحضر زوجته معه » • (كان الايرل قد عاد من الأسر) • « وظهرت زوجات كبار رجال الدولة وفتياتهن فى أبهى مظاهر الزينة فى الملبس والمظهر ، وفقا لدرجاتهن باستثناء كونتيس ساليزبورى ، التى حضرت مرتدية أبسط أنواع الملابس » (٤٤)• ونظرا لأن المؤرخ لم يكن لديه ما يمكن اضافته الى هذه القصة الرومانسية ، فيمكن للقارىء أن يفترض أن ادوارد قد أدرك الرد فى النهاية •

تجنب فرواسار الى حد ما موضوعا مهما ، وهو موضوع الكنيسة والشئون الكنسية بصفة عامة • واذا ما كان قد اعتبر الدين قليل الأهمية ، وهو ما يخالف الواقع ، فما كان للقارىء أن يتوقع منه الكتابة كثيرا عن هذا الموضوع • ويتفق صمته هنا مع هدفه المحدد والمتعلق بالكتابة عن المعارك ، وعن الرجال الشجعان • واهتم فرواسار بالشقاق البابوى الى حد ما ، وذلك بسبب نتائجه السياسية بصفة أساسية ، بيد أنه تجنب تأييد فريق ضد آخر • وهنا ما كان يتوقعه المرء للمرة الثانية ، اذ أدخل فرواسار فى حسابه أصدقاءه الارستقراطيين فى كل من المعسكرين • وشايع الانجليز وكثير من سكان الأراضى الواطئة البابا الرومانى ، فى الوقت الذى أيد فيه الفرنسيون والاسكتلنديون ، والأسبان البابا الموجود فى أفينون • واذا ما حاول فرواسار التعاطف مع هذا البابا أو ذاك لعرض نفسه لفقدان بعض أصدقائه •

وعلى الرغم من أن فرواسار لم يوجه كلامه الى موضوع الايمان والدين بشكل مباشر فانه غالبا ما ذكر أن الملوك ، والجيوش ، والشعب قدموا صلواتهم لله وللعذراء • وهذا ما فعله دون جيولدرز الذى نجح فى الحاق هزيمة منكرة بجيش البرابنتيين Brabanters بعدد قليل من فرسانه • وأصر هذا الدوق ، بعد النصر أن ينذره أولا ، مفضلا ذلك على الذهاب الفورى الى القبر المقدس ، ومعه ما غنمه من الأسرى • « لقد نذرت سيدتنا فى نيميجون Nimeguen ، عندما غادرت تلك المدينة ، وقمت بتجديد هذا النذر ، عندما بدأنا المعركة ، وامتثالا لهذا النذر ، فانى أمرت أن تعود بابتهاج ومرح الى نيميجون ، وأن نقدم صلوات الشكر للعذراء المقدسة التى ساعدتنا على تحقيق النصر » • وتم تنفيذ هذا الأمر ، ولم يعترض أحد عليه ، وتوجهوا عند عودتهم الى نيميجون ، بأقصى سرعة• وبلغت المسافة بين ميدان المعركة ومدينة نيميجون فرسخين (*) طولا ، بيد أنهم وصلوا اليها فى وقت قصير •

(*) الفرسخ خمسة كيلومترات او ثلاثة أميال ـ المترجم •

« وعبر سكان المدينة من كل الجنسين عن فرحة كبرى وابتهاج شديد عند سماع هذا النبأ السعيد ، وخرج رجال الدين المسيحي في موكب لمقابلة الدوق ، واستقبلوه بالتهاليل . ولم يلتفت الدوق ذات اليمين أو ذات الشمال ، وانما اتجه على الفور ومعه فرسانه الى الكنيسة التي يوجد بها تمثال لسيدتنا ، والتي يؤمن بها ايمانا عميقا ، وعندما دخل مصلى الكنيسة ، جرد نفسه من كل شيء حتى سترته الضيقة ، ووضع بذلته الحربية على المذبح ، اجلالا لسيدتنا ، وقدم صلوات الشكر لانتصاره على أعدائه » (٤٥) .

وفي عصر كان يشار إليه عاطفيا « بعصر الايمان » يقرأ المرء دون اندهاش أن الانجليز كانوا يسيرون في مواكب ثلاث مرات في الأسبوع ، في حالة علمهم أن الفرنسيين على وشك مهاجمة بلادهم ، « ويتضرعون الى الله ، بكل ورع وتقوى ، أن يجنبهم هذا الخطر » . ويبدو أن فرواسار نسب الى الطبقة الارستقراطية الانجليزية ، ايمانا أقل من الايمان الذي أبدته الطبقة العـامة ؛ اذ كتب أن البابا أوربان Urban وعد الناس « بمنحهم العفو والغفران من كل الخطايا » ، مقابل تصديهم للذين يؤيدون البابا الأفينيوني Avignese Pope . بيد أن المؤرخ علق على ذلك بأسلوب خاف : « كان من الضروري أن يكون تحت يد هذا البابا مبلغا كبيرا من المال ، اذا ما رغب أن يضع خططه موضع التنفيذ ، لأنه من المعروف تماما أن النبلاء الانجليز لن يقوموا بعمليات عسكرية ، ما لم تعرض عليهم الأموال مسبقا ، مهما كانت مغريات الغفران . كما أن الجنود لا يقتـاتون الغفران ، ولا يبدون اهتماما شـديدا به الا في لحظـة الموت » (٤٦) .

كان فرواسار مؤرخا للفروسية في المقام الأول فكتب عن الطبقة الارستقراطية ، وعن المعارك ، وعن مباريات سباق الفرسان ، وعن الزواج ، والأنشطة الأخرى المتعلقة بتلك الطبقة ، ومع ذلك ، فان حولياته لا تشكل تاريخا رسميا عن الطبقة العليا أو الحاكمة . لقد انتفى ما كان يعتبره جديرا بأن يذكر عن هذه الطبقة . فأغفل ذكر ادارة الاقطاعات ، وسن القوانين ، بل وحتى صراع السلطة بين التاج والطبقة الارستقراطية . وربما سببت قراءة تلك الموضوعات شيئا من الملل ، أو ربما اعتبروها بالغة الدقة الى الحد الذي يصعب عليهم فيه تبادل الآراء حولها ، وفي الكتابة عن الارستقراطية . قدم موضوعات عن القصص المعبرة عن الشهامة ، والبطولة ، والشجاعة ، وهي التي كان متأكدا من أنها ستدخل السرور على القارئ أو المستمع .

ان صـفحات حوليات فرواسار تعج بالحوادث العارضة والقصص التي تدخل البهجة في قلوب معاصريه من بين الطبقة الارسـتقراطية ،

وجعلنه كبير من المولعين بالقصص والمغامرات على عصره • وكان فرواسار أحد المعجبين المتحمسين لمبادىء الفروسية والشهامة • وهناك احدى القصص التى تنضح بالفروسية المثالية بكل معنى الكلمة • وهى تتحدث عن روبرت بروس Robert Bruce ، ملك اسكتلندا ، وهو على فراش الموت ، المكان الكئيب مهما تكن الظروف ، الا أنه كان أشد كآبة بالنسبة اليه ، ذلك لأنه لم يتمكن من الوفاء بنذره ، « فى الذهاب لمحاربة أعداء « المسيح عيسى ، وأعداء الايمان المسيحى » • ولولا أن اضطراب الأحوال فى مملكته شغلته ، بصفة مستمرة ، عن الذهاب بنفسه الى الأرض المقدسة ، ونظرا لاستحالة تنفيذ هذا الأمر فى ذلك الحين ، وهو على فراش الموت ، لذلك تمنى أن يذهب قلبه الى هناك ، على الأقل ، « نيابة عن جسده للوفاء بالنذر ، ومن ثم طلب من السير جيمز دوجلاس Sir James Douglas ، أن يأخذ على عاتقه تنفيذ هذه المهمة ، « لأنى واثق من شهامتك ، وولائك ، وأنك اذا ما قمت بها فسيكون التوفيق حليفك » • وعندما قبل دوجلاس المهمة ، زوده الملك بالتعليمات التالية : « أوصيك بنزع قلبى من جسدى بمجرد وفاتى ، وبأن تحنطه بطريقة جيدة ، وأن تأخذ من خزانتى كل ما يكفيك من أموال لانجاز مهمتك ، وما يكفى أولئك الذين تختارهم لمصاحبتك فى مهمتك ، وأن تودع قلبى فى القبر المقدس ، حيث دفن ربنا Our Lord ، نظرا لعدم استطاعة جسدى الذهاب الى هناك • وأوصيك بعدم التقتير فى الانفاق — واصطحب معك ما يتناسب مع منزلتك من الرجال ، والأشياء المناسبة — وفى أى مكان تمر به عليك بالاعلان أنك تحمل قلب روبرت ملك اسكتلندا ، وأنك حملته عبر البحار بناء على أمره ، نظرا لاستحالة ذهاب جسده الى هناك » •

وبعد موت بروس ببضعة أيام ، ركب السير دوجلاس سفينة فى ميناء مونتروز Montrose فى مهمته المقدسة ، وأبحر صوب سلويز Sluys • ثم ظل بها اثنى عشر يوما انتظارا للرياح المواتية : « أعد مائدة فخمة ، على أنغام الأبواق والطبول كما لو كان هو ملك اسكتلندا بعينيه • وتكون الوفد المرافق له من فصيلة من الفرسان تحت قيادة فارس له مكانة عالية يتبعه فرسان يعملون تحت لوائه ، وسبعة آخرين من أكثر فرسان سكتلندا شجاعة ، بالاضافة الى حرسه الشخصى ، وأهل بيته • أما أدوات المائدة فكانت من الذهب والفضة ، وتتكون من القدور ، والطسوت ، والطواجن والكؤوس ، والزجاجات ، والبراميل ، وأشياء أخرى من هذا القبيل • ويضاف الى الوفد المرافق ستة وعشرون مرشحا لرتبة فارس من أشجع شباب الأسر الاسكتلندية مكانة على خدمة دوجلاس •

وحظى كل من جاء لزيارة دوجلاس بحفاوة بالغة • اذ كان يقدم اليهم من الخمور نوعين ، ومن التوابل نوعين أيضا ــ وكان ذلك قاصرا على الطبقات العليـــا •

علم دوجلاس وهو فى طريقه جنوبا من سلويز Sluys أن ألفونسو Alphonso ، « ملك أسبانيا » ، كان يشن حربا ضد حاكم غرناطة المسلم ، ومن ثم قرر أن يقطع رحلته ويشارك فى حملة صليبية فى أسبانيا قبل مواصلته رحلته • وبعد ذلك بوقت قصير جاء اليوم الذى اصطف فيه الجيشان المسيحى والمسلم استعدادا للمعركة • « ولما لاحظ السير دوجلاس أن القوات المتحاربة فى كل من الجانبين فى حالة استعداد كامل ، وأن ملك أسبانيا فى حالة حركة مستمرة ، تصور أنهم على وشك بدأ الهجوم ، وكان دائما يفضل أن يكون من بين الذين يبدأون الهجوم فى مثل تلك المواقف ، لذلك انطلق ومعه كل رجـاله بخيولهم ، حتى صاروا فى وسط جيش ملك غرناطة ، وشنوا هجوما شرسا على المسلمين • وكان على ثقة من مساندة أبناء أسبانيا له ، بيد أن حسـاباته لم تكن صحيحة ، اذ لم يساعده أحد من أبناء أسبانيا فى ذلك اليوم • فأحاط الأعداء بالفارس الشجاع ورجاله ، وأظهروا أروع أمثلة البطولة ، بيد أن ذلك كان دون جدوى لأن المسلمين قضوا عليهم عن بكرة أبيهم • ان عدم مساعدة أبناء أسبانيا لهم أدت الى تلك الكارثة الفادحة » (٤٧) •

ولا بد أن هذه القصة أدخلت السرور على فرواسار بقدر ما أسعدت قلوب كل مستمعيه ، باستثناء أبناء أسبانيا • أما النادرة المسلية التالية فهى نموذج من الكثير فى الحوليات التى تضفى الشرف والفخار على كل من السادة الاقطاعيين والفرسان بل وحتى المرشحين لرتبة الفارس المبتدئين • وكان اللورد جيمز أودلى Lord James Audley أحد النبلاء الشجعان الذين ساعدوا الأمير الأسود فى احراز النصر الساحق فى معركة بواتيه Poitiers سنة ١٣٥٦ م • فبعد انتهاء المعركة ، « أخذه أربعة من الفرسان المساعدين المخلصين الى منطقة بها سياج من الشجيرات ، لتهدأ نفسه ، ويلتقط أنفاسه اذ كان فى حالة وهن شديد وبه جروح ، وخلعوا ملابسه الحربية برقة متناهية ، لكى يتفحصوا جراحة ، وضمدوهـا ، وحاكوا الجراح الأكثر خطورة • « وعندما عاد الأمير الأسود الى معسكره ، سأل عن أودلى ، وعرف أنه » أصيب بجرح خطير وأنه يرقد على نقالة فى مكان قريب جدا • « فأمر الأمير باحضاره اليه اذا كان ذلك ممكنا ، والا فانه سيذهب اليه بنفسه الى الفارس ليثنى على بطولته • وعندما أحضر المرافقون أودلى ، امتدحه الأمير الأسود على شجاعته » وقال له ، « لقد تفوقت علينا جميعا ، بما أحرزته من مجد وشهرة ، وأثبتت بسالتك أنك

أشجع فارس » . ثم أعلن الأمير الأسود منح الفارس أودلى دخلا سنويا مقداره خمسمائة مارك كرمز مادى تقديرا له ، مع ضمه الى خدمته . وبعد ذهـاب الأمير ، أرسل أودلى فى طلب مساعـديـه الأربعة من الفرسان المساعدين ، والذين قاموا على خدمته وقال : « أيها السادة ، تفضل سيدى الأمير بمنحى خمسمائة مارك كمنحة سنوية ، وهذه الهبة مقابل خدمة جسدية تافهة قدمتها اليه . انكم ترون هنا هؤلاء الفرسان المساعدين ، الذين ساعدونى على الدوام باخلاص تام ، وبخاصة فى معركة هذا اليوم . ان ما حققته من مجد كان بفضلهم ، وبفضل بسالتهم ، ولذلك أود أن أكافئهم . لذلك أعطيهم أو أضع تحت أيديهم الخمسمائة مارك التى تفضل سيدى الأمير الأسود بالانعام بها على شخصى » (٤٨) .

وعندما علم الأمير الأسود بما فعله أودلى اثنى عليه على صنيعه ، وأصر على أن يقبل أودلى ستمائة مارك أخرى شريطة أن يحتفظ بهـذا المبلغ الأخير لنفسه (٤٩) .

لم يحدث فى أى وقت فى تاريخ الحروب أن كانت تقاليد وقواعد اعلان الحرب بل والقتال الفعلى ملتزمة بالسير على نحو مفصل وبالحرص على المحافظة على الشكليات مثلما كان الحال ابان العصور الوسطى العاليه والمتأخرة . فعلى سبيل المثال ، عندما أرسل شارل الخامس ملك فرنسا انذارا باعلان الحرب الى ادوارد الثالث ملك انجلترا على يد خادم خاص مهمته العنـاية بملابس سيده كان ذلك أمرا مستهجنا لمخالفته للقواعد والأصول المتبعـة فى مثل ذلك الأمر اذ كان من الواجب عليه أن يعهد بهذه المهمة الى أحد كبار السادة الاقطاعيين ، أو الى أحد الأساقفة . ويحكى فرواسار أنه ما أن شعر شارل بأنه على استعداد لاستئناف القتال حتى أرسل خادما مهمته العناية بملابس سيده Valet ، يحمل اعلان الحرب الى ادوارد . وعندمـا دخل الخـادم على الملك الانجليـزى . ومجلسـه الاستشارى ، فحصوا الأوراق . « وقاموا بفحص الأوراق جيدا ، وكذلك الشمع والختم ، واتضح لهم أن اعلان الحرب صحيح ولا ريب فيه . » ثم أمروا الخادم بالانصراف ، وأخبروه أنه قد أدى مهمته على ما يرام ، وأنه فى استطاعته العودة بأمان ، ولن يصيبه مكروه فى عودته ، وعلى ذلك عاد الى فرنسا بأسرع السبل ... ومن المهم القول أن الملك ورجال مجلسه الاستشارى غضبوا بشدة لقيام خادم بتسليمهم اعلان الحرب ، وقالوا أنه ليس من اللائق أن يتم تبليغ واعلان الحرب بين عاهلين كبيرين مثل ملكى انجلترا وفرنسا على يد خادم عادى اذ كان من الواجب أن يتم ذلك على يد أحد الأساقفة ، أو أحد البارونات أو الفرسان الشجعان » (٥٠) .

وتحرم قواعد الفروسية قتل الفارس الا بالوسائل الجديرة بالاحترام والتقدير ، وبلا ريب ليس عن طريق الطعن من الخلف . ولم يقم فرواسار

وحده بادانة القصة التالية ، وانما أدانها الفرنسيون والانجليز أيضا . وكان الضحية فارس من أهالى ويلز يدعى ايفان Evan . وكان ايفان هذا يساعد الفرنسيين بتوفيق كبير ضد الانجليز فى أكواتين ، وكان فى ذلك الحين يتولى أمر محاصرة قلعة مورتيان Mortain ، التى كانت تحت قيادة سولدتش دى لا استريد Souldich de L'Estrade وابان فترة الحصار جاء من انجلترا من حدود مقاطعة ويلز فارس مساعد من ويلز يدعى جنا لامب John Lambe ، الذى كان مجردا من الشهامة تقريبا . والواقع أنه أظهر ذلك ، اذ ليس من الشهامة فى شىء أن يفعل الانسان ما فعله من نذالة حقيرة » .

وذهب حنا لامب الى بواتوه Poitou ، وفاز بالحظوة عند ايفان بالحديث معه بلهجة ويلز ، وأخبره أن « كل المقاطعة (ويلز) تواقة الى وجوده سيدا اقطاعيا عليها . وحققت هذه المعلومة حب ايفان الجم لحنا (لأنه من الطبيعى أن يزغب المرء فى العودة الى بلده) الى حد أن عينه ايفان حاجبا خاصا له على الفور » . واستطرد فرواسار القول بأنه ثبت أن ما فعله ايفان كان خطأ فادحا ...

كان من عادة ايفان الاستيقاظ مبكرا فى الصباح ، واتخاذ مجلسه أمام قلعة مورتيان ويتناول مشطه ويمشط شعره ، وهو يستمتع بالمنظر الجميل . « وفى نهاية زيارته الأخيرة التى كانت فى الصباح الباكر والجو صحو . ونظرا لعدم تمكنه من النوم ليلا لشدة الحرارة ، فانه ذهب الى المكان الذى اعتاد الذهاب اليه ، وأزرار ملابسه مفكوكة ، وارتدى صديرته وقميصه فحسب ، ووضع عباءته على كتفيه ، وقام حنا لامب بخدمته . وكان الجميع نائما ، ولا يوجد أحد يتولى الحراسة ... وبعد أن جلس ايفان على جذع شجرة قال لحنا لامب : « اذهب وأحضر مشطى ، لأنه سيجعلنى أشعر بالانتعاش قليلا » . فأجاب حنا ، « على الرحب والسعة يا سيدى » . وفى طريق حنا لاحضار المشط ، أو فى طريق عودته لا بد وأن دخل الشيطان جسنده ، لأنه أحضر مع المشط خنجرا اسبانيا قصيرا ذا نصل عريض ، لينفذ نواياه الشريرة ، اذ طعن هذا الخنجر فى جسد ايفان الذى كان عاريا تقريبا ، وجعل الخنجر يغوص فى الجسد حتى خر ايفان صريعا » .

وبعد أن انتهى حنا لامب من فعلته ، اتجه الى القلعة ودخلها ، حيث قابل سولدتش Souldich ، وقص عليه ما فعله ، وقال السولدتش : « سيدى ، لقد انقذتك من ألد أعدائك » : « ممن ؟ » . « من ايفان الويلزى » ، أجاب حنا . وسأله سولدتش : « بأى الوسائل ؟ » . فقال حنا : « بتلك الوسيلة » . ثم قص عليه الظروف التى سمعتموها منذ

قليل . وعندما سمع سولدتش رواية حنا ، نظر اليه بغضب شديد وأجاب : « انك قمت باغتياله بطريقة وحشية ، واسمع منى ، انه لولا أننا استفدنا كثيرا من جراء عملك الدنيء ، لأمرت بدق عنقك ، لأن ما فعلته لا يصح أن يحدث ، اذ أن تلك الفعلة لا تليق بالرجل الشهم ، وأنها تعرض من يفعلها الى اللوم أكثر من الثناء » (٥١) .

تطلب الصراع الاقطاعي تقاليدا تفوق فى كثرتها أى عصر آخر . وفي الوقت نفسه ترك هذا الصراع مجالا لوجود القصص الطريفة التى غالبا ما تعمل على تخفيف حدة عملية القتل التى تثير الاشمئزاز مثل القصة التالية . وتصف هذه القصة مبارزة بين شخصين وهى احدى القصص العديدة التى أفرد لها فرواسار مكانا فى حولياته . فطلب (فارس مساعد فرنسى مبارزة أحد الانجليز ليبرهن لمحبوبته على اخلاصه لها . وفي أحد الأيام أثناء حصار قلعة فى بريتانى ، خرج هذا الفرنسى من القلعة التى حاصرها الانجليز وتحدى أحد الأعداء أن يقبل مبارزته . وطلب قائلا : هل يوجد فارس بينكم على استعداد أن يجرب معى أحد أعمال الحرب البطولية من أجل حبه لسيدة . اذا كان هناك من بينكم من هو مثل وضعى ، فانى على استعداد تام أن أبارزه ، وأنا فى كامل عدتى الحربية وممتطيا صهوة جوادى ، على أن تكون المبارزة ثلاث مرات باستخدام الرمح ، وثلاث ضربات بفأس المعركة ، وثلاث طعنات بالخنجر . أيها الانجليز ابحثوا عن أى شخص فيما بينكم يعيش قصة حب » . ويدعى هذا الفارس المساعد الفرنسى جوفيان ميكائيل Gauvain Micaille وذاع عرضه وطلبه بين الانجليز على الفور ، ثم تقدم فارس مساعد ، خبير فى مباريات السيوف يدعى جوشيم كاتور Joachim Cator وقال : « سوف أخلصه من العهد الذى أخذه على نفسه ، ودعوه يسرع بالخروج من القلعة » .

وعند ذلك ذهب اللورد فتزولتر Fitzwalter ، قائد الجيش الى الحدود وأبلغ السير جوى لوبافوى Guy le Baveus ، « دع فارسك المساعد يخرج : لقد وجد شخصا سيخلصه من قسمه على نحو سار ، وأننا ستمنحه كل أمان » .

فشعر جوفيان ميكائيل بابتهاج شديد عند سماع تلك الكلمات ، واستعد فى تسليح نفسه على الفور ، وفقا للارشادات التى أسداها اللوردات اليه ، وارتدى قطعا عديدة من الدروع ، وامتطى صهوة جواد أعدوه له . ثم خرج جوفيان ميكائيل من القلعة فى صحبة اثنين من زملائه ، بالاضافة الى غلمانه الذين حملوا ثلاثة رماح ، وثلاثة فئوس حربية ، وثلاثة خناجر . ونظر الانجليز اليه بامعان وتفرس شديد لأنهم

لم يكونوا يتصورون أن الشخص الفرنسي على استعداد أن يقاتل فردا لفرد • وأضيف ثلاث ضربات بسيف • وأحضر جوفيان معه من كل أنواع الأسلحة ثلاثة خشية أن ينكسر أحدها •

وعنـدما سمع ايرل بكنجهام عن هـذه المبارزة ، قرر مشاهدتها ، وامتطى صهوة جواده ، وصـحبه ايرل ستافـورد Stafford ، وايرل ديفونشاير Devonshire ولهذا السبب توقف الهجوم على تورى Toury وتقدم الانجليزى المستعد للمبارزة ، وهو فى كامل ردائـه الحربى ، وممتطيا صهوة جواد قوى • وعندما اتخذ كل منهما موقعه تسلم كل منهما رمحا وبدأت المبارزة ، ولكن لم يصب أحدهما الآخر بسبب شدة نشاط جواديهما • وقاما بالهجوم الثانى ، بيد أنه أنتهى بانطلاق رمحيهما فجأة وبسرعة مما جعل ايرل بكنجهام يصيح قائلا « حسنا ! حسنا ! ، حان وقت الرحيل » • ثم أمر كبير الحراس : « عليك بايقاف هذه المبارزة ، اذ يكفى ما بذلوه هذا اليوم ، وسنجعلهم يكملونها عندما يكون لدينا وقتا أكثر مما نحن فيه الآن ، وعليك بالمحافظة التامة على حياة الفارس المساعد الفرنسى محافظتك على فارسنا المساعد ، وعليك بأن تأمر أيا من أتباعك بابلاغ هؤلاء الذين بالقلعة الا يقلقوا عليه ، لأننا سنأخذه معنا ليكمل هذه المبارزة وليس كأسير ، وبعدها سنرسله اليهم مصحوبا باجراءات أمن مشددة ، اذا ما قدر له البقاء » •

ونفذ القائد تعليمات الايرل وأبلغ الفارس المساعد الفرنسي ، « انك ستكون معنا فى أمان ، وعندما يحين الوقت المناسب لسيدى ستعود الى معسكرك » •

فأجاب جوفيان « اللهم وفقنى وأعنى ! » ثم بعثوا برسول الى القلعة لابلاغ الفرنسيين بها بما سمع •

« وبعد ذلك بأيام قلائل) ، وفى عيد البشارة (فى الخامس والعشرين من مارس) استعد كل من جوفيان ميكائيل وجوشيم كاتـور Joachim Cator ، لانهاء مبارزتهما • وبارز كل منهما الآخر بالحراب بتحد شديد ، وبذل الفارس الفرنسى جهدا استحق ثناء ايرل بكنجهام ، بيـد أن الفـارس المساعد الانجليزى سـدد ضربة منخفضـة جـبهـا بجربته أصابت فخذ غريمه الفرنسى • وغضب ايرل بكنجهام لذلك كثيرا وكذلك باقى اللوردات ووصفوا المبارزة بأنهـا مشينة بيد أنه تلمس العذر ، بالاعلان بأن ذلك لم يحدث الا نتيجة لجموح جواد الفارس المساعد الفرنسى • ثم استعملا السيف فى تسديد ضربات ثلاث ، وأعلن الايرل أنهما قد بذلا ما يكفى ، ولا داع للاستمرار لأنه لاحظ أن الفارس المساعد

الفرنسى كان ينزف بغزارة . ووافقه الموردات الآخرون الرأى وتمت عملية تضميده جرح جوفيان بعد أن خلعوا عنه الرداء الحربى ثم منحه الايرل مائة فرنك وأرسله الى قوته الفرنسية فى أمان تام ، معلنا أنه راض تماما عما بذله من جهد » (٥٢) .

وشابهت المطاعنة بين فردين مباريات السيوف الجماعية على نحو مصغر . فى أواخر القرن الرابع عشر توقفت تلك المباريات التى كانت تمهد للحرب و « تدهورت » حتى صارت لا تزيد عن مهرجان الا قليلا . ويستطيع المرء أن يستخلص الكثير من وصف فرواسار للمبارزة بين الفرسان التى عقدت فى سميثفيلد Smithfield سنة ١٣٩٠ م ، التى نظمها ريتشارد الثانى للاحتفال بدخول الملكة ايزابيلا فرنسا . فكتب يقول : « وأقيمت المباريات الضخمـــة ، والأعياد الفخمة ، فى مدينة لندن ، وحضرها ستون من الفرسان وستـــون من السيدات من طبقة النبلاء ، وتزين الجميع بأبهى وسائل الزينة والملابس وتبارز الفرسان لمدة يومين ، وأعنى بذلك يوم الأحد بعد عيد القديس ميكائيل ، كبير الملائكة (٢٩ سبتمبر) ، ويوم الاثنين الذى تلاه ، سنة ١٣٩٠ م . وبدأ الفرسان الستون ، ومعهم زوجاتهم فى السير فى موكب عبر الشوارع من برج لندن الى ميدان سميثفيلد . وكان على الفرسان الانتظار يوم الأحد لاستقبال الفرسان الغرباء الذين لديهم الرغبة فى المبارزة ، وأطلق على احتفال يوم الأحد اسم « عيد المتبارزين » وحدثت الاحتفالات نفسها يوم الاثنين ، وكان الفرسان الستون على استعداد لمبارزة كل القادمين بلطف ، ومستخدمين رماحا غير حادة ويمنح أمهر الفرسان من بين المتنافسين تاجا ذهبيا نفيسا ، ويمنح الباقون ميدالية ذهبية قيمة لكل منهم ، بناء على قرار السيـدات اللاتى يحضرن فى صحبة ملكة انجلترا ، وكبار المستأجرين لأراضى التاج الذين حضروا كمتفرجين واستمرت المباريـات يوم الثلاثاء بين الفرسان المساعدين مع من ينافسهم من زملائهم . على أن يحصل المتنافسون على جائزة كانت جوادا سريعا مسرجا ، وكامل العدة أما أتباع حلبة المبارزة ، فكأن يحصل الواحد منهم على مدفع صغير وتتم عملية الاحتفال ، بعد ارسال المبلغين الذين يعلنون عنها ، فى كل أنحاء بريطـانيا ، واسكتلندا ، وهاينوت Hainaut ، وألمانيا ، وفلاندرز ، وفرنسا . وكان المجلس الملكى الاستشارى يحدد الأماكن التى سيذهب اليها المبلغون ، قبل الاعداد بوقت كاف ، ويعلنون عنها فى معظم البلاد ـ واستعد كثير من الفرسان ، والفرسان المساعدين لحضور الاحتفال : بعضهم لمعرفة طباع الانجليز والبعض الآخر للمشاركة فى المباريات . وفى الاحتفال الذى وصل خبره الى هيانوت ، صمم السير وليم دى هيانوت كونت دى أوستريفانت Ostrevant والذى كان شابا شجاعا فى ذلـك

الحنين ، ومغرما بالمبارزة ، أن يحضر ويتشرف بالتعرف على قريبه ، الملك ريتشارد وباقى أفراد أسرته ، الذين لم يرهم من قبل . ولذلك طلب من كثير من الفرسان ، والفرسان المساعدين أن يصحبوه » . .

« ولم يرض والده كونت هيانوت على ذهابه الى انجلترا ، وحاول أن يثنيه عن الذهاب بالاقناع خشية أن يؤثر عليه الانجليز ، ويعملوا على التحلل من الارتباطات الفرنسية ، بينما أصر الشاب على الذهاب . وفى الوقت المحدد كان موجودا فى سميثفيلد ، فى يوم الأحد حوالى الثالثة بعد الظهر . وتحرك الاستعراض من برج لندن وتقدم ستون فرسا من النوع السريع ، وعليها السروج المزركشة خصيصا للاستعراض ، وعلى كل فرس منها فارس شرف مساعد ، وسارت تلك الخيول الهوينا ، وبخطوات موزونة ، ومن بعدهم ظهرت ستون سيدة من الطبقة الأرستقراطية يمتطين خيولا صغيرة . وقد ارتدين أفخر وأغلى الثياب ، وسارت السيدات واحدة خلف الأخرى ، وخلف كل سيدة يتبعها فارس فى كامل عدته الحربية ، وجاب هذا الموكب شوارع لندن ، فى صحبة أعداد من المغنين ، وحملة الأبواق حتى ميدان سميثفيلد . ووصلت ملكة انجلترا ومعها الوصيفات ، وفتيات الطبقة العليا ، وجلسن فى غرفات مزينة على أكمل وجه » .

وشهد اليوم الأول للمباراة فرسانا من الأجانب تبارزوا حتى « أجبرهم الليل على التوقف » . وبعدئذ ذهب كثير من الضيوف الى قصر أسقف لندن قرب كنيسة القديس بولس حيث أقامت هناك الملكة ، وتناولوا جميعا ما لذ وطاب من الطعام والشراب . وفى اليوم التالى وصلت المباريات الى ذروتها .

« وفى الصباح التالى ، يوم الاثنين يمكنك أن ترى الفرسان المساعدين وغلمان الفرسان يعملون بهمة ونشاط ، فى مناطق مختلفة من لندن ، يلمعون الدروع ، ويعدون الأسلحة ، والخيول لسادتهم الذين سيشاركون فى المقارعات بالسيوف اظهارا للبراعة والشجاعة ، وطمعا فى الحصول على جائزة . ودخل الملك ريتشارد ميدان سميثفيلد بعظمة وجلال بعد الظهر ، وفى صحبته الأدواق ، واللوردات ، والفرسان لأنه سيدهم الاقطاعى الأعلى . واتخذت الملكة مكانها الذى كانت به فى اليوم السابق فى غرف أعدت خصيصا لذلك . . »

« وبدأت المباراة فى ذلك الحين ، وبذل كل فرد أقصى جهده ليبز أقرانه : وتبارى الكثيرون دون استخدام خيولهم ، وفقد الكثيرون خوزهم . واستمرت المقارعات بالسيوف بشجاعة ومثابرة كبرى حتى انتهت بحلول الظلام . ثم ذهب الجميع الى غرفهم أو مساكنهم وعندما حانت

ساعة تناول طعام العشاء ذهب اللوردات وزوجاتهم لتنـاوله • وكان طعاما فاخرا ومعدا على أرقى مستوى • أما الجائزة الأولى فقد حصل عليها كونت أوستريفانت بناء على قرار السيدات واللوردات والمنادين اذ تفوق هذا الكونت على كل من تبارى فى ذلك اليوم : أما الأراضى المستأجرة التابعة للتاج فقد أعطيت لفارس انجليزى شجاع يـدعى السـير هـوج سبنسر Sir Hugh Spenser

وفى يوم الأربعاء التالى أقيمت مباريات أكثر وولائم أكثر فى الوقت الذى « استمرت فيه حفلات الرقص حتى مطلع الفجر » • وخصصت باقى أيام الأسبوع للتسلية ، والمتعة والمرح ، وكان آخرها الأعمال الرائعة التى قدمها الملك فى وندسور Windsor ، « وهى قلعة ضخمة ، متينة البناء ، ومزينة على أكمل وجه ، وتقع على نهر التيمز Thames وعلى بعد عشرين ميلا من لندن » • وبلغت تلك الاحتفـالات الختامية ذروتها عندما عرض الملـك ريتشارد على كونت أوستريفانت وسـام العضوية فى فرسان ربطة الساق البريطانى The Knights of the Garter وكان قبوله لهذه العضوية ولهذا الشرف أثره على الفرسـان الفرنسيين الحاضرين ، اذ جعلهم يتهامسون قائلين : « ان كونت أوستريفانت يظهر بلا أدنى ريب ان قلبه أكثر تعلقا بانجلترا عن فرنسا » :

ونظرا لاهتمام فرواسار بالحرب الاقطاعية ، فان حولياته قدمت اسهامات مهمة فى معرفتنا عن فن الحرب فى أواخر القرن الرابع عشر ، وهنا نجد وصفه لجيش ادوارد الثالث عند تقدمه صوب باريس سنة ١٣٥٩ م • « يجب أن أبلغك أن ملك انجلترا ، وكبار الاقطاعيين التابعين له ، أحضروا معهم عربات محملة بالخيام الصغيرة ، والخيام الكبيرة ، ومطحنات الحبوب ، والأدوات اللازمة للحدادة لصناعة حدوات لخيولهم ، وكل شىء من هذا القبيل هم فى حاجة اليه • ونتيجة لذلك كان هناك ما يزيد على ستة آلاف عربة ، لكل واحدة منها أربعة من الخيول الجيدة والقوية ، نقلت جميعها من انجلترا • وعلى تلك العربات كثير من الأوعية والأنية والقوارب الصغيرة ، المصنوعة بطرق مدهشة من الجلد المدبوغ ويسع القارب منها ثلاثة رجال تمكنهم من صيد الأسماك من أى بحيرة أو بركة ، مهما كان حجمها : وكانت تلك القوارب مهمة بالنسبة للوردات والبارونات ابان فترة الصوم الكبير ، بيد أن طبقة العامة استفادوا من الوسائل التى كانت متاحة لهم • وبالاضافة الى ذلك أحضر الملك ثلاثين من البازدارية التابعين له ، على ظهور الخيـــل ، ويحضرون من طيور البازستين زوجا ومثلهم من كلاب صيد الثعالب ، وعـدد كبير من كلاب أخرى سريعة العدو ، وذلك لكى يستمتع يوميا بصيد الطيور والثعالب

يرا أو بصيد السمك بحرا . وأحضر الكثيرون من اللوردات طيور الباز التابعة لهم ، وكلاب الصيد أيضا » :

« وظل جيشهم منقسماالى أقسام ثلاثة ، ولازم كل فرد القسم التابع له : وهناك طليعة لكل قسم من الأقسام الثلاثة ، وتبعد قيادة كل قسم عن الأخرى مسافة فرسخ واحد . وكان الملك ادوارد الثالث على رأس القسم الأكبر . وظل هذا التقسيم قائما منذ تحركهم من كاليه Calais حتى وصولهم أمام بلدة شارتر "Chartres" » (٥٣) .

ويتناسب الوصف السابق مع الطريقة التي كان يتحرك بها جيش مزود بالامكانيات المناسبة في عصر فرواسار . أما الشعب الاسكتلندي فانه لم ينعم على الاطلاق بأسباب الرفاهية والترف نظرا لفقر أراضي اسكتلندا ، وعادة الاقتصاد في الانفاق التي فرضت نفسها على الشعب : « يتميز الاسكتلنديون بالاقدام ، وشدة المقدرة على التحمل والتمرس على القتال ، فعندما يشنون غزواتهم على انجلترا كانوا يسيرون ما بين عشرين الى أربعة وعشرين فرسخا دون توقف ليلا ونهارا ، وهم على ظهور خيولهم ، باستثناء خدام المعسكر الذين كانوا من المشاة . وكان الفرسان والفرسان المساعدين يركبون خيولا كستنائية كبيرة ، ويركب باقي الجند خيولا صغيرة قوية . ولم يحضروا معهم عربات بسبب الجبال التي يتحتم عليهم اجتيازها ، في نورثمبرلاند ، أو يحملون معهم أي مؤن أو امدادات من الخبز أو النبيذ ، اذ كان من عادتهم في وقت الحرب « الاعتدال في الطعام ، وكانوا يعيشون فترة طويلة على اللحم المسلوق جزئيا مع عدم تناول الخبز ، ويشربون ماء النهر دون حاجة الى الخمر . لذلك لم يكن هناك داع لاحتفاظهم بالقدور أو أوعية اعداد الطعام ، لأنهم كانوا يسلقون لحوم الماشية جزئيا في جلودها بعد نزع تلك الجلود ، ولم يحملوا معهم ماشية لتأكدهم من الحصول على أعداد وافرة منها في البلاد التي يغزونها . وحمل كل جندي منهم طبقا معدنيا عريضا تحت طرف سرج الحصان وحقيبة صغيرة بها طحين الشوفان خلف السرج ، وعندما يكونون قد أكلوا ما فيه الكفاية من اللحم المسلوق جزئيا ، وبدت معداتهم متعبة وخاوية ، وضع كل فرد منهم هذا الطبق على النار وخلط طحين الشوفان بالماء ، وعندما يسخن الطبق يضع الفرد قليلا من العجينة عليه ، صانعا بذلك كعكة رقيقة تشبه الشريحة الهشة أو البسكويت ، ويأكلونها لتدفئة معداتهم . وليس من المستغرب أنهم يؤدون مسيرة يوم أطول من الجنود الآخرين » (٥٤) .

تألفت الحرب في القرن الرابع عشر عادة من معارك عنيفة وقصيرة الأمد يسبقها أو يتلوها الاستيلاء على مدن أو قلاع . بل أنه عندما بدأ

جيش ضخم فى التحرك لا يتعدى طموحه آكثر من الاستيلاء على الغنيمة ، وسلب ونهب سكان المناطق الريفية • ذلك كان هدف ادوارد الثالث عندما ذهب الى اقليم نورماندى فى يوليو سنة ١٣٤٦ م • حيث قام بسلب ونهب مدينة كاين Caen ، ثم قاد جيشه الى السين Seine ، عندما علم باقتراب الفرنسيين • وحاول ادوارد تجنب مواجهتهم بقدر المستطاع ، نظرا لأن قواته لا تزيد عن ثمن تعداد قوات ملك فرنسا • وأجبروا تراجع الى كريسى Cracy حيث اختار « موقعا أفضل » الى الشمال من المدينة ، وقسم قواته الى ثلاثة أقسام ، وانتظر الهجوم • ووصل الفرنسيون فى أواخر النهــار ، واستمع فيليب ملك فرنســا الى نصيحة مستشاريه ، وأصدر أوامره بالانتظار حتى الصباح نظرا لأنهم كانوا مرهقين من جراء المسافات الطويلة التى قطعوها • بيد أن الأوامر التى أصدرها الملك بهذا المعنى اما أنها لم تصل الى مؤخرة الجيش أو أنهم لم يستطيعوا ايقاف حركتهم الى الأمام » •

« وتوقفت القوات الأمامية بيد أن القوات من خلفهم قالوا أنهم لم يستطيعوا التوقف ، حتى صاروا متقدمين مع القوات الأمامية • وعندما أدركت القوات الأمامية أن القوات الخلفية تضغط عليهم ، اندفعوا الى الأمام ، ولم يستطع الملك أو قادته ايقافهم ، وتحركوا الى الأمام دون أى أوامر ، حتى أصبحوا على مرمى بصر أعدائهم • وما أن شاهدت القوات الأمامية العدو حتى تراجعت على الفور ، فى حالة من الفوضى الشديدة ، التى أدت الى اصابة مؤخرة الجيش بحالة من الذعر لاعتقادتهم أن القوات الأمامية قد اشتبكت فى القتال مع العدو • ومازالت الفرصة أمامهم كافية للتقدم الى الأمام ، لو أنهم كانت لديهم الرغبة ، وعلى أية حال فقد تقدم البعض فى الوقت الذى تجنب ذلك الآخرون » •

« وكانت كل الطرق المؤدية بين أبيفيل Abbeville وكريسى مزدحمة بالجماهير التى استلت سيوفها ما أن أصبحت على مدى ثلاثة فراسخ من أعدائهم ، وهم يهتفون بأعلى أصواتهم ، « أقتل ، أقتل » ، ومعهم كثير من كبار السادة الاقطاعيين الذين كانوا تواقين الى اظهار شجاعتهم • ولا يستطيع انسان أن يتصور ، أو يصف بدقة حالة الاضطراب فى ذلك اليوم ما لم يكن موجودا هناك ، وبخاصة معالجــة الفــرنسيين للموقف بطريقة سيئة وحالة الارتباك التى سيطرت عليهم ، برغم أن قــواتهم كانت كثيرة العدد » •

« وعندما لمح فيليب الانجليز « بدأ دمه يثور غضــبا » وصاح على قادته ، « أصدروا الأوامر الى أهالى جنوه بالتقدم ، وابدأوا المعركة باسم الله ، وبىركة القديس دينيس St. Denis » • فقد كان هناك خمسة

عشر ألفا من الرامين بالقوس والنشاب من أهالى جنوه ، بيد أنهم وصلوا الى حد الاعياء التام لأنهم قطعوا ستة فراسخ فى ذلك اليوم سيرا على الأقدام ، وهم حاملون أسلحتهم ، ومعهم أقواسهم ونشابهم و ... » .

« وسقطت أمطار غزيرة في ذلك الحين ، مصحوبة بالرعد ، وكسوف للشمس مثير للرهبة جدا ، وقبل سقوط تلك الأمطار حامت أسراب عديدة من الغربان ، فوق تلك القوات محدثة ضجيجا مزعجا . وبعد ذلك بوقت قصير تحسن الجو ، وسطعت الشمس من جديد ، بيد أنها كانت فى مواجهة الفرنسيين ، ومن خلف الانجليز » .

« وعندما كان أهالى جنوه فى حالة من النظام الى حد ما ، واقتربوا من الانجليز ، وأطلقوا صيحة عالية بهدف اثارة الرعب عند الانجليز ، فان الآخرين ظلوا ساكنين ، ويبدو أنهم لم يعبئوا بها . ثم أطلق أهالى جنوه صيحة أخرى . وتقدموا قليلا ، بيد أن الانجليز لم يتحركوا على الاطلاق . ثم أطلقوا الصيحة الثالثة ، وأيديهم على القوس والنشاب ، وبدأوا فى الاطلاق . عند ذلك تقدم الرماة بالسهام من الانجليز خطوة الى الأمام ، وأطلقوا سهامهم بقوة وسرعة جعلت الأمر يبدو وكأن السماء تمطر جليدا » .

« وعندما عانى الجنود المرتزقة ، من أهالى جنوه ، من شدة السهام التى اخترقت أسلحتهم ورؤوسهم ، ونفذت خلال دروعهم قطع بعضهم أسلاك وأوتار أقواسهم ونشابهم ، والقى الآخرون بأسلحتهم أرضا ، وانقلبوا على أعقابهم ، وانسحبوا مدحورين تماما . وكان لدى الفرنسيين عدد كبير من الفرسان ، لمساندة المقاتلين من أهالى جنوه » .

« وعندما شاهدهم الملك الفرنسى يتقهقرون على هذا النحو صاح قائلا ، « أقتلوا هؤلاء الأوغاد ، لأنهم يعرقلوا مسارنا ، دون أى سبب » . فقام الفرنسيون من حولهم بأعمال القتل فى أولئك الفارين قدر استطاعتهم . واستمر الانجليز فى اطلاق سهامهم بنشاط وقوة . وسقطت بعض سهامهم بين الفرسان الفرنسيين ، الذين كانوا مجهزين بالأسلحة على أعلى مستوى ، وسقط العديد منهم ما بين قتيل وجريح . وتساقطوا بين أهالى جنوه ، وأصبح من المستحيل على الفرنسيين لم شعثهم من شدة حالة الارتباك التى وصلوا اليها . وكان هناك بعض من أهالى ويلز ، وأهالى كورنوول من المشاة الذين سلحوا أنفسهم بالسكاكين الطويلة ، وتقدم هؤلاء بين القوات ، بعد أن أفسح لهم الرامون بالسهام الطريق ، وانقضوا على الفرنسيين على حين غرة ، وقتلوا العديد من الايرلات ، والبارونات ، والفرسان ، والفرسان المساعدين ، مما أثار غضب ملك انجلترا كثيرا فيما بعد » (٥٥)

على أن ما أثار غضب ادوارد كان التفكير في كل أموال الفدية التى ضاعت عليه نتيجة لمقتل كبار الاقطاعيين والفرسان • وكان من الممكن أن يحصل ادوارد على أموال تكفى لتغطية نفقات الحملة كلهـا • ويوضح الوصف التالى عن أسر الملك حنا الطيب ملك فرنسا (١٣٥١ ـ ١٣٦٤م) • فى معركة بواتيه Poitiers سنة ١٣٥٦م الأهمية الكبرى التى يحرص عليها الذين يأسرون للحصول على فدية الفرسان المعادين ويعرض الموقف الأمير الأسود ، وهو فى حالة اجهاد شديد ، لكنه كان مبتهجا بالنصر الساحق ، ومستلقيا تحت علمه المرفوع على شجرة عالية ليتجمع حولها رجاله الذين انتشروا هنا وهناك ابان المعركة • وعندما حضر اليه قادته سألهم واحدا بعد الآخر عن أى أنباء تتعلق بالملك حنا الطيب ، وعندما لم يصل الي معلومات آكيدة ، أرسل اثنين من كبار رجاله لمعرفة ما فى استطاعتهم الوصول اليه « وامتطى البارونان صهوة جواديهما ، وتركا الأمير الأسود ، وسارعا تجاه تل صغير ، حتى يتمكنا من رؤية ماحولهما : ومن ذلك المكان شـــاهدا مجمـــوعة كبــيرة من الفرسان وقد نزلوا من فوق خيولهم ، وبدأوا يتقدمون صوبهما ببطء شديد • وكان ملك فرنسا يقف وسطهم ، وفى خطر شديد ذلك لاستطاعة الانجليز ، والجاسكون Gascons أخذه بالقوة من السير دينيس دى موربيك Denys de Morbeque وكانوا يتنازعون على تحديد من له أحقيــة الاحتفــاظ بــ الذى صاح فيه أقواهم بأعلى صوته ، « انى أنا الذى أسرته » ، فأجاب الآخرون « لا ، لا » ، اننا نحن الذين أسرناه » فقال لهم الملك محاولا تجنب الخطر المحدق به : « أيها السادة ، أيها الســـادة ، أرجوكم معاملتى ، ومعاملة ابنى معاملة طيبة لأن الأمير أحد أقاربى ، ولا داعى لهذه الجلبة والعراك من أجل أسرى ، فأنا سيد اقطاعى كبير ، وفى استطاعتى تحويلكم جميعا الى أثرياء بالقدر الذى يكفيكم » • وكانت تلك الكلمات وغيرها التى صدرت عن الملك عاملا على تهدئتهم بعض الشىء ، بيد أن المنازعات ظلت تتجدد ، ولم يتحركوا خطوة واحدة الى الأمام دون مشاغبات • وعندما شاهد البارونان هذا الحشد من رجالهما ، نزلا من التل الصغير ، وانطلقا بجواديهما بسرعة صوبهم • وعند وصولهم عرفا حقيقة الأمر ، وهى أن ملك فرنسا وقع أسيرا ، وأن ما يزيد على عشرة من الفرسان ، والفرسان المساعدين يتنازعون بشأن أحقية كل منهم فى الحصول على نصيب من الفدية • ثم اندفع البارونان بين المختلفين ، وأمروهم بالتنحى جانبا وأمروهم باسم الأمير ، والتهديد بالتعرض لعقوبة القتل الفورى ، أن يظل كل فرد منهم بعيدا ، والا يقترب أحدهم قبل أن يصدر اليه أمر بذلك ، فتراجع الجميع بعيدا عن الملـــك ، ونزل البارونان من فوق جواديهما ، وتقدما نحو الملك فى أسمى مظاهر الاحترام

والتبجيل ، واصطحباه فى أمن وسلام الى أمير ويلز » (٥٦) .

ساعدت امكانية الحصول على مبالغ هائلة كفدية ، على الحد من اراقة الدماء ، ابان عصر الحروب الاقطاعية . وعلاوة على ذلك ، فقد ساعد استعداد الجيش الذى يحاصر أية مدينة لقبول استسلامها ، واستسلام حاميتها ، عندما يفقد هؤلاء الذين وقعوا تحت الحصار الأمل فى وصول امدادات ، على الحد من الطابع الدموى للحرب فى ذلك الحين . فقد اضطرت قلعة لارويل La Rèole احدى القلاع الفرنسية الأخيرة فى اقليم جاسكونى Gascony الى الاستسلام للانجليز أبان السنوات الأولى من الحرب . وهنا يقدم فرواسار الوصف التالى لاستسلام القلعة الفرنسية « لقد ضرب الانجليز الحصار حول قلعة لارويل La Reole . واستمر ذلك الحصار أكثر من ثلاثة أسابيع ، وشيدوا برجين ضخمين من قطع ضخمة من الأخشاب الطويلة وكان ارتفاع كل برج ثلاثة طوابق ، وأقيم كل طابق على عجلات ، وغطى كل طابق بالجلد لحماية الأبراج من النار والسهام : وتجمع فى كل طابق مائة من الرماة بالسهام الانجليز وبفضل عزم الرجال تم تحريك هذين البرجين بالقرب من أسوار المدينة ، وردموا خنادق الدفاع عن المدينة أبان تقدمهم ، وتمكنوا من المرور فوقها . وبدأ الجنود الانجليز باطلاق سهامهم بسرعة ودقة ، لدرجة أنه لم يجرؤ أحد من الذين بالاستحكامات الفرنسية على الظهور الا اذا كان مسلحا تسليحا جيدا ، أو يحمل ترسا . ونجح مائة من الجنود الانجليز الذين كانوا فى البرجين فى أحداث فجوة بسور المدينة ، وانتزاع الأحجار باستخدام المعاول والقضبان الحديدية وما أن بلغ ايرل ديرباى earl of Derby الموقف حتى أرسل كلا من السير ولتر مانى Sir Walter Manny ولورد ستافورد Lord Stafford اللذان وجدا سكان المدينة على استعداد للاستسلام ، شريطة تأمينهم على أرواحهم وممتلكاتهم » .

وقبل الانجليز شروط التسليم ، بيد أن السير أجوس دى بان Sir Agosde Bans قائد القلعة الفرنسية فضل الانسحاب الى داخل القلعة ومعه جنوده ، حيث « الكميات الهائلة من النبيذ والمؤن الأخرى » ، التى مكنتهم من مواصلة النضال ثم تحرك الانجليز تجاه القلعة .

« ونصب الانجليز كل معداتهم الحربية تجاه القلعة ، بيد أنهم أحدثوا القليل من الأضرار لأن القلعة كانت عالية ، ومقامة فى منطقة صخرية . وتلك القلعة بناها المسلمون منذ زمن بعيد . ووضعوا لها أساسات قوية جدا . وهى على قدر رائع من الصنع والتشييد لدرجة أنه لا يمكن مقارنتها بأى من المبانى التى تشيد فى أيامنا هذه . وعندما وجد الايرل أن آلاته الحربية لا مفعول لها ، أمر العاملين عليها بالكف

عن العمل ، وأمر الحفارين في جيشه بحفر خنادق الدفاع عن القلعة حتى يتمكنوا من المرور عن طريقهما ومع ذلك فان هذا الأمر لم يتم على وجه السرعة » .

وبعد مرور أكثر من أحد عشر أسبوعا أحرز الحفارون بعض التقدم وحفروا تحت كل الأسوار ، باستثناء أسوار البرج المحصن ، « لأنه كان مبنيا على صخرة صلبة للغاية » . وعندما أدرك سكان المدينة خطورة موقفهم ، أقنعوا السير أجوس بمفاتحة الانجليز بشأن الاستسلام ، وبالفعل أخذ بمشورتهم ، بيد أن الانجليز رفضوا أية شروط ما عدا الاستسلام غير المشروط . ومع ذلك فان المفاوضات بين السير أجوس ايرل ديربای تمخضت في نهاية الأمر عن انهاء الموقف المتأزم ، وسمح الانجليز للفرنسيين بمغادرة القلعة ومعهم أسلحتهم وخيولهم فحسب ، « وسلح الفرنسيون أنفسهم ووضعوا الأغطية المزركشة على سروج خيولهم ، التي لم يبق منها سوى ستة . واشترى بعضهم الخيول من الانجليز الذين تقاضوا منهم مبالغ باهظة ثمنا لها » .

ولم يحدث طوال تاريخ الحروب أن كان القتال شخصيا وفرديا مثلما حدث في عصر الاقطاع . وتقتضى قواعد الحرب أن يكون الصراع الحربي بين اثنين من المتصارعين ، ولا يحدث أن يكون اثنان ضد واحد . وعلى سبيل المثال ، ما أن يتمكن أحد الخصمين من أن يضع غريمه تحت رحمته ، حتى يصبح الأخير أو هذا الغريم أسيره الجدير بالاحترام والتبجيل . وعمل تزويد جندى المشاة بالقوس والنشاب ، والقوس الطويل ، والمدية على تغيير هذه الحالة المقبولة ، وتحول الحرب تدريجيا حتى صارت أكثر وحشية ، على نحو يمكن ادراكه . وحتى عهد فرواسار ظل الشعور السائد التقليدي قائما ، وبخاصة بين الفرسان الذين كانوا يدخلون المعارك بحماس يقارب حماس فريق كرة القدم في عصرنا هذا . ويظهر من وصف فرواسار استعداد الجيش الانجليزي ، والجيش الفرنسي للمعركة قرب أيوراى Auray في اقليم بريتاني Brittany سنة ١٣٦٤ م ، وأن كل المقاتلين في الجيشين كانوا يتألقون في ملابسهم الزاهية الألوان ، ويتلهفون في نشوة للقاء الخصوم لاظهار جلدهم وقدرة تحملهم مصاعب القتال ، وهو الأمر الذى قد يختلف قليلا اذا ما حاول كاتب في عصرنا هذا أن يصف فريقي كرة القدم اللذين يستعدان للمباراة في يوم السبت بعد الظهر . ونما الى علم الانجليز أن اللورد شارل دى بلواه Charles de Blois يتقدم ، « ومعه قوات من المقاتلين المدربين أحسن تدريب ومزودين بالمعدات الضخمة ، وعلى أعلى قدر من الضبط والربط شهدته فرنسا » .

« وتلقى الانجليز نبأ قدوم الفرنسيين بابتهاج شديد ذلك لأنهم كانوا ينتظرون لقاء الفرنسيين بكل تلهف ؛ لذلك قامت القوات الانجليزية باعداد أسلحتها للقتال على الفور ، وقامت تلك القوات باعادة صقل وتلميع رماحها ، وخناجرها ، وسيوفها ، وكل أنواع الأسلحة التى توقع الانجليز ضرورة استخدامها ٠٠٠ » ٠

« ومرت تلك الليلة في هدوء وفى الصباح ، الذى كان يوم سبت ، انطلق الانجليز والبريتون Bretons من مواقعهم ، وتقدموا فى ترتيب قتالى فى مرح وابتهاج ، الى مؤخرة قلعة أيوراى Auray ، حيث توقفوا ، واختاروا موقعا ، وأعلنوا أنهم سينتظرون قدوم أعدائهم »

« وظهر اللورد شارل وجيشه بعد الفجر مباشرة ٠٠ أما القوات ٠٠ فكانت فى حالة انضباط شديد ، واصطف الجند فى أروع الأوضاع التى يمكن أن يراها الانسان أو يتصورها ٠ وسار جنود شارل وكأنهم بنيان مرصوص اذ لا يمكن للمرء أن يلقى بكرة للتنس بينهم ، الا اذا اصطدمت بأسنة رماحهم ، والتى حملوها بقوة وثبات ، واستمتع الفرنسيون بالنظر اليهم ٠٠٠ » ٠

« وفى يوم السبت الموافق الثامن من أكتوبر سنة ١٣٦٤ م ، اصطف الجيشان وجها لوجه فى سهل منبسط بالقرب من أوراى Auray فى اقليم بريتانى ٠ ومن الواجب على القول أنه كان منظرا جميلا يستحق المشاهدة ، وأن يفكر المرء فيه مليا ، اذ كانت الأعلام التى يحملها المشاة ، والأعلام الطويلة المثلثة المعلقة على الرماح والتى حملها الفرنسيون ترفرف جميعها بين الاستعدادات الرائعة فى كل من الجانبين » (٥٧) ٠

واذا كان قيام فرواسار بوصف هذا الجانب عن الحرب أمرا ممتعا له الا أنه لم يغب عن باله ما له من جوانب تفتقر الى المتعة ، بل ويصعب على النفس تحملها ٠ وفيما يلى يقدم فرواسار وصفــه للاستعدادات الضخمة التى قام بها الفرنسيون سنة ١٣٨٦ م لمشروع غزوهم لانجلترا ٠ « حشدت فرنسا قوات حربية تفوق مثيلتها فى أى وقت مضى ٠ وفرضت ضرائب باهظة على كل المدن ، والمناطق الريفية ، وأجرت استعدادات فى البر والبحر ، وكل ذلك لم تشهده فرنسا منذ قرن مضى ٠ وانقضى الصيف كله ، وحتى شهر سبتمبر ، فى طحن الغلال وفى اعداد الخبز الجاف ٠

وأجبرت الدولة الكثيرين من أغنياء فرنسا على دفع ثلث أو ربع ثروة كل منهم لبناء سفن مناسبة ، وفرضت ضرائب على من دونهم من أجل الانفاق على المحاربين ٠

« ولم تترك سفينة مهما كان حجمها من ميناء سفيل Seville الى بروسيا Prussia الا ووضعت فرنسا يدها عليها ، وتم ذلك بناء على أمر ملك فرنسا سواء بالطرق المشروعة أو غير المشروعة ٠ ووصلت المؤن من كل الجهات ٠ وأرسل اقليم فلاندرز كميات كبيرة جدا من النبيذ ، واللحوم المقددة ، والشوفان ، والأعلاف ، والبصل ، وعصير الفاكهة ثم والخبز الجاف ، والطحين ، والزبد ، ومسحوق صفار البيض المحفوظ فى براميل ، وكل الأشياء الضرورية الأخرى ٠٠ » ٠

« وبعث ملك فرنسا الرسائل الى اللوردات والفرسان فى الأماكن النائية يطلب منهم مصاحبته فى هذه الحملة ٠٠ » ٠

« ولم يحدث منذ أن خلق الله العالم أن تم حشد مثل هذا العدد الضخم من السفن التى ملأت موانى سلويز Sluys وبلانكينيورج Blanchenburgh لأن عددهم فى شهر سبتمبر فى ذلك العام بلغ ألفا ومائتين وثمان وسبعين سفينة ٠ وظهرت صواريها وكأنها غابة كثيفة ٠٠ » ٠

« ان أى شخص كان موجودا فى دام Damme ، أو بروج Bruges أو سلويز Sluys كان معرضا للاصابة بالدهشة الشديدة فى ذلك الوقت ، عند رؤية الجميع وهم يعملون على قدم وساق فى شحن القوارب والسفن بحزم الأعلاف ، والثوم ، والبصل ، وآنية الجبن ، والشعير ، والشوفان ، والجوادار ، والقمح ، والشموع ، ولوازم البيت ، والأحذية القصيرة ، والأحذية الطويلة ،والخوذات ، والمهمازات ، والسكاكين ، والبلطات الصغيرة ، والأوتاد ، والمعاول ، والخطاطيف ، والأوتاد الخشبية ، والصناديق المملوءة بالمراهم ، والأقمشة ، وأربطة العلاج ، والبطاطين ، ومسامير حدوات الخيل ، وزجاجات عصير الفواكه ، والخل ، والآنية المصنوعة من الصلصال ، والآنية المعدنية ، والقدور الخشبية ، والأطباق والشمعدانات ، والطسوت ، والأوعية الطويلة ، والخنازير المكتنزة ، وأدوات اعداد الطعام ، والآنية اللازمة لحفظ الخمور ، واللازمة للأغراض الأخرى ، وكل سلعة ضرورية ، ولازمة للانسان أو الحيوان » (٥٨) ٠

وكانت القصة التى حكاها فرواسار فى حولياته ذات الطابع المسلى هى الأخيرة التى يمكن أن نودعه بها عن برتراند دى جوزكلين Bertrand du Guesclin البطل الفرنسى الذى أنقذ فرنسا بعد الكارثة فى بواتيه Poitiers ـ وكيف عمل على الحصول على حريته ٠ وكان برتراند من بين الأسرى الذين وقعوا بين يدى الأمير الأسود فى القتال فى أسبانيا ، فى ربيع سنة ١٣٦٧ م ٠ وسيتضح من هذه القصة أنه لم يكن

مجرد شخصية بارعة فى فن التكتيك الحربى ، وانما كان يتمتع بقسط وافر من الذكاء والدهـاء ٠

« حدث ذات يوم (كما بلغنى ذلك) أن الأمير الأسود كان فى حالة ابتهاج شديد ، واستدعى السير برتراند دوجيوزكلين ، وسأله عن حاله ، فأجاب السير برتراند « لم أكن فى مثل السعادة التى بها حاليا ، ولا يمكن الا أن أكون سعيدا ، لأنه برغم وجودى فى الأسر ، فانى أعظم فارس فى العالم » ٠ فرد عليه الأمير ، « كيف ذلك ؟ » فأجاب السـير برتراند ، « انهم يقولون فى فرنسا وفى بلاد أخرى ، انك شديد الخوف منى وانك تشعر بالفزع من اطلاق سراحى ، ولا تجرى على ذلك ، ولهذا السبب أفكر فى أهميتى الكبرى وسمعتى العالية » ٠ فأجاب الأمير ، « ماذا تقول ! يا سيد برتراند ، هل تتصور أننا نحتفظ بك أسيرا خشية بسالتك ٠ أقسم بالقديس جورج St. George ، أن الأمر بالنسبة الينا غير ما تقوله ، وأنه اذا ما دفعت مائة ألف فرنك فدية ، سنطلق سراحك يا عزيزى » ٠

ونظرا لأن السير برتراند كان حريصا على الحصـول على حريته لذلك فانه ما أن سمع شروط الأمير التى استطاع تنفيذها تمسك بما قاله الأمير ، ورد قائلا : « سيدى بمشيئة الله لن أدفع أقل من هـذا المبلغ » ٠ وعندما سمع الأمير ذلك ، بدأ يشعر بالندم على ما فعله ٠ ويقال ان بعض مستشـاريه قالوا له : « سيدى ، لقـد تصرفت تصرفا خاطئا بمنحه حق دفع الفدية بمثل تلك السهولة » ٠ وأراد مستشاروه أن يعملوا على عرقلة تنفيذ ذلك الاتفاق ٠ بيد أن الأمير الأسود ، الذى كان فارسا نبيلا ووفيا أجاب : « طالما أننا منحناه حق دفع الفدية ، فيجب علينا الوفاء بهذا العهد وألا نتصرف غير ذلك ، لأن ذلك سيكون مصدر خزى وعار ، وسيلومنا كل فرد لعدم موافقتنا على قبول فديته ، فى الوقت الذى عرض علينا مبلغا ضخما » ٠

« ومنذ هذه المحادثة بذل السير برتراند جهودا مضنية للبحث عن المال ، وكان فى غاية النشاط لدرجة أنه استطاع الحصول على مساعدة ملك فرنسا ، ودوق أنجو Angou ، الذى كان شديد الحب له ، وبذلك استطاع سداد مبلغ مائة ألف فرنك فى أقل من شهر ، وذهب لمساعدة دوق أنجو ، ومعه الفين من المقاتلين فى مقاطعة بروفانس Provence (٥٩)٠

- ٧ -

ابن خلدون

ولد ابن خلدون فى تونس سنة ١٣٣٢ م ، وقد وصف أرنولد توينبى Arnold Toynbee مقدمة ابن خلدون قائلا : « انها أروع كتاب من نوعه ولم يحدث حتى الآن أن جاد فكر أى مفكر بمثيل له فى أى زمان أو مكان » (١) • ولقد حقق أسلافه من ناحية والده شهرة لعدة قرون • واليمن هى الموطن الأصلى لأسرته التى انتقلت منها الى أسبانيا فى القرن الثامن الميلادى ، ثم أصبحت احدى السلالات الحاكمة فى اشبيلية Seville فى أواخر القرن العاشر الميلادى • ولمع اسم بعض الشخصيات من أجداد ابن خلدون فى السياسة والعلم فى كل من اشبيلية وشمال افريقيا ، حيث انتقلت أسرته اليها قبل احتلال فرديناند الثالث Ferdinand III لتلك المدينة سنة ١٢٤٨ م ، بوقت قصير • ومن شمال غرب أفريقيا اتجهت أسرة ابن خلدون الى تونس وهناك تم اعدام الجد الأكبر لابن خلدون ، ربما بسبب مخالفات مالية فى خزانة بيت المال ، اذ كان هو المسئول الأول عنها • ذلك المصير المؤلم بالنسبة لأفراد عائلة ابن خلدون كان غير عادى • فسواء بمحض حسن الحظ أم بفضل الحنكة السياسية ، فقد عملوا على أن يكونوا مع الكفة الرابحة فى أى ثورة سياسية •

أما والد ابن خلدون فقد تحاشى الاشتغال بالسياسة ، وهيأ لابنه الفرصة للحصول على أكبر قدر من التعليم القائم على دراسة القرآن الكريم ، والحديث (النبوى الشريف) واللغة العربية ، والأدب ، والفقه • والواقع أن ابن خلدون لم يتوقف على الاطلاق على تلقى العلم والمعرفة • اذ استمر طوال حياته يزود نفسه بكل فرع للمعرفة استطاع الحصول عليه ، بما فى ذلك المذاهب الصوفية ، فلسفة الاغريق (وفقا لتفسيرات

المفسرين العرب) • وأينما ذهب ابن خلدون فكان من عاداته بذل قصارى جهده فى التعرف على العلماء الذين يقدمون له شيئا مفيدا ، فى الوقت الذى قام فيه بمشاركة الآخرين معلوماته بعد أن جذبتهم اليه شهرته فى المعرفة • وحقق ابن خلدون تفوقا ساحقا لمقدرته على عرض وجهات نظر متعمقة بشأن القوى والعوامل التى أثرت على مجرى الحضارة ، ونعنى بذلك ، « العلم الجديد » الذى كشف عنه فى مقدمته • « وتظهر المقدمة بكل وضوح أن ابن خلدون لم تكن لديه الرغبة أو الوسيلة لتقديم اسهامات جديدة لها أهمية عن أى فرع من فروع المعرفة القائمة آنذاك » (٢) •

يبدو أن والد ووالدة ابن خلدون قد توفيا ابان حدوث الوباء الأسود ، وكان ابن خلدون فى السابعة عشرة من عمره فى ذلك الحين • فاضطر للعمل ليكسب قوت يومه فى تونس • ثم رحل الى فاس فى المغرب حيث عمل وزيرا للسلطان هناك ، وتدل السرعة والسهولة التى أنجز بها تلك التنقلات على نمط حياته لمدة خمسين عاما • وبين الاضطرابات السياسية التى لا علاقة لطموحاته بها ظل ابن خلدون حبيسا فى شرك السياسة ، واستمرت حياته كسلسلة متعاقبة من شغل المناصب العليا والحصول على مظاهر التشريف ، والطرد من العمل فى الحكومة والنكبات ، ولم تنته تلك السلسلة الا بوفاته سنة ١٤٠٦ م •

وقضى ابن خلدون الجزء الأكبر من الفترة ما بين ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨م ، فى السجن بجاية Bougie ، حيث كان من الممكن أن يظل سجينا مدة أطول لولا وفاة السلطان الذى سجنه لتآمره • وضمه السلطان الجديد الى ديوانه ، بيد أن الاحساس بعدم الأمن دفع ابن خلدون الى الاستئذان فى الذهاب الى غرناطه ، التى كانت فى ذلك الحين المملكة الاسلامية الوحيدة التى نجت من حركة الاسترداد التى قام بها المسيحيون • واستقبله سلطان غرناطة استقبالا وديا ، لوجود صداقة قديمة بينهما منذ فترة نفى السلطان فى فاس ، حيث تقابلا هناك • وفى سنة ١٣٦٤ م أرسله السلطان فى مهمة لاجراء مباحثات سلام مع بدرو السفاح Pedro the Cruel حاكم قشتالة Castile • ونظرا للانطباع القوى الذى تركه أسلوب ابن خلدون المهذب ، ومستواه الثقافى الرفيع ، والذكاء الدبلوماسى الفائق ، فى نفس بدرو ، عرض عليه أن يبقى فى مملكته ، مقابل اعادة أملاك أسرته فى اشبيلية • Seville اليها • بيد أن ابن خلدون عاد الى غرناطة برغم أنه لم يستثمر بهما فترة طويلة • اذ رحل الى بجاية Bougie ، حيث شغل وظيفة كبير رجال القصر ، أو الوزير الأول عند حاكمها الحفصى الجديد • واستمرت المتاعب السياسية تلاحقه لمدة

الثمان أو السبع سنوات التالية ، حينا فى فاس ، وآخر فى غرناطة ، ثم فى تلمسان Tlemcen ، بعد أن أجبر على مغادرة غرناطة .

وارتاح ابن خلدون من متاعب السياسة فى الفترة ما بين ١٣٧٥ — ١٣٧٨ م عندما لجأ الى قرية قلعة ابن سلامة فى اقليم أوران Oran ونعم بحماسة القبائل العربية المجاورة لمدة أربع سنوات . ولا بد أن تلك السنوات كانت من أمتع سنين حياته . اذ حصل على فترات نادرة من الراحة ، وتمتع بصحبة زوجته وأطفاله ، وفوق كل ذلك ، وجد الوقت الذى خصصه للكتابة وفى تلك الفترة كتب مقدمته ، وهى مقدمة لتاريخه العالمى .

وكانت الرغبة فى الحصول على الوثائق اللازمة لاعداد هذا التاريخ دافعه للذهاب الى تونس سنة ١٣٧٨ م . وظل يدرس ويكتب — وينفعل مع الأحداث التاريخية لمدة أربع سنوات اذ لم يقتصر عمله على اكمال كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، وانما حدث سنة ١٣٨٢ م أن طلب من السلطان أن يأذن له بأداء فريضة الحج ، بعد أن شعر بالخوف على حياته أو حريته ، وطلب أداء فريضة الحج ، لا يمكن أن يرفضه السلطان .

ومع ذلك ، فيبدو أن السلطان احتفظ بزوجة وأطفال ابن خلدون كرهائن ربما لضمان ولاء ابن خلدون فى فترة غيابه ، أو لاجباره على العودة الى تونس . وما أن وصل ابن خلدون الى الاسكندرية حتى ذهب الى القاهرة حيث قضى بها اثنتين وعشرين عاما الى أن وافته المنية . ولم ير أسرته ثانية . وكان السلطان برقوق ، حاكم مصر قد بذل مساعيه الحميدة فى اقناع حاكم تونس بضرورة ارسال زوجة وبنات ابن خلدون الى القاهرة . غير أن السفينة التى كانت تحملهم غرقت ابان احدى العواصف . وبقيت بنتان على قيد الحياة لم يقدر لهما الوجود بالسفينة ، غير أننا لا نعلم شيئا عنهما . اذ تعمد ابن خلدون التزام الصمت فى المسائل الأسرية .

وبالنسبة لابن خلدون ، فلم تكن حياته فى مصر أكثر استقرارا عما كانت عليه فى تونس وشمال أفريقيا برغم ما يبدو على أنها لم تتعرض للخطر على الاطلاق فى مصر . ففى العادة استطاع ابن خلدون الاعتماد على عطف وتأييد السلطان . بيد أن حاكم البلاد أضطر الى غزل هذا العالم من المناصب التى أسندها اليه تحت الحاح بعض الأمراء وأصحاب النفوذ فى الدولة اذ تقلد منصب قاضى القضاة للمذهب المالكى خمس مرات برغم تعرضه للعزل من هذا المنصب . ثم تولى هذا المنصب للمرة السادسة فى فبراير سنة ١٤٠٦ م ، قبل وفاته ببضعة أسابيع .

وربما تفسر ظروف عديدة سلسلة المتاعب المتصلة التي تعرض لها ابن خلدون • ومن الجائز أن المعاناة المريرة التي تعرض لها في سنينه الأولى لم تقيد كلية ميله للكيد السياسي ولا شك أن اعتباره « شخصا أجنبيا » وهي صفة عملت على زيادة اثارتها تمسك ابن خلدون بزيه المغربي ، جعل نيران الحقد والحسد تشتعل في قلوب رجال السياسة في مصر ضده ، ومن ثم اتهموه بالتزمت الشديد عند تفسير وتطبيق الشريعة • ولا ريب أنه اعتبر مصر في حالة من التدهور والتخلف برغم ازدهار ثقافتها ، وليس هناك أدنى شك في أنه رفض التغاضي عن التجاوزات ، التي ربما كانت أمرا تقليديا في مصر (*) ، والتي تعارضت مع ما تميز به من مستوى رفيع في الكياسة والأدب •

وكانت فترة اقامة ابن خلدون في القاهرة من أروع فترات حياته • ففي أواخر سنة ١٤٠٠ خلف فرج والده برقوق على عرش البلاد ، وأرسله فرج في صحبة الجيش الذي ذهب الى دمشق للتصدي لتيمور الأعرج الذي كان يتجه صوب المدينة من الشمال • وما أن وصلوا دمشق حتى عاد فرج والأمراء الى القاهرة على وجه السرعة على أثر انطلاق شائعة بحدوث انقلاب وشيك • وظل ابن خلدون في دمشق لأسباب ليست معروفة ، على الرغم من أنه حاول اتخاذ موقف الحياد ابان المناقشات التي أجراها مختلف القادة بشأن قبول مطالب تيمور أو تحمل معاناة الحصار (٣) • ومهما يكن من أمر ، فيبدو أن تيمور طلب مقابلة العالم الشهير •ونظرا لأن جماعة من الجيش رفضت اجراء مفاوضات مع تيمور وكانت تحرس بوابات المدينة ، لذلك ذهب ابن خلدون الى معسكر المغول ، بعد أن تسلق سور المدينة ، مستعينا بسلم مصنوع من الحبال •

وظل ابن خلدون حرا في التنقل بين معسكر المغول ودمشق لمدة خمس وثلاثين يوما • وأجرى ابن خلدون عدة مقابلات مع تيمور الأعرج • وعاون المترجمون في انجاح المباحثات التي شملت موضوعات مختلفة وتضمنت ذكر أشهر الشخصيات في التاريخ ونظريات ابن خلدون عن التاريخ • وأبدى تيمور اهتماما خاصا بمصر وشمال أفريقيا وأمر العالم أن يقدم له تقريرا عن بلاد المغرب • ولو صح الاعتقاد بأن ابن خلدون تعمد تقديم دراسة غير مشجعة الى شخص مولع بالفتوحات ، فيكون له حق الثناء عليه لتحويله اهتمام تيمور عن مصر وتحويله تجاه الصين • وعلى أية حال ، نجح ابن خلدون في الحصول على تصريح من تيمور للسماح له وأصدقائه بالعودة الى مصر • وعند عودة ابن خلدون الى مصر

(*) كانت مصر آنذاك ترزح تحت حكم المماليك الجراكسة الذين افسدوا الحياة الاقتصادية والسياسية والأمن بصراعاتهم الداخلية (المترجم) •

لا بد أنه قد نجح في اقناع فرج أنه لم يساوم على مصالحه ابان مقابلاته مع تيمور الأعرج · وتم اعادة تعيين ابن خلدون قاضيا للقضاة المالكيين ، وشغل هذه الوظيفة ، بين فترة وأخرى حتى وفاته · ولولا صدور مقدمة ابن خلدون ، والتى جعلها مقدمة لتاريخه العالمى ، لما اعتبره الباحثون المحدثون الا مجرد أحد المؤرخين العرب فى أواخر العصور الوسطى ، وألف ابن خلدون العديد من القطع الأدبية الصغيرة ، وبحثا فى علم الحساب ، على سبيل المثال ، وموجزا فى علم المنطق ، بيد أن قليلا منها قدر له البقاء · وكتاب « التعريف » هو كتاب قليل الأهمية لأنه تحدث فيه عن سيرته الذاتية ، وكان قد أعده فى أواخر أيامه ، وكان كتاب السيرة الذاتية معروفا فى العالم الاسلامى كنوع من الأدب وعلى أنه ليس الانتاج الوحيد لابن خلدون · أما من وجهة النظر الغربية فالكتاب مخيب للآمال · ولم يتضمن الكتاب معلومات شخصية عن ابن خلدون تشبع فضول القارىء ، وأغفل الاشارة الى كتابات ابن خلدون باستثناء التقرير الذى أعده عن تيمور الأعرج ، وتضمن الكتاب استطرادات عن موضوعات تاريخية وأخرى مختلفة ومتنوعة وكلها ليس بها سوى القليل عن حياته · بيد أن الكتاب يترك الانطباع الذى أراد ابن خلدون أن تأخذه الأجيال القادمة عنه (٤٠) ·

أعد ابن خلدون مسودة « المقدمة » ابان فترة اقامته فى قلعة بن سلامة · ويرجع بعض أجزاء من تاريخه الى هذه الفترة برغم أنه أكمل معظم تاريخه وراجع تلك الأجزاء ابان سنينه الأخيرة فى القاهرة · ويحمل مؤلف ابن خلدون عنوان « كتاب العبر » ، ويتكون من سبعة أجزاء ، وتمثل المقدمة الجزء الأول · وتتحدث الأجزاء من الثانى الى الخامس عن تاريخ العالم قبيل ظهور الاسلام وعن العرب والمسلمين بالشرق ، أما الجزءان السادس والسابع فيتحدثان عن المسلمين فى الغرب · على أن غزارة المادة التاريخية التى جاءت فى « المقدمة » ، ونوعيتها الفريدة ، أفضت الى الاعتراف بأنها دراسة قائمة بذاتها ، ابان حياة ابن خلدون نفسه ·

ومع ذلك ، فقد تمخض التاريخ العالمى لابن خلدون عن شىء من خيبة الأمل والاحباط بالنسبة للباحثين · واذا ما أدخل المرء فى اعتباره الصفات المميزة الفريدة ، « للمقدمة » وبعد النظر المدرك فى تفسير ظهور الحضارات وتدهورها ، فللقارىء أن يتوقع وجود سرد تاريخى للأحداث أشمل وأعم من أى مصدر ظهر قبل ذلك · فعلى سبيل المثال ، يتطلع القارىء للاطلاع على التفسير الذى سيقدمه مثل هذا المحلل القدير لسقوط الامبراطوريتين الآشورية والكلدانية · بيد أنه يصاب بالاحباط ·

ولم يحاول ابن خلدون تطبيق آرائه الاجتماعية الفلسفية فيما يتعلق بتاريخ شعب سوى فى حالة اليهود فحسب • ويدور تاريخـــه عن مصر حول التطورات فى داخل مصر السلطان ، وينحصر فى ذكر الأحداث العسكرية والسياسية • بل أن ابن خلدون أغفل ذكر مجاعة داهمت مصر ابان وجوده بها • وفى حالة الأخبار المتضـــاربة المتعلقة بحياة زرادشت ، لم يبـــذل ابن خلدون جهدا فى التوفيق بينها ، وانما اكتفى بمجرد ذكرها ، كما يفعل كتاب الحوليات •

ومع ذلك فبهدف التخفيف من حدة نواحى الضعف تلك ، استطاع ابن خلدون الاشارة الى القصور الموجود فى المصادر التاريخية التى كانت فى متناوله • على أن اعتباره كتاب الداعية المسيحى أوروسيوس Orosius أهم المصادر التاريخية عن الشعوب غير القريبة قبل ظهور الاسلام ، يشير الى حالة القصور المؤسفة التى كان يعـــانى منها وعلى ذلك ، فبرغم أن دراسته عن التاريخ المصرى وعن العـــالم الاسلامى فى المشرق لا تفوق ما كتبه أى من المؤرخين الآخرين ، فان ما كتبه عن المغرب ، وبخاصـــة البربر ، أفضل مما جاء عند أى مؤرخ آخر • ومع ذلك ، فربما اضطر المرء الى الاعتراف ، بأنه من الممكن أن نعزو تفوق تاريخه عن المغرب الى معرفته الشخصية لهذا الجزء من العالم ، أنه كان شاهد عيان لبعض الأحداث التى ذكرها • على أن ما يبديه من عدم اهتمام بالتواريخ الدقيقة هو أمر يتوقعه المرء من فيلسوف فى التاريخ ، ويفسر تحفظه الفكرى عدم الترابط المنتشر هنا وهناك فى كتابه بشأن تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وفقا لتسلسلها الزمنى •

وكما سبق ذكره ، لم يحاول ابن خلدون أن يطبق وجهات نظره الاجتماعية الفلسفية المتعلقة بتاريخ شعب سوى فى حالة اليهود فحسب • واحدى نظرياته عن السلالة الحاكمة هى أنها لا يمكن لها البقاء فى العادة سوى لمدة ثلاثة أجيال أو أربعة • ولكى يقيم ابن خلدون الدليل على هذه النظرية ، قدم سجلا للنجاح الذى أحرزه اليهود فى عهد الآباء ابراهيم ، واسحاق ، ويعقوب ، ويوسف الذين خلف أحدهم الآخر ، وعن التدهور الذى حدث بعد ذلك • ووجد ابن خلدون أيضا ، فى « كتاب العهـــد القديم » كيف أن بنى اسرائيل قضوا أربعين عاما فى سيناء قبل دخولهم أرض كنعان ، وهى الفترة التى حددها لحياة جيل • وبناء على ما ورد عند ابن خلدون ، كان من الضرورى على بنى اسرائيل قضاء أربعين عاما ، وأعنى بذلك ، فترة حياة جيل كامل حتى تتكون « عصبيتهم » ، من بعد المعاناة ابان فترة العبودية فى مصر (٥) •

ومهما كانت نواحي الضعف الموجودة فى تاريخ ابن خلدون ، فانها لا يمكن أن تقلل من روعة « المقدمة » بأى شكل من الأشكال . فما زالت « المقدمة » أكثر الدراسات تقدما في الحضارة وفلسفة التاريخ ، قبل العصر الحديث ، وفقا لكل الاعتبارات . وتفسر ظروف عديدة تفوق هذه المقدمة . فللمرة الأولى ، أبدى المؤلف مقدرة على قوة الملاحظة فى مجال الفكر ، وهو أمر لم يسبق له أن بحث فيه . وعملت معرفة ابن خلدون لمجموعة منوعة من الثقافات ، التى كشفت كل واحدة منها عن مستوى مختلف للثقافة الرفيعة ، على امداده بقاعدة أساسية رائعة لدراسته . وتراوحت تلك الحضارات ، على طول الخط ، من العادات والتقاليد البدائية لقبائل البربر فى المغرب ، الى العالم المزدهر فى غرناطة ، الى الحضارة المصرية التى كانت تعانى من التدهور ، برغم احتفاظها ، بكل عناصر القوة والتأثير . وقضى ابن خلدون سنوات في بلاد كثيرة مختلفة ، ومارس دورا فعالا فى الشئون السياسية حيثما ذهب ، وكان على دراية تامة بالانجازات الفكرية للشعوب التى عاش بينها . ولابد أن عالما له اهتمام ابن خلدون بالمجتمع الانسانى قد عرف الحالة النسبية لتلك الشعوب بالنسبة للنضج الثقافى سواء قربا منه أو بعدا عنه . وأخيرا ، كان لافتنان ابن خلدون بالتصوف أثرا كبيرا فى دوره كفيلسوف اجتماعى .

ويبدو ان ابن خلدون اعتمد على مؤلفات علماء مثل المسعودى (ت ٩٥٦ م) ، بشأن الأفكار التى عبروا عنها عند تحليلهم للظواهر الاجتماعية أو عند تفسيرهم للتاريخ ولكن لا يمكن للعلماء الا آن يخمنوا مدى هذا الاعتماد . ومن هؤلاء الكتاب الأول ، كان المسعودى ، بلا ريب ، أكثرهم انتاجا ، وربما أوسعهم معرفة ، بيد أن ما قدر له البقاء من أعماله ليس سوى مجرد شذرات . ونظرا لعدم وجود محاولات سابقة لعهد ابن خلدون ، ترقى لمستوى تفسيراته عن المجتمع والتاريخ ، لذلك كان العلماء على اتفاق ، فى العادة ، على أن ينسبوا اليه الأفكار التى عبر عنها فى « المقدمة » . واتفقوا على أنه ليس فى استطاعة أحد أن يجد تفسيرا وافيا لنضج أفكاره المبكرة المتمخضة عن قدرات عقلية فائقة فى الحكم على الطبيعة البشرية وفى حسن حظه فى الحياة النشطة وسط بيئات ثقافية متباينة . فعلى سبيل المثال ، لو قدر لابن خلدون تاليف « المقدمة » قبل زيارته الى مدينة غرناطة التى كانت تزخر بشتى الألوان الثقافية ، لما ظهرت المقدمة على هذا النحو وكانت أقل تأثيرا . ولهذا السبب قد يأسف القارىء لأن ابن خلدون لم تكن لديه سوى معلومات ضحلة عن العالم المسيحى فى بيزنطة وأوربا اللاتينية . فربما كانت له

ملاحظات رائعة عن المقارنة بين أثر ضرورة الاحتفاظ بزوجة واحدة فى المسيحية على التطور الثقافى فى أوربا ، وأثر تعدد الزوجات فى العالم الاسلامى ، على سبيل المثال ٠

واختلف العلماء فى الرأى عند تقديرهم لمدى تأثير العلوم الميتافيزيقية على فكر ابن خلدون ٠ فيصر محسن مهـــدى على أنه لم يقم أحد من المفكرين قبل ابن خلدون أو أى معاصر له بربط تاريخ المجتمع بالفلسفة السياسية ، أو حاول أن يطور علم المجتمع فى اطار الفلسفة التقليدية ٠ وبناء على رأى مهدى ، فان « العلم الجديد » عن المجتمع الذى قدمـه ابن خلدون كان ثمرة جهوده فى تطبيق مبادىء الفلسفة اليونانية فى دراسته للظواهر الاجتماعية فى مواجهة التفسيرات الدينية عن العالم (٦)٠

ومن ناحية أخرى ، يؤكد فرانز روزنتال ، على أن ابن خلدون ارتاب فى التفكير التأملى برغم معرفته الواسعة للفلسفة اليونانية والعرب الذين قاموا بتفسيرها ٠ واعتقد فرانز أن ابن خلدون أقام مبادىء علمه الجديد على الملاحظة وليس على التفسيرات التى استمدت مبرراتها من الفلسفة ، وأنه عقد العزم على الوصول الى معرفة سبب تقدم الأمم والحضارات وتدهور أحوالها على أساس أن ذلك يتم بتأثير عوامل اجتماعية واقتصادية وليس بفعل القوى الميتافيزيقية ، فالمبدأ الاجتماعى الذى يبدو أن ابن خلدون نسب اليه التـأثير الأكبر على ظهـور وسـقوط الحضارات هو « العصبية » أو « الشعور الجماعى » Group Feeling وهو مبدأ لم يسبق لأحد من الفلاسفة الاشارة اليه (٧) والواقع أنه وفقا لما ورد فى رأى روزنتال ، قد يميل المرء الى اعتبار ابن خلدون رائدا فى التاريخ الوسيط للمذهب المادى الحديث لو لم يكن قد نسب كثيرا من التأثير على تطور الحضارات الى تلك القوى النفسية كالدين ٠

ومهما يكن من أمر ، فيبدو أن ابن خلدون ترك تأثيرا قليلا أو ربما لم يترك تأثيرا على معاصريه فى مجالات الفلسفـــة السياسيـــة وعلم الاجتماع ، أو لعدة قرون تلت عصره ٠ ولو أن ابن خلدون قد عاش قبل قرنين من عصره عندما كان العلماء الغربيون يترجمون المؤلفات العربية على قدم وساق ، لترك سمة مثيرة للانتباه على الفكر الغربى ٠ وكالعادة ، فلم يهتم به معاصروه الى حد كبير ، واعتبروه مؤرخا عتيقا » ، الى أن اكتشف الغرب أهمية أعماله ٠

وافتتح ابن خلدون « مقدمته » بتضرع الى الله ٠ فكتب يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ٠ والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا

(★) آثر المترجم أن يعيد صياغة الاستشهادات المقتبسة من ابن خلدون بلغة عصرية تيسيرا على القارىء غير المتخصص ٠

محمد وعلى آله وصحبه وسلم • عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ، عبد الله والفقير الى الله الغنى الذى وسعت رحمته كل شىء • الحمد لله • ولا حول ولا قوة الا بالله • بيده الملك وهو على كل شىء قدير • له الأسماء الحسنى • وسع علمه كل شىء • يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور • ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء (٨) •

وهناك المزيد من تلك الابتهالات • وعلى الرغم من أن هذا النوع من المقدمات الدينية كان شائعا بين الكتاب المسلمين ، ففى حالة ابن خلدون ، ومن خلال التناسق الذى نسبه الى الله عالم الأسرار والقوى فى علاه ، يستطيع المرء أن يستنتج أن الورع الصادق هو الدافع الى التعبير عن تلك المشاعر الوجدانية •

ثم واصل ابن خلدون بذكر تقديم للكتاب • فحدد معنى التاريخ ، وعلق على عيوب من سبقه من المؤرخين ، وقدم صورة مجملة لمحتويات تاريخه وتنسيقه العام • وبدأت الفقرات الأولى من تقديمه بما يلى :

« التاريخ فرع من فروع المعرفة تهتم به الأمم والأجناس • ويجد فى طلبه بكل تلهف وشوق • فيتوق رجل الشارع والعامة لمعرفة التاريخ ويتنافس الملوك والقادة على الحصول على المعلومات التاريخية •

فالمثقفون والأميون قادرون على فهم التاريخ • فمن الناحية السطحية ، ليس التاريخ سوى مجرد معلومات عن الأحداث السياسية ، وتاريخ الأسر الحاكمة ، وأحداث الماضى البعيد ، وكلها تقدم على نحو شيق ويضاف اليها بعض الأمثلة الشعبية والحكم • ويساعد التاريخ على جلب المتعة والتسلية للجماهير العريضة ، ويجعلنا نقف على فهم أحوال البشر • ويوضح لنا كيف تؤثر الظروف المتغيرة على شئون البشر ، وكيف تستطيع أسرة حاكمة معينة قادرة على احتلال أجزاء شاسعة من العالم وتتمكن من الأرض الى أن تصبح أثرا بعد عين •

ومن ناحية أخرى ، فالمعنى الباطنى للتاريخ ، هو أنه يثير التفكير والتأمل وهو محاولة للوصول الى الحقيقة ، وتفسير دقيق للأسباب والجذور التاريخية للأحوال القائمة ، ومعرفة وافية عن كيفية وقوع الأحداث وأسبابها • ولذلك تمتد جذور التاريخ بعمق فى الفلسفة • ويستحق التاريخ أن يعتبر أحد فروع الفلسفة » (٩) •

ويعدد لنا ابن خلدون عيوب من سبقه من المؤرخين ذاكرا الشائعات والأخبار الكاذبة ، والافتقار الى الروح النقدية ، والثقة العمياء فى صحة العادات والتقاليد وقبول كل ما هو مكتوب دون تفحص أو تمحيص • وبالاضافة الى ذلك ، فكتابات كثير من المؤرخين مملة ، « أو (على أية

حال) لم يحاولوا الا تكون مملة » • واتهم ابن خلدون بعض المؤرخين بعدم الاهتمام بالتغيرات التى طرأت على الأحوال والعادات للأمم والأجناس والتى حدثت بمرور الوقت •• « لقد أهملوا أهمية التغير عبر الأجيال عند معالجتهم للمادة التاريخية لأنهم لم يجدوا الشخص الذى يفسر لهم تلك التغيرات » (١٠) • وكان يأمل فى علاج كل تلك العيوب ، برغم احتواء التقديم الموجز لكتابه على اعتراف بما لديه من قصور ، وربما كان ذلك ادعاء تقليديا بعدم الكمال • « وبرغم كل ما قيل فانى أشعر بالنقص عندما أتصفح كتب العلماء القدامى والمعاصرين • وأعترف بعدم مقدرتى على التعمق فى موضوع شائك جدا كهذا » (١١) •

وفى المقدمة المطولة ، التى تلت التقديم المختصر ، بحث ابن خلدون فى قيمة علم تدوين التاريخ Historiography ، وفى الطرق المختلفة التى يستعملها المؤرخون والأخطاء التى ارتكبوها • فكتب يقول : « يجب أن يكون معلوما أن التاريخ فرع من فروع المعرفة وله طرق كثيرة فى كتابته • فمظاهره النافعة كثيرة • وهدفه نبيل • ويجعلنا على معرفة بالأمم الماضية • ويطلعنا على سير الأنبياء ، والأسر الحاكمة ، وسياسات الحكام • وبذلك يستطيع المرء أن يحصل على النتائج النافعة اذا ما حاول تقليد القدوة التاريخية فى الأمور الدينية والدنيوية » (١٢) •

هذا هو كل ما قدمه ابن خلدون بغية ذكر المبررات لدراسة التاريخ ، ويبدو أنه قد أفاض فى ذلك بعد أن أعطى « لمقدمته » طابع التحليل النفسى •• ثم انتقل مباشرة الى الحديث عن مواطن ضعف معينة تعرض لها المؤرخون • منها عدم مراعاتهم الدقة عند ذكر الاحصاءات • فأشار قائلا : « ذكر المسعودى وكثير من المؤرخين أن موسى (عليه السلام) أحصى جيش بنى اسرائيل فى الصحراء • وأخذ معه كل قادر على حمل السلاح ، وبخاصة أنه اعتبر كل من جاوز الثانية والعشرين مناسبا • ووصل عدد هذا الجيش الى ما يزيد على ستمائة الف مقاتل • وبذلك يكون (المسعودى) قد نسى أن يضع فى اعتباره اذا ما كان فى استطاعة مصر وسوريا حشد جيش بهذا العدد • فمن الممكن أن تحشد كل مملكة أكبر قدر من قوات المقاومة الشعبية militia ولكن فى حدود امكانياتها البشرية والمادية • وتؤكد العادات المعروفة والأحوال المألوفة على صحة هذه الحقيقة • ويضاف الى ذلك ، عدم استطاعة جيش فى مثل هذا الحجم ، التحرك لملاقاة العدو وخوض المعركة كمجموعة متكاملة • وستكون كل أراضى الحدود التى يمكن استغلالها غير كافية لمثل هذا الجيش • واذا ما اتخذ مثل هذا الجيش وضع استعداد للمعركة فسيشغل مساحات

تفوق نطاق الرؤية . واذا كان الحال كذلك ، فكيف يتقاتل جيشان ، أو ينتصر أحد أجنحة جيش فى الوقت الذى لا يعرف فيه جناح ماذا يفعل الجناح الآخر ! » (١٣) .

وانتقد ابن خلدون المؤرخين العرب على الخطأ الشنيع الذى وقعوا فيه والمتعلق بقصة العباسة شقيقة هارون الرشيد ، وجعفر رفيقه فى المرح والسمر . واعتمد فى هذه القصة على رواية الطبرى الى حد كبير ، وحدثت لرغبة الخليفة فى قضاء ساعات المرح والسمر بصحبة جعفر وشقيقته العباسة ، لذلك زوج شقيقته لجعفر حتى لا يجد جعفر حرجا فى الجلوس مع الخليفة وشقيقته . ومع ذلك فمن المفهوم أن هذا الزواج لم يكن مقدرا له أن يتم بدخول جعفر على العباسة . بيد أن العباسة هامت حبا فى جعفر ، الذى نجح فى مباشرة حقه الشرعى معها بعد أن .. لعبت الخمر بلبه . وعندما علم هارون بأن زواجهما الشرعى أثمر عن طفل ، «استشاط غضبا » ثم أمر بعد ذلك بدق عنق جعفر .

ورفض ابن خلدون أن تكون هذه القصة مجرد شائعة قصد بها الاساءة الى العباسة . اذ يرى أنه من المستحيل الاعتقاد فى أن امرأة مثل العباسة ، وهى صاحبة الحسب والنسب ، أن تفعل ذلك « ان العباسة ابنة خليفة وشقيقة خليفة . وولدت فى بيت الخلافة ، وهى من سلالة بيت النبوة ، ومن ذرية أهل محمد (صلى الله عليه وسلم)(★) ، وأعمامه وأقاربه . وهى مرتبطة بالرعيل الأول من الصحابة بحكم أصلها ومولدها ، وبنور الوحى المنزل ، وبالمكان الذى هبط فيه جبريل (عليه السلام)(★) وكانت العباسة تعيش وفقا للمشاعر والتقاليد العربية الصادقة ، ووفقا لمبادىء الاسلام السمحة التى ظلت بعيدة عن مظاهر الرفاهية والترف وعن مواطن انتشار الرذيلة . وأين يجد المرء الطهارة والعفة والحياء اذا لم يجدهم عند العباسة ؟ وأين توجد العفة والشرف اذا لم يعد لهما وجود فى ذلك البيت ؟ وكيف تستطيع العباسة أن تربط شجرة نسبها العريقة بشجرة جعفر بن يحيى وتلطخ أصلها العربى العريق بأصل ذلك الفارسى التابع ؟ » (١٤) .

واذا ظل القارىء الحديث غير مقتنع ، فعلى الأقل سيتفق مع ابن خلدون فى أن هذه الفرية ، حتى ولو حدثت ، ربما لم تكن الدافع الذى حرك هارون للقضاء على جعفر ، ووالده وشقيقه ، وكل أفراد أسرة البرامكة . وقد يشك المرء فى أن ابن خلدون كان يدرك أن شجبه لقصة

(★) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

انحراف العباسة الخلقي قد يدخل البهجة والسرور على قراء القصر بنفس قدر ادانته للفرية الزاعمة بأن هارون كان « مدمنا للخمور » . على أن الأسلوب الجاف الذي عبر به ابن خلدون عن عدم اعتقاده في صحة قصة العباسة وجعفر يقدم لنا مثلا رائعا عن مدى الخطأ الذي يمكن أن يقع فيه كبار العلماء عندما يسمحون للأفكار أن تحجب عنهم حقيقة أهواء أو تقلبات الطبيعة البشرية .

وبحث ابن خلدون بالتفصيل في قصص مشابهـة تتعلق بسوء السلوك الأخلاقي لبعض الخلفاء الأول ثم قدم تفسيرا يمكن أن ينطبق على كل عصر .

« وهناك قصص كثيرة من هذا القبيل . وهي تبرز دائما على نحو غير متوقع في كتب المؤرخين . ويبدو أن الدافع على تلفيق هذه القصص وذكرها وجود رغبة عامة في المتع المحظورة وتشويه سمعة الآخرين بضروب الاتهامات والافتراءات . ويبرر الناس خضوعهم للملذات بذكرهم الرجال والنساء الذين سبقوهم (والذين فعلوا نفس الأفعال التي يفعلونها ، حسب زعمهم . ومن ثم ، فغالبا ما يبدو متلهفين جـدا لمعرفة تلك المعلومات ويشمرون عن سواعد الجد في البحث عنها بين طيات صفحات الكتب المنشورة » (١٥) .

وعلاج هذه الآفة هو العمل على ايجاد المؤرخ المدرب والمسئول . ويكتب ابن خلدون عن هـذا المؤرخ فيقول يجب أن يعرف هـذا المؤرخ مبادىء السياسة ، وطبيعة الكائنات الموجـودة ، والفروق بين الأمم ، والأماكن ، والعصور ، مع الأخذ في الاعتبـار بضرورة معرفة أساليب الحياة ، والمميزات الشخصية ، والعادات ، والمذاهب والمدارس ، وأي شيء آخر . ويجب أن يكون لديه الملم تام بالأحـوال الحاضرة في كل تلك المجالات المذكورة . ويجب عليه أن يقارن بين أوجه التشـابه أو الاختـلاف بالنسبة للأحـوال في الحاضر والمـاضي . ويجب عليه أن يعرف أسـباب التشـابه في بعض الحالات ، وأسباب الاختـلاف في الحـالات الأخـرى . ويجب أن يكون على معـرفة بأصـول السـلالات الحاكمة والفرق الدينية وجذورها التاريخية بالاضافة الى الأسباب والدوافع التي دفعت بهم الى الوجود وظروف وتاريخ الشخصيات التي ساندتها . وأن يكون هدفه الوقوف على المعرفة التامة لأسباب كل حادثة ، وأن يكون على دراية تامة بالجذور التاريخية لكل حدث تاريخي . ثم يجب عليه مراجعة المعلومات المنقولة وفقا للمبادىء الأساسية التي يعرفها » (١٦) .

ويقول ابن خلدون أن كتابه الأول « المقدمة » يتحدث عن الحضارة وخصائصها الأساسية . ويتضمن ذلك « السلطة الحاكمة ، والادارة ،

والأعمال المربحة ، وفرص العمل ، والحرف ، والعلوم ، والمعارف » (١٧) ٠
وأعلن ابن خلدون أن غايته كتابة تاريخ واقعي ، ويقصد بذلك ، أن يكتب تاريخا يقارب أو يناهز ، « أي علم قائم بذاته » ٠ واعتمد ابن خلدون على المعلومات المستقاة من البحث العلمي الدقيق ، ولم يعتمد على الأساليب البلاغية ، الا فيما يتعلق بدراسة أساليب السياسة ، وذلك عند اعداده لهذا التاريخ الجديد (١٨) ٠ وأعلن ابن خلدون أن دراسته هذه يمكن أن ينظر اليها على أنها « علم مبتكر بكل ما في الكلمة من معنى » ، برغم أنه حريص على قبول احتمال أن المؤرخين الذين سبقوه ، ومن بينهم بعض الفرس والكلدانيين ، على سبيل المثال ، قد ساهموا بجهد مماثل للأفكار التي عرضها في هذه الدراسة ٠ وعلى الرغم من اعلانه بأن كتابه فريد في نوعه وأنه « اشتمل على معلومات تخالف ما كان شائعا ومألوفا » ، فانه اعترف « بعدم مقدرته على التعمق في موضوع شديد الصعوبة » ٠ ورجا ابن خلدون الباحثين « أن يتفحصوا الكتاب بعين الناقد وليس بعين المجامل ، وأن يصححوا في هدوء ويتغاضوا عن الأخطاء التي تقابلهم» (١٩)٠

وهنا يستعد ابن خلدون للبدء في بحثه عن الصفات المميزة للحضارة في مظاهرها المختلفة ، وهي دراسة من الممكن أن تزودنا بالأسس والمبادىء الخاصة بتاريخه العالمي ٠ ويتفق ابن خلدون مع الآخرين في أن الانسان اجتماعي بطبيعته وعلى ذلك فهو في حاجة الى عون بني جنسه كي يعيش منسجما مع طبيعته ٠ فكتب ابن خلدون : « ان قدرة الفرد من بني البشر لا تكفيه للحصول على الطعام الذي يحتاج اليه ، ولا تمده بالكمية اللازمة كي يعيش ٠ وحتى لو افترضنا الحد الأدنى من الطعام — ونعني بذلك قوت يومه ، (جفنة) من القمح ، على سبيل المثال — فان هذا القدر من الطعام لا يمكن الحصول عليه الا بعد اعداد كثير مثل الطحن ، والعجن ، والخبز ٠ وكل من تلك العمليات الثلاث تحتاج الى آنية ، وأدوات وكلها لا يمكن أن تتوفر دون مساعدة العديد من أصحاب الحرف ، مثل أصحاب حرف الحدادة ، والنجارة ، وصناع الفخار ٠ واذا ما افترضنا أن في استطاعة الانسان أكل القمح قبل أن يصير خبزاً ، فمن الضروري أن تمر حبات القمح بعمليات عديدة : منها بذر الحب ، وحصد القمح ، ودرس الحنطة لفصلها عن سنابل القمح ٠ وتتطلب كل عملية من تلك العمليات السابقة عددا من الآلات وعددا يزيد على عدد الحرفيين الذين سبق ذكرهم ٠ وهي عمليات تفوق طاقة شخص بمفرده ، بل انه لن يستطيع القيام بجزء منها ، وحده » (٢٠) ٠

وأشار ابن خلدون الى ظروف أخرى لا يمكن فيها الاستغناء عن مساعدة الجماعة من أجل صالح الفرد ٠ فالفرد يحتاج للمساعدة عندما

يشعر بضرورة الدفاع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة ، على سبيل المثال ، أو ضد عدوان من داخل الجماعة • وفي الحالة الأخيرة فمن الواجب على الحاكم أن يقدم المساعدة • « ومن ثم فمن الواضح أن سلطة الحاكم لازمة طبيعية للانسان وضرورية للجنس البشرى بلا أدنى ريب » (٢١) • ويعلن ابن خلدون بحزم واصرار على أن اعتلاء الحاكم للسلطة لا يستلزم بالضرورة أن مشيئة الله هى التى أرادت ذلك ، وأعلن أيضا أن الحاكم لا يستمد سلطته من الله ، كما كان يدعى بعض الفلاسفة •

ثم اعتقد ابن خلدون أن الأرض ، « عنقود من العنب يطفو فوق ماء » (٢٢) ، البحار ، والمحيطات ، والأنهار • وكتب عن نهر النيل ، فقال ان منبعه عند سفح جبل ضخم على بعـد ست عشرة درجة خلف خط الاستواء : « ولا يعرف جبل أعلى منه فى العالم » (٢٣) • وقدم للقارىء خريطة تمكنه من متابعة بحثه عن المناطق السبع التى تحتويها الأرض • وقدم ابن خلدون معلومات جغرافية تشابه تلك التى تم التسليم بصحتها ، على وجه التعميم ، فى عصره • وكما أوضح ابن خلدون نفسه ، فان كثيرا من تلك المعلومات « مأخوذة عن كتاب مثل بطليموس Potlemy فى الجغرافيا ، ومن بعده مؤلف كتاب روجر The Book of Roger (بواسطة الادريسى) » (٢٤) •

وركز ابن خلدون معظم اهتمامه على المناطق الثالثة ، والرابعة ، والخامسة ، والتى تشكل جميعها المناطق المعتدلة • وأن الشعوب التى تعيش فى تلك الأقاليم المعتدلة هى أكثر الشعوب تحضرا • ثم قال : « ان سكان تلك المناطق أكثر اعتدالا واتزانا (وفى تناسق جيد) بالنسبة لأجسادهم ، ولونهم ، وصفاتهم الشخصية ، وأحوالهم العامة • واتضح أنهم يميلون الى الاعتدال الى حد كبير فى مســاكنهم ، ومـلابسهم ، وأطعمتهم ، وحرفهم • ويسكنون بيوتا مصنوعة من الأحجار ومزينة بأيدى العمال المهرة • وينافسون بعضهم بعضا فى انتاج أفضل الأدوات والآلات • ويجد المرء عندهم المعادن الطبيعية ، مثل الذهب ، والفضة ، والحديد ، والنحاس ، والرصاص ، والقصدير • ويستعملون المعـدنين النفيسين (الذهب والفضة) فى معاملاتهم المالية • وغالبا ما يتجنبون الاسراف فى كل أحوالهم • تلك كانت أحوال سكان المغرب ، وسوريا ، والعراق ، وغرب الهند (السند) ، والصين ، بالاضافة الى أسبانيـا ، وأيضا المسيحيين الأوربيين المجاورين » (٢٥) •

وكان ابن خلدون يرى أن الأحوال الصحية لسكان الصحارى أفضل من مثيلتها عند سكان التلال ونسب ذلك الى تقشفهم فى نظامهم الغذائى •

وأضاف أن الناس الذين يكتفون بالقليل من الطعام دون تقتيرهم أكثر الناس تمسكا بتعاليم الاسلام كقاعدة عامة ، ويعمرون أكثر من غيرهم • وكانت هذه الصفات الحميدة نتاجا لبيئتهم المحيطة بهم • بيد أن الله يهب بعضا من خلقه قدرات خارقة من نفاذ البصيرة كما فعل مع الأنبياء • وأقر ابن خلدون ، دون ريب ، بصحة تلك القدرات ، كما آمن بقدرة بعض الناس على تفسير الأحلام و « الرؤى » التى يراها النائم ، « فى منامه » • واعتقد ابن خلدون أن بعض الناس لديهم القدرة على التنبوء بالغيب بالنظر بتركيز لفترة من الوقت فى المرايات أو الأنية التى بها ماء ، وبالاضافة الى ذلك ، « تلك العبارات المتعلقة بأمور الغيب التى ترد على ألسنة المتخلفين عقليا » (٢٦) •

وقد يندهش القارىء الذى لديه فكرة عن المكانة العالية التى يحظى بها ابن خلدون لعمق تفكيره ، عند سماعه لتلك المفاجآت الأخيرة ، الا أنه سيجد ما يعيد الطمأنينة الى نفسه فى الفصل الثانى من الكتاب الأول لابن خلدون حيث يؤكد هذا العالم على أنه يتمتع بمكانة مرموقة • وهنا يقدم ابن خلدون تحليلا علميا عن حضارة البدو والشعوب المتنقلة بصفة عامة • وتصور الفقرات الأولى نمط الحياة وتطورها من حياة القبيلة البدائية الى أرقى المراحل الحضارية • « اتخذ بعض الناس الزراعة كوسيلة لكسب عيشهم وزرعوا الخضروات والبقول • واتخذ البعض الآخر تربية الحيوانات الداجنة من الأغنام ، والماشية ، والماعز ، ونحل العسل ، ودود القز ، للاستفادة منها ومن نتاجها ولا يستطيع أولئك الذين يعيشون على الزراعة أو تربية الحيوانات العمل دون استغلال الصحراء لأنها دون غيرها هى التى تتيح لهم فرصة الحقول الشاسعة ، والأراضى الزراعية ، والمراعى ، وكل شىء غير متيسر الحصول عليه فى المناطق المأهولة بالسكان • لذلك كان من المحتم عليهم المعيشة فى نطاق الصحراء • ولم يتوصلوا فى معيشتهم الا الى حد الكفاف لعدم مقدرتهم على الحصول على غير ما تحت أيديهم ، وصار نظامهم الاجتماعى والتعاونى قائما على سد متطلبات الحياة من مأكل ، ومأوى ، ودفء • وساعدت أحوالهم الأخذة فى التحسن على التوالى • وزيادة ثروتهم عن حاجتهم ، على تزايد شعورهم بالطمأنينة وتقبل الأمور فى يسر • ثم تعاونوا من أجل أمور خارج نطاق الضروريات فبنوا المساكن الضخمة ، وشيدوا القرى والمدن لحماية أنفسهم • وتبع ذلك مزيدا من الرفاهية وسهولة فى سبل العيش ، مما أدى الى تكوين عادات متطورة قائمة على الرفاهية ورغد العيش • وبدأوا يفاخرون باعداد الطعام ومطابخ اعداد الطعام الفاخر ، وباستعمال الثياب الفاخرة المصنوعة من الحرير ، والقماش المطرز ، والمنسوجات الأخرى الفاخرة ، وبتشييد

المبانى العالية والأبراج ، والأثاث الفاخر فى مبانيهم • وتقدموا فى أساليب الزراعة • وبنوا القلاع والقصور ، وزودوها بالمياه الجارية ، وزادوا فى علو ارتفـاع قلاعهم ، وتنافسـوا فى تزويدها بكل المتطلبـات اللازمة • واختلفوا فى أنواع ملابسهم ، وسررهم ، ومركباتهم ، والأدوات النافعة التى يستخدمونها فى أغراضهم • والآن ننتقل الى « الناس الذين يعملون وهم جالسون » ونعنى بهم سـكان المدن والريف ، الذين يعملون فى الحرف الفنية كوسيلة لكسب عيشهم ، وبعضهم يشتغل بالتجارة • وهم يكسبون أكثر من البدو ، ويعيشون فى رغد من العيش ، وتعبر حياتهم على ثرائهم » (٢٧) •

ويرى ابن خلدون أن معظم أصحاب الحرف كانوا فى الأصل من البدو ، وعاشوا فى مستوى حضارى بدوى • ونظرا لأن البدو كانوا ملزمين بانتهاج حياة قائمة على ضروريات الحياة ، دون رفاهية أو ملذات ، « فان عاداتهم الذميمة ، وصفاتهم المستحقة للوم تكون طفيفة • ويكونون أكثر قربا من حالتهم الأولى ، وأكثر بعدا عن العادات الذميمة التى أثرت على أصحاب الحرف من خلال العادات القبيحة والذميمة » (٢٨) •

شكل اصـدار التشريعات والاعتماد عليهـا لتحقيق الحماية علامة كبرى فى تدهور الحضارة • فقبل تلك المرحلة كانت الفضائل الفطريـة كافية لحماية الانسان وعندما ظهرت القوانين عملت على الاقلال من قدرة الانسـان على الثبـات والجـلد والمقـدرة على التحمل • ولو سـئل ابن خلدون اذا ما كان هذا الرأى ينطبق على التشريعات التى وردت فى القرآن الكريم ، لبادر بالقول ان القيود التى فرضتها الشرائع الدينية جاءت من الناس وليس كنتيجة لمعرفة فنية أو ثقافية علمية •• وظلوا محتفظين بثباتهم وجلدهم دون أن يصيبه الوهن ، ولم يعتره الصـدأ سواء بالتعليم أم على يد السلطة الحاكمة ••• الى أن تضاءل أثر الدين بينهم ، فوضعوا التشريعات الملزمة (٢٩) • وبمعنى آخر ، فان التشريعات المستمدة من الحكومة أو التعليم تؤدى الى القضاء على القدرة الذاتية على الجلد والثبات لأن أثرها المقيد والملزم يأتى من خارج ضمير الفرد • ومن ناحية ثانية ، فان تطبيق التشريعات الدينية لا يعمل على اضعاف القدرة الذاتية على الجلد والثبات لأن قوتها الملزمة أمر فطرى •

وكتب ابن خلدون عن مبدأ الشعور الجماعى « العصبية » وهـو مفهوم أعطاه معناه واشتهر به فالشعور الجماعى هو الذى يمكن القبائل البدوية من الدفاع عن أنفسها ضد الأعداء ودون انتظار تحريضات أو

أوامر من شيوخها . « ولا يكتب التوفيق لهم فى الدفاع وحماية أنفسهم الا اذا كانوا مجموعة مترابطة على الحب ووحدة الأصل . وذلك يقوى من قدرتهم على التحمل ، ويجعل أعداءهم يعملون لهم ألف حساب ، طالما كان حب الفرد منهم وتعلقه بأسرته وعشيرته يفوق أى شىء آخر . فالله (سبحانه وتعالى) وضع فى قلب الانسان المودة والرحمة لذوى القربى ، ولبنى البشر ، ويعمل هذا على التراحم ، والتعاطف ، ويجعل الأعداء يخشون بأسهم » (٣٠) .

وتمتد العصبية لتشمل الأتباع والحلفاء أيضا لأنها « تؤدى الى الاتصالات الحميمة تماما ، أو تفعل كما يفعل الأصل المشترك على وجه التقريب » (٣١) وكل هؤلاء الناس ، الذين انحدروا من جد واحد على استعداد ان يعترفوا ومعهم الأتباع والحلفاء بقيادة أحدهم عن طيب خاطر . وكل ذلك بفضل الشعور المشترك .

بيد أن شعبا وحدته العصبيه ذات مرة ، من الممكن أن يفقدها عندما يرتبط بشعوب أخرى أو عندما يركن هذا الشعب الى حياة الدعة والاستقرار . وهناك بعض الناس يجمعهم معا شعور جماعى زائف . وينطبق ذلك على بنى اسرائيل . فكتب ابن خلدون ان بنى اسرائيل هم أشد الناس تمسكا بهذا الشعور الجماعى . وفى الأصل كان لبنى اسرائيل « أسرة » من أشهر الأسر فى العالم لسببين ، أولهما : ظهور عدد كبير من الأنبياء والرسل من بين أجدادهم ، وأهمهم ابراهيم وموسى الذى وضع تعاليمهم الدينية ، وثانيهما : شدة تمسكهم بشعورهم الجماعى واعتقادهم بأنهم شعب الله المختار . ثم تم تجريدهم من كل ذلك ، وكتبت عليهم الذلة والمسكنة وتعرضوا للفقر والفاقة . وعاشوا مشتتين فى أنحاء المعمورة . وظلوا لعدة آلاف من السنين لا يعرفون سوى حياة الاستعباد والارتياب فى أمرهم . ومع ذلك سيطر عليهم الاعتقاد الزائف بأنهم شعب الله المختار . وردد الفرد منهم القول : « بأنه من أتباع هارون ، ومن سلالة يشوع ، ومن قبيلة يهوذا . » (٣٢)

ان الشعور الجماعى قوة مؤثرة بالغة الحساسية . انها ترفض قيادة أى أسرة خارج نطاق الجيل الرابع . وقدم اليهود المثل الواقعى على تلك الظاهرة أيضا . اذ قبلوا حكم أسرة واحدة ــ ابراهيم ، واسحق ، ويعقوب ، ويوسف ــ لمدة أربعة أجيال . « ويعلم الفرد الذى خلق المجد والشهرة لأسرته الثمن الذى دفعه مقابل ذلك العمل ، ويظل محافظا على الخصائص التى أوجدت هذا المجد وعملت على استمراره . ويتعلم الابن من والده هذه الأمور بحكم الصلة الشخصية . ومع ذلك فهو أقل خبرة

في هذا المجال عن والده ، بنفس قدر تبعية المرء الذى يتلقى معرفة الأفكار من خلال الدراسة النظرية على يد شخص عرفها عن طريق الممارسة العملية . أما الجيل الثالث فلابد أن يكون قانعا بالالتزام بالمحاكاة والتقليد ، ومعتمدا على العرف والتقاليد على وجه الخصوص . وهذا الجيل أقل مرتبة من الجيل الثانى وهو يشبه الفرد الذى يعتمد كلية على التقاليد ويكون فى مرتبة أدنى من الذى يمارس رأيا مستقلا .

وحينئذ يكون الجيل الرابع أقل مرتبة من الأجيال الثلاثة السابقة من كافة النواحى ولابد أن هذا الجيل قد فقد الخصائص التى حفظت بناء المجد الضخم . ومن الناحية العملية فهو يحتقر تلك الخصائص . ويتصور الجيل الرابع ان هذا البناء الضخم لم يتم من خلال العمل والجهد . اذ يعتقد أن هذا المجد انما هو محصلة ما فعله الأجداد وليس نتيجة الجهد الجماعى والخصائص الفردية . ذلك لأنه يدرك مدى الاحترام الكبير الذى يحظى به أمام الناس ، بيد أنه لا يعلم كيف نشأ هذا الاحترام وسبب ظهوره . وهو يتصور أن ذلك كله مرجعه الى أصله ولا شيء سواه . ويتباعد عن الذين يشاركهم الشعور الجماعى معتقدا أنه خير منهم . ويثق أنهم سيطيعونه لأنه ولد ليكون مطاعا بينهم ، برغم أنه يعرف الخصائص التى تجعل الطاعة أمرا ضروريا . ومن بين تلك الخصائص التواضع عند التعامل مع أولئك الناس واحترام مشاعرهم . ومن ثم فهو يعتبرهم جديرين بالازدراء ، وهم بدورهم ، يثورون ضده ويحتقرونه . وينتزعون القيادة السياسية منه ومن ذريته ويسلمونها الى أحد أقاربه ، امتثالا لشعورهم الجماعى كما سبق أن ذكرنا » (٣٣) .

ان الاحساس بالولاء للجماعة الى زوال ، كحال أى شيء فى الوجود . فالانسان والحيوان ، والنبات والجماد ، وكل المخلوقات الأخرى تنشأ ثم تفنى ، وهذا هو ما يستطيع المرء ملاحظته بنفسه . وتنطبق الحالة نفسها على الأحوال التى تأثر على سائر المخلوقات . » (٣٤) وعلى الرغم من غاية الاحساس بالولاء الجماعى هو تحقيق التفوق على الشعوب الأخرى ، فانه ما أن يتم التوصل الى تلك الحالة ، حتى يكون التدهور أمرا حتمى الحدوث لا محالة . اذ ان السبب الأساسى فى حدوث هذا التدهور هو حياة الثراء والترف التى حققتها الأمة عن طريق توطيد دعائم تفوقها على الشعوب الأخرى . وعندما تأخذ خشونة حياة البداوة فى الانحسار ، يبدأ الاحساس بالولاء للجماعة ، والشجاعة ، فى الفتور . ثم تحل الهزيمة ، ويليها . الخضوع لحكم أمة أخرى ، وأخيرا مرحلة الاندراس .

أمد الأعراب ابن خلدون بمعظم المادة العلمية الثقافية التى بنى عليها تفسيراته . ويشكل ادراكه لأحوال الأعراب وتحليله لسماتهم ومميزاتهم الطابع العام المسيطر على ما كتبه . واعتبرهم ابن خلدون غير متمدنين بطبيعتهم ، ويميلون الى السلب والنهب والتخريب والتدمير . وهم أعداء للتمدن . اذ قال : « ويرجع السبب فى ذلك الى آن البدو أمة غير متمدنة ، واعتادت على التصرف بهمجية وعلى الأمور التى تدل عليها . وصارت الهمجية طبيعتهم المميزة والمعبرة عن شخصيتهم . فأسلوبهم الهمجى يعنى التحرر من قيود السلطة وعدم الخضوع للقيادة . ومثل هذا الميل الفطرى انما هو بمثابة رفض للتمدن ونقيض له . وتتجه كل أنشطة البدو المألوف لديهم الى السفر والانتقال . واذا كان الاستقرار يؤدى الى التمدن فان تلك الأنشطة القائمة على الترحال فى تناقض وتعارض مع التحضر . فعلى سبيل المثال ، يحتاج البدو الى الأحجار لاستخدامها كدعائم يضعون عليها قدور الطبخ . ولذلك ينتزعونها من المبانى التى يهدمونها للحصول على تلك الأحجار لاستعمالها فى ذلك الغرض . ويحتاجون للخشب أيضا لاستخدامه كدعائم لخيامهم ، وكأعمدة للخيام التى يسكنونها . وطبيعة هذه الحياة فى تعارض تام مع اقامة المبانى التى تشكل القاعدة الأساسية للتحضر » (٣٥)

وما زالت هناك سمات أخرى لدى الأعراب جعلتهم معادين للتحضر . فقد أهملوا تشجيع تطوير الحرف والمهارات ، وكان ينقصهم الاهتمام بالتشريعات التى تكبح جماح الذين مالوا الى فعل الشر ، وكل العرب كان لديهم الطموح فى أن يكونوا قادة . ولذلك فمن حسن الطالع أن ظهرت قوة بمرور الوقت عملت على تهذيب الفرد العربى البدائى ومكنته من اقامة حضارة مزدهرة . وكان الدين هو تلك القوة التى تعمل على القضاء على الفظاظه والغلظة ، ويكبح جماح الحقد والحسد فيما بينهم .. وبالاضافة الى ذلك فلا يوجد شعب فى مثل سرعة العرب فى تقبل الحقائق الدينية والدعوات الحقة ذلك لأن طباعهم ظلت بعيدة عن العادات السيئة ولم تتأثر أخلاقهم بالصفات الشخصية الوضيعة . وتكمن المشكلة الوحيدة فى نوعية الغلظة ، ومع ذلك فمن الممكن العمل على التخفيف من حدتها طالما ظل الفرد على سجيته الأولى وبعيدا عن التقاليد الذميمة والعادات القبيحة التى تترك أثرها فى النفوس »(٣٦) .

واعتبر ابن خلدون السلطة الحاكمة فى تعارض مع مشيخة القبيلة ، وفى علاقاتها بالشعور بالولاء الجماعى . وبرغم أن أى دولة تتألف من عدد من القبائل قد تكون من الضخامة الى الحد الذى يقلل من وضوح

عوامل العصبية بها ، فان هذا الشعور الجماعي يظل قائما كقوة بين الأسر التي تتنافس على القيادة • وما أن تحقق أسرة معينة تفوقها حتى تنسى الظروف التي حققت لها النجاح للوصول الى مركز القيادة• ثم يصبح أمرا متعارف عليه أمام كل أفراد القبيلة أن تخضع لتوجيهاتها• وعندما تتحقق هذه الفكرة تستطيع الأسرة أن تتجاهل ، بأمان ، أي اهتمامات أخرى تتعلق بالشعور الجماعي ، لأن الدين يعمل بقوة فعالة على أن يشد الشعب أزر بعضه البعض •

واعتقد ابن خلدون أن انجازات أي أسرة حاكمة ، وعلى وجه الخصوص الآثار المادية التي تركتها الى الأجيال القادمة ، كانت تتناسب مع قوتها الأصلية • فعلى سبيل المثال كانت الانجازات الكبرى للخليفة المأمون تعبيرا عن اتساع رقعة الدولة في عهده ، وعن الثروة الهائلة التي كانت تحت يد السلطة الحاكمة ، والأعداد الغفيرة من الأيدي العاملة التي سخرتها الدولة لصالحها• وخشية أن يضل القارئ أنباء الانجازات التي لن يجد لها نظير يماثلها في عصر حكى ابن خلدون كيف أن وزير سلطان ميرينيد Merinid أجاب على شكه فيما يتعلق بمدى صحة ما ذكره ابن بطوطة : « يجب ألا ترفض تلك المعلومات عن أحوال الأسرة الحاكمة لأنك لم تر تلك الأشياء بنفسك • والا فانك ستكون على مثال ابن الوزير الذي تربى في السجن • وكان هذا الوزير مسجونا لمدة سنوات بأمر حاكم البلاد • وتربى ابنه معه في السجن • وعندما شب الفتى بدأ يسأل والده عن اللحم الذي يأكله • فأخبره والده أنه لحم الضأن • فسأله ابنه عن لحم الضأن وعندما وصف له والده الحمل بالتفصيل ، قال الابن : « انك يا والدي تعني أنه يشبه الفأر » فغضب والده منه وقال : « وما هي العلاقة بين الحمل والفأر ؟ » وحدث الشيء نفسه بين لحم البقر ولحم الجمل فيما بعد • واعتقد الابن أن كل الحيوانات من صنف الفأر لأنه لم ير سوى الفأر في السجن » (٣٧) •

وبعد تقديم ابن خلدون لدراسة عامة عن الحكام المسلمين قدم وصفا موجزا عن الكنيسة النصرانية • وذكر أن الله أرسل عيسى الى بني اسرائيل ، وألغى بعض التشويهات التي وردت في التوراة ، « وجرت على يديه بعض المعجزات ، مثل شفاء المرضى ، واحياء الموتى • » (٣٨) وذكر أن عيسى أرسل الحواريين الى أنحاء العالم ، وبذلك أثار حقد هيرود Hreod عليه ، ومن ثم أقنع الأخير الامبراطور أوغسطس بضرورة صلب المسيح •

ووصف ابن خلدون السياسة التى انتهجها الرومان تجاه النصرانية على أنها كانت متناقضة ، تارة عدائية وأخرى محايدة ، الى أن جاء قسطنطين الذى اعترف بالنصرانية كاحدى الديانات الشرعية بالامبراطورية • وكتب عن الخلافات حول العقيدة والتى مزقت المجتمع النصرانى وأوقعت الفوضى فى داخله ، وعن مجمع نيقيه الأول ،وعن ظهور البابوية • واذا كانت معرفته لتاريخ الكنيسة النصرانية صحيحة تماما ، فان تفسيره للعلاقة بين البابا والامبراطور الرومانى المقدس تكشف عن نقص مروع فى معلوماته عن هذين العاهلين وما كتبه عنهما من الممكن قبوله فى بعض المناسبات فى أوائل العصور الوسطى ، بيد أن الحالة اختلفت على عصره بكل تأكيد • ان من عادة البابا فيما يتعلق بالنصارى فى أوربا مطالبتهم بالخضوع لحاكم واحد وأن يلتمسوا منه العون عند اختلافهم فى الرأى وعند اتفاقهم حتى يتجنبوا التعرض للتفرق شيعا وأحزابا • وهدفه من ذلك أن يسود بينهم الشعور الجماعى وأن يكون أقوى المشاعر بينهم ، ومركزا فى حاكم واحد ، حتى يتمكن هذا الحاكم من فرض سيطرته عليهم • وأطلق على هذا الحاكم لفظ « امبراطور » واعتاد البابا على أن يقوم بنفسه بوضع التاج على رأس الامبراطور حتى ينال البركة فى احتفال مهيب • ومن ثم أطلق على الامبراطور « المتوج » وربما كان ذلك يعنى كلمة « امبراطور • » (٣٩)

ثم انتقل ابن خلدون الى كبار الموظفين الذين يعملون فى الحكومة ، والى مسئولياتهم والقابهم • ودرجة أهميتهم ، محددا من يعمل فى الوظائف الحربية ومن يعمل فى الوظائف المدنية • ومهما كان عدد هؤلاء الموظفين ، وكانت درجة كفايتهم فان العبء الأساسى للحكم الناجح يقع على عاتق الحاكم • « فيجب على هذا الحاكم أن يمارس سلطة القيادة السياسية وأن يخضع الشعب لارادته ، مذكرا اياهم أنه الوحيد الذى له حق السيادة العليا • .ويتطلب ذلك قدرا كبيرا من معرفة نفسية الشعب • ولذلك قال أحد الحكماء : « ان تحريك الجبال من أماكنها أهون على من التأثير على الشعب نفسيا • » (٤٠)

وفى مناقشة ابن خلدون للحرب • قام بالتفريق بين الصراع العادل والصراع غير العادل • ويبدو أنه وافق على الحروب العادلة ، والتى تصفها التشريعات الدينية باسم « الجهاد » (٤١) وكذلك الحرب ضد (المرتدين) • ودرس الطرق الحربية التى تستخدمها الشعوب المختلفة • وكان تحليله للعوامل التى تحقق النصر الحاسم فى أى حرب يستحق التفكير بامعان على يد كل أولئك الذين يحاولون تحقيق مصائرهم بتلك

الوسيلة . « ليس هناك ثقة كاملة لتحقيق النصر فى الحرب حتى لو وجدت المعدات والقوة العددية التى تحقق النصر فى الظروف العادية . اذ يلعب الحظ والصدفة دورهما فى النصر والتفوق فى الحرب . ويفسر ذلك حقيقة أن أسباب التفوق كقاعدة ، هى مجموعة من العوامل المتعددة وهناك عوامل ظاهرية مثل عدد الجند ، وصلاحية السلاح للاستعمال، وجودة نوعيته ، وعدد الرجال الشجعان ، والمهارة فى ترتيب صفوف الجند ، واستيعاب فن تنظيم القوى الحربية وتحريكها ، وما شـــابه ذلك . وهناك العوامل الخفية . وقد تكون تلك العوامل الخفية نتيجـة للحيل والخداع الذى يمارسه الانسان ، كاطلاق الأخبار المثيرة للذعر والشائعات بهدف خفض الروح المعنوية بين صفوف الأعداء ، وكاحتلال المواقع المرتفعة ، التى يمكن الانقضاض منها ومفاجأة العدو وتشـــتيت شمله ، والاختفاء فى الأدغال أو المنخفضات واخفاء أنفسهم من العـدو فى المناطق الصخرية ، وبذلك يكون الطرف غير المختفى فى موقف محفوف، بالمخاطر ، ومن ثم يلوذ بالفرار طلبا للسلامة بدلا من الدفاع عن نفسه . وقد تكون العوامل الداخلية مسائل الهية لا دخل للانسان فيها . وتؤثر هذه العوامل الخفية فى الناس من الناحية النفسية وتزرع فى قلوبهـم الخوف وتحدث الأسباب الخافية الفوضى والارتباك فى مراكز الجيش ثم تحل الهزيمة المنكرة . ان الهزائم المنكرة هى فى غالب الأحوال نتيجة للأسباب الخافية ويعمل كل من الجيشين المتحاربين على اغتنام الفرصة من أجل استخدامها على أحسن وجه فى احراز النصر . (وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم) (*) « الحرب خدعة » . » (٤٢)

وقد يرفض القارىء قبول اشارة ابن خلدون التى لا تتفق مع العلم بشأن العوامل « الالهية » المؤثرة على نتيجة المعارك ، وفى حين قد ينظر بعين العطف الى ما عرضه هذا العلامة فيما يتعلق بموضوع المواد المالية العامة . اذ ذكر ابن خلدون أن الأسرة الحاكمة فى أوائل عهدها اكتفت بفرض ضرائب متواضعة لأن الموارد المالية التى حددتهـا التشريعـــات الدينية كانت كافية لسد الاحتياجات . وابان الفترة التى كانت فيها الضرائب منخفضة كان لدى الناس الحافز على العمل بكل جهد وكد ، والانطلاق ومزاولة الأعمال التجارية الجريئة . ونتيجة ارتفاع المستوى الثقافى فى عهد تلك الأسر الحاكمة . غير أنه بمرور السنين بدأت مظاهر الرفاهية من جانب الأسر الحاكمة ، وتمخض عنها زيادة الأعباء الضريبية، التى أدت بدورها الى انخفاض فى النمو الاقتصادى والثقافى » « وعندما

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

تستمر الأسرة الحاكمة فى السلطة ويتبع حكامها بعضهم بعضا على التوالى يزدادون حنكة • وبدات طريقه ابداء المشاعر والسلوك البدويه تفقد اهميتهـا ومغزاها ، واختفت صفـات الاعتدال والالتزام ، وبدأ ظهور السلطة الحاكمة بما بها من حكم استبدادى ، وكذلك الثقافة المستمرة التى تشحذ الحنكة • وحينئذ اكتسب شعب الأسرة الحاكمة صـفات شخصية تنم عن الذكاء • وأصبحت عاداتهم وتقاليدهم واحتياجاتهم أكثر تفاوتا نتيجة لحياة الازدهار الاقتصادى والرفاهيه والترف التى انغمسوا فيها • وكنتيجة لذلك ازدادت الرسوم والضرائب المفروضة على رعـايا الدولة ، من الزراعيين والفلاحين ، وكل الذين كانوا يدفعون الضرائب• وازدادت الرسوم والضرائب على الأفراد الى حد كبير لتحصيل أكبر قدر ممكن من الدخل الحكومى الضريبى • وتحددت الرسوم الجمركية على السلع التجارية وتم جبايتها عند بوابات المدن ، كما سنذكر فيمـا بعد • ثم تبع ذلك زيادة تدريجية فى النسب الضريبية على نحو منتظم ، وفقا للزيادة التدريجية ونتيجة لذلك ، فرضت ضرائب باهظة على رعايا الدولة وأثقلت كاهلهم • وأصبحت الضرائب الباهظة أمرا ملزما وعـادة متعارف عليها ، لأن الزيادة حدثت تدريجيا ، ولم يعرف أحد على وجه التخصيص المسئول عن زيادتها أو فرضها • وأثقلت كاهل الرعـايا كالأمور الملزمة والعادات المتعارف عليها • » (٤٣)

وقد يخامر القارىء الشك فى النتيجة النهائية التى من الممكن أن تتمخض عن الارتفاع المستمر فى تقدير الضرائب • فعندما تتخطى القيم الضريبية المقدرة حدود العدالة والانصاف يفقد رعايا الدولة الرغبـة فى مزاولة المشروعات الصناعية • ويصبح من الممكن أن تكون النتيجة الحتمية هى الدخل الحكومى الأقل ، والذى بدوره يؤدى الى ارتفـاع الرسوم الضريبية فى المستقبل كما حدث فى الماضى مما يشكل نواحى الضعف فى الدولة • وتكون المحصـلة النهـائية هى القضاء التام على الحضارة •

« واذا ما استوعب القارىء ذلك ، فسيدرك أن أقوى الدوافع لزيادة النشاط الثقافى يمكن أن يتحقق بتحصيل أدنى قدر ممكن من الضرائب والرسوم من الشخصيات القادرة على مزاولة الأعمال التثقيفية • وفى هذه الحالة ، تكون تلك الشخصيات ميالة الى مزاولة عملها التثقيفى ، لأنهم يكونون على ثقة من أنها ستدر عليهم أرباحا • » (٤٤)

ومن ناحية أخرى ، فان الضرائب الباهظة التى أثقلت كاهل الشعب عملت على اضعاف وخمود الحافز على زيادة حجم الملكية رويدا رويدا •

وما أن توصل الشعب الى أن الزيادة التى يحققونها فى مقدار دخلهم، ستمتصها خزانة الدولة بكل وضوح ، حتى فقدوا الدافع على نشر انجازاتهم الثقافية ·

وفى الفصل الرابع من الكتاب الثانى اعتقد ابن خلدون أن اقامة المدن وما بها من آثار ضخمة ومبانى فخمة ليست سوى نتاجا لحضارة راسخة · وأن تلك الانجازات لم تظهر الى حيز الوجود الا بعد ظهور سلطة قوية ورسوخ أركان أسرة حاكمة · « ان تفسير ذلك هو أن تخطيط المبنى واقامة المدينة وما هو الا علامات للحضارة الراسخة المنبثقة عن الرفاهية والاستقرار ، كما ذكرنا آنفا · وجاءت مظاهر الاستقرار الحضارى بعد انتهاء الحياة البدوية ومظاهرها · وبالاضافة الى ذلك فان المدن الصغرى والكبرى بما بها من انجازات معمارية ضخمة كلها أقيمت من أجل الجماهير وليست من أجل الأقلية · ومن ثم تضافرت الجهود من أجل انجازها · ولذلك فان الأسر الحاكمة والسلطة القوية كلها من الأمور الضرورية عند انشاء المدن وتخطيطها · » (٤٥)

وفى الفصل الخامس من المقدمة بدأ ابن خلدون يكتب عن الوظائف المختلفة وعن درجات العمال وفقا لمهاراتهم وعن الحرفيين أنفسهم · أما عن التجارة فكانت فى رأيه وسيلة طبيعية لتحقيق الربح · ومع ذلك فمعظم خطواتها وأساليبها تعتمد على المهارة والخداع للحصول على الربح وهو الفرق بين ثمن الشراء وثمن البيع · وهذا الفائض هو الربح ؛ لذلك فالعرف يسمح بالدهاء والمكر فى التجارة ذلك لأن التجارة تحتاج الى المغامرة · ومع ذلك فليس معناها أن يستولى المرء على ممتلكات الآخرين دون مقابل · ولذلك فهى مشروعة (٤٦) ·

ويقول ابن خلدون ان العرب أقل الشعوب مهارة فى الأعمال الحرفية · ويفسر ذلك قائلا ان السبب فى ذلك هو أن العرب أكثر التصاقا بالصحراء وأبعد الناس عن الاستقرار والحرف والأمور الأخرى التى تتطلبها الحضارة المستقرة · ومن ناحية أخرى فالشعوب غير العربية فى الشرق والأمم النصرانية على امتداد شواطىء البحر المتوسط لهم جميعا باع طويل فى الأعمال الحرفية لأن لهم حضاراتهم العريقة وهم أكثر بعدا عن الحياة البدوية (٤٧) ·

ثم أورد ابن خلدون ذكر الحرف المختلفة ، بيد أنه لم يذكرها جميعها ، اذ أن ذلك من الأمور المستحيلة · « فهذه الحرف من الكثرة مما يجعلها تفوق الحصر » (٤٨) · ووجد أن الزراعة هى أقدم الحرف جميعها · ويعتقد ابن خلدون أن حرفة النجارة أدخلها نوح (عليه

السلام) . طبقا لما ذكرته كتب التراث . « وبفضل حرفة النجارة بنى نوح فلكه . » (٤٩) وقدم ابن خلدون وصفا مفصلا عن « حرفة القبالة . » وعند حديث ابن خلدون عن « مهنة الطب » ذكر الحديث النبوى الشريف الذى وصف الطعام بأنه أصل الداء . وقال ابن خلدون: « ان المعدة بيت الداء ، وان الحمية هى الدواء . وان ملء البطن بالطعام أساس كل داء . » (٥٠) واعتبر ابن خلدون حرفة كتابة الخط الجيد ، حرفة سامية ، اذ انها احدى الصفات الخاصة التى يمكن من خلالها أن يميز الانسان نفسه عن الحيوان . » (٥١) وكانت حرفة نسخ الكتب قاصرة على المدن التى لها ماضى ثقافى عميق ، أما الموسيقى فكانت حرفة ، « لها ارتباط وثيق بقرض الشعر » (٥٢)

ثم انتقل ابن خلدون الى دراسة العلوم ، مستعملا كلمة علم بمعنى المعرفة التى يحصل عليها الانسان من خلال الملاحظة ، والدراسة ، والتجربة . ويدخل ضمن نطاق العلوم دراسة الملائكة ، والأنبياء والرسل والشريعة ، والفقه ، والتصوف ، وتفسير الأحلام ، وعلم العروض ، والفلك ، والفيزياء ، والسحر ، والكيمياء « ولا نعرف أحدا فى العالم استطاع التوصل الى الغاية من علم الكيمياء . » (٥٣) أو استخلص أى نتيجة مرغوبة منه ، وأخيرا علم التنجيم . وشجب ابن خلدون التنجيم لأسباب دينية وطبيعية ولأن المنجم يمكن أن يشجع أعداء الأسرة الحاكمة على الثورة اذا ما ظهرت علامات التنجيم المبشرة بنجاح مثل تلك المغامرة. وكتب أيضا عن تربية التلاميذ وطريقة التعليم المتبعة فى المدن الاسلامية . وبالرغم من أنه رأى أن العلماء هم صناع الحضارة فانه أعلن أنهم غير موفقين فى الحقل السياسى :

« ويرجع السبب فى ذلك الى تعود العلماء على التأمل الفكرى والدراسة الدقيقة للآراء التى يستخلصونها من الدراسات الحسية ، ويعتبرونها كالقضايا العامة ، حتى يتمكنوا من تطبيقها على بعض الأمور بصفة عامة وليس على أمر بعينه ، وعلى الفرد ، والجنس (*) والأمة ، أو جماعة من الناس . ويستخدم هؤلاء العلماء تلك القضايا العامة فى التأكيد على صحة الحقائق عن العالم الخارجى .

ومن ثم فقد اعتاد العلماء على معالجة الأمور بالفكر والأفكار فى كل أنشطتهم الفكرية . ولا يعرفون سوى ذلك . ومن ناحية أخرى ، فلابد للعاملين فى السياسة من ابداء الاهتمام البالغ بحقائق العالم الخارجى

(*) ما بين حاصرتين من عند المترجم .

والأحوال المرتبطة بالسياسة والقائمة عليها . (وتلك الحقائق والأحوال) يشوبها الغموض .. والأحوال الموجودة فى الحضارة لا يمكن أن تقارن بعضها ببعض على الدوام . فقد تتشابه من ناحية فى الوقت الذى قد تختلف فيه من نواحى أخرى ...

والآن فقد اعتاد العلماء على التعميم والنتائج القياسية . وعندما يبدون آرائهم فى الأمور السياسية ، يخضعون ملاحظاتهم للفحص والتمحيص ولأساليبهم فى استخلاص النتائج . ومن ثم ، يقعون فى كثير من الخطأ . أو على الأقل لا يمكن الاطمئنان الى عدم وقوعهم فى الخطأ ...

ولا يملك الشخص العادى صاحب العقل السليم ، والذكاء المتوسط ، القدرة العقلية التى تمكنه من التأمل أو مجرد التفكير فيه. ولذلك فهو يقتصر على قبول كل شىء كما هو ، والحكم على كل موقف وكل فرد وفقا لظروفه الخاصة . ولا يتأثر رأيه بالقياس والتعميم . ويتوقف معظم تأمله عند الأمور التى تدركها الحواس ولا يخرج عن نطاقها فى التفكير ...

ولذلك فمثل هذا الرجل يمكن الاعتماد عليه عندما يفكر مليا فى المجالات السياسية . اذ لديه النظرة الثاقبة عند التعامل مع بنى جنسه . » (٥٤)

ومن هنا قدم ابن خلدون بحثا مستفيضا عن علم النحو والصرف والأدب واختتم به كتابه المعروف باسم « المقدمة » ويمكن للمرء القول بأنه فى نطاق أوسع المعانى للتاريخ فحسب يستطيع العالم الحديث أن يبرر وجود تلك الأفكار فى مقدمة تاريخية .

وذكر الأسانيد للمؤرخين السابقين ، فيما يتعلق بالجذور التاريخية لكتابة التاريخ الاسلامى ، وذكر سلسلة من المصادر ، لاقامة الدليل على أصالة ومصداقية كل ما حاول اثبات صدقه وصحته . واهتم المؤرخون الأول بذلك عن طريق التأكيد على صحة الأحاديث النبوية الشريفة ، وما فعله المؤرخون فيما بعد لاثبات صحة الأحداث التاريخية السابقة . وعرض ابن خلدون فى مقدمته تفسيرا رائعا لسلسلة من الأسانيد التى تتعلق بقصة المهدى المنتظر ، والذى اعتقد كثير من المسلمين أنه سيظهر فى آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلا وسلاما . (٥٥)

ومما لا شك فيه كانت مقابلة ابن خلدون لتيمــور الأعرج أخطر حادثة مثــيرة فى حياته المليئة بالمفاجآت المثــيرة ، ولا سيما ان اسم هذا القائد المغولى أثار الذعر فى قلوب حكام أوربا وآسيا بعد أن استطاع ، بمرور الوقت ، اقامة واحدة من أكبر الامبراطوريات فى العالم • وبصفة عامة صارت واقعة مقابلة ابن خلدون مع تيمور مسألة مسلم بهــا عند الجميع ، بيد أن ظهور السيرة الذاتية لابن خلدون (التعريف) أكد على صحة هــذه الواقعة وأمدنا بوصف مفصــل ونابض بالحياة والحيوية عن هذا اللقاء غير المتوقع وغير العادى• وفيما يلى نعرض جزءا يسيرا اقتبسناه من كتاب التعاريف ، « عندما وصلت الأنباء الى مصر بأن الأمير تيمور قد غزا آسيا الصغرى ، وحرب سيواس ، ثم اتجه الى سوريا ، حشد السلطان فرج جيوشه ، وفتح خزانة الدولة ، وأمر الجند بالتحرك الى ســــوريا •

وفى ذلك الحين كنت خارج دائرة الحكم ، بيد أن يشبك ، دويدار السلطان استدعانى ، وطلب منى الذهاب معه فى الحملة السلطانية • وعندما أبديت عدم رغبتى فى ذلك ، حدثنى بحزم ، برغم رقة حديثه وكرم أخلاقه الشديد •

ومن ثم ذهبت معهم فى صباح اليوم التالى ••• ووصلنا الى غزة ، واسترحنا هناك لعدة أيام انتظارا للأخبار • ثم اتجهنا صوب دمشـــق كى نصلها قبل أن يصلها التتار ، وعسكرنا فى شقب ، ثم بدأنا المسير ليلا حتى وصلنا دمشق فى الصباح •

ونصــب السلطان فسطاطه وخيــامه والانشاءات الأخرى فى سهل قبة يلبغــا • ولما يئس الأمير تيمور من عدم المقدرة على الاستيلاء عــلى المدينة بالقوة ، ظل لمدة تزيد على الشهر على رابية فوق قبة يلبغا ، ينظر الينا بكل حذر ، فى الوقت الذى كنا فيه نراقب تحركاته أولا بأول • واشتبك الجيشــان ثلاث أو أربع مرات خــلال تلك الفترة مع تحقيق انتصارات متفاوتة •

ثم علم السلطان وكبار الأمراء الموالين له أن بعضا من الأمراء الآخرين ـ يدبرون مؤامرة للاستيلاء على السلطة ، ويعدون العدة للعودة سريعا الى مصر لاعلان الثورة هناك • ومن ثم عادوا جميعا الى القاهرة ••

وفي صباح اليوم التالي كان أهالي دمشق في حيرة من أمرهم لأن أنباء ما حدث كانت غامضة بالنسبة اليهم • وقابلني القضاة ورجال الشريعة •• واتفقنا على أن نطلب من الأمير تيمور الأمان على ديارنا وأسرنا •• وذهب القاضي وشيخ الصوفية لمقابلة تيمور خارج أسوار المدينة • ووافق تيمور على منح الأمان وأرسلهما لاستدعاء علية القوم والقضاة الآخرين •

وأبلغني القاضي أن تيمور استفسر عما اذا كنت قد ذهبت مع الجيش الى مصر أو مازلت داخل المدينة • فأجابه القاضي أنى مازلت موجودا في المدرسة التي أعمل بها • وبناء على ذلك قضينا الليل في الاعداد لمقابلة تيمور •

ثم دب نزاع بين بعض الشخصيات في المسجد الكبير ، لأن بعضهم رفض الثقة فيما قيل بشأن ترتيبات الاستسلام • ووصلني خبر ذلك في وقت متأخر من الليل وخشيت من حدوث محاولة اعتداء طائشة قد تودي بحياتي • ولذلك استيقظت عند الفجر وذهبت الى جماعة من القضاة الذين كانوا عند بوابة المدينة • وطلبت منهم السماح لي بالخروج من المدينة من بابها ، أو الموافقة على أن أتسلق السور الى الخارج •• وفي بداية الأمر رفضوا ، ثم سمحوا لي بتسلق السور في الصباح •

وبالقرب من بوابة المدينة وجدت بعض ماشية تيمور ••• ثم أحضروا مطية ركبتها وأرسلوا معي أحد حاشية السلطان تيمور ، الذي أوصلني اليه •• وعندما نطقوا اسمي مصحوبا بلقب « القاضي المالكي المغربي » ، استدعاني تيمور ، وعندما دخلت خيمة المقابلات ، وجدته متكئا على مرفقه في الوقت الذي كانت تمر فيه أطباق كبيرة مملوءة بالطعام من أمامه والتي كان يأمر بتقديمها لمجموعات المغول التي كانت جالسة في حلقات أمام خيمته •

وعند دخولي قلت : « السلام عليكم » ، وأبديت مظاهر التواضع • ثم نظر الى ومد يده وقبلتها • وأشار على بالجلوس : وجلست حيث كنت ، وطلب من أحد حاشيته احضار أحد قضاة الحنفية الكبار ••• ليقوم بدور المترجم بيننا •

ويسألني عن مسقط رأسي في بلاد المغرب وعن سبب قدومي من هناك . فأجبت « اني غادرت بلادى لأداء فريضة الحج .. »

ثم سألني : « وأين ولدت ؟ » فأجبت : « في أعماق المغرب حيث كنت أعمل مستشارا للملك هناك » .

فقال : « ما معنى » في أعماق « عند وصفي للمغرب ؟ » (ويبدو وصفي لم يرضه) فقال : « اني لست مقتنعا » واننى أرغب في أن تكتب وصفا عن كل بلاد المغرب ــ أقسامها البعيدة ، والقريبة ، وعن جبالها وأنهارها ، وقراها ، ومدنها ــ بطريقة مفصلة تجعلنى وكأنى شاهدتها » .

فقلت : « سيتم ذلك تحت رعايتكم » . ثم طلب من خدمه أن يحضروا الى خيمته بعضا من الطعام يطلقون عليه « ريشتا » وكانت لديهم مهارة فائقة في صنعه . وأحضروا بعض الأطباق بها الطعام ، ثم امرهم بوضعه أمامي . ثم تناولت الطعام الذى أعجبنى مذاقه ، وبلغ به السرور قدرا كبيرا لذلك .

ثم وصف ابن خلدون محادثاته مع تيمور ، وعودته الى محل اقامته في دمشق ، وقرار تيمور بمهاجمة المدينة .

ثم شدد تيمور الحصار حول القلعة بكل عزم وجهد ، فأقام المنجنيقات أمامها ، وقاذفات النفط ، وأدوات دك الأسوار ، وما شابه ذلك من آلات الحرب وتم ذلك في غضون ستين يوما . واشتدت ضراوة الحصار الى أن انهار مبنى القلعة من كل الجوانب ...

وحرم تيمور سكان دمشق من أرطال من الأموال التى استولى عليها تحت التعذيب بعد أن سلبهم كل الممتلكات ، والخيول ، والخيام التى تركها حاكم مصر خلفه . ثم اذن تيمور لجنوده بالسطو على بيوت أهالى دمشق ، واستولى هؤلاء الجند على كل ما فيها من أثاث ومتاع . وأضرم الجند النيران في أثاث المنازل وكل مستلزماتها وفى الآنية وأدوات المطبخ التى لا قيمة لها وامتدت النيران الى جدران المنازل التى كانت تحمل عروق السقوف الخشبية واستمرت النيران في الاشتعال الى أن وصلت الى المسجد الكبير ، وامتد اللهب حتى وصل الى سقف المسجد ، واذاب ما به من رصاص الى أن انهار السقف والجدار . ولا ريب أن ما فعله تيمور وجنوده كان عملا يدل على الخسة والغدر ، وان كان تبدل الأحوال بيد الله وحده ــ يفعل في عباده ما يشاء ، وله الملك وحده ...

وكان أحد أصدقائى الذى كان على معرفة بعادات المغول قد نصحنى بأن أقدم لتيمور بعض الهدايا عندما ذهبت اليه عبر سور المدينة كما

ذكرت من قبل ··· وعلى ذلك أخذت معى نسخة من القرآن الكريم كان تجليدها فاخرا للغاية ·· وسجادة ، ونسخة من قصيدة نهج البردة للبوصيرى ·· وأربع علب مملوءة بالحلوى المصرية اللذيذة · وكان تيمور جالسا فى قاعة الاستقبال فى قصر الابلق عندما أخذت معى تلك الهدايا ·

ووقف تيمور عندما شاهدنى وأشار على بالجلوس عن يمينه ، وعندما جلست اصطف بعض قادته على الجانبين · وبعد أن جلست هناك لفترة قصيرة من الوقت وقفت أمام تيمور وأشرت الى الهدايا التى ذكرتها والتى حملها خدمى · ثم وضعت الهدايا على الأرض ونظر تيمور اليها · وفتحت القرآن الكريم ، وعندما رآه تيمور وقف على عجل ووضع المصحف على رأسه ثم قدمت اليه كتاب نهج البردة ، وسألنى عنه وعن مؤلفه ، فأخبرته عن كل ما أعرفه عن ذلك الكتاب · ثم سلمته السجادة ، فأخذها وقبلها · ثم وضعت أمامه علب الحلوى ، وأخذت قطعة من الحلوى وتناولها ، وبناء على عادة المجاملة ، وقام تيمور بتوزيع الحلوى على أعضاء مجلسه · وقبل كل الهدايا وعبر عن امتنانه بها ··

وعندما حان موعد رحيل تيمور وقرر أن يغادر دمشق ، ذهبت لمقابلته فى أحد الأيام وبعد أن انتهينا من تبادل التحيات المألوفة ، نظر تيمور الى وقال : « هل لديك بغل الآن ؟ » فقلت : « نعم » · فقال : « هل هو من النوع الجيد ؟ » فقلت : « نعم » فقال : « هل من الممكن أن تبيعه لى ؟ لأنى أرغب فى شرائه منك · » فأجبت : « وفقك الله — ان شخصا مثلى لا يبيع لشخص مثلك ، بيد أنى سأقدمه لكم من باب الولاء والطاعة ، بل وأقدم غيره اذا ما كان تحت يدى · » فقال تيمور : « لقد قصدت من ذلك أن أقدم لك مكافأة مقابل كرمك · » (وكان تيمور صادق الوعد مع نفسه وسمح لابن خلدون بالعودة سالما الى مصر) ·

« عهد السلطان أبو سعيد وابو ثابت ابنا عبد الرحمن و حفيدا أبى يحيى »

كان أسلوب ابن خلدون فى « المقدمة » مشحونا بعنصرى التشويق واثارة الاهتمام الى الحد الذى يجعل القارىء عادة ما ينسى أن المؤرخ لم يستهدف من هذا الجزء سوى مجرد أن يكون مدخلا لتاريخه العالمى· ومع ذلك يستحق أحد أجزاء التاريخ العالمى ، أن يقرأ بعناية ، وهو الجزء الخاص بالمغرب ، فى شمال أفريقيا غرب مصر تقريبا · كما أن

ما كتبه ابن خلدون عن قبائل البربر يفوق ما ورد في أي مصدر موجود حاليا ، من ناحية التفاصيل الدقيقة والرقعة المكانية • ويستطيع المرء من خلال اطلاعه على الجزء التالي المقتطف من التاريخ العالمي لابن خلدون ، أن يتوصل الى معرفة نوعية الحرب المتواصلة التي ميزت الحياة بطابع خاص في ذلك الجزء من افريقيا لعدة قرون ، بل وحتى القرن الحالي •

« ويشبه كل منهما القمر الذي يضيء في كبد سماء امبراطورية عبد الرحمن ، فكل منهما بمثابة نجم يتلألأ شهامة ومهابة ، وكل منهما بطل لا يقهر ، ويسعى الناس اليهما للحصول على الأمن والأمان • فكان الأول مثلا يحتذى في الوفاء والورع ، أما الثاني فكان كالليث الذي ينقض على فريسته ، اذا ما دارت رحى الحرب • وكان الأول ينبوعا للعدل ، أما الثاني فكان بحرا في الجود والكرم ، ومصدرا لخير المملكة بعد أن كانت محرومة منه • واستطاع كل منهما معالجة مواقف صعبة بدت وكأنها مستعصية ، وكرس كل منهما نفسه من أجل العمل على اصلاح ما تهدم ، واعادة بناء أسوار العاصمة ، واستعادة شهرة الامبراطورية •

ونجح كل منهما في جمع شمل أفراد عائلتهم التي أجبرت على المعيشة في المنفى في أراضي غير صحية لا تصلح سوى لرعي الماشية والأغنام • لقد قادوا أفراد عشيرتهم الى طريق المجد • وتسابق كل منهما في الجهود الرامية الى تحقيق الرخاء والرفاهية لهذه الامبراطورية العظيمة ، وفي ارساء القواعد السليمة في مجالي السياسية والادارة • وعمل كل منهما بكل حرص وجد ، أحدهما انشغل في مواصلة الحرب ، والآخر في تطبيق مبادىء التقوى والورع ، وادارة الشئون الداخلية • أما الآخر فظل يطارد العرب الى المناطق الجبلية التي يعيشون بها • وكان كل منهما مثلا يحتذى في القوة والفضيلة ، وحافظ كل منهما على العلاقات الودية مع الآخر ، ونجحا في اغلاق باب الخلاف •• وتكللت انجازاتهما بالنجاح ، وكانت لهما اليد العليا في صراعاتهما مع الأعداء ، وأصلحا كل ما تهدم ، وانتهجا سياسة ادارية حكيمة ، ونشرا العدل في ربوع الامبراطورية •

وياللأسف ! ان الأيام كفيلة بالقضاء على أروع الانجازات • اذ جاء اليوم الذي رفض فيه الحديد أن يطلق شررا ، وذلك عندما صار أحد سيف غير ماض • الا يأتي اليوم الذي تنتهي فيه كل الشخصيات التي لا تهزم؟ ألا يحل الشقاء محل السعادة ؟ ان الملك لله وحده ، ملك الملوك •

واستطاع هذان الملكان الاستيلاء على تلمسان Tlemcen في يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من جمادى الثانية سنة ٧٤٩ هـ (سبتمبر

١٣٤٨ م) ، كما أشرنا سابقا ؛ وفى صباح اليوم التالى أعلنت قبيلة بنى عبد الواد السلطان أبو سعيد ملكا ــ رحمــة الله ! وقــد أجبرته المقتضيات السياسية على القاء القبض على عثمــان بن يحيى بن جرير ، الذى مات فى السجن فى رمضان فى العام نفسه (نوفمبر ــ ديســمبر ١٣٤٨ م) ٠

واختــار العاهلان أبو سعيد وأبو ثابت وزيرا لهما يدعى يحيى ابن داود بن على الماجن ، واختار مستشارا لهما يدعى عبد الواحد بن محمد الذواق ، الذى طردوه من الخدمة فيما بعد ، لادانته فى أمور خلقيه ــ عينوا مكانه على بن محمد بن مسعود بعد عودته من تونس ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، ان شاء الله تعالى ٠

وللقضاء على ســلطة القاضى تم تعيين الفقيه أبو العباس أحمد ابن أحمد بن على القيسى ، والمعروف باسم الوشاوش ثم أبو العبــاس احمد بن الحسن بن سعيد ٠

وبعد ذلك ، حمل كل منهما شارات السلطة ، وتلقى كل منهما التأييد الشعبى ، وأصدرا الأوامر للتعيين فى الوظائف ، وأعلنا الأوامر الخاصة بزيادة الضرائب ٠ بيد أن الحكم كان فى يد أبو سعيد الذى كان يذكر اسمه مقرونا بالدعاء له فى صلاة الجمعة ، وكان اسمه منقوشا على العملة ، فى الوقت الذى كان فيه أبو ثابت مسئولا عن الشئون العسكرية والأمور الادارية الخاصة بالأقاليم والحرب ٠ وكان هذا النظام المذكور دليلا على مشاعر المودة والمحبة بين الأخوين ٠ وحظى هذا التنظيم لادارة دفة الأمور بموافقة شقيقهما الأكبر الذى ظل معتكفا فى نيدروما Nedroma حتى يتفرغ للعبادات ٠

وعلى الشناطىء (فى اقليم كوميا Koumiya الواقع بين تلمسان وراشجون Rachgoun) شق ابراهيم بن عبد الملك الكومى عصا الطاعة، بقصد استرداد عرش عبد المؤمن بن على لصالحه الشخصى ٠ وتحــرك السلطان أبو ثابت ــ سامحه الله ! للقضاء على الثورة ، فى العاشر من رجب (أكتوبر ١٣٤٨ م٠) ، وانطلق على وجه السرعة وأخضع كل الاقليم على امتداد الساحل (وهو اقليم ترارا Trara حاليا) ، حاصدا الأرواح وجامعا الأسرى ٠ واستولى على مدينة نيدروما ، وهونيان Honain وحاصر وهران Oran بقواته التى كانت تحت قيادة عبد بن سعيد بن أجانا ٠ وأحكم أبو ثابت الحصــار حول المدينة لعــدة أيام ، غير أن بنى راشــد ارتدوا ووعدوا ابن أدجانا المساعدة فى الصراع ضد بنى عبد الواد ٠ ثم

شن حاكم وهران **Oran** هجوما مضادا على القوات الضاربة للحصار حول المدينة ، فاضطر بنو راشد الى التراجع . وقتل فى هذا الهجوم محمد ابن يوسف بن عنان بن فارس بن زيان بن ثابت بن محمد وتعرض معسكر عائلة عبد الواد للسلب والنهب ، غير أن السلطان أبو ثابت تمكن من النجاة ولاذ بالفرار بفضل سرعة جواده ..

واستعد للقيام بحملة ثانية ضد وهران ، بيد أن أنباء وصول الناصر ، ابن السلطان أبو الحسن ، حاكم تونس ، على رأس القبائل العربية من السويدة ، بالاضافة الى الديلم ، والعطاف ، والحركان ، منعه من ذلك . وأرسل ملك تلمسين تحذيرا الى السلطان أبو عنان أو صرف النظر عن مشروعة لمهاجمة وهران ، واستعد لملاقاة جيش أعدائه القدامى والأقوياء الذين يقتربون من المدينة .

وفى بداية شهر المحرم ٧٥٠ هـ (مارس ـ ابريل ١٣٤٩ م) ، ذهب كل أفراد عائلة عبد الواد الى المغرب ، ووصلوا الى تلمسيان باسم السلطان أبو عنان لكى يؤيدوا جهود ملك هذه المدينة ضد الناصر . ووجد أبو ثابت بينهم ابن أخيه زيان ، ابن السلطان أبو سعيد ـ رحمه الله ! وكان هذا الأمير قد لجأ الى فارس بموافقة والده ، عند رحيل الأخير الى افريقيا مع السلطان أبو الحسن .

ثم ذهب السلطان أبو ثابت ـ رحمه الله ! للقاء الناصر وجيش الأعداء ابان العشرة أيام الثانية من شهر المحرم : وبعث برسول الى المغـاربة ليذكرهم بضرورة الانضمام اليه بناء على شروط المعاهدة المبرمة بينهما ، بيد أنهم رفضوا الاستجابة الى طلبه .

وواصل أبو ثابت مسيره (تجـاه الشرق بالقرب من سهل خلف (Chelif ، وقابل جماعات العدو بين جانبى وادى أورك **Ourk** فى أواخر ربيع الاول (يونية ١٣٤٩ م) . والحق بهم هزيمة نكـراء ، وأطلق سراح الفقيـه أبو الحسن على بن مسعود الذى كان مسـجونا فى ذلك الحين . ثم عاد السلطان عبد الواد الى عاصمته التى دخلها فى أواخر شهر ربيع الثانى من السنة نفسها (يوليو ١٣٤٩ م) . وحمل فى أعماق قلبه الضغينة ضـد المغاربة ، الذى رفضوا تقديم مساعدتهم ضـد عدو مشترك ، وبذلك نقضوا شروط المعاهدة (التى وجدت بينهم) ..

ونظرا لتزايد حدة كراهيته واستيائه من المغاربة ، خرج أبو ثابت لمهاجمتهم فى يوم الأحد فى الثالث والعشرين من شعوال ٧٥٠ هـ (أول يناير ١٣٥٠ م) . وكان اللقاء مع العدو وبين جانبى وادى الرحى **Rihou** فى يوم الجمعة فى السادس والعشرين من ذى القعد . وكانت المعـركة

شرسة واستمر القتال الى آن منى المغاربة بهزيمة شنية وصارت جموعهم أثرا بعد عين . وانسحبت الفلول المهزومة الى قمم الجبال والى سفوح الوديان . واعترفت مدينة مازونا Mazouna بسيادة السلطان أبو سعيد .

وفى أوائل سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ – ١٣٥١ م) تلقى السلطان أبو ثابت أنباء قدوم السلطان أبو الحسن الى الجزائر ومساندة الشيخ وغيرهم . ثم عقد ملك تلمسين – رحمه الله – معاهدة سلام مع المغاربة واستعد لمحاربة حشود العدو الجديد . وبعد أن عبر هضيبة المنداس Mindas توقف عند المديرسة El-Modairisa فى سيرسو Sersou فى أوائل ربيع الأول (مايو ١٣٥٠ م) . وأجبر الشيخ ونزمار عارف والقوات التى تحت قيادته على الهروب من أمامه . وظل السلطان ثابت هناك عندما انضم اليه يحيى بن راحوى Roh'ou (بن تشفين ابن معاطى) على رأس جماعة من الجند الذين أرسلهم السلطان أبو عنان لمساعدته . ثم اتجه شرقا ، سابقا خصومه ، وتوقف امام ميديا Medea التى احتلها . وهاجم المناطق الجبلية التى تحصن بها الأعداء وجمع الرهائن . ثم فرض سيطرته على أراضى حمزة ، وأخضع الأقليم لحكمه ، وقضى على الثورات ، وهدم الحصون ، وسلك طريق الغرب للعودة الى عاصمته . ووصل الى المكان المعروف باسم الأشبور El-Achbour وهناك قابل عيسى بن يعقوب بن عبد الحاج الذى كان قد أرسله السلطان أبو عنان ليرأس الجند . ومن هناك أسرع السلطان فى العودة الى عاصمته فى السادس من رجب من السنة نفسها (٧٥١ هـ) الموافق العاشر من سبتمبر ١٣٥٠ م .

وبعد ذلك بوقت قليل وصلته الأخبار بأن الناصر بن السلطان أبو الحسن ، قد قتل عمران بن موسى الجنبيني ، واستولى على ميديا Medea ميليانا Milyana وتيمزورات Timzourat وأن السلطان أبا الحسن يسير تجاه الغرب على رأس عدد كبير من المحاربين ضدهم من بين الديلم وغيرهم . ثم علم بعد ذلك ان على بن رشيد قد هرب مع قبيلته الى بلاد عبد الودود ..

وغادر السلطان أبو ثابت تلمسين وهو فى حالة من الشجاعة تفوق الوصف ، وعلى الرغم من أنه كان يفكر فى النتائج المفجعة للمعركة ، فانه لم يفكر فى الهروب على الاطلاق . اذ كان فى منتهى الشجاعة كالجبل الشامخ ، وكان يتدفق حماسا . تاثرت به قواته ، ويفيض وطنية تشبع بها جنوده ، عندما تقدمهم . واستولى على تاجه أو نفيف

Taghit-ou-Nfif حيث انضم اليه على بن رشيد وقبيلته . وبعد أن تبادل العاهلان التحية وهما على ظهور الخيل ، تباحثا بالتفصيل فى الطريقة التى يهاجمون بها العدو . وألقى السلطان أبو ثابت المسئولية على السلطان أبو الحسن ، عندما هاجم على بن رشيد بن أبو الحسن ومن معه . وفى يوم الأربعاء فى العاشر من شعبان (١٤ أكتوبر ١٣٥٠ م) ، دارت المعركة فى مكان يدعى تزيزين Tizizin فى المنطقة المجاورة لخليف Chelif وكان القتال شرسا على كل الجبهات ، وتشيب له الولدان . ومنى المغربى وقبيلته بهزيمة نكراء ، وأحرز السلطان أبو ثابت نصرا ساحقا على أعدائه .

وكان أبو الحسن وجيشه قد تعرض لهزيمة منكرة عند قدوم الليل . ولقى عدد كبير من قواته حتفهم ، كان من بينهم ابنه الناصر ، ومحمد ابن على بن العزفى ، قائد جيشه ، وبركات بن حوفن بن البواق ، رئيس الشرطة ، وعلى بن القبلى ، مستشاره الخاص وكاتب العلامة . واستولى المنتصرون على ثروات أبى الحسن ، وأمتعته ، وزوجاته ، وبناته . والواقع أن العالم يتغير ، وأن الحرب مليئة المصادفات ، وأن لا حول ولا قوة الا بالله !

وصار أبو الحسن مدينا بحياته لسرعة جواده . اذ هرب وانزمار Wanzamar بن عارف بالقرب من أراضى قبيلة السوايد . ومن هناك ذهب السلطان المهزوم تجاه الغرب ، وعبر الصحراء ، مقتربا من ملكه السابق فى المغرب . ثم عاد السلطان أبو ثابت ـ رحمه الله ـ الى عاصمته التى غطتها أكاليل الغار ، ومعه غنائم نفيسة ولا مثيل لها ثم دخل تلمسان فى أول شوال من العام نفسه . (أكتوبر ١٣٥٠ م) .

***

المصــــادر :

المقــــدمة :

١ ـ *Procopius*. H. B. Dewing. Trans., 7 vols. (Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1914-1940), vol. II, p. 21. Hereafter, volumes I-IV will be cited as *Wars*, vol. VI as Secret History, and volume VIII as *Buildings*.......

٢ ـ Alfred Bel, ed. and trans., *Histoire Des Beni 'Abd El-Wad Rois De Tlemcen Jusqu' au Regne D'Abou H'Ammou Mousa II* par Abou Zakarya Yah'ia Ibn Khaldoun. (Algiers : P. Fontana, 1903), p. 211.

٣ ـ Sir John Froissart's Chronicles of England, France, and *the Adjoining Countries, 5 vols.*, Thomas Johnes, trans. (London : The Haford Press, 1803-10), vol. I, p. 517.

٤ ـ *Chronique De Abou-Djafar-Mohammed-Ben-Hjarirben Yezid Tabari,* Hermann Zotenberg, trans. (Paris : Imprimerie Imperiale, 1958), vol. I, p. 9.

٥ ـ Bel, *Histoire Des Beni 'Abd El-Wad Rois De Llemcen,* p. 213.

Procopius, vol. IV. p. 221

٧ – Matthew Paris, *Mattheu Paris's English History,* J. A. Giles, trans. (London : H. G. Bohn, 1854), vol. III, p. 115.

٨ – Paris, Mathew Paris's English History, vol. I, p. 487.

الفصل الأول :

١ – *Secret History,* pp. 97, 99.

٢ – Wars. vol. IV. pp. 71-72.

٣ – *Buildings*, p. 3.

٤ – J. A. S. Evans. *Procopuis* (New York, Twayne Publishers, 1972), p. 78.

٥ – *Buildings*, pp. 25, 27 29.

٦ – Wars, vol. I, pp. 3, 5.

٧ – *Wars,* vol. II, p. 95.

٨ – Wars, vol. 1, p. 3.

٩ – *Wars,* vol. I, p. 5.

١٠ – Buildings, p. 3.

١١ – *Secret History,* p. 3.

١٢ – Secret History, pp. 5, 7.

١٣ – المعماريون

١٤ – *Buildings*, pp. 29, 31.

١٥ – *Wars,* vol. II, p. 43.

١٦ – *Wars, vol.* IV p. 191.

١٧ – *Wars.* vol. II, pp. 3, 5.

١٨ – *Secret History,* p. 5.

١٩ – H. B. Dewing, *Secret History,* p. ix.

٢٠ – *Secret History,* p. 105.

٢١ – Secret History, p. 149, 151.

٢٢ – *Secret History,* pp. 97, 99, 101.

٢٣ – So writes (1. A. Williamson, *Procopius, The Secret History* (Baltimore : Penguin Books, 1966), p. 29.

٢٤ – *Wars.* vol. III, pp. 41, 43.

٢٥ – Secret *History,* pp. 189, 191.

٢٦ – See *Wars.* vol. I, p. 291.

٢٧ – *Secret History,* pp. 75, 77.

٢٨ – *Wars,* vol. IV. p. 419.

٢٩ – *Secret History,* p. 199.

٣٠ – From the Greek word for goat.

٣١ – *Wars.* vol. IV, pp. 11, 13, 15.

٣٢ – *Wars,* vol. III, p. 317, 319.

٣٣ – *Wars,* vol. III pp. 317-319.

٣٤ – *Wars,* vol. I, p. 3.

٣٥ – *Secret History,* pp. 21, 23.

٣٦ – *Wars,* vol. II, pp. 95, 97.

٣٦ – Wars, vol. III, pp. 89, 91.

٣٧ – *Wars,* vol. I, p. 223.

٣٨ – *Wars,* vol. III pp. 253 255 257.

٣٩ – Wars vol. III, pp. 2/1, 203, 205 207.

٤٠ – Wars vol. I, pp. 109, III, 113.

٤١ – *Wars,* vlo. II, p. 21.

٤٢ – ضابط في جيش نرسيس

٤٣ – *Wars.* vol. V, p. 397.

٤٤ – Wars, vol. V, pp. 385, 387.

٤٥ – Wars, vol. I. 453.

٤٦ – Wars, vol. I, p. 341.

٤٧ – *Wars,* vol. I, p. 343.

٤٨ _ *Wars*, vol. II, p. 115.

٤٩ _ *Wars*, vol. I, p. 287.

٥٠ _ *Wars*, vol. IV, p. 405.

٥١ _ تقع على الساحل بين روما ونابولى

٥٢ _ *Wars*, vol. III, p. 109.

٥٣ _ *Wars*. vol. V, p. 61.

٥٤ _ *Wars*. vol. 1, pp. 51, 53.

٥٥ _ Buildings, p. 69.

٥٦ _ رأى خلفاء بطرس أنهم قد ورثو مكانته المتفوقة نظرا لأنه وهو
أول حوارى المسيح كان أول أسقف لروما ·

٥٨ _ *Wars*, vol. III, p. 25.

٥٩ _ *Wars*. vol. III, p. 221.

الفصل الثانى

١ _ S. J. Crawford, *Anglo-Saxon Influence on Western Christendom*, 600-800 (New York : Barnes and Noble. 1966), p. 103.

٢ _ *Bede's Ecoeesiastical History of the English People*, Bertram Colgrave and R.A.B. Mynors (Oxford : Clarendon Press, 1969), p. xxiii.

٣ _ *Bede's History*. p. 567 (v. 24). The v. indicates the twenty fourth chapter of the fifth book.

٤ _ See Behe's *History*, p. 595.

٥ _ اعتقد البعض أن اشارة فيرجيل الشـــاعر اللاتينى الأشهر فى العصور الوسطى لمولد طفل يستهل عصرا ذهبيا اشارة الى ظهور المسيح ·

٦ _ He was "authoritatively recognized as saint" only in 1889. See Butler's lives of the Saints, ed. Herbert Thurston and Donald Attwater (New York : Kenedy, 1956), Vol. II, p. 404.

٧ _ Charles W. Jones *Bedae Pseudepigrapha* : *Scientific Writings Falsely Attributed to Bede* (*Ithaca* : Cornell University Press, 1939), p. 1.

٨ _ Bede's *History*, p. xix.
Bede's "System of dating by the year of grace ... is his main contribution to historical writing."

٩ _ بعد أربع سنوات وستة أشهر من تولى يوليوس قيصر الحكم تآمر على حياته نحو ستين نبيلا من أعضـــاء مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان لأنه أمعن فى الصلف والغرور ·

Monumenta Germaniae Historica, Auctores Antiquissimi, ed. Theodor Mommsen (Berlin : Hildebrand, 1061), vol. XIII, p. 280.

١٠ _ Crawford, Anglo-Saxon Influence, p. 103.

١١ _ *Bedes' History, p.* 3, Preface.

١٢ _ Ibid.

١٣ _ Ibid., pp. 3, 5, 7, Preface.

١٤ _ Ibid.. p. 7, preface.

١٥ _ Ibid.

١٦ _ Ibid., pp. 133, 135 (ii. 1).

١٧ _ كانت جارو تقع على بعد أميال قليلة شرق سور هدريان ·

١٨ _ أحد الأقاليم الفرنسية التى هاجر اليها البريتون بأعداد كبيرة فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ·

١٩ _ Bede's History, pp. 15, 17 (i).

٢٠ _ 20. Ibid., pp. 19, 21 (i. 1).

٢١ _ شن يوليوس قيصر حملتين فى عامى ٥٥ ، ٥٤ ق·م ·

٢٢ _ *Bede's History*, pp. 21, 23 (i. 2).

٢٣ _ Ibid., pp. 29, 31, 33 (i. 7).

٢٤ _ Ibid., p 39 (i. 10).

٢٥ _ Ibid., p. 45 (i. 12).

٢٦ _ Ibid., pp. 55, 57 (i. 17).

٢٧ _ Ibid., pp. 63, 65 (i. 20).

٢٨ _ Ibid., p. 69 (i 22).

٢٩ _ Ibid., p. 107 (i. 30).

٣٠ — Ibid., pp. 77, 79 (i. 26).

٣١ — Ibid., pp. 127, 129 (ii. 1).

٣٢ — Ibid., p. 165 (ii. 9).

٣٣ — 33. Ibid., p. 183 (ii. 13).

٣٤ — 34. Ibid., p. 183 (ii. 13).

٣٥ — 35. Ibid., p. 185 (ii. 13).

٣٦ — Ibid., pp. 185, 187 (ii. 13),

٣٧ — 37. Ibid., p. 215 (iii. 1).

٣٨ — See *Venerabilis Baedae Historiam Ecclesiasticam Gentis Anglorum* ... Recognivit ... Instruxit Carolus Plummer (Oxford : Clarendon Press, 1961), pp. lxiv-lxv.

٣٩ — *Bede's History*, pp. 243, 245 (iii. 9).

٤٠ — دعى الملك أوزلد ايدان للتبشير بالمسيحية .

٤١ — *Bede's History, pp.* TLS, TLF, 261 (iii. 14).

٤٢ — Ibid., pp. 265, 267 (iii. 17).

٤٣ — Ibid., pp. 299, 301 (iii. 25).

٤٤ — Ibid., p. 301 (iii. 25).

٤٥ — Ibid., pp. 307, 309 (iii 25).

٤٦ — Ibid., p. 309 (iii. 26).

٤٧ — Ibid., pp. 333, 335 (iv. 2).

٤٨ — Ibid., p. 189 (iv. 18).

٤٩ — Ibid., p. 415 (iv. 24).

٥٠ — Ibid., p. 417 (iv. 24).

٥١ — Ibid., p. 419 (iv. 24).

٥٢ — Ibid., p. 513 (v. 17).

٥٣ — Ibid., p. 515 (v. 18).

٥٤ — Ibid., p. 557 (v. 23).

٥٥ — *Bede's History*, p. 571 (v. 24).

الفصل الثالث

١ ـ Muhsin Mahdi, *Ibn Khaldun's Philosophy of History* (Chicago : University of Chicago Press, 1964), p. 135.

٢ ـ أقوال وأعمال النبى (ضلعب)

٣ ـ *Selections from the Annals of Tabari*, ed. M. J. De Geoje Leiden : E. J. Brill, 1902), p. ix.

٤ ـ D. S. Margoliouth, *Lectures on Arabic Historians* (Calcutta : University of Calcutta, 1930), p. 110.

٥ ـ A. J. Butler, *The Treaty* of Misr in Tabari (Oxford : Cladendon Press, 1931, pp. 8-11.

٦ ـ Mahdi, *Khaldun's Philosophy*, p. 136.

٧ ـ See *The Reign of Al-Mu'tisam*, trans. Elma Marin (New Haven: American Oriental Society, 1951), p. xvi.

٨ ـ From Ibn Khaldun's *Ta'rif*. See Walter J. Fischel Ibn *Khaldun and Tomerlane* (Berkeley : University oof California Press, 9152), tp. 37.

١٠ ـ Chronique de Abou-Hjafar-Mohammed Ben-Djarirben *Yezid Tabari*, trans. Hermann Zotenberg (Paris : Imprimerie Impdriale, 1958). vol. I, pp. 9-11. Translation by author.

١١ ـ *Geschichte Der Perser Und Araber Zur Zeit Der Sasaniden* Aus Der Arabischen Chronik Des Tabari, trans. Th Noldek (Leyden : E. J. Brill, 1879), pp. 151-72, 238-53, 386-99. English translation by the author.

١٢ ـ E. W. Brooks, English Historical Review (London, 1900). vol. XV, pp. 736-47.

١٣ ـ As quoted in *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire* by Edward Gibbon (Philadelphia : John D. Morris & Co., 1845), vol. V, pp. 446-47.

١٤ ـ Ibid., p. 447.

١ – *The Deads of Frederick Barbarossa by Otto of Freising.* trans. C. C. Mierow (New York : Columbia University Press, 1953), p. 5. Hereafter, this work will be cited as *Deeds.*

٢ – Ibid., p. 79.

٣ – Ibid., pp. 246-47.

٤ – The edition used in this study is that translated by C. C. Mierow, entitled *The Tow Cities : A Chronicle of Universal* History to the Year 1146 A.D. by Otto, Bishop of Freising (New York : Columbia University Press, 1928). Hereafter, this volume will be cited as Two Cities.

٥ – Deed, p. 28.

٦ – Two Cities, p. 205.

٧ – Ibid., p. 172.

٨ – Ibid., pp. 93-94.

٩ – Ibid., p. 96.

١٠ – Ibid., p. 191.

١١ – *Deeds,* p. 24.

١٢ – *Two Cities,* pp. 87-88.

١٣ – Ibid., pp. 88-89.

١٤ – Ibid., p. 80 .

١٥ – Ibid., p. 93.

١٦ – Ibid., pp. 95-96

١٧ – Ibid., p. 187.

١٨ – Ibid., p. 160.

١٩ – Deeds, p. 159.

٢٠ – Two Cities, p. 417.

٢١ – Ibid. p. 394.

٢٢ — *Deeds*, p. 101.

٢٣ — Two Cities, pp. 279-80.

٢٤ — وصف أوتو غير دقيق .

٢٥ — يشير أوتو دائما الى الألب باعتبارها البرانس .

٢٦ — يشتم من كتابة أوتو تحيزا للكنيسة حيث حور اسم عدو البابا من كلمنت الى « دمنت » التى تعنى معتوه .

٢٧ — *Deeds*, pp. 28-30.

٢٨ — *Two Cities*, pp. 90-91.

٢٩ — Deeds, p. 51 and note 89.

٣٠ — Two Cities. p 96.

٣١ — Ibid., pp. 443-44.

٣٢ — Ibid., pp. 411-12.

٣٣ — bid., p. 378.

٣٤ — *Deeds*, pp. 124-25.

٣٥ — *Two Cities*, p. 382.

٣٦ — Ibid., p. 283.

٣٧ — Ibid., pp. 240-41.

٣٨ — Deeds, pp. 120-22.

٣٩ — *Two Cities*, p. 435.

٤٠ — Ibid., pp. 428-29.

٤١ — Ibid, p&p& 120-22.

٤٢ — Ibid., pp. 167-28.

٤٣ — Ibid., p. 91.

٤٤ — Ibid., p. 93.

٤٥ — Ibid., pp. 323-24.

٤٦ —

٤٧ — Ibid., p. 462.

٤٨ — Ibid., pp. 478-79.

٤٩ — Ibid., p. 514.

٥٠ — Ibid., p. 141.

٥١ — Ibid., p. 196.

٥٢ — Ibid., pp. 271-82.

٥٣ — Deeds, pp. 80-81.

٥٤ — Two Cities, p. 429.

٥٥ — Ibid., p. 349.

٥٦ — Ibid., pp. 156-57.

٥٧ — Ibid., p. 146.

٥٨ — *Deeds*, pp. 142-43.

٥٩ —

٦٠ — *Two Cities*, pp. 272-73.

٦١ — Ibid., p. 274.

٦٢ — Ibid., p. 274.

٦٣ — Ibid., p. 95.

٦٤ — *Two Cilties*, pp. 193-94.

٦٥ — *Deeds*, pp. 67-70.

٦٦ — Two Cities, pK 277.

٦٧ — *Deeds*, pp. 118-23.

٦٨ — Ibid, p. 79.

٦٩ — Ibid., p. I 43.

٧٠ — Ibid., p. 83.

١ – See Richard Vaughan, *Mathew Paris* (Cambridge : University Press, 1958), p. 5.

٢ – See Vaughan, 1958, Paris, p. 7 and plate I : see also *Matthew Paris*. p. 7 and plate I ; see also *Matthaei Parisiensis, Monachi Albani Chronica Majora*, ed. Henry Richards Luard (London : Longman and Co., 1880). vol. V, p. 748 and note.

٣ – *Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland* during the Middle Ages (London : Public Record Office, 1858-1896).

٤ – Chronica Majora, vol. III, p. 199.

٥ – Ibid., vol. III, p. 194.

٦ – *Matthaei Parisiensis, Monachi Sancti Albani, Historia* Anglorum, ed. Frederick Madden (London : Longmans, Green, Reader and Dyer, 1869), vol. III, pp. 51-52, and note 3. See also Vaughan, *Matthew Paris*, pp. 121-22.

٧ – Ibid.

٨ – *Matthew Paris's English Hestory trans.* J. A. Giles (London : H.G. Bohn, 1954), vol III, p. 220.

٩ – *Chronica Majora, vol. IV*. pp. 644-45.

١٠ – *Matthew' Paris's English History, vol*, II, p. 415.

١١ – *Chronica Majora*, vol. II, p. 466.

١٢ – *Matthew Paris's English History*, vol. II, p. 502.

١٣ – Ibid., vol. III, p. 231.

١٤ – Ibid., vol. II, p. 242.

١٥ – Ibid., pp. 467-68.

١٦ – Ibid., vol. I, p. 344.

١٧ – Ibid., vol. III, p. 251.

١٨ — Ibid., vol. I, p. 312.

١٩ — Ibid., pp. 268-71.

٢٠ — Ibid., vol. III, pp. 166-67.

٢١ — Ibid., vol. I, p. 38.

٢٢ — Ibid., vol. I, pp. 38-39.

٢٣ — Ibid., p. 332.

٢٤ — Ibid., pp. 277-78.

٢٥ — Ibid., vol. II, pp. 196-97.

٢٦ — Ibid., p. 433.

٢٧ — Ibid., p. 247.

٢٨ — bid., vol. I, pp. 67-68.

٢٩ — Ibid., vol. I, pp. 155-56.

٣٠ — Ibid., vol. III, pp. 115-16.

٣١ — يشكك متى فى صحة رقم الامبراطور .

٣٢ — *Matthew Paris's English History*, vol. I, pp. 93-95.

٣٣ — Ibid., pp. 137-38.

٣٤ — Ibid., vol. II, p. 22.

٣٥ — Ibid., p. 54.

٣٦ — Ibid., vol. I, p. 47.

٣٧ — Ibid., pp. 335-36.

٣٨ — كان بونيفس يدين باختياره الى تأثير الملك هنرى .

٣٩ — *Matthew Paris's English History*, vol. I, p. 459.

٤٠ — Ibid., vol. III, p. 305.

٤١ — حرم المجمع فى اجتماعه الرابع ١٢١٥ انشاء نظم جديدة .

٤٢ — Mathew Paris's English History, vol. II, p. 35.

٤٣ — الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان .

٤٤ — *Matthew Paris's English History*, vol. I, pp. 475-76.

٤٥ — Ibid., vol. III, p. 140.

٤٦ — Ibid., pp. 163-64.

٤٧ — Ibid., p. 76.

٤٨ — See ibid., vol. I, pp. 314-15; also ibid., pp. 15-20.

٤٩ — Ibid., vol. II, p. 278.

٥٠ — Ibid., pp. 401-2.

٥١ — Ibid., vol. I, p. 388.

٥٢ — Ibid., p. 193.

٥٣ — Ibid., p. 451.

٥٤ — Ibid. vol. II. p. 251.

٥٥ — Ibid., vol. III, pp. 312-13; see also pp. 265 and 283.

٥٦ — Ibid., p. 115.

٥٧ — Ibid.

٥٨ — Ibid., vol. II, p. 42.

٥٩ — Ibid., p. 405.

٦٠ — Ibid., pp. 405-10.

٦١ — Ibid., vol. III, p. 1.

٦٢ — Ibid., vol. I, p. 481.

٦٣ — Ibid., vol. III, p. 257.

٦٤ — Ibid., vol. I, p. 461.

٦٥ — Ibid., vol. III, p. 183.

٦٦ — Ibid., vol. II, p. 410.

٦٧ — *Matthew Paris's English History*, vol. III, p. 244.

٦٨ — Ibid., vol. III, p. 100.

١ ـ The edition of Froissart's chronicles used in this study is *Sir John Froissart's Chronicles of England, France, and the Adjoining Countries*, trans. Thomas Johnes, 5 vols., London : The Haford Press, 1803-1801). Hereafter cited as *Chronicles*......

٢ ـ Charles Dunn, "Introduction6 in *The Chronicles of England. France Spain* by Sir John Froissart (New York : Dutton, 1961, p. p. v.......

٣ ـ *Chronicles*, vol. I, p. 2.

٤ ـ Ibid.,. vol. IV, p. 13.

٥ ـ Ibid., p. 300.

٦ ـ Ibid., p. 426.

٧ ـ Ibid., p. 409.

٨ ـ Ibid., p. 368.

٩ ـ Ibid., vol. III, p. 72.

١٠ ـ Ibid., vol. I, p. 1.

١١ ـ Ibid., vol. III, p. 414.

١٢ ـ Ibid., p. 475.

١٣ ـ Ibid., p. 475.

١٤ ـ Ibid., p. 642.

١٥ ـ Ibid., p. 414. For a study in support of Froissart's reliability, see Leonard Manyon, "An Examination of the Historical Reliability of Froissart's Account of the Campaign and Battle of Crecy," *Papers of the Michigan Academy of Science, Arts and Letters, VII* (1927), pp. 207-24.

١٦ ـ *Chronicles*, vol. II, p. 649.

١٧ ـ Ibid., vol. IV, p. 13.

١٨ ـ Ibid., vol. III, p. 503.

١٩ - Ibid., p. 209.

٢٠ - Ibid., p. 10.

٢١ - Ibid., vol. IV, p. 4.

٢٢ - Ibid., vol. I, p. 31.

٢٣ - Ibid., vol. III, p. 595.

٢٤ - Ibid., vol. I, p. 392.

٢٥ - Ibid., p. 613.

٢٦ - Ibid., vol. II, p. 361.

٢٧ - Ibid., p. 308.

٢٨ - Ibid., vol. III, pp. 364-65.

٢٩ - Ibid., vol. IV, p. 202.

٣٠ - Ibid., vol. III, p. 452.

٣١ - Ibid., vol. IV, pp. 12-13

٣٢ - Ibid., p. 390.

٣٣ - Ibid., p. 73.

٣٤ - Ibid., p. 69.

٣٥ - Ibid., vol. II, p. 400.

٣٦ - Ibid., vol. III, p. 383.

٣٧ - Ibid., vol. I, p. 572.

٣٨ - *The Chronicles of Froissart*, trans. John Bourchier, Lord Bernes (London : D. Nutt, 1903), p. v.

٣٩ - *Chronicles, vol. II, pp.* 459-60.

٤٠ - Ibid., p. 61.

٤١ - Ibid., pp. 66-67.

٤٢ - Ibid., vol. I, 205-10.

٤٣ - Ibid., pp. 199-201.

٤٤ - Ibid., pp. 226-27.

٤٥ ـ Ibid., vol. III, p. 643.

٤٦ ـ Ibid., vol. II, p. 663.

٤٧ ـ Ibid., vol. I, pp. 49-51.

٤٨ ـ Ibid., pp. 143-44.

٤٩ ـ Ibid., pp. 448-49.

٥٠ ـ Ibid., pp., 791-92.

٥١ ـ Ibid., vol. II, pp. 247-49.

٥٢ ـ Ibid., pp. 382-85.

٥٣ ـ Ibid., vol. IV, pp. 229-43.

٥٤ ـ Ibid., vol. I, pp. 549-50.

٥٥ ـ Ibid., pp. 31-32.

٥٦ ـ Ibid., pp. 323-25.

٥٧ ـ Ibid., p. 440.

٥٨ ـ Ibid., pp. 269-74.

٥٩ ـ Ibid., pp. 647-51.

٦٠ ـ Ibid., vol. III, pp. 286-87.

٦١ ـ Ibid., vol. I, pp. 753-54.

الفصل السابع

١ ـ Arnold Toynbee, *The Study of History (Oxford : Oxford University Press 1934)*, vol. III, p. 322.

٢ ـ *Ibn Khaldun : The Muqaddimah ; An Introduction to History,* trans, Franz Rosenthal (New York : Pantheon Books, 1958), vol. I, p. xliii. Hereafter cited as *Ibn Khaldun.*

٣ ـ See Walter J.pFischel, *Ibn Khaldun and Tam erlane* (Berketey : University of California Press 1952 , p. 69, n. 48, Timur the Lame is also known as Tamberlane.

٤ ـ *Ibn Khaldun,* vol. I, p. txix.

٥ ـ عن تناول ابن خلدون لليهود فى تاريخه انظر :

Walter J. Fischel, *Ibn Khaldun in Egypt* (Ber- *ley* : University of California Press, 1967 , pp. 152-55.

٦ـ See Muhsin Mahdi, *Ibn Khaldun's Philosophy of History* (Chicago : University of Chicago Press, 1957-, chaps. 2 and 3, See also m. m. Sharif, ed. *A History of Muslim Philosophy* (Wiesbaden : Harrassowtiz, 1966 , vol. II, *Political Thought*, chap. 49.

٧ـ See *Ibn Khal- dun*, vol. I, p. lxxvii.

٨ـ *Ibn Khaldun*, vol. I, p. 3.

٩ـ Ibid. p. 6.

١٠ـ Ibid., p. 9.

١١ـ Ibid., p. 14.

١٢ـ Ibid., p. 15.

١٣ـ Ibid., pp. 16-17.

١٤ـ Ibid., p. 29.

١٥ـ Ibid., p. 40.

١٦ـ Ibid., pp. 55-56.

١٧ـ Ibid., p. 11.

١٨ـ يرى أن كتاب أرسطو عن هذا الموضوع يعتريه النقص .

١٩ـ *Ibn Khaldun*, vol. I, p. 14.

٢٠ـ Ibid., p. 89.

٢١ـ Ibid., p. 92.

٢٢ـ Ibid., p. 94.

٢٣ـ Ibid., p. 101.

٢٤ـ Ibid., p. 97.

٢٥ـ Ibid., pp. 168-68.

٢٦ـ Ibid., p. 214.

٢٧ـ Ibid., pp. 249-50.

٢٨ـ Ibid., p. 254.

٢٩ـ Ibid., p. 260.

٣٠ — Ibid., p. 263.

٣١ — Ibid., p. 264.

٣٢ — Ibid., p. 275.

٣٣ — Ibid., pp. 279-80.

٣٤ — Ibid., p. 278.

٣٥ — Ibid., pp. 302-3.

٣٦ — Ibid., pp. 305-6.

٣٧ — Ibid., p. 371.

٣٨ — Ibid., p. 476.

٣٩ — Ibid., p. 381.

٤٠ — Ibid., vol. II, p. 3.

٤١ — Ibid., p. 47.

٤٢ — Ibid., pp. 85-86.

٤٣ — Ibid., p. 90.

٤٤ — Ibid., p. 91.

٤٥ — Ibid., p. 235.

٤٦ — Ibid., p. 317.

٤٧ — Ibid., p. 353.

٤٨ — Ibid., p. 356.

٤٩ — Ibid., p. 365.

٥٠ — Ibid., p. 373.

٥١ — Ibid., p. 377.

٥٢ — Ibid., p. 395.

٥٣ — Ibid., vol. III, p. 271.

٥٤ — Ibid., pp. 308-10.

٥٥ — Ibid., vol II, pp. 157-62.

٥٦ ـ *Ibn Khaldun and Tamerlane : Their Historic Meeting in Damascus,* 1401 A.D.. (309 A.H.) : A study based on Arabic munscripts of Ibn Khaldun's *Autobiography* with a translation into English and a commentary by Walter 1952), pp. 29-43.

٥٧ ـ *Hitorie Des Beni 'Abd El-Wad Rois De Tlemcen Jusqu'au Regne D'Abou H'Ammou Mousa II* par Abou Zakarya Yah'ia Ibn Khadloun. Ed. and tr. Alfred Bel (Algiers : p. Fontana Pupblishers, 1903-, pp. 199-208. English translation by the author.

مراجع وبحوث مختارة

Anderson, Gillian, and William Anderson, eds. *The Chronicles of Jean Froissart*, Carbondale : Southern Illinois University Press, 1965.

An Arab Philosophy of History : Selection from the Prolegomena of Ibn Khaldun of Tunis. Translated by Charles Issawi. London : John Murray, 1950.

Archambault, Paul. *Seven French Chroniclers*. Syracuse : Syracuse University Press, 1974.

Barnes, Harry Elmer. *A History of Historical Writing*, 2d. rev. ed. New York : Dover, 1962.

Blair, Peter. *The World of Bede*. New York : St. Martin's Press, 1971.

Bonner, Gerald. *Famulus Christi : Essays in Commemoration* of the Thirteenth Centenary of lhe Birth of the Venerable Bede. London : S.P.C.K. 1967.

Brown, G. F. *The Venerable Bede, His Life and Writings*. New York : Macmillan, 1930.

Butler, A. J. *The Treaty of Misr in Tabari*. Oxford : Clarendon Press, 1913.

Colgrave, Bertram, and R.A.B. Mynors, eds. *Bede's Ecclesiastical History of English People*. Dxford : Clarendon Press, 1969.

Coulton, G. G. *The Chronicler of European Chivalry*. London : The Studio. Ltd., 1930.

Crawford, S. J. *Anglo-Saxon Influence on Western Christendom*, 600-800. New York : Barnes and Nòble, 1966.

The Chronicles of Froissart. 6 vols. Translated by John Bourchier, Lord Berners, with an introduction by W. P. Ker- London : D. Nutt, 1901-1903.

Dunn, Charles W. "Introduction". In *The Chronicles of Enfland, France, and Spain*. H. P. Hunster's condensation of the Thomas Jhones translation. New York : Dutton, 1961.

Evans, J.A.S. *Procopius*. New York : Twayne Publishers, 1972.

Fischel, Walter J. *Ibn Khaldun and Tamerlane. Bedkeley* : University of Californa Press, 1952.

Fishel, Walter J. *Ibn Khaldun and Tamerlane*. Berkeley : Uni- ......*Historiography*. Berkeley : University of Californa Press, 1967.

Gilliett, H. M. *Saint Bede the Venerable*. London : Burns, Oates, anh Washbourne, Ltd., 1935.

Grandsen, Antonia. *Historical Writing in England, c.* 550 to c. 1307. Ithaca : Cornell University Press, 1974.

von Gruenbaum, G. E. *Medieval Islam*, 275-87. Chicago : University of Chicago Press, 1946.

Ibn Khaldun, The Muqaddimah : An Introduction to History. Translated by Franz Rosenthal. New York : Pantheon Books, 1958.

Jolliffe, John, ed. and trans. *Froissart's Chronicles*. Lonhon : Harvill Press, 1967.

Ker, W. P. *Essays on Medieval Literature*. London : Macmillan. 1905.

Knowles, David. "Introduction". In *Bede's Ecclesiastical History of the English Nation*, rev. ed. New York : Dutton, 1970.

Lewis, B., and P. M. Holt, eds. *Historians of the Middle East*. Oxford : Oxford University Press. 1962.

Mahdi, Muhsin. *Ibn Khaldun's Philosophy of History*. Chicago, University of Chicago Press, 1964.

Margoliouth, D. S. *Lectures on Arabic Historians*. Calcutta : University of Calcutta, 1930.

Otto of Freising. *The Deeds of Frederick Barbarossa*. Translated by C.C. Mierow. Records of Civilization: New York : Columbia University Press, 1953.

Otto of Freising. *The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year* EICP *A.D*. Translated by C. C. Mierow. Records of Civilization. Nek York : Columbia University Press, 1028.

Paris, Matthew. *Matthew Paris's English History*. Translated by J. A. London : H. G. Bohn, 1854.

Paetow, L. J. *A Guide to the Study of Medieval History*, rev. ed Millwood, N.Y. : Krauss Reprint Co., 1973.

Procopius. 7 vols. Tarnslated by H. B. Dewing. Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1914-1940.

Procopius : Secret History. Translated by Richard Atwater, foreword by Arthur Boak. Ann Arbour : University of Michigan Press, 1961.

Rabi, Muhammad Mahmoud. *The Political Theory of Ibn Khaldun*. Leiden : E. J. Brill, 1967.

The Regin of Al-Mu'tasim. Translated by Elma Marin. New Haven : American Oriental Society, 1951.

Rosenthal, E. I. J. *Political Thought in Medieval Islam*. Cambridge : University Press, 1958.

Rosenthal, Franz. *A History of Muslim Historiography*, rev. ed. Leiden : E. J. Brill, 1968.

Sauvaget, J., and C. Cahen. *Introduction to the History of the Muslim East : A Bibliographic Guide*. Berkeley : University of California Press, 1965.

Schmidt, N. *Ibn Khaldun, Historian, Sociologist, and Philosopher*. New York : Columbia University Press, 1930.

Sherley-Price, Lee, ed. and trans. *Bede : A History of the English Church and People*. Harmondsworth, Middlesex : Penguin Books, 1955.

Sir John Froissart's Chronicles of England, France, and the Adjoining Countries 5, vols. Translated by Thomas Johnes. London : The Haford Press, 1803-1810.

Smalley, Beryl. *Historians in the Middle Ages* New York : Charles Scribner's Sons, 1974.

Thompson, A. Mamilton, ed. Bede, His Life, Times and Writings Essayy in Commemoration of the Twelfth Centenary of his Death Oxford : Clarendon Press, 1985.

Thompson, J. W., and B. J. Holm. *A Historical Writing*, ٢ vols. New york : Macmillan, 1967.

Thurston, Herbert, and Donald Attwater, eds. *Butler's Lives of the Saints*. New York : Kenedy, 1956.

Vaughan, Richard *Matthew Paris*. Cambridge : University Press, 1958.

Vryonis, Speros, ed. *Readings in Medieval Historiography*. Boston : Houghton Mifflin Co., 1968.

Williamson, G. A. "Introduction". In *Procopius, The Secret History*. Baltimore : Penguin Books, 1966.

فهرس

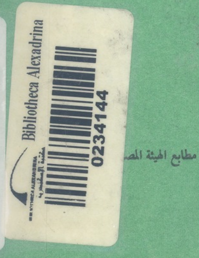
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٧٦٤١

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٩٧٠ ـ ٩

يضم هذا الكتاب بين صفحاته سبعة مؤرخين من أشهر المؤرخين فى العصور الوسطى .

والكتاب جديد فى فكرته . ألفه الأستاذ جوزيف داهموس أستاذ تاريخ العصور الوسطى بالولايات المتحدة الأمريكية . ويتيح هذا الكتاب الفرصة للباحث والقارىء المثقف لمعرفة أهم المؤرخين الذين كتبوا عن التاريخ الإسلامى وحضارته ، والتاريخ البيزنطى وحضارته ، وتاريخ أوربا فى العصور الوسطى وحضارته ، ويتميز أسلوب المؤلف بالعمق والموضوعية والتدقيق والنقد العلمى القائم على الصدق والأمانة .



مطابع الهيئة المصـ

٣٢٥ قرشا